المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

ع ع ع ن ٠ ٠

غايـــة الكـــون
بين
الإســـــلام والماديـــــة

رسالة دكتوراه

إعداد الباحثة
نجاة موسى الذيب
محاضرة بقسم الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك سعود

إشراف
الدكتور / محمود محمد مزروعة
الأستاذ بقسم العقيدة
جامعة أم القرى

١٤٢٣/١٤٢٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم(٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : نجاة بنت موسى بن علي الذيب كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة والأديان

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((غاية الكون بين الإسلام والمادية.....))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤٢٤/٨/١٢هـ – بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ..

والله الموفق

أعضاء اللجنة

المشرف
الاسم : محمد محمد صدروني
التوقيع : محمد صدروني

المناقش الداخلي
الاسم : أحمد السيد علي ريحان
التوقيع : أحمد السيد علي ريحان

المناقش الخارجي
الاسم : عبد اللطيف بن أبو فيوه الصباغ
التوقيع : عبد اللطيف بن أبو فيوه الصباغ

يعتمد
رئيس قسم العقيدة
الاسم : د. عبد العزيز أحمد الحميدي
التوقيع : ١٤٢٤/٨/١٦

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

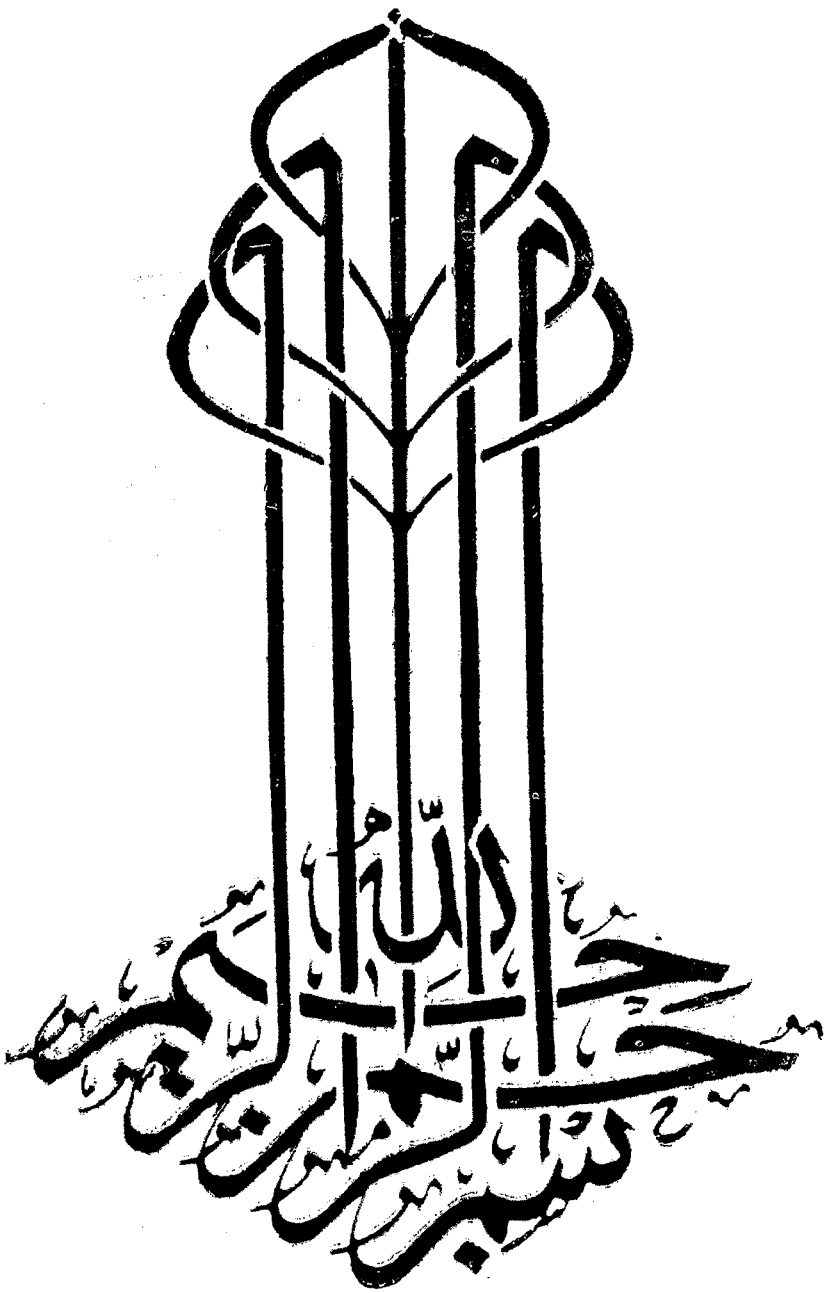
بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤ ﴾

الأنعام : ١٦٢-١٦٤

ملخص الرسالة

لقد انتصر الفكر المادي الملحد وسيطر على العقول والقلوب في الغرب النصراني ثم انتقلت هذه المذاهب والتيارات الإلحادية من وطنها الأصل إلى المجتمعات الإسلامية وتمكنت من السيطرة عليها وتمثل ذلك في افتتان الكثير من المسلمين بها إلى حد أنها كادت أن تقضي على الإسلام ونسي هؤلاء وأولئك الغاية العظيمة التي خلق الله – تعالى – الكون بما فيه ومن فيه من أجلها والتي تتمثل في عبادة الله والانضواء تحت دينه الإسلام، من أجل ذلك رأيت أن أقدم شيئاً لمقاومة هذه التيارات والمذاهب المادية الإلحادية وأن أشعل شمعة تضيء الطريق إلى الحق في وسط ظلمات المادية التي نبتت في الغرب ثم هاجرت إلى البيئات الإسلامية والتاث بها الكثير من المسلمين من هنا جاء عنوان رسالتي (غاية الكون بين الإسلام والمادية).

ولقد أقمت هذا الموضوع على تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة.في الباب الأول الذي عنوانه: غاية الكون في الإسلام تكلمت عن هذا الموضوع عبر فصول أربعة.في الفصل الأول: تحدثت عن إثبات خلق الله للكون.وفي الفصل الثاني: تكلمت عن الغاية من خلق الإنس والجن.وفي الفصل الثالث: تحدثت فيه عن الغاية من خلق بقية المخلوقات.أما الباب الثاني: فقد عقدته للحديث عن الماديين وأنواعهم وقد أقمت هذا الباب على ثلاثة فصول.في الفصل الأول تحدثت عن العلمانيين.وفي الفصل الثاني: تكلمت عن الشيوعيين أما في الفصل الثالث: فقد كان الحديث فيه عن أصناف أخرى من الماديين. وأما الباب الثالث: فقد عقدته للحديث عن غاية الكون عند الماديين وقد أقمته على ثلاثة فصول. في الفصل الأول: تكلمت عن قضية الخلق والخالق.وفي الفصل الثاني: جاء الحديث فيه عن الأخلاق والقيم الإسلامية.أما الباب الرابع: فقد وقفته للرد على الماديين وقد أقمته على ثلاثة فصول.الفصل الأول: جاء فيه الرد عليهم في قضية الخلق والخالق. والفصل الثاني: إثبات علم الله وحكمته.أما الفصل الثالث: فقد جعلته للرد على الماديين في قضية الأخلاق والقيم الإسلامية. وبعد أن انتهيت من إتمام موضوعي انتقلت إلى بيان النتائج والتوصيات التي استخلصتها منه، ومن أهمها أولاً: إن الأدلة النقلية هي الأدلة العقلية التي تؤدي إلى المطالب الإلهية أما أدلة المتكلمين والفلاسفة فإنها تؤدي إلى الحيرة والاضطراب.ثانياً: لقد كان المجتمع الغربي مرتعاً للتيارات والمذاهب المادية الإلحادية التي كانت تسعى للقضاء على الإيمان بوجود الخالق –سبحانه وتعالى– وكل ما يتبع ذلك من قيم وأخلاق إسلامية.ثالثاً:أعتمد الفكر العلماني على إثارة الشبهات حول الإسلام بغرض التشكيك فيه. رابعاً: تكفير الفقهاء والعلماء لكل من رد شرع الله أو فضل عليه القوانين الوضعية.ثم ختمت الموضوع كله بعدد من الفهارس التي تكمل وتتمم موضوع البحث، فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية ، وفهرس الأعلام، وقائمة المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

The summary of the Thesis

The atheist material thinking had made victories and controlled the minds and the hearts in the Christian West. Then these doctrines had moved with the atheistic flows and trends from its original countries to the Islamic societies and was able to dominate and rule them. This had been represented by the fascination of many Moslems by them to an extent that they were about to destroy Islam. These and those had forgotten the great and grand purpose which Allah (God) had created the universe (God Almighty) and what is in this universe and who are in it for its sake which is represented in God's worshipping and to come together under his religion Islam.

For that purpose, I've thought to present something for resisting and counter attacking these currents and faiths, the material and atheistic faiths. I would light a candle to in light and clear the way which leads to the right in the middle of the material darkness which had grown in the West and then they immigrated to Islamic environments where many Moslems were scattered by them.

From here, the subject of my thesis was (the purpose of the universe between Islam and materialism).

I've divided this subject into : An introduction and four chapters and s summary. In the first chapter subject was. The purpose of the universe in Islam where I've spoken about four parts. The first part: I've talked about the proof the right of God for the creation of the universe. In the second part I've talked about the aim of the Creation of mankind and the gin. In the third part I've talked about the aim and purpose of the creation of the other creatures.

The second chapter; I've made to talk and speak about the secularists. In the second part I've talked about the communists; but in the third part: my speak was about the other materialist classifications.

The third chapter : I've made it for the purpose of the universe by the materialists. This I had it at three parts. The first part. I've talked about the matters of the creatures and the Creator.

The second part was for the proof of God's knowledge and his wisdom. But the third part, I've made to answering and vindication to the materialist in the cases of Islamic morals, conducts and values.

After I've completed and finished my subject, I've moved to list the results and the recommendations which I've summarized from the thesis. The most important of these are :

First : the pure proofs which were copied tradionally were the logical thinking proofs which will lead to diety orders and requests whether it was the speaker's (guides and proofs) or the philosophers. All of these lead to confusion bewilderment.

Second : The Arabic society was a fertile soil for the materialistic and atheistic current of thoughts and ideas which were seeking to kill the faith and presence of the Creator, may God be glorious and be praised (Glory to God Praise the Lord) and all what may be followed from values and the Islamic moral and conducts.

Third : The atheist secular thought depended upon the suspensions about Islam by imposing the doubts in Islam.

Fourth : The expletory of the Scholars and the jurists to those who deviates and rejects God's Law or who accepts upon God's Laws the civilian laws and constitutions that were made. Then; I've had completed the whole subject with many indexes and finished the thesis with the Ayat (verses) of Qu'ran as also an index to the prophet's sayings (P.B.U.H) and a biographical names index and the listing of the references and texts. Then the content index of the subjects Praise and thanks to God as it should be to his Majestic Face and His Great Absolute Power.

المقدمـــــة

المقدمـــة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً.

نحمـــده ســـبحانه، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالـــنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحـــده لا شـــريك له، واشـــهد أن محمداً عبده ورسوله – صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

لقـــد خلق الله – تعالى – الخلق لغاية شريفة، وسامية، ومحمودة، وهي عبادته – عز وجـــل – وحده لا شريك لـــه، قال – تعالى- : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [1] لهـــذه الغايـــة خلقـــت السماوات والأرض ومن فيهن، وبها أرسل الله – تعالى – رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، وخلقت الجنة والنار، وعنها سيكون السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، إنها حق الله على جميع العباد.

حقاً إنها لغاية عظيمة وجليلة، كيف لا ؟ والمراد بها – هو الله جل وعلا – فالكل في هذا الكون مخلوق لله، ومتجه طريق واحد إلى الله، قال – تعالى – : ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [2]، وقال -تعالى- : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿٨٣﴾ ﴾.[3]

هي غاية واحدة، وطريق واحد، من سلكه فقد نجى، والعاقبة للتقوى، وأما من اتخذ إلهه هواه وانحرف عن هذا الطريق، واتبع سبيل الغاوين، فبئس الحياة، وبئس المصير، وهنا تبرز خطورة هذه الغاية، وعظم أهميتها، إنها سر الوجود كله، فكل ما

---

(١) سورة الذاريات – الآيتان – ٥٦ – ٥٧.

(٢) سورة البقرة – الآية ١١٦.

(٣) سورة آل عمران – الآية ٨٣.

في هذا الكون من مخلوقات فهي لله، وإلى الله. قال – تعالى –: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿١٥﴾ ﴾ [1] وإذا كان الإنسان قد جعله الله – تعالى – من دون المخلوقات مخيراً في ذلك، فإن في ذلك ابتلاءً له. قال – تعالى – : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾.[2]

فإذا أختار الإنسان طريق الخير وهي السبيل إلى الله – تعالى – فإن في ذلك الصلاح، والفلاح في الدنيا والآخرة، وأما إذا أختار غير سبيل الله، وهي طريق الشر والضلال فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيراً، لأن كل طريق غير سبيل الله مفضية دائماً إلى الضياع والهلاك، وهذا هو واقع أمتنا اليوم، وما تعيشه من تفكك، وتمزقٍ، وتشتت وضياع، سببه أنها تجاهلت حقيقتها كأمة إسلامية، واستبدلت بغايتها – التي لم يخلقها الله – تعالى – إلا من أجلها – غايات أخرى مادية، أصطنعها الغرب المادي بأفكار إلحادية مسمومة، وزينها بألفاظ خبيثة، جوفاء، منمقة، وأطلق عليها أسماء مختلفة، وأدعى لها العلمية، ولكنها إلى الفساد والدمار أقرب.

إن هذه الغايات المادية والتي يروج لها الغرب المادي سواءٌ كان ذلك بنظريات، أو مذاهب، أو غير ذلك، ما هي إلا حرب على الإسلام، وغايتها القضاء على الغاية العظمى التي شرف الله – تعالى – بها الأمة الإسلامية، فكانت بها خير أمة أخرجت للناس.

نعم بهذه الغاية الكبرى استطاعت الأمة الإسلامية سابقاً أن تحقق أمجادها، وحضارتها، وانتصاراتها، وعندما أخذت تلهث وراء تلك الغايات المادية المصطنعة انتكست وسط ما تعانيه اليوم من بؤس وشقاء، ومآسي، وأحزان.

ولخطورة هذه الغايات المادية، التي يرفع شعارها الغرب كل يوم، ولما لها من تأثير قوي على النفوس بما تحمله من وسائل وأساليب ماكرة غرضها التضليل والإفساد

---

(١) سورة الرعد – الآية ١٥ .

(٢) سورة الإنسان – الآية ٢ – ٣.

في الأرض، وحتى لا ينخدع بهذه الغايات الأبرياء من أبناء المسلمين، أو ممن غرتهم التيارات المادية المبهرجة، رغبت في الكشف عن حقيقة هذه الغايات المادية الخبيثة، وذلك للحذر من الوقوع في شباكها المهلكة، والمدمرة، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإنه لما كان الغرض من هذه الغايات المادية القضاء على الغاية العظمى والتي هي غاية كل مسلم بل هي الغاية من وجود الكون كله كانت الرغبة عندي أشد، والدافع أقوى للتذكير بهذه الغاية السامية، والتي جاء التكليف بها من فوق سبع سماوات، وذلك لتطبيقها، وجعلها واقعاً حياً ملموساً، فيعم الأمن، والاستقرار، والسلامة أرجاء هذا العالم المنكوب.

لقد كان هذا هو السبب في اختياري لموضوع رسالتي هذه والتي هي بعنوان : غاية الكون بين الإسلام والمادية.

وخطة الرسالة كالتالي :

تشتمل الخطة على :

مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة.

المقدمة : وفيها أهمية الموضوع وسبب اختياره وخطة البحث.

التمهيد : وفيه تمهيد لموضوع الرسالة.

الباب الأول : غاية الكون في الإسلام وفيه فصول :

الفصل الأول : إثبات خلق الله للكون وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الأدلة النقلية.

المبحث الثاني : الأدلة العقلية.

الفصل الثاني : الغاية من خلق الإنس والجن.

الفصل الثالث : الغاية من خلق بقية المخلوقات.

الباب الثاني : الماديون وأنواعهم وفيه فصول.

الفصل الأول : العلمانيون.

الفصل الثاني : الشيوعيون.

الفصل الثالث : أصناف أخرى.

الباب الثالث : غاية الكون عند الماديين وفيه فصول :

الفصل الأول : قضية الخلق والخالق.

الفصل الثاني : الأخلاق والقيم الإسلامية.

الباب الرابع : الرد على الماديين وفيه فصول.

الفصل الأول : الرد عليهم في قضية الخلق والخالق.

الفصل الثاني : إثبات علم الله وحكمته.

الفصل الثالث : الرد عليهم في قضية الأخلاق والقيم الإسلامية.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج.

الفهارس.

كما وأنني قد عالجت قضايا البحث وفق الخطوات التالية :

١ – إيراد النصوص النقلية المسوقة أصلاً للدلالة العقلية.

٢ – الاختصار في بعض موضوعات البحث بعداً عن الحشو وحرصاً على عدم تشتيت ذهن القارئ كالاكتفاء بعرض أهم المبادئ والأسس التي أعتمد عليها الماديون في نشر أفكارهم المادية، مع بيان فسادها وإبطالها بالرد عليها بأقوال العلماء والباحثين في ذلك.

٣ – الاستعانة بالآيات القرآنية في المواضع المناسبة لها حسب ما يغلب عليها من دلالة.

٤ – الاستعانة بأمهات كتب التفاسير لتأكيد وجه دلالة الآية.

٥ – توثيق قضايا البحث من المصادر الأصلية.

٦ – الدلالة على مواضع الآيات القرآنية في الحاشية وذلك بذكر السورة ورقم الآية.

٧ – التعريف ببعض الأعلام الوارد ذكرهم في البحث.

هذا وأحمد الله – سبحانه وتعالى – حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فهو أهل للحمد والثناء.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحثة

تمهيد :

إن ممـــا لا شك فيه أن وجود الكون له غاية عظمى، ولكن هذه الغاية تختلف في المنظور الإسلامي عنها في المذاهب الأخرى، ونخص بالذكر هنا المذاهب أو الفلسفات الماديـــة، وقـــبل أن نشرع في بيان وتفصيل ذلك لا بد من معرفة ما تعنيه كلمة غاية ومادية وأن نحـــدد مفهوم الكون أو المعنى المراد من هذه الكلمة والتي هي موضوع البحث هنا.

إن الغاية : تعني (مدى الشيء أو أقصاه أو آخره أو نهايته.

غايتك أن تفعل كذا أي نهاية طاقتك أو فعلك.

وتأتـــي الغايـــة بمعنى : الفائدة المقصودة، سواء كانت عائدة على الفاعل أو غير عائدة إليه).[١]

جـــاء في "المعجم الفلسفي" أن الغاية هي : (ما لأجله وجود الشيء، وتطلق على الحد النهائي الذي يقف العقل عنده، وعلى التمام أو الكمال المقصود تحقيقه، والمصير المراد بلوغه).[٢]

أمـــا المادية فهي : (النزعة القائلة بأن كل ما هو موجود مادي، أو يعتمد كلية في وجوده على المادة).[٣]

وأمـــا بالنســـبة للكون فإننا لو بحثنا عن مصدر هذه الكلمة لوجدناه في القرآن – الكريم – قال – تعالى – : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾.[٤]

يقول "التهانوي" : (هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود).[٥]

ويقول أيضاً : (يرى المتكلمون أن الكون مرادف للوجود).[٦]

---

(١) أنظر لسان العرب – ابن منظور – ج ٢ – ص ١٠٤٠، والمعجم الوسيط – ج ٢ – ص ٦٦٩.
والكافي محمد خليل الباشا – ص ٧١٩ والبستان – عبد الله البستاني – ص ١٧٦٧.

(٢) الدكتور جميل صليبا – ج ٢ – ص ١٢٠ – وأنظر المعجم الفلسفي – الدكتور عبد المنعم حفني – ص ١٨٧.

(٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة – ص ٢٨٤.

(٤) سورة مريم – آية ٣٥.

(٥) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم – مادة الكون – ج ٢ – ص ٥٠٥.

(٦) المرجع السابق – ص ١٣٩٢.

ويقـــول : "جميل صليبا" (التكوين صفة لله – تعالى – أزلية، وهو تكوينه للعالم، ولكل جزء من أجزائه لوقت وجوده، على حسب إرادته وعلمه).[1]

هـــذا يعنـــي بأن لفظ العالم يطلق على مجموع أجزاء الكون أي المخلوقات التي تتكون منه.

ويقول: (إن الكون عند أهل النظر يطلق على وجود العالم من حيث هو عالم).[2]

ويقول أيضاً : إن الكون عندهم : (مرادف للوجود المطلق العام).[3]

من خلال هذه التعريفات يمكننا الخروج بالتعريف التالي :

الكون : هو مجموع ما تكون من موجودات في أزمنة وأمكنة مختلفة طالما كانت موجـــودة أو حـــال كونها موجودة اقتضت الإرادة والمشيئة الإلهية وجودها بعد أن لم تكن.

فـــالله – ســـبحانه وتعالى – حينما يريد أن يوجد الشيء يقول له : كن فيكون موجوداً فيحفظه ويمسكه عن الفناء، وإذا أراد الله – عز وجل – فناءه سلب عنه حفظه وإمساكه فـــإذا ســـلب عـــنه ذلـــك رجع إلى العدم ولهذا يقول – تبارك وتعالى – : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾.[4]

حقـــاً إن هـــذا الكون بكل أجزائه أو بكل ما يحتويه من موجودات مخلوق لله – تعـــالى – وحده دون سواه، ولقد أكد لنا القرآن – الكريم – ذلك في آيات كثيرة، وهذه الآيات القرآنية تحث القارئ على النظر والتأمل والتدبر والبحث والتنقيب والدراسة في هـــذا الكون من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة الكبرى لأن هذا الوجود قد احتوى على أدلـــة عظـــيمة تـــربط المتأمل والباحث فيها بخالقه – عز وجل – مما يزيد في إيمانه

---

(١) المعجم الفلسفي – مادة التكوين – ج ١ – ص ٣٣٣ – ٣٣٤.

(٢) المرجع السابق – ج ٢ – ص ٢٤٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) سورة فاطر – آية ٤١.

ويقينه بهذا الإله الخالق – سبحانه وتعالى – وهذه الأدلة هي ما سوف نتناوله بالتفصيل في الباب الأول من هذه الرسالة.

ولكن إذا كان الله – تعالى – هو الخالق لهذا الإنسان، ولهذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ومبدعها، فما هي الغاية التي يريدها الله – تعالى – من وراء هذا الخلق العظيم ؟ هل الغاية منه كما يحددها العلمانيون وهي أن نؤمن بالله – عز وجل – خالقاً في السماء ونسقط حقه على أرض الواقع، وذلك بأن نلقي التحكيم بشرعه – تعالى– جانباً دون مبالاة، ونغوص في التشريعات المادية البشرية ونركض كل يوم وراء منهج وضعي جديد ؟

أو أن نعيش هذه الحياة بصورتها المادية الفوضوية العبثية التي لا تؤمن إلا بالمادة وما عدا ذلك فهو نكرة ولا أساس له في الوجود.

الحقيقة أن الإنسان قد تخبط في طرق شتى يبحث عن الغاية من وجوده، ولقد فسر تلك الغاية بمعاني كثيرة ومختلفة ثم أعطى لنفسه وسائل متعددة وبصورٍ مختلفة لتحقيقها، ولكنه فشل في كل ذلك. لماذا ؟

لأن هذه الغاية مرتبطة بالعالم الغيبي، وذلك ما يعجز العقل البشري عن إدراكه أو فهم حقيقته، ولكن الله –عز وجل– لم يترك ذلك لاجتهاد الإنسان حتى لا يضل ولا يشقى بل حدد له هذه الغاية في كتابه – العزيز– ثم جاءت أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – مؤكدة لذلك، ولأهمية هذه الغاية في حياة الإنسان، ولخطورتها بالنسبة لمن ترك ذلك فقد جاءت رسالتي هذه لتبين كل ذلك بالتفصيل في الأبواب التالية إن شاء الله – تعالى – .

***

الباب الأول

غاية الكون في الإسلام

تمهيد.

الفصل الأول : إثبات أن الكون مخلوق لله -تعالى- .

- المبحث الأول: الأدلة النقلية.
- المبحث الثاني: الأدلة العقلية.

الفصل الثاني : الغاية من خلق الإنس والجن.

الفصل الثالث : الغاية من خلق المخلوقات الأخرى.

تمهيد

لقد خلق الله – تعالى– هذا الكون الفسيح لغاية عظمى ولقد أشار إلى ذلك القرآن – الكريم – والأحاديث النبوية –الشريفة–.

إن هذه الغاية العظمى هي سر هذا الوجود ولذلك يجب على الإنسان أن لا يغفلها أو يستبدل بها غايات، لأنه في هذه الحالة لا يدخل في تناقض أو صراع مع نفسه فحسب بل ومع الوجود بأسره، لأن كل ما في هذا الوجود يسير وفق هذه الغاية طوعاً أو كرهاً.

إن هذه الغاية هي أساس حياة الإنسان وهي سر نجاحه وفلاحه في الدارين إذا أخذ بها وعمل بمقتضاها، أما إذا تركها كان ذلك سبب خسرانه وخذلانه وضياعه في هذا الوجود، وهذا هو سبب خذلان أمتنا الإسلامية في الوقت المعاصر، وسبب ضياعها وتشتتها وهزيمتها لأنها تركت غايتها وتاهت وسط غايات مادية كانت نكسة عليها. ولا يمكن لهذه الأمة الإسلامية أن تستعيد قوتها، ومجدها، وعزتها، إلا إذا أخذت بالغاية التي أمر الله – تعالى – بها وتمسكت بها ونبذت كل ما يعارضها.

الحقيقة أن هذه الغاية العظمى التي كلفنا الله – عز وجل – بها هي الفلاح، وهي النصر، وهي الأمن والاستقرار، ولا غنى للإنسان عن ذلك كله، ولما كانت هذه الغاية تمثل هذه الأهمية العظيمة والخطيرة في حياة الإنسان بل وفي الوجود عامة تناولت هذا الموضوع بالتفصيل في هذا الباب.

ولكن قبل أن أبدأ ببيان ذلك لابد من ذكر الأدلة النقلية، والعقلية التي تؤكد وجود الخالق – سبحانه وتعالى– وأنه –عز وجل– هو وحده المستحق للعبادة دون سواه وذلك لأن الغاية العظمى من هذا الخلق هي عبادة الله– تعالى– لا شريك له.

قال – تعالى – ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.[1]

وإليك بيان هذه الأدلة الشرعية في المبحث الأول من الفصل القادم.

***

(١) سورة الأنعام – آية ١٦٢، ١٦٣.

الفصل الأول

إثبات أن الكون مخلوق لله - سبحانه وتعالى -

- المبحث الأول : الأدلة النقلية.
- المبحث الثاني : الأدلة العقلية.

تمهيد

اعتمد أهل السنة والجماعة ومن سار على نهجهم أدلة الكتاب والسنة في إثبات كل أمر من أمور الدين في أصوله وفروعه، فهم لا يثبتون إلا ما جاء به الكتاب والسنة.

كما وأنهم لا ينكرون أن هذه الأمور الدينية التي جاء بها الشرع منها ما يعلم بالعقل إجمالاً مع كونه معلوماً بالسمع كدلالة الخلق، ومنها ما لا يعلم إلا بالسمع كأسمائه – تعالى – وصفاته والجنة والنار والصراط، فالذي يمكن معرفته والاستدلال عليه بالعقل من المسائل الإعتقادية يكون من قسم العقليات، أما ما لم يكن للعقل سبيل إلى معرفته فهو من السمعيات.

وقد يشتبه الأمر هنا على البعض فيظن بأن السلف يعتمدون العقل في طريقتهم كالمتكلمين[1] والفلاسفة[2]، والحقيقة أن هذا الأمر غير صحيح لأن السلف قد أخذوا بالأدلة النقلية العقلية التي جاء بها الكتاب والسنة، فكانت أدلتهم شرعية وهي الأفضل والأرجح، بينما نجد المتكلمين والفلاسفة قد ابتدعوا لأنفسهم ما أسموه بالأدلة العقلية وخرجوا بها عما ورد في الكتاب والسنة لهذا كانت أدلتهم غير شرعية.

يقول شيخ الإسلام "ابن تيميه" – رحمه الله – (إن كل علم عقلي أمر الشرع به أو دل عليه فهو شرعي أيضاً، إما باعتبار الأمر أو الدلالة أو باعتبارهما جميعاً.

ويتبين بهذا التحرير أن ما خرج من العلوم العقلية عن مسمى الشرعية وهو ما لم يأمر به الشارع ولم يدل عليه فهو يجري مجرى الصناعات، كالفلاحة والبناية والنساجة، وهذا لا يكون إلا في العلوم. المفضولة المرجوحة، ويتبين أن مسمى الشرعية أشرف وأوسع، وأن بين العقلية والشرعية عموماً وخصوصاً، ليس أحدهما قسيم الآخر وإنما السمعي قسيم العقلي، وأنه يجتمع في العلم أن يكون عقلياً وهو

---

(١) المتكلمون: هم أصحاب علم الكلام وهو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين، ومن هذه العقائد الإيمانية التوحيد. (مباحث في علم الكلام والفلسفة – الدكتور على الشابي – ص ١٢.

(٢) الفلاسفة: جمع فيلسوف والفيلسوف هوفيلاوسوفاً. وفيلا هو المحب، وسوفا: الحكمة، أي هو محب الحكمة (الملل والنحل – الشهرستاني – ج٢ – ص ٥٨).

شرعي بالاعتبارات الثلاثة: إخباره به، أمره به، دلالته عليه).[1] ويقول: (قد تدبرت عامة ما يذكره المتفلسفة والمتكلمة والدلائل العقلية فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر، وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها).[2]

وهذا يشير إلى أن النقل ثري بالأدلة العقلية التي يمكن الاعتماد عليها في إثبات أصول الدين وفروعه.

وهناك آيات كثيرة تؤكد ما نقول منها قوله- تعالى- : ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ ﴾. [3]

يقول "ابن الوزير": (هذه الآية دالة على أن كتب الله لا تخلو من البراهين المحتاج إليها في أمر الدين).[4]

ومنها قوله – تعالى- : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾. [5]

يقول "ابن القيم" – رحمه الله – (إن الله – سبحانه – قد تمم الدين بنبيه – صلى الله عليه وسلم- وأكمله به ولم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه ولا رأي ولا منام ولا كشوف).[1]

نعم لقد أكمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – هذا الدين وأتمه بالتبليغ والبيان الشامل مع الأدلة العقلية المؤكدة لأصول هذا الدين وفروعه.

---

(١) مجموع الفتاوي – ح١٩ – ص ٢٣٣.

(٢) المرجع السابق – ح١٩– ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(٣) سورة الأنبياء – آية ٢٤.

(٤) إيثار الحق على الخلق – ص ٦ – ١٠٨.

(٥) سورة المائدة – آية ٣.

(١) الصواعق المرسلة – ح٣ – ص ٨٢٦.

فلم يتركنا إلا على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، ولم نحتج بعدها إلى طرق أهل البدع والضلال.

يقول "الخطابي" : (إن الله – سبحانه – لما أراد إكرام من هداه لمعرفته، بعث رسوله " محمد " – صلى الله عليه وسلم – بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وقال له: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴿٦٧﴾ ﴾.(١)

وقال – صلى الله عليه وسلم– في خطبة الوداع، وفي مقدمات شتى وبحضرته عامة أصحابه: ألا هل بلغت. وكان الذي أنزل عليه من الوحي، وأمر بتبليغه، هو كمال الدين وتمامه، لقوله –تعالى– : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾.(٢)

فلم يترك –صلى لله عليه وسلم– شيئاً من أمور الدين: قواعده، وأصوله، وشرائعه، وفصوله– إلا بينه، وبلغه على كماله وتمامه، ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه، إذ لا خلاف بين فرق الأمة في أن تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه لا يجوز بحال. ومعلوم أن أمر التوحيد وإثبات الصانع.(٣) لا تزال الحاجة ماسة إليه أبداً في كل وقت وزمان، ولو أخر عنه البيان لكان التكليف واقعاً بما لا سبيل للناس إليه، وذلك فاسد غير جائز).(٤)

ويقول "أبو الحسن الأشعري"(٥) : (فلو كنا نحتاج مع ما كان منه – عليه السلام– في معرفة ما دعانا إليه إلى ما رتبه أهل البدع من طرق الاستدلال لما كان مبلغاً إذ كنا

---

(١) سورة المائدة – بعض آية ٦٧.

(٢) سورة المائدة – بعض آية ٣.

(٣) إن هـذه الكلمـة مـن المسميات التي درج الفلاسفة على استعمالها لذا يجب استبدالها بما سمى الله – تعالى – به نفسه في كتابه – العزيز – كقول الخالق – المبدع – الفاطر.

(٤) نقلاً من درء تعارض العقل والنقل – ج٧ – ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

(٥) أبـو الحسن الأشعري هو إمام المتكلمين أبو الحسن على بن إسماعيل بن اسحق بن سالم ابن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بـن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ٢٦٠ – ٣٢٤ هـ تخرج على المعتزلة في علم الكـلام وتـتلمذ لشيخهم في عصره أبي على الجبائي، وكان لفصاحته يتولى الجدل نائباً عن شيخه، وفي آخر حياته أخذ بطريقة أهل السنة والجماعة (تاريخ المذاهب الإسلامية – محمد أبو زهرة – ص ١٦٠).

نحتاج في المعرفة بصحة ما دعانا إليه إلى علم ما لم يبينه لنا من هذه الطرق التي ذكروها، ولو كان هذا كما قالوا لكان فيما دعا إليه وقوله بمنزلة اللغو، ولو كان ذلك كذلك لعارضه المنافقون وسائر المرصدين لعداوته في ذلك، ولم يمنعهم منه مانع كما لم يمنعهم من تعنيته في طلب الآيات ومجادلته في سائر الأوقات، ولكنهم لم يجدوا سبيلاً إلى الطعن، لأنه – عليه السلام – لم يدع شيئاً مما تهم الحاجة إليه في معرفة سائر ما دعاهم إلى اعتقاده، أو مثل فعله إلا وقد بينه لهم).[1]

هذا تأكيد من "الأشعري" على أن الأدلة النقلية التي جاء بها الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيها ما يكفينا ويغنينا عن الطرق البدعية.

يقول شيخ الإسلام "ابن تيميه" – رحمه الله – (دلاله الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر، كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم، بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين).[2]

ويقول "السيوطي" عن أدلة القرآن: (فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئاً كثيرا، ومناظرة "إبراهيم" نمرود" ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم)[3] وهذا يعني بأن الشرع الشريف كتاباً وسنة قد احتوى من الحجج الواضحة والبراهين القوية في إثبات أصول الدين وتشريعاته ما يجعلنا في غنى عن الطرق الكلامية والفلسفية.

لهذا فقد اعتمد السلف أدله الكتاب والسنة ولم يخوضوا في الطرق البدعية كما خاض غيرهم من الفلاسفة والمتكلمين وهذا ليس عجزاً منهم وإنما كان ذلك إيماناً منهم بأن هذه الطرق لا تؤدي إلا إلى الشك والحيرة والاضطراب، بينما أدلة النقل تؤدي إلى الحق بأبلغ عبارة وأوجزها. وفي الحقيقة إن هذا من أهم ما تميزت به هذه الأدلة من خصائص.

---

(١) رسالة إلى أهل الثغر – ص ٢٠١.

(٢) مجموع الفتاوي – ج ١٩ ص ١٦٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن – ج٢ – ص ٢٧٥.

وجاء في "شرح الطحاوية" قوله: (وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله)[1] قال - تعالى- : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.[2]

يقول الشيخ "ابن تيميه" – رحمه الله – (فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين والمتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق. فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر، ويجعلون ما يبنى عليه صدق المخبر معقولات محضة. فقد غلطوا في ذلك غلطاً عظيماً، بل ضلوا ضلالاً مبيناً في ظنهم: أن دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، بل الأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها – أهل العلم والإيمان من أن الله – سبحانه وتعالى – بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره.

ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه)[3] هكذا نجد أن الطريقة المثلى في إثبات الأصول هي التي جاءت بها الأدلة الشرعية، لأن أدلتها لم تكن سمعية فقط كما يتوهم البعض.

وإنما كانت سمعية وعقليه تخاطب العقل، وتلامس الفطرة ويصدقهما الواقع ويؤكدهما.

قال – تعالى – : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.[4]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية – ص ١١٤.

(٢) سورة الفرقان – آية ٣٣.

(٣) مجموع الفتاوى – ج٣ ص ٢٩٦.

(٤) سورة فصلت – أية ٥٣.

يقول الشيخ " ابن تيميه " – رحمه الله – (فأخبر – تعالى – أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول).[1]

ويقول: (فإن الكتاب – والرسول – وإن كان يخبر أحياناً بخبر مجرد، كما يأمر أحياناً بأمر مجرد، فهو يذكر مع إخباره عن الله –تعالى– وملائكته وكتبه ورسله، من الدلالة والبيان والهدى والإرشاد، ما يبين الطرق التي يعلم بها ثبوت ذلك، وما يهدي القلوب ويدل العقول على معرفة ذلك، ويذكر من الآيات والأمثال المضروبة، التي هي مقاييس عقلية وبراهين يقينية، ما لا يمكن أن يذكر أحد من أهل الكلام والفلسفة ما يقاربه، فضلاً عن ذكر ما يماثله أو يفضل عليه.

ومن تدبر ذلك رأى أنه لم يذكر أحد طريقاً عقلياً يعرف به وجود الصانع، أو شيئاً من أحواله– من أهل الكلام والفلاسفة، إلا وقد جاء القرآن بما هو خير منه وأكمل وأنفع وأقوى وأقطع، بتقدير صحة ما يذكره هؤلاء).[2]

ويقول: (إن الأدلة العقلية والسمعية متلازمة، كل منهما مستلزم صحة الآخر. فالأدلة العقلية تستلزم صدق الرسل فيما أخبروا به، والأدلة السمعية فيها بيان الأداة العقلية التي بها يعرف الله – تعالى– وتوحيده، وصفاته، وصدق أنبيائه.

ولكن من الناس من ظن أن السمعيات ليس فيها عقلي. والعقليات لا تتضمن السمعي. ثم افترقوا فمنهم من رجح السمعيات، وطعن في العقليات، ومنهم من عكس.

وكلا الطائفتين مقصر في المعرفة بحقائق الأدلة السمعية والعقلية).[3]

يؤكد الشيخ هنا أهمية وأفضلية الأدلة الشرعية التي جاء بها النقل، وإن كانت تلك الحقيقة واضحة كالشمس الساطعة في وضح النهار ولكن تأكيده هنا من باب الحرص على هذه الأدلة والأخذ بها والحذر من الوقوع في الطرق الأخرى لا سيما وأن هذه الأدلة الشرعية قد شهد العلماء بأفضليتها ورجحانها على الطرق الكلامية والفلسفية، ولا يمكن للعاقل معارضتها أو الشك فيها.

---

(١) منهاج السنة النبوية – ج١ – ص ٣٠١.

(٢) درء تعارض العقل والنقل – ج٧ – ص ٣٥٢.

(٣) درء تعارض العقل والنقل – ج٨ – ص ٢٤ – ٢٥.

يقول "السيوطي" : (قال العلماء: قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادات العرب.

أحدهما : بسبب ما قاله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴿٤﴾ ﴾.[1]

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً، فأخرج – تعالى– مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة، ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أنبائها ما يربو على ما أدركه فهم الخطباء).[2]

ويقول "ابن الوزير" : (إجماع علماء الإسلام من جميع الطوائف على أن القرآن يفيد ما ادعيت من معرفة أدلة التوحيد من غير ظن ولا تقليد، وكما أن المتكلم ينظر في كتب شيوخه ليتعلم منها الأدلة من غير تقليد غيره، فكذلك من نظر في القرآن يتعلم منه الأدلة من غير تقليد بل القرآن العظيم هو الذي منه تعلم المتكلمون النظر،[3]لكنهم غالوا في النظر، ولم يقتصروا على القدر الكافي النافع المذكور في كتاب الله – تعالى–).[4]

والأعظم من ذلك أن القرآن قد أكد هذه الحقيقة فقال – تعالى – ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.[5]

---

(١) سورة إبراهيم عليه السلام – بعض آية ٤.

(٢) الإتقان في علوم القرآن – ج٢ – ص ٢٩٣.

(٣) قول ابن الوزير هنا بأن القرآن العظيم هو الذي منه تعلم المتكلمون النظر، أعتقد بان المراد به أنهم أخذوا من القرآن طريقة الاستدلال بالعقل فقط دون اتباع ما جاءت به طريقة القرآن في ذلك والله أعلم.

(٤) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان – ص ١٥ – ١٦.

(٥) سورة سبأ – آية ٦.

لقد تعددت أقوال العلماء لتبين مدى أهمية هذه الأدلة الشرعية وما تميزت به من خصائص.

يقول "ابن القيم" – رحمه الله – الأدلة السمعية نوعان :

نوع دل بطريق التنبيه والإرشاد على الدليل العقلي فهو عقلي سمعي، ومن هذا غالب أدلة النبوة والمعاد والصفات والتوحيد ..... وإذا تدبرت القرآن رأيت هذا أغلب النوعين عليه وهذا النوع يمتنع أن يقوم دليل صحيح على معارضته لاستلزامه مدلوله، وانتقال الذهن فيه من الدليل إلى المدلول ضروري، وهو أصل للنوع الثاني الدال بمجرد الخبر، فالقدح في النوعين بالعقل ممتنع بالضرورة، أما الأول، فلما تقدم، وأما الثاني، فلإستلزام القدح فيه القدح في العقل الذي أثبته، وإذا بطل العقل الذي أثبت السمع، بطل ما عارضه من العقليات).[1]

ويقول أيضاً (فكل طريق من هذه الطرق أصح وأقرب وأسهل وأوصل من طرق المتكلمين التي لو صحت لكان فيها من التطويل والتعقيد والتعسير ما يمنع الحكمة الإلهية والرحمة الربانية أن يدل بها عباده عليه وعلى صدق رسله وعلى اليوم الآخر فأين هذه الطرق الطويلة العسرة الباطلة المستلزمة لتعطيل الرب عن صفاته وأفعاله وكلامه وعلوه على خلقه وإنكار وجهه الأعلى..... من طرق القرآن التي هي ضد هذه الطريق من كل وجه ؟ وكل طريق منها كافية شافية هادية وإن صرفها الله لعباده ونوعها).[2]

وهكذا فقد تميزت أدلة النقل بقوة البيان، ووضوح المعنى، لأنها من لدن حكيم خبير عليم.

قال –تعالى– : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[3]

---

(١) الصواعق المرسلة –ج٣ – ص ٩٠٨ – ٩٠٩.

(٢) المرجع السابع – ص ١١٩٨– ١١٩٩.

(٣) سورة فصلت – آية ٤٣ .

وقال – عز وجل – في رسوله – صلى الله عليه وسلم– المبلغ لهذا الدين: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (١).

ولذلك يقول الشيخ "أبن تيميّه" –رحمه الله– (والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية، سمعيها وعقليها، ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلاً. فدلائل النبوة وأعلامها تدل على ذلك جملة، وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن والحديث تدل على ذلك تفصيلاً.

وأيضاً فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه، وأولاهم بالحق فيه.)(٢).

وبذلك ترجح أدلة النقل على أدلة الفلاسفة والمتكلمين لا سيما وأن هناك فارقاً كبيراً ومهماً جداً بينهما وذلك من حيث الغاية المراد الوصول إليها من خلال هذه الأدلة.

فأدلة النقل تصل بنا إلى الغاية التي حددها الشرع ألا وهي عبادة الله – عز وجل – وتلك هي الغاية العظمى فالله – تعالى – لم يخلق الخلق، ولم ينزل القرآن، ولم يبعث الرسل – عليهم السلام – إلا من أجلها. بينما نجد أدلة المتكلمين والفلاسفة تهدف إلى الإقرار بوجود الله – تعالى – وهذا موجود وثابت في الفطر، ولا يحتاج منهم كل هذه الطرق الكلامية المطولة.

ولهذا فإن أدلة النقل تسمو على أدلة الفلاسفة والمتكلمين في إثبات المطالب الإلهية.

وإذا كان الأمر كذلك فالواجب على كل من له قلب وعقل سليم أن يرجع إلى الأدلة العقلية النقلية لإثبات هذه المطالب، وأن يبتعد عن المناهج الكلامية والفلسفية لا سيما وأن أصحابها قد أقروا بأدلة القرآن العقلية وموافقتها لما جاء به العقل.

---

(١) سورة النجم – آية ٣ – ٤.

(٢) الفرقان بين الحق والباطل – ص ١٦٤– ١٦٥.

يقول الشيخ " ابن تيميه " – رحمه الله – : (إن جميع الطوائف – حتى أئمة الكلام والفلسفة – معترفون باشتمال ما جاءت به الرسل على الأدلة الدالة على معرفة الله وتصديق رسله)[١].

وهذه بعض أقوالهم الشاهدة بذلك:

يقول " القاضي عبد الجبار"[٢] في أدلة القرآن: (واتفق فيه أيضاً استنباط الأدلة التي توافق العقول وموافقته ما تضمنه لأحكام العقل على وجه يبهر ذوي العقول ويحيرهم، فإن الله – سبحانه– بينه على المعاني التي يستخرجها المتكلمون بمعاناة وجهد بألفاظ سهلة قليلة تحتوي على معان كثيرة).[٣]

ويقول "أبو حامد الغزالي" – رحمه الله – : (فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع..... وإما مشاغبة).[٤]

ويقول "أبو الحسن الأشعري" – رحمه الله –:

(ولعمري أن فيهما الشفاء من كل أمر مشكل، والبرء من كل داء معضل، وإن في حراستهما من الباطل ..... آية لمن نصح نفسه، ودلالة لمن كان الحق قصده. وفيما ذكرنا دلالة على صحة ما استندوا إليه في الاستدلال، وقوة لما عرفوا الحق به.

فإذا كان ذلك على ما وصفنا، فقد علمتم بهت أهل البدع لهم في نسبتهم لهم إلى التقليد، وسوء اختيارهم في المفارقة لهم، والعدول عما كانوا عليه معهم وبالله التوفيق).[٥]

---

(١) درء تعارض العقل والنقل – ح٩ – ص ٥٣.

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار أحمد بن خليل بن عبد الله الهمزاني الاسترابادي أبو الحسن، فقيه ومتكلم، ومفسر، ورد بغداد وحدث بها وتولى القضاء بالري، وتوفى في ذي القعدة ومؤلفاته كثيرة منها "تفسير القرآن" و "دلائل النبوة" في مجلدين و "تنزيه القرآن عن المطاعن" و"آمالي في الحديث" و "شرح الأصول الخمسة" و "المغني" وانتهت مؤلفاته إلى أربعمائة ألف ورقة (المحيط بالتكليف – القاضي عبد الجبار – ص ٤٤٠)

(٣) نقلاً من ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان – ابن الوزير – ص ١٩.

(٤) نقلاً من مفتاح دار السعادة – ابن القيم – ج١ – ص ١٤٥

(٥) رسالة إلى أهل الثغر – ص ٢٠٣ – ٢٠٤.

ويقول "الرازي" – رحمه الله – (لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن).[1]

ويعلق "ابن القيم" – رحمه الله – على ذلك فيقول: (وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فتح له من دلاله القرآن بطريق الخبر وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها. فتكون دليلاً سمعياً عقلياً أمر تميز به القرآن وصار العالم به من الراسخين في العلم وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب وتسكن عنده النفس ويزكو به العقل وتستنير به البصيرة وتقوى به الحجة ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع من حاج به بل من خاصم به فلجت حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله ولكن أهل هذا العلم لا تكاد الأمصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ولا تتداولها الاحتمالات ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً).[2]

ويورد "ابن القيم" في كتابه "مفتاح دار السعادة" قولاً لبعض المتكلمين دون أن يذكر اسماً لأحد فيقول: (قال بعض المتكلمين أفنيت عمري في الكلام أطلب الدليل وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه وإذا أنا بالدليل حقاً معي وأنا لا أشعر به).[3]

نعم لقد بلغت الأدلة الشرعية السمعية منها والعقلية من قوة الدلالة في الوصول إلى المطالب الإلهية ما جعل أصحاب المناهج الكلامية والفلسفية أنفسهم يعترفون لها بذلك وهذا أيضاً "ابن رشد"[4] باعتباره واحداً منهم يقر بذلك أيضاً فيقول: (إن الطرق الشرعية إذا تؤملت وجدت في الأكثر قد جمعت وصفين: أحدهما أن تكون يقينية،

---

(١) نقلاً من مفتاح دار السعادة – ج١ – ص ١٤٥ والفرقان بين الحق والباطل- ابن تيميه – ص ١٦٥.

(٢) مفتاح دار السعادة – ج١ – ص ١٤٥ – ١٤٦.

(٣) المرجع السابق – ص ١٤٦.

(٤) هـو أبـو الولـيد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد – ٥٢٠ – ٥٩٥ هـ – أشتهر في أوربا خلال القرون الوسطى، وهو من كبار الفلاسـفة العرب، شغل منصب قاضي قرطبة ترك آثاراً فكرية هامة، درس القانون والطب في قرطبة (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص ٥ – ٩).

والثاني أن تكون بسيطة غير مركبة، أعني قليلة المقدمات، فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأول).[1]

وكلام "ابن رشد" يكشف عما تنطوي عليه قلوب الفلاسفة من علة صارفة عن الحق لا تفارقها فهو – رغم إقراره بالحق – إلا أنه – يغمز المرتابين فيقول عن الأدلة الشرعية:

(في الأكثر) كأنه يريد أن يوهم أن بعضها لا يفيد اليقين أو هو معقد لا يفهم ببساطة.

ويهمنا رغم ذلك أن الرجل وهو يمثل الفلاسفة السابقين عليه جميعهم ويمثل المدافع عن عقائدهم قد أقر بأن الطرق الشرعية– يقصد الأدلة الواردة في الكتاب والسنة– أنها أدلة يقينية وأنها تخاطب الفطر دون ما عناء أو تعقيد.

وهكذا تميزت الأدلة الشرعية بالصدق واليقين ومطابقتها للواقع، وببساطتها وسلامتها من الخطأ والكذب.

قال – تعالى – : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.[2]

يقول "زاهر الألمعي" : (وجميع أدلة القرآن أدلة إلزامية لثبوت الإعجاز لها من جهة، ولسلامتها من التناقض والاختلاف من جهة أخرى، ومعنى هذا أن جميع أدلة القرآن قطعية في ثبوتها لأنها وردت بطريق يستحيل فيها الكذب). [3]

ويقول الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله – (إن ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو الحق الموافق لصريح المعقول، وإن ما بينه من الآيات والدلائل والبراهين العقلية في إثبات الصانع[4] – سبحانه – ومعرفة صفاته وأفعاله هو فوق نهايـــة العقول).[5]

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة – ص ٥٩.

(٢) سورة النساء – بعض آية ١٢٢.

(٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم – ص ٧١.

(٤) ابن تيميه أيضاً ستعمل كلمة " الصانع وهذه عدوى.

(٥) درء تعارض العقل والنقل – ج٣ – ص ٨٧.

وبما أن الله – تعالى – هو الخالق لعباده، والعالم باختلاف نفوسهم ومستويات عقولهم وتفكيرهم فقد (سلك القرآن –الكريم– وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في مخاطباته أساليب شتى، وتفنن في ضروب الهداية وطرق الإقناع لاختلاف مشارب الناس وتباين مقاصدهم وتفاوت مداركهم).[1]

يقول "ابن أبي العز الحنفي" :

(فهو – سبحانه – قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة.....

وكذلك السنة تأتي مبينة ومقررة لما دل عليه القرآن.....

..... وأما آياته العيانية الخلقية: فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة).[2]

هكذا تعددت طرق أدلة النقل وعرضت بأساليب متعددة، ومتنوعة، وسهلة، وميسرة، قوية الحجة، ساطعة البيان، مخاطبة العقل، وموافقة للفطرة، لا يجد المستدل بها عنتاً أو تعقيداً كما هو الحال في أدلة الفلاسفة والمتكلمين.

يقول الشيخ "ابن تيميه" – رحمه الله – (الذي قالوه إما أن يكون باطلاً، وإما أن يكون تطويلاً يبعد الطريق على الطالب المستدل. فلا يخلو – من خطأ يصد عن الحق، أو طريق طويل يتعب صاحبه.....

..... وما أحسن ما وصف الله به كتابه بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ۝٩ ﴾.[3] فأقوم الطرق إلى أشرف المطالب ما بعث الله به رسوله. وأما طريق هؤلاء فهي مع ضلالهم في البعض، واعوجاج طريقهم وطولها في البعض الآخر، إنما يوصلهم إلى أمر لا ينجي من عذاب الله).[4]

---

(١) مناهج الجدل – زاهر الألمعي – ص ٧٠.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية – ص ٤٥ – ٤٦.

(٣) سورة الإسراء – بعض الآية ٩.

(٤) الرد على المنطقيين – ص ١٦١ – ١٦٢.

جاء في "شرح العقيدة الطحاوية" (وكل من له حس سليم وعقل يميز به لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البته، بل ربما يقع بسببها في شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة والضلال والريبة)[1] إن تلك الحيرة وذلك الضلال لا يكون إلا بسبب إعراضهم عن كلام الله – تعالى – وكلام رسوله – صلى الله عليه وسلم – واشتغالهم بكلام اليونان، ولهذا لم يخرجوا من ذلك إلا بالشك والحيرة والاضطراب، وهذا ما اعترفوا به.

ولقد جاء في "شرح العقيدة الطحاوية" بعض الصور الشاهدة على ذلك منها : أن "ابن رشد" قال في كتابه "تهافت التهافت" : (ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به).[2]

ومنها: قول "أبو المعالي الجويني"[3] : (يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن "الجويني" وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور).[4]

ومنها قول "الشهرستاني":(إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم).[5]

هذا ما وصل إليه أصحاب الطرق الكلامية، ولهذا يقول الشيخ "ابن تيميه" –رحمه الله–: (فمن اعتبر ما عند الطوائف الذين لم يتمسكوا بتعليم الأنبياء وإرشادهم وأخبارهم، وجدهم كلهم حائرين، ضالين شاكين مرتابين، أو جاهلين جهلاً مركباً، فهم

---

(١) من ص ٩٧ – ٩٨.

(٢) نقلاً ص – ٢٢٧.

(٣) أبو المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، الجويني – ٤١٩ – ٤٧٨ – الفقيه – الملقب ضياء الدين، المعروف بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك. (وفيات الأعيان – ابن خلكان – ج٣ – ص ١٦٧ – ١٦٨).

(٤) نقلاً من ص – ٢٢٨.

(٥) نقلاً من ص ٢٢٨.

لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن).[1] ثم ذكر هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠ ﴾.[2]

إذاً أين هذه الطرق المعقدة – والتي لم تؤد بأصحابها إلا إلى الضلال والبعد عن الحق – من طريقة القرآن التي تصل بالناظر فيها إلى الحق بأقرب وأسهل وأوضح الطرق.

يقول "ابن القيم" – رحمه الله – (فكل طريق من هذه الطرق[3] أصح وأقرب وأسهل وأوصل من طرق المتكلمين التي لو صحت لكان فيها من التطويل والتعقيد والتعسير ما يمنع الحكمة الإلهية والرحمة الربانية أن يدل بها عباده عليه وعلى صدق رسله وعلى اليوم الآخر فأين هذه الطرق الطويلة العسرة الباطلة ..... من طرق القرآن التي هي ضد هذه الطرق من كل وجه؟ وكل طريق منها كافية شافيه هاديه)[4].

ويقول الشيخ "ابن تيميه" – رحمه الله – : (والعلوم ثلاثة[5] أقسام: منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية، وأحسن الأدلة العقلية هي التي بينها القرآن- الكريم – وأرشد إليها الرسول، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول)[6].

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل- ص ١٦٥ – ١٦٦.

(٢) سورة النور الآيتان: ٣٩ – ٤٠.

(٣) طرق القرآن.

(٤) الصواعق المرسلة – ح٣ ص ١١٩٨ – ١١٩٩.

(٥) عقلية وسمعية ومشتركة.

(٦) الفرقان بين الحق والباطل – ص ١٦١.

وإذا كانت طريقة القرآن وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم- في إثبات أصول الدين وفروعه هو ما يرجحه علماء السلف ويقررونه فالواجب على كل مسلم اتباع ذلك وعدم الخروج عنه إلى الطرق الكلامية والفلسفية خصوصاً وأن أقوال أصحاب هذه الطرق قد أظهرت بأنهم غير راضين عن مناهجهم، وقد أقروا بأفضلية طريقة النقل كأبي "الحسن الأشعري" – رحمه الله – وغيره.

وأختتم هذا التمهيد بقول الدكتور "عبد الرحمن خضر" : (القرآن كتاب كامل في موضوعه..... وموضوعه أضخم من جزئيات العلم... بل العلوم كلها.. لأن الإنسان هو الذي يكشف هذه الجزئيات العلمية وينتفع بها في حدود ما يسمح به الله- سبحانه – و تعالى-.... والبحث والتجريب والتطبيق من خصائص العقل البشري.

والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه.... يعالج بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره ويعالج المجتمع الإنساني الذي يحدد للإنسان الطريقة المثلى لاستخدام هذه الطاقات الكامنة فيه.....

القرآن إذن كل..... والعلم جزء.....

والكل..... (القرآن)... بعد صياغة طاقات الإنسان وإصلاح المجتمع.. ترك الإنسان يبحث في العلم (الجزء) ويجرب.. يخطئ ويصيب... فإن أخطأ في بحثه وتجاربه في نطاق الجزء (العلم) صحح القرآن (الكل) له...

وإن أصاب.. قلنا توافق العلم (الجزء) في جزئية ما مع المفاهيم القرآنية بفضل بناء القرآن للإنسان ومجتمعه وتوجهه إلى مسلك الحقيقة.

..... وكان عطاء المفاهيم القرآنية للعلم فياضاً زاخراً بالحقائق الكلية النهائية).[1]

ما أروع هذه المفاهيم لحقيقة ما جاء به القرآن.

نعم إنه المصدر الإلهي الذي به نكشف حقيقة هذا الكون المخلوق لله -تعالى- .

قال -عز وجل- ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾.[2]

---

(١) هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم- ص ٩٩.

(٢) سورة الجاثية – آية ٦.

لقد أمر الله – تعالى– بلزوم آياته، كما أمر بذلك رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – ولقد اتبع ذلك السلف الصالح –رضوان الله عليهم– وتأسياً بهم سوف أثبت خلق الله –تعالى– للكون بالأدلة المستمدة من القرآن – الكريم – ومن أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما أمكن ذلك، وستكون هي الأدلة النقلية والعقلية في إثبات الخلق لله – تعالى – :

وسوف أذكر الأدلة[1] العقلية عند الفلاسفة والمتكلمين في ذلك ولكن الذي نعتمده ونأخذ به ما ورد في القرآن وسنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وسيأتي بيان ذلك في المبحث القادم.

أسأل الله – تعالى – التوفيق في ذلك.

***

(١) في المبحث الثاني من هذا الفصل.

المبحث الأول

الأدلـــــة النقليـــــة

أولاً : دلالة الفطرة

فطر: بمعنى (أبدع وركز في النفس من معرفته- تعالى- وفطرة الله: هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان)[1].

وهذا يعنى أن الله – تعالى – خلق الخلق على معرفته- سبحانه وتعالى – بل جعل أساس هذه الفطرة هو ما يكمن في تكوين الإنسان من معرفة الله حق المعرفة، وأنه هو الخالق وحده دون سواه.

يقول الشيخ "ابن تيميه" – رحمه الله – (إن في فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع، وحينئذ فالإقرار بوجود الصانع ومعرفته والإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثاني معلوم الفساد قطعاً، فتعين الأول. وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به).[2]

ولقد جاءت الإشارة إلى هذه المعرفة في مواضع متعددة في القرآن والسنة.

(أ) منها: قوله – تعالى- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾.[3]

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – ص – ٦٤٠.

(٢) درء تعارض العقل والنقل – ح٨ – ص ٤٥٨.

(٣) سورة الأعراف – الآيات – ١٧٢ – ١٧٣ – ١٧٤.

يقول "ابن كثير" – رحمه الله – (يخبر – تعالى – أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه – تعالى– فطرهم على ذلك وجبلهم عليه)[1] وذكر "ابن القيم" – رحمه الله – في هذه الآية عشرة وجوه وفي التاسع منها يقول: (أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليهم بهذا الإشهاد في غير موضع من كتابه، كقوله – تعالى– : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.[2] أي فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الإقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم، وهذا كثير في القرآن، فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله – تعالى – : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠﴾ ﴾[3] فالله – تعالى – : إنما ذكرهم على ألسنة رسله بهذا الإقرار والمعرفة، ولم يذكرهم قط بإقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة).[4]

ويقول : (وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها، ليست بمكتسبة).[5]

ويقول الشيخ "ابن تيميّه" – رحمه الله – : (حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم، فهذا الإقرار حجة الله عليهم يوم القيامة، فهو يذكر أخذه لهم، وإشهاده إياهم على أنفسهم، إذ كان سبحانه خلق فسوى، وقدر فهدى.

فالأخذ يتضمن خلقهم، والإشهاد يتضمن هداه لهم إلى هذا الإقرار).[6]

---

(١) التفسير –ج٢ – ص ٢٦١.

(٢) سورة الزخرف – آية ٨٧.

(٣) سورة إبراهيم عليه السلام – بعض أية ١٠.

(٤) الروح – ص ٢١٣.

(٥) المرجع السابق – ص ٢١٣ – ٢١٤.

(٦) درء تعارض العقل والنقل – ج٨ – ص ٤٨٧.

(ب) ومنها: قوله – تعالى- : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.[1]

هذه الآية جاءت بمعنى (إلزم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه – تعالى – فطر خلقه على معرفته).[2]

والمراد بقوله – تعالى- : [لا تبديل لخلق الله] (إما أن يكون بمعنى لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فيكون خبراً بمعنى الطلب.

أو هو خبر على بابه ومعناه أنه – تعالى – ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك)[3] وهذا يعني أن الفطر لا تتغير ولا تتبدل، بل الأصل فيها الإيمان بالخالق – سبحانه وتعالى – إلا إذا كان هناك مؤثر خارج عن نفس الإنسان، كالبيئة التي نشأ فيها، وكذلك المحيطون به كأمه وأبيه إذا كانا غير صالحين.... الخ

فهذا من أهم أسباب الانحراف عن الإيمان بالخالق – عز وجل – كما قال – صلى الله عليه وسلم – (كل مولود يولد على الفطرة)[4] الحديث.

هنا يكون التغيير حاصلاً بلا شك ولكن ليس بمعنى انعدام الفطرة كلية بحيث لا يكون لها أثر وإلا لما ظهر مقتضى الفطرة عند نزول الشدائد والمصائب والتي تتكشف بها الحجب عن الفطرة وتزول عنها الغشاوة فلا يجد المرء ملجأً ولا مفراً إلا إلى الله. قال –تعالى- ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن

---

(١) سورة الروم – آية ٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير – ج٣ – ص ٤٣٢.

(٣) المرجع السابق – ج٣ – ص ٤٣٢

(٤) هذا الحديث مذكور في الصفحة التي تلي هذه الصفحة، وكذلك تخريجه في هامشها.

كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.(١)

إذاً هناك أسباب عارضة في إفساد الفطرة كما يشير إلى ذلك حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم– عندما قال: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه). (٢)

يقول الشيخ "ابن تيميه" – رحمه الله – : (وكل مولود يولد على الفطرة، وهي الحنيفية التي خلقهم عليها. ولكن أبواه يفسدان ذلك – فيهودانه، وينصرانه ويمجسانه ويشركانه.

كذلك يجهمانه – فيجعلانه منكراً لما في قلبه من معرفة الرب ومحبته وتوحيده. ثم المعرفة يطلبها بالدليل، والمحبة ينكرها بالكلية. والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره من لا يعرفه، وإنما ثبت توحيد الخلق، والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد وهذا الشرك)(٣) وكما أن لشياطين الإنس دوراً كبيراً في إفساد الفطرة كذلك فإن لشياطين الجن دوراً كبيراً يقومون به في إفساد الفطرة، لأن الشيطان قد أعطى من القدرة ما يستطيع به أن يصل إلى قلب الإنسان فيوسوس له بالسوء، وقد ورد في القرآن تحذير من وسوسة الشيطان والاستعاذة منه بالله –تعالى–.

قال – عز وجل –: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ (٤).

كذلك ويشير إلى هذا الدور الذي تقوم به شياطين الجن ما جاء في "صحيح مسلم" عن "عياض بن حمار" أن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال – فيما يرويه عن ربه أنه

---

(١) سورة يونس عليه السلام – ص ٢٢

(٢) صحيح البخاري – كتاب الجنائز – باب إذا أسلم الصبي فهل يصلى عليه – رقم الحديث ١٢٩٢– ج٧ – ص ١٣٣ وصحيح مسلم – كتاب القدر – باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم ٢٦٥٨ ج ١٦ – ص ٤٤٦.

(٣) مجموع الفتاوى – ج١٦ – ٣٤٥ – ٣٤٦.

(٤) سورة الناس – كاملة.

قال: [إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً].(١)

يقول الشيخ " ابن تيميه "– رحمه الله – (فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئاً بعد شئ، بحسب كمال الفطرة إذا سلمت عن المعارض).(٢)

(ج) ومنها : قولـــه – تعالى– : ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ۞ ﴾.(٣)

يقول "ابن جرير الطبري" في تفسيره : (وإذا مس الإنسان بلاء في جسده من مرض، أو عاهة، أو شدة في معيشته وجهد وضيق (دعا ربه) يقول : استغاث بربه الذي خلقه من شدة ذلك، ورغب إليه في كشف ما نزل به من شدة ذلك، وقوله (منيباً إليه) يقول تائباً إليه مما كان من قبل ذلك عليه من الكفر به، وإشراك الآلهة والأوثان به في عبادته، راجعاً إلى طاعته).(٤)

كذلك وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.(٥)

لجوء الإنسان وقت الشدائد والمحن إلى الله – تعالى – يعني أن المعرفة الفطرية بالخالق – عز وجل – ثابتة ومستقرة في النفس، وتظهر عند وقوع الشدائد والمصائب التي تجلي ما على الفطرة من غشاوة فيبصر صاحبها الحقيقة، فكم من ملحد، وكم من مشرك بعد نزول الشدة بهم انكشفت لهم هذه الحقيقة فعرفوا الله ورجعوا إليه.

يقول "الراغب الأصفهاني" : (فمعرفة الله مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلاً فعله، ونقله من الأحوال المختلفة).(٦)

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الجنة – باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، وأهل النار– حديث رقم ٢٨٦٥– ج١٧ – ص ٢٠٣.

(٢) درء تعارض العقل والنقل – ج٨ – ص ٣٨٣.

(٣) سورة الزمر – بعض آية ٨.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – ج ٢٣ – ص ١٩٩.

(٥) سورة الإسراء – بعض آية ٦٧

(٦) نقلاً من دلائل التوحيد – القاسمي – ص ٢٦.

(د) ومنها : قوله – تعالى- : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]

يقول "القاسمي": إن هذه الآيات (كلها استفهامات تقرير كأنه تعالى يقرر عباده على شئ فطرهم عليه).[2]

ويؤكد "الشهرستاني" شهادة الفطرة هذه دون غيرها من أدلة الفلاسفة والمتكلمين في الإقرار بالخالق فيقول : (ما شهد به الحدوث أو دل عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج في ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات فيرغب إليه ولا يرغب عنه ويستغنى به ولا يستغنى عنه ويتوجه إليه ولا يعرض عنه ويفزع إليه في الشدايد والمهمات فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب والحادث إلى المحدث).[3]

ويوافقه "القزويني" في ذلك حيث يقول : (فإن قيل فلأي شئ سلك أهل الأصول طريق الاستدلال [4] على هذا ؟.

---

(١) سورة النمل – آية ٦٠ إلى ٦٤.

(٢) دلائل التوحيد – ص ٢٥ – ٢٦.

(٣) نهاية الأقدام – ص ١٢٥.

(٤) دلالة الإمكان والحدوث.

فـــالجواب إنما سلكوا ذلك قطعاً للأطماع التي تشرئب إلى ذلك، وإلا فهم يعلمون أن ما شهدت به الفطرة أقرب إلى الخلق وأسرع تعقلاً).[1]

وهكـــذا فـــإن دلالة الفطرة على وجود الخالق وخلقه مخلوقاته وتدبير أمرها من أقـــوى الدلالات وأعمقها وقد أكدت ذلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي أشرنا إلى بعض منها في السطور السابقة.

ثانياً دلالة الخلق والإبداع :

جـــاء في "لسان العرب المحيط" أن الخلق هو: (ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شئ خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه) [2].

ويقـــول "الأصفهاني" : هو بمعنى (التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء).[3]

قال – تعالى- : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۝١ ﴾.[4]

يقـــول "الأصـــفهاني" (أي أبدعهما، بدلالة قوله – تعالى- : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧ ﴾ [5] ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو قوله – تعالى- :﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ ﴾[6] وقولـــه – تعالى- :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ﴾[7] وقوله – تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ۝١١ ﴾ [8] وقوله

---

(١)نقلاً من دلائل التوحيد – ص ٢٥.

(٢) ابن منظور – ج١ – ص ٨٨٩.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن – مادة خلق – ص ٢٩٦.

(٤) سورة الأنعام – بعض الآية ١

(٥) سورة البقرة – الآية ١١٧.

(٦) سورة النحل – الآية ٥.

(٧) سورة المؤمنون – الآية ١٢.

(٨) سورة الأعراف – بعض الآية ١١.

-تعالى-: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾[1] [2] ويتابع "الأصفهاني" حديثه فيقول: وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله – تعالى – ولهذا قال – تعالى – في الفصل بينه وبين غيره:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3] [4]. الحقيقة أنه ما من شئ في هذا الوجود إلا ويشهد بهذا الخلق لهذا الخالق المبدع – سبحانه وتعالى – ولا يملك الناظر في هذا الخلق البديع بكل أجناسه وأنواعه، وأشكاله وألوانه إلا أن يقول : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[5] نعم إن كل ما في هذا الكون دليل ينطق بوجود هذا الخالق المبدع في خلقه – سبحانه وتعالى – ولا أحد يستطيع أن ينكر هذا إلا مكابر أو معاند، لأنه ليس هناك أدلة تنكر ذلك، بل الأدلة التي تشهد بخلقه – تعالى – لهذا الكون كثيرة وثابتة.

يقول الشيخ "ابن تيميه" – رحمه الله – : (والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة، بل مشهود لا يحتاج إلى دليل، وإنما يعلم بالدليل ما لم يعلم بالحس وبالضرورة.

والعلم بحدوث هذه المحدثات علم ضروري لا يحتاج إلى دليل، وذلك معلوم بالحس أو بالضرورة : إما بإخبار يفيد العلم الضروري، أو غير ذلك من العلوم الضرورية) [6] ولقد جاء القرآن مشيراً ومنبهاً إلى هذه الحقيقة الكبرى فأول سورة نزلت كان فيها إشارة إلى هذه الظاهرة في عمومها، وإلى ظاهرة خلق الإنسان بصفة خاصة.

---

(١) سورة الرحمن – الآية ١٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن – مادة خلق – ص ٢٩٦.

(٣) سورة النحل – الآية ١٧.

(٤)مفردات ألفاظ القرآن – مادة خلق – ص ٢٩٦.

(٥) سورة آل عمران بعض آية ١٩١.

(٦) درء تعارض العقل والنقل – ج٧ – ص ٢١٩.

قال -تعالى-:﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾.[١]

(ذكـــر الخلق مطلقاً، ثم خص خلق الإنسان أنه خلقه من علق.وهذا الأمر يعرفه جميع الناس بالضرورة أن كل إنسان خلق بعد أن لم يكن وأن خلقه حدث في بطن أمه).[٢]

إن الأمـــر العظـــيم اللافـــت للانتباه في هذا الخلق هو أن الله – تعالى – (خلق الإنسان من علق وجعل الناس جميعهم يشتركون في هذا. فأصبح الناس هم المستدلين، وهـــم أنفســـهم الدلـــيل والبرهان والآية. فالإنسان هو الدليل وهو المستدل، وهو الدليل يعلمه الإنسان من نفسه كلما نظر إلى خلقته وخلقة بنى جنسه، وتدبر في ذلك، فيستدل من وراء ذلك على مبدأ الخلق والمعاد).[٣] قال – تعالى – : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾.[٤]

وقـــــال – تعالـــى- : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧ ﴾.[٥]

ويعلـــق الشـــيخ "ابـــن تيمـــيه" – رحمـــه الله – على ذلك تعليقاً جميلاً فيقول : (فالإستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صـــحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وبينها وأرشد إليها، وهي عقلـــية فـــإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ومولوداً ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرســـول أو لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شـــرعي لان الشـــارع اســـتدل بـــه وأمـــر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته).[٦]

---

(١) سورة العلق – آية ١ – ٢.

(٢) أنظر مجموع الفتاوى – ابن تيميه – ج١٦ – ص ٢٦٠.

(٣) أنظر مجموع الفتاوى – ابن تيميه – ج ١٦– ص ٢٦٢ – ٢٦٣.

(٤) سورة مريم – بعض الآية ٩

(٥) سورة مريم – بعض الآية ٦٧.

(٦) النبوات – ص٥٢.

وبمـــا أن الإنســـان هو سيد المخلوقات في هذا الكون، وقد شرفه – الله – تعالى بالتكلـــيف، وهـــو المعنـــي بخطاب رب العالمين في شرعه – تعالى–، لذلك فقد لقي الاســـتدلال بخلق الإنسان على الخالق – عز وجل – عناية خاصة في القرآن–الكريم– وبالغة الأهمية والخطورة، وقد جاء ذكر ذلك في آيات متعددة، وبصور مختلفة، نقرؤها فـــلا نملـــك أمام هذا الإعجاز الخلقي البديع إلا الإيمان بالخالق القادر على كل شئ – سبحانه وتعالى–.

ومن هذه الصور الرائعة والتي تفوق كل بيان قوله –تعالى– : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1] يقول: "الشنقيطي" – رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية : (وأن من غرائب صنعه وعجائب قدرته نقله الإنسان من النطفة، إلى العلقة، ومن العلقة، إلى المضغة... الخ مع أنه لم يشق بطن أمه بل هو مستتر بثلاث ظلمات : وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة المنطوية على الجنين، وذلك في قوله –تعالى– : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾. [2]

ويتابع " الشنقيطي" –رحمه الله– تفسيره فيقول: (فسبحانه جل وعلا ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته، وما أظهر براهين توحيده، وقد بين في آية المؤمنون هذه : أنه يخلق المضغة عظاماً، وأنه يركب بعض تلك العظام مع بعض، تركيباً قوياً، ويشد بعضها مع

---

(١) سورة المؤمنون – الآيات ١٢-١٤.

(٢) سورة الزمر – بعض الآية ٦.

بعـــض، على أكمل الوجوه وأبدعهـــا، وذلك في قوله : ﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1] والأسر : شد العظام بعضها مع بعض...). [2]

وقوله -تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .[3]

يقـــول " ابن كثير" – رحمه الله – (بين – تبارك وتعالى – أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته [وهو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً] أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله [ومنكم من يتوفى من قبل] أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطاً ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة).[4]

كذلـــك ومـــن الآيات الدالة على قدرته – تعالى – في خلق الإنسان ما صرح به القـــرآن في قوله -تعالى-: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.[5]

وقولـــه -تعـــالى- : ﴿ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾.[6]

يقول "ابن كثير" – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : (أي أما كان الإنسان نطفة ضـــعيفة مـــن ماء مهين يمنى يراق من الأصلاب في الأرحام.[ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ

---

(١)سورة الإنسان- بعض الآية ٢٨.

(٢) أضواء البيان تفسير القرآن بالقرآن ج٥ – ص ٧٧٨ – ٧٧٩ – ٧٨١.

(٣) سور غافر – آية ٦٧.

(٤) تفسير ابن كثير –ج٤ – ص ٨٧.

(٥) سورة النجم – أية ٤٥ – ٤٦.

(٦) سورة القيامة الآيات – ٣٧ – ٣٨- ٣٩.

فَسَوَّىٰ] أي فصـــار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً آخر سويا سـليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره.)[1] إن من عجيب خلقه – عز وجل – أن ظاهـــرة الزوجية هذه لم يخص الإنسان بها فقط، بل جعل ذلك حتى في المخلوقات الأخرى كالحيوان والنبات.

قال – تعالى- : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [2]

جاء في تفسير "ابن كثير" لهذه الآية قوله : (أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض وليل ونهار وشمس وقمر وبر وبحر وضياء وظلام وإيمان وكفر وموت وحياة وشقاء وسـعادة وجنة ونار حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال – تعالى- : [ولعلكم تذكرون] أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له) [3].

يقـول "القاسمي" (والإشارة إلى الإبداع في الصنع إذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكـر والأنثى في الحيوان يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل، كمـا يزعم بعض الجاحدين، فإن الأجزاء الأصلية في المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر أو كون الأنثى، فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكراً وتارة أنثى دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل،محكم فيما يضع ويصنع)[4]

كذلك ومن آيات الخلق المعجزة الدالة على خالقها – عز وجل – اختلاف لغات، وأشكال، وألوان هذه المخلوقات وعلى رأسها الإنسان، فقد اقتضت حكمته – عز وجل – أن يكـون لكـل مـنهم لونه، وشكله، ولغته التي يتميز بها عن غيره من الأجناس الأخرى، ولو كان ذلك بفعل الطبيعة أو المادة لما وجدنا ذلك الاختلاف الواسع في تلك المخلوقات.

---

(١) ٠تفسير ابن كثير – ج٤ – ص ٤٥٢.

(٢) سورة الذاريات – آية ٤٩.

(٣) ج٤ – ص ٢٣٧.

(٤) دلائل التوحيد – ص ٥٢.

يقـول - عـز وجـل - : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١).

يقول "الشنقيطي" في تفسير هذه الآية : (إن اختلاف ألوان الآدميين واختلاف ألوان الجبال، والثمار، والدواب، والأنعام كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته، واستحقاقه للعبادة وحده. قال - تعالى- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(٢) واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر-جل وعلا- وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال).(٣)

وقوله - تعالى- : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾. (٤)

وقوله -تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٥).

---

(١) سور الروم - آية ٢٢.

(٢) سورة فاطر، آية ٢٧ - ٢٨ .

(٣) أضواء البيان تفسير القرآن بالقرآن - ح ٦ - ص ٤٨٦.

(٤) سورة الرعد - آية ٤.

(٥) سورة الأنعام - آية ٩٩.

يقــول "ابن كثير" – رحمه الله – في تفسير هذه الآية [وهو الذي أنزل من السماء ماء] أي بقدر مباركاً ورزقاً للعباد وإحياء وغياثاً للخلائق رحمة من الله بخلقه [فأخرجنا بــه نبات كل شيء] كقوله [وجعلنا من الماء كل شيء حي] [فأخرجنا منه خضراً] أي زرعاً وشجراً أخضر ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ولهذا قال – تعالى- : [نخرج مــنه حــباً متراكــبا] أي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها [ومن النخل من طلعها قــنوان] أي جمع قنو وهي عذوق الرطب [دانية] أي قريبة من المتناول.. [وجنات من أعــناب] أي ونخرج منه جنات من أعناب.. [والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه] قــال "قــتاده" وغيره متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض ومتخالف في الــثمار شــكلاً وطعمــاً وطبعاً وقوله – تعالى- [انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه] أي نضجه قاله "البراء بن عازب" و"ابن عباس" و"الضحاك" و"عطاء الخراساني" و"السدى" و"قــتاده" وغــيرهم أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطباً صــار عنــباً ورطــباً وغــير ذلك مما خلق -سبحانه وتعالى- من الألوان والأشكال والطعــوم والــروائح... ولهذا قال ها هنا [إن في ذلكم] أيها الناس [لآيات] أي دلالات علــى كمــال قــدرة خــالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته [لقوم يؤمنون] أي يصدقون ويتبعون رسله).[1]

إذاً هــذا الاخــتلاف لــم يقتصر على جنس أو نوع بعينه بل هو عام في جميع المخلوقات، وقد جعله الله – تعالى – بهذه الصورة من الاختلاف في الألوان والأشكال، وفــي اللغــة ليكون شاهداً على قدرته – تعالى – في الخلق، وهذا دليل حسي في هذا الكــون المشاهد للرد على من لا يؤمنون إلا بالحس والمشاهدة القائلين بفعل الطبيعة أو المادة.

كذلــك ومــن بديع خلقه – تعالى – وكمال قدرته – عز وجل – على الخلق، أنه خلق في الإنسان السمع والبصر والفؤاد، وقد جاء ذكر ذلك في قوله -تعالى- : ﴿ وَٱللَّهُ

(١) تفسير ابن كثير – ج٢ – ص ١٥٩ – ١٦٠.

أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢).

جاء في " تفسير ابن كثير " قوله : (أي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً [وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة] أي العقول والإدارك [قليلاً ما تشكرون] أي قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره).(٣)

يقول " القاسمي " : (إن نفس الإنسان وخلقه وتكوين أعضائه من أعظم الأدلة على خالقه وفاطره) (٤).

نعم هكذا هو الإنسان في مادته التي خلق منها وأعضائه وأجزائه التي ركب جسده منها، وكذلك أطواره وأحواله التي يتقلب فيها وينتهي وضعه بها، كل ذلك يشير وبصورة واضحة وأكيدة إلى خالقه - سبحانه وتعالى - وإذا كان الأمر كذلك فلا أحد يستحق العبادة سواه.

قال- تعالى - : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.(٥)

روى " البخاري " بسنده عن " جبير بن مطعم " - رضى الله عنه - أنه لما سمع هذه الآية قال : [كاد قلبي أن يطير](٦) وفي لفظ [وذلك أول ما وقر في قلبي].(٧)

---

(١) سورة النحل - آية ٧٨.

(٢) سورة الملك - آية ٢٣.

(٣) ح ٤ - ص ٣٩٩.

(٤) دلائل التوحيد - ص ٥٢.

(٥) سورة الطور آية ٣٥.

(٦) صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الطور - حديث رقم ٤٥٧٣ - ح ٤ - ص ١٨٣٩.

(٧) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بدراً - رقم الحديث ٣٧٩٨ - ح٤ - ص ١٤٧٥.

يقــول الشــيخ "ابن تيميه" : (فإن هذا تقسيم حاصر يقول : أخلقوا من غير خالق خلقهــم ؟ فهذا ممتنع في بداهة العقول. أم هم خلقوا أنفسهم ؟ فهذا أشد إمتناعاً. فعلم أن لهــم خالقــاً خلقهم. وهو – سبحانه – ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التي استدل بها فطرية، بديهية، مستقرة في النفوس، لا يمكن لأحد إنكارها. فلا يمكــن لصحيح الفطرة أن يدعي وجود حادث بدون محدث أحدثه، ولا يمكنه أن يقول هو أحدث نفسه) (١).

وكمــا أن الله – تعالى – قد لفت الأنظار إلى خلق الإنسان وما فيه من آيات دالة علــى قدرتــه – تعالى – في الخلق، كذلك أشار إلى خلق السموات والأرض وكونهما أكبر من خلق الإنسان، وما فيهما من مخلوقات علويها وسفليها تنطق بعظمته في الخلق والإبداع.

قــال – تعالى –: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .(٢)

وقال – تعالى – : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴿١٠١﴾ ﴾ .(٣)

وقال – تعالى –: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .(٤)

وقال – تعالى – : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ .(٥)

---

(١) الرد على المنطقيين – ص ٢٥٣ – وانظر مجموع الفتاوى – ح ٢ – ص ١١.

(٢) سورة غافر آية ٥٧.

(٣) سورة يونس – عليه السلام – بعض الآية ١٠١.

(٤) الأعراف– بعض الآية ١٨٥.

(٥) الشورى – بعض الآية ٢٩.

وقـــال -تعالى- : ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١).

وقـــال - تعـــالى - : وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ ﴿٨٥﴾ ﴾(٢).

إن الله - تعـــالى - يلفـــت أنظار عباده هنا إلى خلقه العظيم لهذا العالم سماواته وأرضه وأنه لم يخلق ذلك باطلاً بل خلقها بالحق وإن في ذلك لآية للمؤمنين.

تلك الآية التي يجب على كل مؤمن التمعن والتدقيق بها لكي نصل إلى كل معنى من المعاني التي أشارت إليها هذه الآيات.

يقـــول " ابن القيم " - رحمه الله - : (خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق ولم يخلق ذلك باطلاً بل خلقه صادراً عن الحق آيلاً إلى الحق مشتملاً على الحق فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له... فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته فمصدر خلقه - تعالى - وأمره عن كمال علمه وحكمته وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصـــادر عـــن الموصـــوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقاً.. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله وأن لقاءه حق لا ريب فيه... وأما الحق الذي هو غايـــة خلقها فهو غاية تراد من العباد وغاية تراد بهم فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله - تعالى - وصفات كماله - عز وجل - وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً فيكون هو وحده إلههـــم ومعـــبودهم ومطاعهم ومحبوبهم... فهذه الغاية هي المراده من العباد وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده وأما الغاية المراده بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب) (٣).

---

(١) سورة العنكبوت - آية ٤٤.

(٢) سورة الحجر بعض الآية ٨٥.

(٣) بدائع الفوائد - ص ١٦٢ - ١٦٤ وانظر أضواء البيان تفسير القرآن بالقرآن - الشنقيطي - ح ٧ - ص ٣٦٥ - ٣٦٨.

إن هذا الخلق، وهذا الإبداع قد تفرد به رب العالمين – سبحانه وتعالى – وقد بين لنا ذلك في آيات كثيرة جداً منها ما سبق ذكره ومنها ما يصعب حصره هنا في هذا المبحث البسيط وكلها تشير إلى قدرته وعظمته في الخلق قال – تعالى- : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ (١).

ثم قال – عز وجل – متحدياً بها الكفار ومبيناً لهم عجزهم وعجز ما يعبدون من دون الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ .(٢)

إن الحقيقة التي جاءت بها هذه الآية أن كل هذه المخلوقات لا يمكن أن تحدث بنفسها لأنها لا تحمل في طبيعتها السبب الكافي لوجودها، كما وأنها لا تستطيع أن تمنح غيرها شيئاً من ذلك لأنها فاقدة له، بل هي تحتاج وتفتقر لمن يوجدها وهو الله – سبحانه وتعالى – الذي تحتاج إليه جميع الخلائق، ولذلك سمي بالصمد.

يقول "ابن تيميه" – رحمه الله – : (الصمد : السيد الذي يصمد إليه في الحوائج)(٣).

ويقول : (ومعلوم أن المحدث الواحد لا يحدث إلا بمحدث. فإذا كثرت الحوادث وتسلسلت كان احتياجها إلى المحدث أولى. وكلها محدثات. فكلها محتاجة إلى محدث. وذلك لا يزول إلا بمحدث لا يحتاج إلى غيره، بل هو قديم أزلي بنفسه – سبحانه وتعالى-).(٤)

ويقول الدكتور "حسن هويدي" : (منذ امتياز هذا الإنسان بالإدراك، وإشراق أشعة عقله على الوجود، تساءل –ولا يزال– عن مبدئه ومنتهاه، فهو يتساءل: من أين أتى؟

---

(١) سورة لقمان – آية ١١.

(٢) سورة الحج – بعض الآية ٧٣ والآية ٨٤. .

(٣) مجموع الفتاوى – ح ١٧ – ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق – ح ١٦ – ص ٤٤٥.

وإلى أين يصير ؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالم إنما كان من رحم أمه، أو من نطفة أبيه، لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة، دون النظر إلى المبدأ الأول والبحث عن السبب الأساسي الذي ترجع إليه جميع الأسباب.

ولهـذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية، والذي ولد معها وما زال يلازمها، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل، فنشأت أحكام مختلفة، ونظريات متباينـة، وكان منهم مخطئ ومصيب. غير أننا إذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من السماء والأرض، نرى أن المطر ينهمر من سحاب، وأن الثمر يحصل من شجر، وأن الشجر ينبـت من الماء والتراب، وأن الماء ينشأ من عنصري (الأوكسجين) و(الهيدروجين)، ولـم يشاهد الإنسان منذ فتح عينيه على الوجود، أن حادثاً حدث من غير سبب، أو أن شيئاً وجد من غير موجد، حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يتصور العقل خلافه، ولا يطمئن إلى غيره، ولا يأبى الإقرار به إلا عقل مريض، شأن المعتوهين، أو عقـل قاصر، شأن الطفل الذي يكسر الإناء ثم يقول : إنه أنكسر بنفسه.. إذن فقولنا : (لابد لكل حادث من محدث) أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره، وبالتالي : محال على حادث أن يحدث بذاته، وعلى شيء أن يوجد بغير موجد. وإليه الإشارة في القرآن -الكريم- ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١).

نقـول بـناء على هذه القاعدة : إن عالمنا هذا من أرض وجبال، وبحار وأنهار، وشـجر ودواب، وشموس، وأقمار، لابد له من محدث، وأن هـذه الحوادث الفرعيـة الكثـيرة مندفعة عن أسباب، وهذه الأسباب مندفعة عن أسباب أخرى أقل من الأولى، ولابـد أن نصل بالنتيجة إلى سبب لجميع هذه المسببات، ومحدث لجميع هذه الحادثات، لأنـنا كلما رجعنا إلى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات، قلت العوامل الدافعة، حتى نصل أخيراً إلى مسبب واحد).(٢)

---

(١) سورة الطور – آية ٣٥.

(٢) الوجود الحق – ص ١٥ – ١٦ – ١٧ النص هنا مطول ولأهميته لا بد من ذكره كما هو.

إذاً هــذه المحدثات لابد لها من محدث أو موجد لا يحتاج إلى غيره بل هو أزلي يــرجع إلــيه أمــر الخلائق جميعها، تسجد له الأحياء وتطمئن إليه القلوب وهو الله – سبحانه وتعالى – الخالق لهذا الكون.

إن مما يجب التنبيه إليه هنا أن التسلسل في المؤثرات والعلل إلى مالا نهاية ممتنع باتفــاق العقلاء كما أشار إلى ذلك الشيخ " ابن تيميه " – رحمه الله – في قوله : (وأنه يمتــنع تسلسل المحدثات بأن يكون للمحدث محدث، وللمحدث محدث، إلى غير نهاية، وهذا يسمى تسلسل المؤثرات والعلل، والفاعلية، وهو ممتنع باتفاق العقلاء).[1]

ويقول أيضاً : (والذي أخبرت به الرسل، ودلت عليه العقول، واتفق عليه جماهير العقلاء من الأولين والآخرين، أن الله خالق كل شيء، وأن كل ما سواه فهو مخلوق له. وكل مخلوق محدث مسبوق بالعدم).[2]

ويقــول الدكــتور "منصور حسب النبي" : (إنه نظام ولابد للنظام من منظم، وإنه مقصــود ولابد للقصد من قاصد مريد، وإنه وجود ولابد للوجود من موجد، وإنه إبداع ولابد للإبداع من مبدع).[3]

وهكــذا تشــير دلالــة الخلق والإبداع إلى خالق هذا الكون وهو الله – تعالى – المستحق للعبادة دون سواه.

ثالثاً : دلالة التسوية والإتقان

لقد نبه القرآن –الكريم– إلى هذه الدلالة فقال – تعالى– : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾.[4]

---

(١) مجموع الفتاوى – ح ١٦ – ص ٤٤٥.

(٢) لرد على المنطقيين. ابن تيمية. ص ٣٨١.

(٣) الكون والإعجاز العلمي للقرآن – ص ٤٥.

(٤) سورة الإنفطار – الآيات ٦ – ٧ – ٨

وقال – تعالى – : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ ﴾. [١]

يقـول "ابـن جرير الطبري" – رحمه الله – : (الذي خلق الأشياء فسوى خلقها، وعدلها، والتسوية التعديل). [٢]

ويقـول "ابن كثير" – رحمه الله – (أي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات). [٣]

ويقول "ابن القيم" – رحمه الله – : (فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه). [٤]

هـذا يعني أن المراد بالتسوية هو إحسان الخلق وإتقانه وإكمال لصورته التي هو عليها بحيث يكون المخلوق مهيئاً لأداء وظيفته التي خلق لها.

ولقـد أشـار القرآن إلى هذه الدلالة في كثير من آياته فقال – سبحانه وتعالى– : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾. [٥]

وقال : ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍۚ ۝٨٨ ﴾ . [٦]

وقـال – تعـالى – أيضـاً : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾. [٧]

يقـول "محمـد العـدوي" : (أي خلقكـم فأحسن خلقكم، كما قال في آية أخرى ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ۝٤ ﴾ [٨] أي فـي أحسـن اعتدال وأفضل قـوام، فقوامـه أفضل تقويم، وركبه أحسن تركيب، ومن إحسان الله لتصويره أن خلقه علـى نحـو يصلح به لأن يسخر هذا الكون حيوانه ونباته ومعادنه فخلق فيه من آلات

---

(١) سورة – الأعلى – الآية ٢

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – ج٣٠ – ص ١٥٢

(٣) تفسير ابن كثير – ج٤ – ص ٥٠٠

(٤) مفتاح دار السعادة – ج ١ – ص ٨٤

(٥) سورة السجدة – آية ٧

(٦) سورة النمل – بعض الآية ٨٨.

(٧) سورة التغابن – الآية ٣

(٨) سورة التين – الآية ٤

العمل ما يصلح به للصناعة والزراعة، ومن العقل والتفكير ما يستطيع به ذلك التسخير).[1]

وقال – تعالى – أيضاً : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ۝٧ ﴾.[2]

يقول "ابن كثير" – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : (يقول – تعالى – مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها).[3]

هذه الحقيقة تتجلى في جميع المخلوقات، ويشعر المرء بها بفطرته، ويدركها ببداهة عقله، فهي ماثلة أمام ناظره، ومتجسدة في كل ما يدور حوله، وفي كل ما يشاهده في هذا العالم المحسوس.

وهذا يعني أننا نراها، ونحس بها في كل وقت، لأنها ملازمة لنا في كل أطوار حياتنا وأحوالنا وتقلباتنا وليس هناك مجال لإنكارها.

صدق الله العظيم حيث قال :

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾.[4]

جاء في تفسير "ابن كثير" – رحمه الله – قوله : (أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدلائل خارجية (في الآفاق)..... ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع – تبارك وتعالى – وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها).[5]

---

(١) آيات الله في الآفاق – ص ١٢٥

(٢) سورة السجدة – بعض الآية ٧

(٣) تفسير ابن كثير – ج٣ – ص ٤٥٧

(٤) سورة فصلت – آية ٥٣

(٥) ج٤ – ص ١٠٥

يقول الدكتور "عبد المنعم الحفني" : (والصورة عن الإنسان عند الناس هي أوضح الصور عندهم عن سائر مخلوقات الله، وأوسع المعارف التي يختزنها عقل الإنسان هي معرفته بنفسه كإنسان، ولذلك فإن هذه الصورة هي أقرب إليه من أي شيء آخر يمكن أن يحتج به على وجود الله، ودلائل هذه الصورة أوضح وبراهينها أصح، فالإنسان صنعة الله صاغها بيده وبنى هيكله بحكمته، ويذهب أهل العلم إلى أنه في الإنسان تجتمع كل المخلوقات، فلئن كان كل مخلوق أختصه الله بصفة فالإنسان قد أختصه الله بكل الصفات، ومنحه العقل أكبر نعم الله على الإنسان).[١]

ويقول "القاسمي" : (يرى كل من له قلب أن أنوار وجود الله –تعالى– " تسطع على صفحات ذرات الكون، فالشمس ليس دونها حجاب، فإنه لما كان في غاية النظام والإحكام استلزم بداهة وجود مدبر عالم الصنع بيانه أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على حال من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبة، ولا تنتهي غاياته، فبالضرورة هذا الترتيب المحكم لا يكون له وجود لولا وجود خالق مدبر لنظامه مدبر لسيره في سننه).[٢]

إن هذه التسوية وهذا الإتقان بل وهذا النظام الدقيق، والإحكام المنضبط الذي يعم العالم بأسره، نراه في هذا الكون العجيب المدهش، في شمسه وقمره، وفي نجومه وكواكبه، وفي سمائه وأرضه، وفي ليله ونهاره، وفي الأمطار والمياه والرياح، وفي النبات والحيوان إلى غير ما هنالك من مخلوقات في هذا الكون الفسيح.

يقول الدكتور "عبد العليم خضر" : (كل الوجود في سماء الله وأرضه هو بعض مظاهر قدرته – تعالى – فلله الوجود كله وهو أكبر مما في السماوات والأرض وما تحت الثرى).[٣]

---

(١) البراهين العقلية على وجود الله – ص ٤٣

(٢) دلائل التوحيد – ص ٥١.

(٣) هندسة النظام الكوني في القرآن – الكريم – ص ٩٩

قال – تعالى– : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾.(١)

يقول "ابن كثير" في تفسير هذه الآية : يقول الله – تعالى – آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته [أفلا ينظرون إلى الإبل] فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب فإنها في غاية القوة والشدة، [وإلى السماء....] أي كيف رفعها الله – عز وجل – عن الأرض هذا الرفع العظيم... [وإلى الجبال....] أي جعلت منصوبة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها...[وإلى الأرض...] أي كيف بسطت ومدت ومهدت).(٢)

الحقيقة أن القرآن – الكريم – حينما يشير إلى هذه الظواهر الكونية، إنما يشير إليها على سبيل إيقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرها ويصل من خلال ذلك إلى الخالق المعبود – جل جلاله – كما وأن فيها تنبيهاً للناس لما أودع في فطرهم من إدراك لهذه الحقيقة الكبرى. ولذلك فقد أشار القرآن إلى هذه الدلالة في مواضع متعددة وبصور مختلفة وهي كالتالي:–

قال –تعالى– : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣ ﴾.(٣)

يقول " ابن جرير الطبري " : (إن الله – تعالى – خلق الأرض، وقدر فيها أقواتها، ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها، أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل، لأنه جل ثناؤه قال : [والأرض بعد ذلك دحاها]، والمعروف من معنى [بعد] أنه خلاف

---

(١) سورة الغاشية – الآيات ١٦ – ٢٠

(٢) التفسير – ج٤ – ص ٥٠٣ – ٥٠٤.

(٣) سورة النازعات – الآيات ٢٧ – ٣٣

معـــنى " قبل " وليس في دحو الله الأرض بعد تسويته السموات السبع، وإغطاشه ليلها، وإخراجه ضحاها، ما يوجب أن تكون الأرض خلقت بعد خلق السموات لأن الدحو إنما هو البسط في كلام العرب، والمد.

وقولـــه [أخـــرج منها ماءها] يقول : فجر فيها الأنهار، [ومرعاها] يقول : أنبت نباتها).[1]

وقال – تعالى – : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.[2]

جاء في "تفسير الطبري" : [البروج] : قصور في السماء وقيل : النجوم الكبار.

[وجعل فيها سراجاً] أي أنه جعل فيها الشمس وهي السراج.

وقيل : النجوم سرج إذا كان يهتدي بها.

[وهـــو الذي جعل الليل والنهار خلفة]. قيل : أسود وأبيض. وقيل : إن كل واحد منهما يخلف صاحبه إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا.

وقوله [لمن أراد أن يذكر] أي جعل الليل والنهار، وخلوف كل واحد منهما الآخر حجة وآية لمن أراد أن يذكر أمر الله، فينيب إلى الحق.

[أو أراد شـــكوراً] أو أراد شـــكر نعمـــة الله التي أنعمها عليه في اختلاف الليل والنهار).[3]

إن مما لا شك فيه أن في اختلاف الليل والنهار إشارة إلى قدرته – تعالى – على هـــذا الإتقـــان، وهذه التسوية والتي لا يمكن أن تكون بهذه الدقة المتناهية إلا من خالق عظيم، ومن كانت هذه صفاته فهو المستحق للعبادة وحده دون سواه.

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج ٣٠ – ص ٤٦ – ٤٧

(٢) سورة الفرقان – الآيتان ٦١ – ٦٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج ٢٩ – ص ٢٩ إلى ٣٢.

وقـــال – تعالى – : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾ .(١)

يقـــول " ابن كثير " – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : (أي بل هو مصطحب مســـتو ليس فيه اختـــلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل ولهذا قال –تعالى– [فارجع البصر هل ترى من فطور] أي أنظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً).(٢)

إذاً كـــل هذه الآيات ما هي إلا دلالات تؤكد خلق الله – تعالى – لهذا الكون، فهو الخالق الإله وحده وما سواه باطل.

رابعاً: دلالة التقدير والهداية

التقدير: بمعنى (تبيين كمية الشيء. يقال : قدرته وقدرته، وقدره بالتشديد : أعطاه القدرة.

يقال : قدرني الله على كذا وقواني عليه، فتقدير الله الأشياء على وجهين:

أحدهما : بإعطاء القدرة.

والثانـــي: بـــأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة).(٣)

أما المراد بالهداية: فإن الله – تعالى – بعد أن خلق الكائنات ومنح لكل كائن هذا الوجـــود، وقـــدر له وظيفـــته، وحدد له غايته هداه إلى هذه الغاية التي أوجده لأجلها، وألهمه طريق تحقيقها.

ولقد أشار القرآن إلى هذه الدلالة فقال–تعالى–:﴿ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾.(٤)

---

(١) سورة الملك – بعض الآية ٣.

(٢) ج ٤ – ص ٣٩٦.

(٣) مفردات الفاظ القرآن – الأصفهاني – ص ٦٥٨

(٤) سورة الأعلى – آية ٣.

يقــول " ابن جرير " – رحمه الله – (والصواب من القول في ذلك عندنا : أن الله عم بقوله [فهدى] الخبر عن هدايته خلقه، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيل الخير والشر، وهدى الذكور لمأتى الإناث، فالخبر على عمومه، حتى يأتي خبر تقوم به الحجة، دال على خصوصه).[١]

ويقــول " ابــن القــيم " – رحمه الله – : أي (قدر له أسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها).[٢]

إن ظاهــرة التقدير والهداية تسود جميع الكائنات وقد نبه القرآن إلى ذلك في قوله – تعــالى – على لسان "موسى" – عليه السلام– : – ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.[٣]

يقول " ابن كثير " في تفسير هذه الآية : (أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه).[٤]

ذلــك يعنــي أن الله – تعالى – بعد أن قدر مقادير الخلائق هداهم إليها وفي ذلك تأكيد على أن دلالة الهداية والتقدير عامة وشاملة لكل كائن وقد لفت القرآن الأنظار إلى ذلك فقــال – تعالى – ﴿ وَكُلُّ شَىۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾[٥] ، وقــال – تعالى– : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [٦] وقــال– تعــالى– : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾.[٧]

إن هــذا الــتوازن وهذا التقدير بهذه الصورة الدقيقة التي نشعر بها ونعيشها بل ونشــاهدها فــي هذه المخلوقات لا يمكن أن يكون إلا بفعل مدبر ومنظم قدير وهو الله

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج٣٠ – ص ١٥٢

(٢) مفتاح دار السعادة – ج ١ – ص ٨٤.

(٣) سوره طه – آية ٥٠.

(٤) تفسير ابن كثير – ج٤ – ص ٥٠٠.

(٥) سورة الرعد – بعض الآية ٨

(٦) سورة القمر – آية ٤٩.

(٧) الفرقان – بعض الآية ٢

– سبحانه وتعالى – ويشير القرآن إلى هذه الحقيقة من خلال التنبيه إلى هذه الدلالة في المخلوقات بل وفي أعظمها وأكبرها.

فقال – تعالى – : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾.(١)

وقال – تعالى– : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ ﴾.(٢)

جاء في تفسير "ابن كثير" (ذكر – تعالى – خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والروابي والرمال وما أنبت فيها من الزرع والثمار المتناسبة، وقال "ابن عباس" – رضي الله عنه– : [من كل شيء موزون] أي معلوم وكذا قال "سعيد بن جبير" و"عكرمة" و"أبو مالك" و"مجاهد" و"الحكم بن عيينه" و"الحسن بن محمد" و"أبو صالح" "وقتادة" ومنهم من يقول مقدر بقدر. وقال "ابن زيد" من كل شيء يوزن ويقدر بقدر).(٣)

إن ذلك يعني أن هذه الأرض التي يسكنها الإنسان وفيها معاشه تتخذ صوراً عديدة من التوازن في التركيب والمقادير الدقيقة مما يجعلها ملائمة للسكنى والحياة، ولقد أثبت العلم ذلك وأكده بصورٍ متعددة، ومن هذه الصور وعلى سبيل المثال ما يلي:

(أ) (بعد الأرض عن الشمس بمسافة ثابتة ومقدرة بحيث لو بعدت الأرض أكثر من هذه المسافة المحددة لأدى ذلك إلى نقصان كمية الحرارة التي نتلقاها من الشمس فيتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتتجمد الكائنات الحية.

ولو نقصت هذه المسافة لزادت كمية الحرارة ولأصبحت الحياة على سطح الأرض مستحيلة.

---

(١) سورة فصلت – الآيات ٩ – ١٠

(٢) سورة الحجر – الآية ١٩.

(٣) ج٢ – ص ٥٤٨.

(ب) دوران الكـــرة الأرضـــية حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة، ولو أنها أكملت هذه الـــدورة فـــي مدة أطول لأدى ذلك إلى طول الليل والنهار ولهلك الناس من حر وبرد، ولو كان العكس ودارت الأرض حول نفسها في مدة أقصر فإن ذلك يؤدي إلـــى قصـــر الـــنهار واللـــيل، إضافة إلى ذلك فإن هذا الإسراع يؤدي إلى تفكك الأرض وتناثر أجزائها وكل شيء على سطحها ولأصبحت الأرض غير صالحة للسكن.

(ج) لو كان سمك قشرة الأرض أكبر مما هي عليه الآن، أي من الحجم المحدد لها، لحدث تبعاً لذلك امتصاص لغازي ثاني أكسيد الكربون والأكسجين الموجودين في الجـــو بواسطة هذه الزيادة ولأستحال نشوء النبات اللازم للحيوان والإنسان وهذا يؤدي إلى انعدام الحياة على سطحها.

(د) ولو كانت الأرض عبارة عن كرة ملساء ليس فيها منخفضات أو تعاريج لغطاها الماء الموجود بغلاف مائي ولأصبحت غير صالحة للحياة).[١]

يقول الدكتور "عبد العليم خضر" : (وفي الأرض نجد قانون التوازن يتمثل في كل شـــيء... أن حجمها بالنسبة للكون في توازن مذهل... ولو كان حجمها أكبر من ذلك لتضـــاعفت جاذبيـــتها الحالية الأمر الذي كان يؤدي إلى إنكماش غلافها الجوي... ولو كـــان حجم الأرض ضئيلاً..... فإنها لا تستطيع إمساك الغلاف الجوي حولها وكذلك بخار الماء... وفي مثل تلك الحالة تستحيل الحياة..).[٢]

ويقول : (أن قانون التوازن يعرض نفسه بحزم وفق معادلات القانون الإلهي العام الأعظـــم للكـــون... وحيث أن الكون غير محدود فإنه مهما تمدد وانتشر فإن كثافة أي جـــزء كبير من الفضاء لا تتغير... ومن ثم يمكن القول إن الكون في حالة توازن تام رغم انتشاره وتمدده).[٣]

كذلك وتتجلى هذه الدلالة في خلق السموات وقد خص القرآن السماء الدنيا بالذكر ليتمكن الإنسان من مشاهدتها والتأمل فيها ورؤية عجائب قدرته – سبحانه وتعالى –

---

(١) مقتطفات من الكون والإعجاز العلمي الدكتور منصور حسب النبي – ص ٤١ – ٤٢

(٢) هندسة النظام الكوني في القرآن – الكريم – ص ٩٥

(٣) المرجع السابق – ص ٩٦

يقــول الدكــتور "منصور حسب النبي" : (والسماء التي تحيط بنا مباشرة تحتوي على الشمس والقمر وسائر الكواكب والأقمار والكويكبات تجري في مجاريها وتتحرك في مدارتها، وكل منها بمثابة لبنة من بناء عظيم أقامه الله حيث شد هذه اللبنات برباط الجاذبية، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينهما مما تتماسك به).[1]

قــال -تعــالى- : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.[2]
(

يقــول "ابــن جرير الطبري" في تفسير هذه الآية : (يقول – تعالى – ذكره : هذا الــذي وصــفت لكــم من خلقي السماء والأرض وما فيهما،وتزيين السماء الدنيا بزينة الكواكــب، علــى مــا بينــت تقدير العزيز في نقمته من أعدائه، العليم بسرائر عبادة وعلانيتهم، وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم).[3]

هكــذا نجــد أن هذا التوازن، وهذا التوافق في الخلق بهذه الدقة وهذا الانضباط يدحض قول القائلين بالمادة أو الطبيعة، كما وأنه لا يمكن أن يجري ذلك بالمصادفة كما يــزعم البعض، بل هو تقدير العزيز الحكيم – سبحانه وتعالى – من إذا قال للشيء كن فيكون.

يقول الدكتور "عبد المنعم الحفني" : (فالكون كله تنظمه غاية ويجري على نظام، والكواكــب فــيه تدور بحساب، والعناصر تأتلف وتفترق فيكون من ائتلافها وافتراقها نشوء الحياة ودوام الأحياء، وكل عضو في جسم الكائن، وكل خلية فيه يقصد به أو بها شيء ويتوخى بهما هدف، ومن ينظر مثلاً إلى اليد في الإنسان وكيف جاءت صياغتها على هذا الإحكام، والعظام فيها وعددها، وطريقة عملها مع بعضها، واتصالها بالذراع، والمــد الذي تبلغه، وقوة العضلات، والعين وحركتها وتركيبها والتفاعلات التي تجري

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن – ص ١٢٣ – ١٢٤

(٢) سورة فصلت – أية ١٢

(٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج ٢٤ – ص ١٠٠

فـيها، وكذلـك كـل حاسـة من الحواس، ليدرك فوراً أن كل شيء إنما كان بمقدار مقدر).[1]

هـذا يعني أن كل ما في هذا الكون من كائنات تخضع لهذه التنظيمات والتوافقات الإلهية المقدرة منه – سبحانـه وتعالى – كمـا جـاء ذلك في قولـه–عز وجـل– : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.[2]

وقولـه – تعالى – : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.[3]

وقوله – تعالى– : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾.[4]

وقولـه –تعالى– : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.[5]

إذاً هـذا الكـون الواسع بمخلوقاته الرائعة البديعة الخلق لا مجال فيه للصدفة أو العشـوائية بـل هناك توازن، وتنظيم، وترتيب، وتقدير من لدن خبير عليم، خلق هذا الخلق بقدر معلوم وهداه لما خلق له.

---

(١) البراهين العقلية على وجود الله – ص ٦٦.

(٢) سورة يس – الآيتان ٣٨ – ٣٩.

(٣) سورة الأنعام – الآية ٩٦.

(٤) سورة يونس – عليه السلام – الآية ٥.

(٥) سورة المرسلات – الآيات من ٢٠ – ٢٣

قال – تعالى- : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.(١)

وقال –تعالى- : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾. (٢)

يقول " ابن القيم " – رحمه الله – : (ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقير والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله – تعالى – في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار فأنزل الله – تعالى – : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (٣) فما أغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته فسل المعطي من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة فأغناها ما أعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير).(٤)

أما الآيات الدالة على هدايته – تعالى – للإنسان فهي كثيرة منها قوله –تعالى- ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾.(٥)

إن هذه الآية –الكريمة- وغيرها من الآيات –السابق ذكرها- تشير بالتأكيد إلى خالق هذا الكون وهاديه ومسيره إلى مقاديره التي قدرها له وهو الله – سبحانه وتعالى-

---

(١) سورة النحل – الآية ١٥.

(٢) سورة النحل – الآيتان ٦٨ – ٦٩.

(٣) سورة البقرة – آية ٢٦ .

(٤) مفتاح دار السعادة – ج١ – ص ٢٤٤

(٥) سورة لقمان – عليه السلام – الآية ٥ .

يقــول "محمــد العدوي" : (إن من تدبر آيات الهداية والإضلال، يرى أن الله – تعــالى – جــرت سنته بأن يهدي من هو أهل الهداية بسبب إنابته إلى ربه، وأخذه في ســبيل تعرف الحق، وتحكيمه لعقله وعدم إهمال مواهبه، كما جرت سنته إن من تكبر عــن معــرفة الحــق، وأعرض عن ذكر الله، وأتخذ إلهه هواه، وعطل سمعه وبصره وعقلــه، جدير بأن يطمس الله – تعالى – على قلبه ويصره عن فهم آياته، وهي سنن أساسها الحكمة والعدل).[1]

خامساً : دلالة التسخير والتدبير :

يقــول "ابن منظور" في معنى التسخير أي (كلفه ما لا يريد وقهره، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر، فذلك مسخر).[2]

ويقول "الأصفهاني" هو : (سياقه إلى الغرض المختص قهراً).[3]

إن من خلال التفكر والتدبر في هذا الكون، وفي أفاقة البعيدة بعداً شاسعاً، وكائناته التي لا تعد ولا تحصى، يتأكد لنا أن هذا الكون خاضع، ومقهور، ومذلل، ويتجلى ذلك فــي السنن والقوانين التي يسير عليها الكون بكل ما فيه من سماوات وأرضين وأفلاك وشموس ونجوم ونباتات وجبال وبحار وكائنات حيه وإنسان.

فكل هذه العوالم تسير مقهورة وفق هذه السنن والنواميس دونما تخلف، مما يشير بــل ويؤكد لنا وجود قاهر عظيم، قادر حكيم في خلقه وتدبيره، يسير هذه العوالم كيف يشاء، ويذللها ويسخرها لمن يشاء.

قــال تعــالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.[4]

---

(١) آيات الله في الأفاق – ص ٦٤.

(٢) لسان العرب – ج٢ – ص ١١٤

(٣) مفردات الفاظ القرآن – ص ٤٠٢

(٤) سورة العنكبوت –الآية ٦١

يقـــول " ابن جرير الطبري" – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية : (يقول الله – تعالى– ذكره : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من خلق السماوات والأرض فســـواهن، وسخر الشمس والقمر لعباده، يجريان دائبين لمصالح خلق الله، ليقولن الذي خلـــق ذلك وفعله هو الله [فأنى يؤفكون] يقول –جل ثناؤه– : فأنى يصرفون عمن صنع ذلك، فيعدلون عن إخلاص العبادة له).(١)

وقال – تعالى – : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝ ﴾.(٢)

جـــاء فـــي تفســـر " ابن جرير الطبري " – رحمه الله – قوله (يقول الله– تعالى ذكره– : [خلق السماوات والأرض.....] يقول يغشى هذا على هذا وهذا على هذا كما قـــال [يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل] وقوله [وسخر الشمس والقمر] يقول – تعـــالى – ذكره : وسخر الشمس والقمر لعباده، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب، ويعـــرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم [كل يجري لأجل مسمى] يقول : [كل] ذلك يعنـــي الشمس والقمر [يجري لأجل مسمى] يعني إلى قيام الساعة، وذلك إلى أن تكور الشـــمس، وتـــنكدر النجوم، وقيل معنى ذلك أن لكل واحد منهما منازل، لا تعدوه ولا تقصـــر دونه [ألا هو العزيز الغفار] لقوله – تعالى ذكره – : ألا إن الله الذي فعل هذه الأفعـــال وأنعـــم على خلقه هذه النعم هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها).(٣)

يقول الدكتور "حجازي" : (هذا الليل بجحافله وهدوئه وسكونه الملفوف في ظلام دامـــس إذا طرح شيء من هذا وألقي ثم جيء بدله بالنهار وضوئه وضجيجه وشمسه وحـــره... فـــيه ما فيه من دلائل العظمة وكمال القدرة... وهو الله الذي سخر الشمس والقمـــر وذللهما، كل يجري لأجل مسمى، وزمن معلوم ونظام محدود... وبعده تنفطر

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج ٢١ – ص١١.

(٢) سورة الزمر –الآية ٥.

(٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج ٢٣ – ص ١٩٢ – ١٩٣.

السماوات والأرضون ويجمع الله الشمس والقمر ويتبدل الحال غير الحال... وهذه مظاهر القدرة التي تدل على كمال العزة والسلطان).[1]

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تنبه الإنسان إلى هذه الدلالة العظيمة وبتأملها والتمعن فيها لا يملك المرء إلا السجود لخالقها ومدبرها وهو الله – تعالى –

وإن من هذه الآيات ما يشير إلى التسخير المطلق للكائنات التي يعج بها هذا الكون كقوله – تعالى – ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴿٥٤﴾ ﴾.[2]

وقوله – تعالى – : ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٦٤﴾ ﴾[3]

وقوله –تعالى– ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.[4]

كما وأن هناك من الآيات ما يشير إلى تسخير المخلوقات للإنسان وهذا يدل على مدى العناية الإلهية، وهي من نعم الله – تعالى – على عباده التي توجب عليهم شكره وحمده والثناء عليه.

يقول–سبحانه وتعالى–:﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ

---

(١) نقلاً من المنهج الإيماني للدراسات الكونية – ص ٢٨٠.

(٢) سورة الأعراف – بعض الأية ٥٤.

(٣) سورة البقرة – بعض الأية ١٦٤

(٤) سورة النحل – الأية ٧٩.

أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾. (١)

وقال – تعالى – : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ (٢)

وقال – تعالى – : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٣)

وقال – تعالى – : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴿٦٥﴾﴾. (٤)

وقال – تعالى – : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ ﴿١٥﴾﴾. (٥)

---

(١) سورة النحل – الآيات ٣ – ١٤.

(٢) سورة إبراهيم – عليه السلام – الآية ٣٣.

(٣) سورة لقمان – عليه السلام – الآية ٢٠.

(٤) سورة الحج – بعض الآية ٦٥.

(٥) سور الملك – بعض الآية ١٥.

يقــول الدكــتور "منصورحسب النبي" : (حقا إنها تنظيمات رائعة ونعم وأفضال مــتعددة تــدل علــى الخلــق والتدبير، وتدل أيضاً على أن الله يحب مخلوقاته ويهتم بــأمورهم، وأن الله ســخر لــنا مــا في الأرض جميعاً وجعلنا جديرين بالخلافة على الأرض.[1]

هكــذا تشــير هذه الدلالة إلى عظيم تسخيره وتدبيره وهيمنته وسلطانه – سبحانه وتعالى – على خلقه، فهو الخالق القاهر فوق عباده.

يقول – تعالى- : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.[2]

ويقول – تعالى- : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.[3]

ويقــول- تعــالى- ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾.[4]

جاء في " تفسير ابن كثير " – رحمه الله – : (أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلــى أقصــى تخوم الأرض السابعة..... وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة وسمك السماء خمسمائة سنة ، وقال "مجاهد" و "قتادة " و "الضحاك" النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مســيرة خمسمائة عام ولكنه يقطعها في طرفة عين ولهذا قال – تعالى – [في يوم كان

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن – ص ٤٦.

(٢) سورة يونس – عليه السلام – آية ٣.

(٣) سورة يونس – عليه السلام – آية ٣١.

(٤) سورة السجدة – آية ٥.

مقـــداره ألف سنة مما تعدون] أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه ودانت له العباد والرقاب الرحيم بعباده المؤمنين فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته وهذا هو الكمال، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل).[1]

وهكـــذا فإن كل ما في هذا الكون من دلالات مصحوبة بأقوى الحجج والبراهين تشـــير إلى الخالق المتصرف المدبر لشئون خلقه وهو الله – تعالى – إذاً الحقيقة التي يجب أن لا يغفل عنها عاقل أن من كان بمثل هذه الصفات فهو وحده المستحق للعبادة دون سواه، فكل ما سوى الله باطل ولا يخرج عن كونه مخلوقاً مقهوراً لله –تعالى–.

يقـــو الدكتور "عبد الكريم عثمان" : (وهكذا فإن الإنسان في تلمسه حقيقة الظواهر الكونـــية يعـــود دائماً إلى منطلق ثابت أكيد ينقذه من التخبط من الإحالات على أسباب غـــير صـــحيحة أحـــياناً وغير واقعية أحياناً كالعقل والطبيعة، أو الإحالة إلى كائنات أسطورية كما تفعل الوثنيات وكما تلبست بها كثير من الفلسفات، لأنه يرد خيوط الكون والحياة كلها إلى يد الله ورقابته وهيمنته وسلطانه).[2]

وبهذا ننتهي من الأدلة النقلية العقلية التي تؤكد للماديين[3] وغيرهم وجود إله لهذا الكون وهو الله – سبحانه وتعالى – المستحق للعبادة وحده دون سواه.

وإذا كانـــت جمـــيع الأدلة تؤكد بأن الله – تعالى – هو الخالق، وأنه هو وحده – ســـبحانه وتعـــالى – المســـتحق للعبادة، فتلك هي غايته – عز وجل – في هذا الكون وشرح ذلك بالتفصيل في الفصلين القادميين.

ولكن قبل أن نشرع ببيان ذلك لا بد من عرض أدلة المتكلمين والفلاسفة في إثبات خلـــق الله – تعالى – للكون وذلك لبيان ما اشتملت عليه طريقتهم من أخطاء، والتأكيد علـــى أن أفضـــل الطرق في الوصول إلى المطالب الإلهية هي طريقة القرآن والسنة وبيان ذلك كالتالي :

***

(١) ج ٣ – ص ٤٥٧

(٢) معالم الثقافة الإسلامية – ص ٢٣

(٣) أنظر الباب الثاني من هذه الرسالة

المبحث الثاني

الأدلة العقلية في إثبات خلق الله للكون

تمهيد :

قبل أن أبدأ الحديث هنا عن هذه الأدلة لابد أن أنبه إلى أن الابتداع في الدين بما لم يأت به الشرع، أو إحداث ما ليس فيه، سواءٌ كان ذلك في أصوله أو فروعه، منهي عنه شرعاً، وخطورة ذلك في الأصول أعظم لأنها الأساس الذي تقوم عليه هذه الفروع، بل هي القاعدة التي يشيد عليها هذا الدين الشامخ.

لذلك فقد حذر الرسول – صلى الله عليه وسلم – من هذا الأمر واعتبره شراً وضلالة.

يقول الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله – (الرأي المحدث في الأصول، وهو الكلام المحدث، وفي الفروع ... يظن طوائف من الناس أن الدين محتاج إلى ذلك، لاسيما كل طائفة في طريقها، وليس الأمر كذلك، فإن الله – تعالى – يقول ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾ [1] إلى غير ذلك من النصوص التي دلت على أن الرسول عرَّف الأمة جميع ما يحتاجون إليه من دينهم).[2]

وللرسول – صلى الله عليه وسلم – من الأحاديث ما يشير إلى ذلك منها ما أستشهد به الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله – هنا كقوله – صلى الله عليه وسلم – [تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك].[3]

---

(١) سورة المائدة – بعض الآية ٣.

(٢) الاستقامة – ج١ – ص٣-٤.

(٣) سنن ابن ماجة – في المقدمة – باب اتباع سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ج١- ص٥-٦ – وورد في باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين – ج١ – ص١٩-٢٠.

وعـنه – صلى الله عليه وسلم – كان يقول في خطبته: (شر الأمور محدثاتها)[1] يقول الشيخ "ابن تيمية" (وقد قدرنا في القواعد في قاعدة السنة والبدعة: أن البدعة هي الديـن الـذي لم يأمر الله به ورسوله، فمن دان ديناً لم يأمر الله ورسوله به فهو مبتدع بذلـك).[2] يحـذر الشيخ "ابن تيمية" من خطورة الابتداع في الدين، ويرى أن في ذلك إضلالاً للناس وإبعاداً لهم عن مفهوم الدين الصحيح، ولهذا يقول: إن (هذا الأمر يشكل علـى كثير من الناس وذلك لعدم علمهم بالنصوص ودلالتها على المقاصد وكذلك لعدم علمهـم بما أحدث من الرأي والعمل وكيف يُرد ذلك إلى السنة)[3] ولإستغناء الدين عن مـثل هـذه الضـلالات يقول الشيخ "ابن تيمية" : (أن هناك أصنافاً من الناس قد بينوا اسـتغناء الدين عن الكلام المحدث، وكيف أن الله – تعالى – قد بين في كتابه بالأمثال المضـروبة مـن الدلائـل مـا هو أعظم منفعة مما يحدثه هؤلاء[4]، بل أن أفضل ما يذكرونه قد جاء القرآن بخلاصته).[5]

ويذكـر الشـيخ بـأن (من هؤلاء الذين قد بينوا طريق السلف في أصول الدين واستغناءها عن الطريقة الكلامية الإمام "أبو الحسن الأشعري").[6]

إن ممـا يلفت الانتباه هنا أن الشيخ قد خص الإمام "الأشعري" بالذكر لأن ذلك قد يكون راجعاً لكون الإمام (كان واحداً من أصحاب هذه الطرق الكلامية فقد كان معتزلياً وكانت خبرته بالكلام مفصلة).[7]

وقـد جـاء بيان ذلك في رسالته إلى أهل الثغر عندما قال: (ونقل أهل كل زمان حجـة على من بعدهم، من غير أن يحتاج أرشدكم الله في المعرفة لسائر ما دعينا إلى

---

(١) صـحيح الـبخاري – كـتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب الاقتداء بسنن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ج٢٥ – ص٣٣، وصحيح مسلم – كتاب الجمعة – باب تخفيف الصلاة والخطبة – رقم الحديث ٨٦٧ – ج٦ – ص٤٠٣ وفي سنن ابن ماجة في المقدمة – باب اجتناب البدع والجدل – برقم الحديث ٣٧ – ج١ – ص١١ وفي سنن النسائي – كتاب صلاة العيدين – باب كيفية الخطبة – ج ٣ – ص١٨٨-١٨٩.

(٢) الاستقامة – ج١ – ص٥.

(٣) المرجع السابق – ج١ – ص٥.

(٤) الفلاسفة والمتكلمون.

(٥) انظر الاستقامة – ج١ – ص٥-٦.

(٦) انظر المرجع السابق – ص٦.

(٧) انظر درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية – ج٧ – ص٤٦٢.

اعـتقاده إلى استئناف أدلة غير الأدلة التي نبه النبي – صلى الله عليه وسلم – عليها، ودعا سائر أمته إلى تأملها.

إذ كـان مـن المستحيل أن يأتي بعد ذلك أحد بأهدى مما أتى، أو يصلوا من ذلك إلـى مـا بعد عنه – عليه السلام–).[1] وبما أنه قد ثبت فساد هذه الطرق عند السلف وتـأكد شرعاً حرمتها لمخالفتها ما جاء به الدين فالواجب اتباع طريقة السلف ونبذ هذه الطـرق الكلامية لاسيما وأن أصحابها قد أقروا بفسادها.[2] يقول الشيخ "ابن تيمية" في ذلك: (ولهذا قد اعترف حذاق أهل الكلام "كالأشعري" وغيره بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها محرمة عندهم. بل المحققون على أنها طـريقة باطلة، وأن مقدماتها فيها تفصيل وتقسيم يمنع ثبوت المدعى بها مطلقاً. ولهذا تجـد من اعتمد عليها في أصول دينه فأحد الأمرين له لازم، إما أن يطلع على ضعفها ويقـابل بينها وبين أدلة القائلين بقدم العالم فتتكافأ عنده الأدلة، أو يرجح هذا تارة وهذا تارة. كما هو حال طوائف منهم.

وأما أن يلتزم لأجلها لوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل).[3]

ثم يقول الشيخ في كتابه "الرد على المنطقيين":

(ثـم إنهـم بمثل هذه الطرق الفاسدة يريدون خروج الناس عما فطروا عليه من المعارف اليقينية، والبراهين العقلية، وما جاءت به الرسل من الأخبار الآلهية عن الله – تعـالى – والـيوم الآخـر. ويثبـتوا لرب العالمين من الوجود ما يستلزم الجمع بين النقيضين، فيكذبوا بصريح المعقول وصحيح المنقول، كقولهم "لا هو مبائن للمخلوقات، ولا مجانـب لها، ولا يشار إليه"، ونحو ذلك من القضايا السلبية التي يصفون بها رب العالميـن مما لا يتضمن وصفه بصفة كمال، بل يشاركه فيها الممتنعات والمعدومات، وتستلزم كون الموصوف بها معدوماً، بل ممتنعاً. ويريدون أن يجعلوا مثل هذه القضايا الكاذبة والخيالات الفاسدة أصولاً عقلية يعارضون بها ما أرسل الله به رسله وأنزل به

---

(١) ص١٨٢.

(٢) انظر أقوالهم الشاهدة بذلك في المبحث الأول من هذه الرسالة.

(٣) مجموع الفتاوى – ج٣ – ص٣٠٤.

كتـــبه من الآيات، وما فطر الله عليه عباده، وما تقوم عليه الأدلة العقلية التي لا شبهة فيها).[1]

لهـــذا نجـــد أن (أدلـــة المتكلمين سريعة التهافت كثيرة التناقض لأن الدليل الذي يستدلون به على الحق يؤدي إلى الشك والحيرة والاضطراب بل قد يؤدي إلى رد الحق فمـــا مـــن كـــلام لفرقة إلا ولخصومهم عليه كلام يوازيه أو يقاربه فكل بكل معارض وبعـــض ببعض مقابل وإنما يكون تقدم الواحد منهم على خصمه بقدر حظه من البيان وحذقه في صنعة الجدل والكلام).[2]

يقـــول الشـــيخ "ابـــن تيمية" – رحمه الله – :(القول بتقديم الإنسان لمعقوله على النصوص النبوية قول لا ينضبط، وذلك لأن أهل الكلام والفلسفة الخائضين المتنازعين فيما يسمونه عقليات، كل منهم يقول: إنه يعلم بضرورة العقل أو بنظره ما يدَّعي الآخر أن المعلوم بضرورة العقل أو بنظره نقيضه).[3]

ويقـــول: (والطائفتان يلحقهما الملام: لكونهما أعرضتا عن الأصول التي بينها الله بكـــتابه فإنهـــا أصـــول الدين وأدلته وآياته، فلما أعرضت عنها الطائفتان وقعت بينهما العـــداوة: كما قال الله – تعالى –: ﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴿١٤﴾ ﴾[4])[5] أمـــا أدلـــة القـــرآن والســـنة فإن (أصحابها مستقرون وثابتون عليها آخذون بها لا يضطربون ولا يتحيرون، بل يصلون إلى الحق بأوضح وأقصر عبارة)[6] ولو أن أصحاب المناهج الكلامية أخذوا بهذه الأدلة لوصـــلوا إلى الحق كما وصل إليه السلف، ولسلموا من هذا الاضطراب وهذه الحيرة. ولكـــن وللأســـف تصـــور الكثير منهم بأن ما جاء به القرآن من أدلة إنما هو خطاب

---

(١) ص٣٢٣.

(٢) انظر صون المنطق – السيوطي – ص٩٩.

(٣) درء تعارض العقل والنقل – ج١ – ص١٥٦.

(٤) سورة المائدة – بعض الآية – ١٤.

(٥) مجموع الفتاوى – ابن تيمية – ج١٩ – ص١٦١.

(٦) انظر المرجع السابق – ج ٤ – ص ٥١.

للجمهـــور، وأن هذه الأدلة – عندهم – خالية من البرهان أو أنها غير يقينية، وهذا هو الذي أوقعهم في هذه الطرق البدعية.

يقـــول "ابـــن القيم": (ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهـــور ولا احـــتجاج فـــيها وأن الأنبـــياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص هم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم).[١]

ويؤكـــد ذلـــك ما نقله شيخ الإسلام عن "أبي الحسن الطبري" المعروف بالكيَّا[٢] قوله: (وفي القرآن حجاج، وإن لم يكن فيه الغلبة والفلج، غير أن العامى يكتفي به).[٣]

ويـــرد الشـــيخ "ابـــن تيمية" على ذلك فيقول: (هذا الرجل وأمثاله من أهل الكلام الجاهليـــن بحقـــائق ما جاء به التنزيل، وما بعث به الرسول، حتى قد يقول بعضهم إن الطـــريقة البرهانـــية ليست في القرآن، وهؤلاء جهلهم بمعاني الأدلة البرهانية التي دل عليها القرآن، كجهلهم بحقائق ما أخبر به القرآن، بل جهلهم بحقائق ما دل عليه الشرع مـــن الدلائل العقلية والمطالب الخبرية أعظم من جهلهم بما سلكوه من الطرق البدعية التي سموها عقلية).[٤]

وكذلـــك الأمـــر بالنسبة "للتفتازاني" صاحب العقائد النسفية فهو لا يبعد كثيراً عن "أبـــي الحسن الطبري" عندما قال في قوله – تعالى –: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾ ﴾[٥] أن (الحجـــة فـــي هـــذه الآية إقناعية، والملازمة عادية على ما هو اللائق بالخطابيات).[٦]

---

(١) مفتاح دار السعادة – ج١ – ص١ – ص١٤٥.

(٢)أبـــو الحســـن الطبري هو الإمام شمس الإسلام، أبو الحسن، إلكيا الهراس، الملقب عماد الدين أحد فحول العلماء ورؤوس الأئمة، فقهاً وأصـــولاً وجـــدلاً وحفظاً لمتون أحاديث الأحكام – ٤٥٠ – ٥٠٥ – (انظر طبقات الشافعية الكبرى – السبكي – ج٧ – ص٢٣١ – وتبيين كذب المفتري – ابن عساكر – ص٢٨٩ – ووفيات الأعيان – ج٣ – ص٢٨٦).

(٣) نقلاً من تعارض العقل والنقل – ج٧ – ص٣٦٠.

(٤) درء تعارض العقل والنقل – ج٧ – ص٢٦١.

(٥) سورة الأنبياء – بض آية – ٢٢.

(٦) شرح العقائد النسفية – ص٣٣.

يقــول "السيوطي" معلقاً على ذلك: (إن المنطق لا يجر إلى خير، وأن من لاحظه كان بعيداً عن إدراك المقاصد الشرعية، فإن بينه وبين الشرعيات منافرة).[1]

ويقــول "ابــن القيم" – رحمه الله –: (وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فإن القــرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهــو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة وقــد اعــترف بهــذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين)[2] ويقول الشيخ "ابن تيمية": (إن هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذي جاء به الرسول. والقرآن مملوء من ذلك.

والمتكلمون يعترفون بأن في القرآن من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين ما فــيه، لكنهم يسلكون طرقاً أخرى كطريق الأعراض)[3] . إن مما يؤسف له أن هؤلاء المتكلميــن والفلاســفة بالرغم من اعترافهم بذلك كما ذكر الشيخ هنا في هذا النص إلا أنهــم قد أعرضوا عن هذه الأدلة النقلية لأنه قد غلب على تصور البعض منهم بعدها عــن اليقيــن كما ذكرت آنفاً ولهذا نجد أنه حتى من كان منهم يحاول أن يربط بين ما تقــرره عقولهم وبين نصوص الكتاب والسنة فإن هذه المحاولة لم تخرج عما انتهجوه لأنفسهم من تقديم العقل على النقل، فهم لا يأخذون بالنص إلا إذا وافق ما استقرت عليه عقولهم.

يقول الشيخ "ابن تيمية": (والموفقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث، فإن وافقه احتجوا به اعتقاداً لا اعتماداً وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتأولونه على غير تأويله، وهذا فعــل أئمــتهم، وتارة يعرضون عنه ويقولون نفوض معناه إلى الله، وهذا فعل عامتهم،

---

(١) صون المنطق – ص٢٠.

(٢) مفتاح دار السعادة – ج١ – ص١٤٥.

(٣) مجموع الفتاوى – ج١٩ – ص١٦٣.

وعمدة الطائفتين في الباطن غير ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب إتباعها واعتقاد موجبها).[1]

ويقـــول: (وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عـــن الرســـول، بل على ما رووه أو ذاقوه، ثم إن وجدوا السنة توافقه (أي: إن وجدوا الســـنة توافـــق رأيهـــم، اعـــتمدوها دليلاً لهم) وإلا لم يبالوا بذلك، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرفوها تأويلاً).[2]

هـــذا يعنـــي أن كثيراً من المتكلمين عندما يستشهدون بالقرآن فإن ذلك لا يكون اعـــتماداً مـــنهم علـــى مـــا جاء به النص، بل يجعلون النص تبعاً لأقوالهم وما أنتجته عقولهم.

وهذه بعض أقوالهم التي تؤكد ذلك:

قـــال "الجويني" في كتابه "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد": (وإن لم تثبـــت الأدلـــة الســـمعية بطـــرق قاطعة، ولم يكن مضمونها مستحيلاً في العقل، ثبتت أصـــولها قطعـــاً، ولكن طريق التأويل يجول فيها، فلا سبيل إلى القطع، ولكن المتدين يغلـــب على ظنه ثبوت ما دل الدليل السمعي على ثبوته، وإن لم يكن قاطعاً، وإن كان مضـــمون الشـــرع المتصـــل بنا مخالفاً لقضية العقل، فهو مردود قطعاً بأن الشرع لا يخالف العقل، ولا يتصور في هذا القسم ثبوت سمع قاطع).[3]

وقـــال "الإيجى" في كتابه "المواقف في علم الكلام": إن المطالب تنقسم إلى ثلاثة أقسام، ثم قال في القسم الثاني منها: إن (ما يتوقف عليه النقل مثل وجود الصانع ونبوة محمـــد – صـــلى الله علـــيه وســـلم – ولهذا لا يثبت إلا بالعقل إذ لو أثبت بالنقل لزم الدور...).[4]

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل – ص١٦٧.

(٢) المرجع السابق – ص٨٦.

(٣) ص٣٦٠.

(٤) ص٣٩.

يقــول الشــيخ "ابن تيمية": – رحمه الله –: (ولما أعرض كثير من أرباب الكلام ..... عــن القرآن والإيمان: تجدهم في العقل على طريق كثير من المتكلمة، يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له.

والمعقــولات عــندهم هي الأصول الكلية الأولية، المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن).[1]

إن ذلك يعني أن أصحاب المناهج الكلامية قد اعتمدوا العقل وجعلوه هو الأصل، ويأتي النص تبعاً لذلك وهذا ما حذر منه السلف ونهوا عنه، لأن ذلك سوف يفتح الباب لكــل صاحب بدعة وراغب ضلالة أن يُدخِل في الدين ما ليس فيه حسبما تصوره لهم عقولهم وأهواؤهم. وهذه الطريقة بدعية، ومخالفة لما جاء في الكتاب والسنة.

يقــول الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله –: (إن من خرج عن الكتاب والسنة فليس معــه علــم لا عقلــي ولا سمعي، لاسيما في هذا المطلوب الأعظم، لكنهم قد يكونون معتقديــن لعقــائد صــحيحة عــرفوها بالفطرة العقلية، وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين، فقلوبهم تثبت ما تثبت وتنفي ما تنفي بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة، لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية وليس فيها علم أصلاً).[2]

ويقــول: (وكــل الأصــول العقلــية التي ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشــرع، وإن كانــت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها أعظم الدين (أي أن الأصول العقلــية هي أعظم شيء في الدين). ويقدمونها على الأصول الشرعية ..... وتلك كلها باطلة).[3]

إن ممــا يجب التنبيه إليه هنا أن السلف لم يذموا النظر العقلي مطلقاً لاسيما فيما علــم العقل صحته وأوجبه الشرع لأنه ليس هناك تعارض بين صريح العقل وصحيح النقل، بل الذي يذمونه هو البدعي منه وهو ما خالف الكتاب والسنة.

---

(١) مجموع الفتاوى – ج٣ – ص٣٣٨.

(٢) الفرقان بين الحق والباطل – ص١٨٩.

(٣) المرجع السابق – ص٢٤٦.

يقــول الشيخ "ابن تيمية": (وإذا كان الشيء موجوداً في الشرع، فذلك يحصل بأن يكون في القرآن الدلالة على الطرق العقلية والتنبيه عليها والبيان لها والإرشاد إليها.

والقرآن مليء بذلك، فتكون شرعية بمعنى أن الشرع هدى إليها، عقلية بمعنى أنه يعــرف صحتها بالعقل، فقد جمعت وصفي الكمال)[١] ويقول: (فإذا كان الشرع قد دل علــى شــيء أو أوجبه، وقدر أن في العقل ما يوافق ذلك، لم يضر ذلك، وإن كان قد يستغنى عنه فلا يطعن في صحته للاستغناء عنه).[٢]

وبهــذا نجد أن السلف لم يكن أحد منهم ضد الأدلة العقلية ولم يطعنوا فيها وإنما أنكــروا ما ابتدعه المتكلمون من باطل مشوبٍ بالحق. ولذلك يقول الشيخ "ابن تيمية": (أهل الكلام الذين يزعمون أن أهل الحديث والسنة أهل تقليد ليسوا أهل نظر واستدلال، وأنهم ينكرون حجة العقل).[٣]

ويقــول في الرد عليهم: (فإن أهل السنة والحديث لا ينكرون ما جاء به القرآن، هذا أصل متفق عليه بينهم. والله قد أمر بالنظر والاعتبار والتفكر والتدبر في غير آية، ولا يعــرف عــن أحد من سلف الأمة ولا أئمة السنة وعلمائها أنه أنكر ذلك، بل كلهم مــتفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة، من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلــك، ولكــن وقــع اشتراك في لفظ "النظر والاستدلال" ولفظ "الكلام" فإنهم أنكروا ما ابــتدعه المــتكلمون من باطل نظرهم وكلامهم واستدلالهم، فاعتقدوا [٤] أن إنكار هذا مستلزم لإنكار جنس النظر والاستدلال).[٥]

وبمــا أن السلف هم أكثر الناس علماً ودراية بما ورد في الكتاب والسنة فقد ذموا هذا الجنس من الكلام لما تحتويه رموزه من معانٍ باطلة ومخالفة لما جاء به الشرع.

يقــول الشــيخ "ابــن تيمية": (فإن أصل ذمهم الكلام هو الكلام المخالف للكتاب والســنة، وهــذا لا يكون من نفس الأمر إلا باطلاً، فمن جادل بالباطل، وإن كان ذلك

---

(١) درء تعارض العقل والنقل – ج٩ – ص٣٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مجموع الفتاوى – ج٤ – ص٥٦.

(٤) أي المتكلمون والفلاسفة.

(٥) مجموع الفتاوى – ج٤ – ص٥٦.

الـباطل لا يظهـر لكثير من الناس أنه باطل لما فيه من الشبهة – فإن الباطل المحض الذي يظهر بطلانه لكل أحدٍ لا يكون قولاً ومذهباً لطائفة تذب عنه – وإنما يكون باطلاً مشوباً بحق).[1]

قـال – تعالى –: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.[2]

يتضـح مـن خـلال هذا النص أنه حتى ولو كان المبرر لهؤلاء، هو الرد على أصـحاب الملل والنحل الأخرى وكشف شبهاتهم، فإن ذلك لا يعطيهم حق التجرؤ على الـنص وذلك بتقديم العقل عليه، لأن هذا يعتبر إتهاماً للنقل بالقصور فهو في نظرهم لا يكفي للقيام بمهمته.

يقـول الشـيخ "ابن تيمية": (هذا مع أن السلف والأئمة يذمون ما كان من الكلام والعقلـيات والجـدل باطلاً، وإن قصد به نُصرة الكتاب والسنة، فيذمون من قابل بدعة بـبدعة، وقـابل الفاسد بالفاسد، فكيف من قابل السنة بالبدعة، وعارض الحق بالباطل، وجادل في آيات الله بالباطل ليدحض به الحق).[3]

ويقول الإمام "أحمد بن حنبل" في ذم هذه الطرق الكلامية:

(لا يفلـح صـاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل)[4].

ويقـول الإمام "مالك"–رحمه الله–: (أرأيت إن جاء من هو أجدل منه، أيدع دينه كل يوم لدين جديد).[5]

ويقول "مصعب بن عبد الله الزبيري" كان "مالك بن أنس" يقول: (الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، وينهون عنه).[6]

---

(١) درء تعارض العقل والنقل – ج٧ – ص١٧٠ – ١٧١.

(٢) سورة آل عمران – آية ٧١.

(٣) درء تعارض العقل والنقل – ج٣– ص١٦٥.

(٤) نقلاً من صون المنطق – السيوطي – ص١٣٦.

(٥) نقلاً من المرجع السابق.

(٦) نقلاً من المرجع السابق.

ويقول "يونس بن عبد الأعلى" سمعت "الشافعي" – رحمه الله – يوم ناظره حفص الفـرد قال لي: يا أبا موسى لأن يلقى الله – عز وجل – العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خـير مـن أن يلقاه بشيء من الكلام .....)[1] وكما ذم السلف هذه الطرق الكلامية فقد حثوا على الأخذ بالأدلة النقلية الشرعية التي جاء بها القرآن –الكريم– والسنة –النبوية المطهرة–، والاستغناء بها عن هذه الطرق المضللة.

يقول الشيخ "ابن تيمية": (وعامة هذه الضلالات إنما تطرق من لم يعتصم بالكتاب والسـنة، كمـا كان "الزهري" يقول: كان علماؤنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة، وقال "مالك" السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق". وذلك أن السنة والشـريعة والمنهاج: هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلى الله. والرسول: هو الدلـيل الهـادي في هذا الصراط)[2] قال – تعالى –: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ ﴾.[3]

يقـول الشـيخ "ابن تيمية": (السلف كان نظرهم في خير الكلام وأفضله، وأصدقه وأدله على الحق، وهو كلام الله – تعالى – وهم ينظرون في آيات الله – تعالى – التي في الآفاق وفي أنفسهم، فيرون في ذلك من الأدلة ما يبين أن القرآن حق).[4]

ويقول الأستاذ "نديم الجسر": (يتناول القرآن الذي نزل على الإنسان الأمي جميع الحجج العقلية البالغة، والبراهين الساطعة الدامغة).[5]

وإذا كـان الاعتصـام بالكـتاب والسـنة هو المنجي من هذه الضلات فالأولى إتباعهما، ونبذ الطرق الكلامية البدعية.

وسوف أعرض في هذا المبحث بعضاً من هذه الطرق الكلامية كمثال لإظهار ما بهـا مـن تطويل وغموض وبعد عن منهج السلف. وذلك بعرض أدلتهم[6] العقلية في إثبات خلق الله للكون.

---

(١) نقلاً من المرجع السابق.

(٢) مجموع الفتاوى – ج٤ – ص٥٦ – ٥٧.

(٣) سورة الأحزاب – الآيتان ٤٥ – ٤٦.

(٤) درء تعارض العقل والنقل – ج٧ – ص١٦٧.

(٥) قصة الإيمان – ص٢٨٦.

(٦) أدلة المتكلمين والفلاسفة.

ولكثرة المدارس الكلامية والفلسفية، سأقتصر هنا على أدلة "المعتزلة"[1] "والأشاعرة"[2] باعتبار أنهم أشهر الفرق الكلامية وأكثرهم أتباعاً وأشكلهم أدلة.

أما بالنسبة للفلاسفة فسوف اقتصر على "ابن رشد" باعتبار أن طريقته أقرب إلى منهج السلف من حيث أخذه بالآيات القرآنية، إلا أن عليه بعض الملاحظات والتي سوف أترك الحديث عنها حتى نهاية هذا الفصل.

كما وأني سأعرض هذه الأدلة بإيجاز لأن التفصيل في ذلك يمكن أن يكون موضوع رسالة أخرى والمطلوب هنا الإشارة فقط إلى طريقتهم في كيفية إثبات خلق الله للكون وذلك لإظهار ما بها من مآخذ ومخالفة للشرع، والغرض من ذلك تجنب كل ما هو مخالف للشرع وإتباع منهج السلف – رضي الله عنهم –.

***

(١) المعتزلة: أهم فرقة كلامية، وضعت الأسس الأولى لعلم الكلام، انتهجت وسائل عقائدية معينة اعتمدت فيها على العقل، والجدل، ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في مدينة البصرة (في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة – الدكتور محمود خفاجي – ج١ – ص٣٨).

(٢) الأشاعرة: فرقة كلامية وهم أصحاب أبو الحسن الأشعري (تاريخ المذاهب الإسلامية – الإمام محمد أبو زهرة – ص١٦٠).

المطلب الأول

الأدلة العقلية في إثبات خلق الله – تعالى – للكون عند المعتزلة

سيكون عرض هذه الأدلة من خلال أقوال "القاضي عبد الجبار" وذلك لأمور:

أولاً: وفـــرة مؤلفاتـــه ويســـر الحصول عليها بخلاف مؤلفات الآخرين ممن كتبوا في الاعتزال.

ثانياً: إنه وارث المذهب في زمانه والمنافح عنه والمتحدث باسمه والمتعصب له.

ثالثاً: إنه أكثر أصحاب الاعتزال فهماً لقضاياه وقضايا المذاهب الكلامية الأخرى.

رابعـــاً: شـــمول مؤلفاته لجميع قضايا الاعتزال وتحديداً مؤلفه الشهير "شرح الأصول الخمسة".

خامساً: لكل ما ذكرنا كان نادراً من يكتب عن الاعتزال ولم يعتمد على كتب "القاضي عبد الجبار".

ولهذه الأمور سوف اعتمد على أقوال "القاضي عبد الجبار" الذي قام بجمع أقوال شـــيوخه السابقين وعرضها على أنها آراء جمهور المعتزلة والتي تمثل منهجهم الذي ذهـــبوا إلـــيه فـــي معرفة الخالق لاسيما وأنهم جعلوا هذه المعرفة واجبة ولا تدرك إلا بالنظر والاستدلال.

وقـــبل أن أبـــدأ بعـــرض أدلتهم أنوه إلى إن "المعتزلة" قد وضعوا لذلك مقدمات تمهـــيدية، وبذلك تكون هذه الطائفة هم أول من استحدثها، وقد اهتموا بها اهتماماً بالغاً لدرجـــة أنها أصبحت عادة عندهم بصفة خاصة وعند المتكلمين بوجه عام، ولكنني لن أتحـــدث عن هذه المقدمات لعدم حاجتنا إليها بل ما يهمنا هو الحديث عن أدلتهم العقلية في إثبات خلق الله لهذا الكون وهي كما يلي:

(١) الاستدلال بحدوث الأعراض على وجود الخالق – عز وجل –:

يستدل المعتزلة بالأعراض[1] على وجود الخالق من خلال أسس ثلاثة:

الأول منها: إثبات وجود الأعراض.

الثاني: إثبات حدوث الأعراض.

الثالث: إثبات أنها محتاجة في حدوثها إلى محدث وفاعل وهو الله – تعالى-.

يقول القاضي "عبد الجبار": (فإذا أردت أن تستدل بالأعراض على الله – تعالى – فمن حقك أن تثبتها أولاً، ثم تعلم حدوثها، ثم تعلم أنها تحتاج إلى محدث وفاعل مخالف لها وهو الله –تعالى-).[2]

الأول: إثبات وجود الأعراض ويكون كالتالي:

إنهم يرون أن الأعراض قسمان: مدرك، وغير مدرك، كما جاء ذلك عن "القاضي عبد الجبار" عندما قال: (الأعراض على ضربين: مدرك، وغير مدرك.

فالمدركات سبعة أنواع: الألوان، والطعوم، والروائح، والحرارة، والبرودة، والآلام، والأصوات).[3] هذه الأعراض المدركة يثبتونها من حيث كونها غير المحل الذي تقوم فيه عكس نفاة الأعراض.

قال القاضي "عبد الجبار": (والذي يدل على أنها غير المحل هو ما قد ثبت أن الأجسام متماثلة، ومعلوم أن الأسود يخالف الأبيض، فلولا أن هذه المخالفة ترجع إلى معان فيه، وإلا لم يجز ذلك هذا إذا كان مدركاً).[4]

أما الأعراض الغير مدركة فقد عبر عنها القاضي "عبد الجبار" بقوله: (القدرة والحياة وغيرهما مما يختص الحي).[5] فإنهم يثبتون وجودها كما قال القاضي "عبد الجبار": (والطريقة فيه، أن نعرض الكلام في واحد منها وهو الشهوة مثلاً، فنقول: إن الواحد منا حصل مشتهياً مع جواز أن لا يحصل مشتهياً، والحال واحدة، والشرط

---

(١) ما يعرض للجواهر من الأحوال كالحركة والسكون والأكوان والألوان (شرح الأصول الخمسة – القاضي عبد الجبار– ص٩٢).

(٢) شرح الأصول الخمسة – ص٩٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المحيط بالتكليف – ص٣٦ وشرح الأصول الخمسة – ص٩٣.

واحـــد، فلابد من مخصص له ولمكانه حصل مشتهياً وإلا لم يكن بأن يحصل على هذه الصـــفة أولـــى من أن لا يحصل على خلافها، وليس ذلك الأمر إلا وجود معنى وهو الشـــهوة ..... إلـــى أن قـــال: وبهذه الطريقة نثبت ما عداها من الأعراض نحو الحياة والقدرة وغيرهما).[1]

الثاني: إثبات حدوثها:

يستدل المعتزلة على حدوث الأعراض بما يعتريها من العدم والبطلان، فلو كانت قديمـــة لما طرأ عليها ذلك، لأن القديم لا يجوز عليه العدم والبطلان كما أشار إلى ذلك القاضـــي "عـــبد الجبار" بقوله: (وأما حدوثها، فالذي يدل عليه هو ما قد ثبت أنه يجوز علـــيها العدم والبطلان، والقديم لا يجوز عليه العدم والبطلان، وهذه الدلالة مبنية على أصـــلين: أحدهمـــا، أن الأعراض يجوز عليها العدم، والثاني، أن القديم لا يجوز عليه العدم.

أما الدليل على أن الأعراض يجوز عليها العدم فهو ما ثبت أن المجتمع إذا افترق بطل اجتماعه، وأن المتحرك إذا سكن بطلت حركته، وفي ذلك ما نريده.

وأمـــا الدلـــيل على أن القديم لا يجوز عليه العدم، فهو ما قد ثبت أن القديم قديم لنفســـه، والموصـــوف بصـــفة مـــن صـــفات النفس لا يجوز خروجه عنها بحال من الأحوال).[2]

الثالث: إثبات أن الأعراض محتاجة إلى محدث وفاعل وهو الله – تعالى –:

إنهـــم ينظرون إلى تصرفاتنا في الشاهد المحسوس إلى أنها محتاجة إلينا ومتعلقة بـــنا، وأن سبب أو علة هذا الاحتياج هي الحدوث، ولهذا فقد حكموا بناءً على ذلك أن كـــل مـــا شـــاركها فـــي صفة الحدوث، يجب أن يشاركها في الاحتياج إلى المحدث، والفاعل.

---

(١) شرح الأصول الخمسة – ص٩٣.

(٢) المرجع السابق – ص٩٣-٩٤.

يقــول القاضي "عبد الجبار": (وإذ قد عرفت حدوثها، فالذي يدل على أنها تحتاج إلــى محدث وفاعل، فهو ما قد ثبت أن تصرفاتنا في الشاهد محتاجة إلينا ومتعلقة بنا، وإنمــا احتاجــت إليــنا لحدوثهــا، فكل ما شاركها في الحدوث وجب أن يشاركها في الاحتياج إلى محدث وفاعل، فعلى هذه الطريقة يجرى الكلام في ذلك).[1]

(٢) الاستدلال بحدوث الأجسام على وجود الله – تعالى –:

وقــبل أن يبدأ القاضي "عبد الجبار" بعرض هذا الدليل ذكر عدة وجوه رجح بها هــذا الدلــيل وقدمه على غيره من الأدلة وأصبح هذا الدليل هو الدليل المعتمد لديهم. ولهــذا فهــو يقول: (إن الاستدلال بالأجسام[2] على الله – تعالى – أولى من الاستدلال بغيرها لوجوه:

أحدهــا، أن الأجســام معلومــة بالاضطرار على سبيل الجملة والتفصيل جميعاً، وليس كذلك الأعراض.

الثاني، هو أن العلم بكمال التوحيد لا يحصل ما لم يحصل العلم بحدوث الأجسام.

والثالــث، هــو أن الاستدلال بالأجسام يتضمن إثبات الأعراض وحدوثها، وليس كذلك الاستدلال بالأعراض).[3]

وبعــد أن انــتهى القاضــي "عبد الجبار" من سرد هذه الوجوه التي تميز بها هذا الدلــيل – حسب تصوره – شرع في بيان كيفية الاستدلال بالأجسام على وجود الله – تعــالى – فقال: (وإذ قد عرفت ذلك[4] وأردت أن تستدل بالأجسام على الله – تعالى – فمن حقك أن تعلم حدوثها، وأن لها محدثاً مخالفاً لها وهو الله –تعالى–).[5]

---

(١) المرجع السابق – ص٩٤.

(٢) الجسم هو : هو ماله يمين وشمال وظهر وبطن وأعلى وأسفل وأقل ما يكون الجسم ستة أجزاء.. وقيل هو الطويل العريض العميق.. وقيل بأن الجسم ينتهي بالقسمة إلى جزء لا يتجزأ. (انظر مقالات الإسلاميين – الأشعري – ج٢ – ص٥ – وأصول الدين – البغدادي – ص٣٥).

(٣) شرح الأصول الخمسة – ص٩٤.

(٤) يقصد هنا الوجوه التي ذكرها آنفاً.

(٥) شرح الأصول الخمسة – ص٩٤.

وبذلــك أصبح هذا الدليل أساساً عند المتكلمين بعامة والمعتزلة بخاصة في إثبات خلق الله للكون، فقد اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في ذلك.

هــذه هي أدلة المعتزلة في إثبات خلق الله للكون، وسوف أترك نقد هذه الطريقة والــرد عليها حتى الانتهاء من عرض أدلة الأشاعرة، لأن طريقتهم في الاستدلال تكاد تكون واحدة مع بعض التغيرات الطفيفة عند الأشاعرة.

***

المطلب الثاني

الأدلة العقلية في إثبات خلق الله للكون عند الأشاعرة:

لقد انحصرت أدلتهم في مسلكين رئيسيين:

الأول منها: الاستدلال بالموجودات الحادثة على وجوب وجود محدث وصانع لها، وقد عرف هذا المسلك بدليل الحدوث وهو أشهر أدلة المتكلمين.

يقـول "الشهرستاني": (وقد سلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع – تعالى – وهو الاستدلال بالحوادث على محدث صانع).[١]

أمـا المسـلك الآخـر: فهـو (الاسـتدلال بإمكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الإمكان)[٢] ويعرف هذا المسلك بدليل الإمكان. وإليك شرح هذين الدليلين:

الدليل الأول: هو الاستدلال بحدوث العالم على محدثه وصانعه وهو الله – تعالى –.

هـذا الدلـيل له أسماء مختلفة إلى جانب تسميته بدليل حدوث العالم، فهو يعرف كذلك بدليل الأعراض، والجواهر،[٣] ودليل الجوهر الفرد، وكل هذه الأسماء تدل على مسـمى واحـد وهـو الاستدلال بحدوث الحوادث سواء حدوث الأعراض، أو حدوث الجواهر على وجود المحدث أو الصانع.[٤]

ويتلخص هذا الدليل في مقدمتين، صغرى وكبرى، ثم النتيجة وهو كالتالي:

العالم حادث. وكل حادث لابد له من محدث. فالعالم له محدث وهو الله – تعالى –.

وفـيما يلي عرض موجز لطريقة الأشاعرة في الاستدلال على محدث هذا العالم وصانعه وعندهم أن ذلك يمر على مراحل متعددة وهي:

المرحلة الأولى : المقدمات التمهيدية.

---

(١) نهاية الأقدام في علم الكلام – ص١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) الجوهر هو المتحيز وكل ذي حجم متحيز (الإرشاد – الجويني – ص١٧).

(٤) لقد ورد لفظ الصانع هنا لكوني أتحدث عن أدلة المتكلمين بنفس مصطلحاتهم، ولكن الصحيح ما ورد في كتاب الله – تعالى – الخالق، الفاطر.

المرحلة الثانية : إثبات حدوث العالم.

المرحلة الثالثة : الاستدلال على افتقار الحادثات إلى المحدث أو الفاعل.

المرحلة الرابعة: إثبات أن المحدث أو الفاعل أو الصانع هو الله – تعالى – وليس غيره.

المرحلة الأولى: وضع المقدمات والمصطلحات التمهيدية.

لقد أصبحت هذه عادة درج عليها المتكلمون عامة لاسيما المعتزلة منهم، فهم أول من استحدث هذه المقدمات والمصطلحات – كما ذكرت سابقاً – ولكن الأشاعرة هم من قام بترتيب ذلك وتنظيمه كما أشارت إلى ذلك كتب الكلام.

ويعتبر "الباقلاني"[1] هو المؤصل لهذه المقدمات والتعريفات بل وهذه المراحل أيضاً، ولهذا فإنه يُعتبر المؤسس الفعلي للمذهب الأشعري بعد الأشعري وهو الذي أدخل في هذا المذهب منهج المعتزلة في الاستدلال على وجود الله بالطريقة العقلية وأعرض عن منهج القرآن، وبذلك كان لهذا الرجل دور كبير وبارز في بناء مذهب الأشاعرة من حيث أنه وضع لهم المقدمات التي تبنى عليها الأدلة.

إن من الملاحظ على هذه المقدمات أنها طويلة وواسعة جداً، كما وأنها لا تعنينا بشيء ولذلك سوف أتركها وانتقل مباشرة إلى المرحلة الثانية من هذا الدليل.

المرحلة الثانية: إثبات حدوث العالم.

تتلخص هذه الطريقة في أن أجسام العالم لا تخلو من الأعراض، وأن هذه الأعراض حادثة، وأن مالا يخلو من الحوادث فهو حادث، فالأجسام حادثة، فالعالم حادث.

أما أهم المراحل المتبعة في إثبات هذا الحدوث في هذه الطريقة فهي كالتالي:

---

(١) الباقلاني: هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني البصري – ٤٠٣ – المتكلم على مذهب أبي الحسن الأشعري الذي أيد اعتقاده، ونصر طريقته صنف كثيراً من التصانيف وانتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وقوة الحجة وسرعة الجواب (وفيات الأعيان – ابن خلكان – ج٤ – ص٢٦٩).

أ – حصر مكونات العالم.

ب – إثبات حدوثها.

ج – النتيجة وهي حدوث العالم.

أ – حصر مكونات العالم:

يرى الأشاعرة أن (العالم ينقسم إلى قسمين: الأعيان والأعراض.

فالأعـــيان إمـــا أن تكـــون مركبة ومؤلفة فهي الأجسام، وإما أن تكون على هيئة مفردة غير مركبة وتسمى بالجواهر الفردة أو الجزء الذي لا يتجزأ.

أما الأعراض فما قام بالجواهر والأجسام).[١]

ولذا نجد "الباقلاني" قد قسم الموجودات إلى قسمين فقال: (والموجودات كلها على ضربين – قديم لم يزل، ومحدث لوجوده أول)[٢] وكذلك قسم المحدثات إلى ثلاثة أقسام فقال: (والمحدثات كلها تنقسم إلى ثلاثة أقسام – فجسم مؤلف، وجوهر منفرد، وعرض موجود بالأجسام والجواهر).[٣]

وهكذا يرى "الباقلاني" ويتبعه في ذلك الأشاعرة (أن العالم يتكون من أعيان وهي الأجسام أو الجواهر الفردة، والأعراض القائمة بها).[٤]

ب – الاستدلال على حدوث مكونات العالم.

بعد أن ثبت لديهم أن مكونات العالم الأعراض والجواهر انتقلوا إلى المرحلة التي تليها وهي إثبات حدوث كل من الأعراض والجواهر.

١– إثبات حدوث الأعراض:

---

(١) انظر الإرشاد – الجويني – ص١٧.

(٢) التمهيد – ص١٦.

(٣) المرجع السابق – ص١٧.

(٤) انظر الإرشاد – الجويني – ص١٧ والأربعين في أصول الدين – الرازي – ص١٩–٢٠.

يرى الأشاعرة أن الأعراض حادثة، وأن حدوث الأعراض بالمشاهدة.

٢- إثبات حدوث الأجسام أو الجواهر:

ملخص طريقتهم في ذلك (أن الأجسام لا تخلو من الحوادث ولم تسبقها، ومالم يخل من الحوادث ولم يسبقها، يجب أن يكون محدثاً مثلها).[١]

هذه الطريقة التي اعتمدوها وساروا عليها في استدلالهم تقوم على أسس أربعة وهي بمثابة الأصول عندهم وهي كالتالي:

الأصل الأول: إن الأجسام لا تخلو عن الأعراض وهي الأكوان: السكون، والحركة، والاجتماع والافتراق.

ولإثبات هذه الأعراض وقيامها بالأجسام يقول "الباقلاني":

(والدليل على إثبات الأعراض تحرك الجسم بعد سكونه وسكونه بعد حركته. ولابد أن يكون ذلك كذلك لنفسه أو لعلة. فلو كان متحركاً لنفسه، ما جاز سكونه. وفي صحة سكونه بعد تحركه دليل على أنه متحرك لعلة هي الحركة).[٢]

هذا يعني بأنهم يستدلون على وجود الأعراض بما يطرأ على الأجسام من حركة بعد سكون أو العكس أو من اجتماع بعد افتراق أو العكس.

هذا التغير – في تصورهم – إما أن يكون راجعاً إلى الأجسام ذاتها وهذا غير صحيح، لأنه لو كان الأمر كذلك لما طرأ هذا التغير على هذه الأجسام ولبقيت على حالة واحدة.

وأما أن يكون هذا التغير وهو وجود العرض من حركة واجتماع وغيرها لأمر خارج عن هذه الأجسام.

يقول "الباقلاني" (وهذا هو الدليل على إثبات الألوان والطعوم والأراييح، والتأليف، والحياة والموت، والعلم والجهل، والقدرة والعجز، وغير ذلك من ضروبها).[٣]

---

(١) انظر التمهيد – الباقلاني – ص٢٢.

(٢) المرجع السابق – ص١٨ وانظر أصول الدين – البغدادي – ص٣٦-٣٧.

(٣) التمهيد – ص١٨.

الأصل الثاني: الأعراض حادثة.

يستدل "الباقلاني" على حدوث الأعراض بما يطرأ عليها من العدم أثناء حصول ضدها.

فمثلاً تبطل الحركة حال إتيان السكون والعكس .... إلخ

ولهذا فهو يقول: (والأعراض حوادث. والدليل على حدوثها بطلان الحركة عند مجيء السكون. لأنها لو لم تبطل عند مجيء السكون، لكانا موجودين في الجسم معاً، ولوجب أن يكون متحركاً ساكناً معاً – وذلك مما يعلم فساده ضرورة).[1]

الأصل الثالث: الأجسام لا تخلو من الأعراض ولم تسبقها في الوجود.

يثبت ذلك "الباقلاني" بالاستدلال بما هو معلوم بالاضطرار من أن الجسم إما أن يكون مجتمع الأجزاء أو مفترقاً، فإنه لا يخلو من أحد هذين الاحتمالين ومتى ثبت ذلك صح أن الجسم لا يخلو من الأعراض. وهذا ما ذكره "الباقلاني" بقوله: (والدليل على أن الجسم لا يجوز أن يسبق الحوادث أنا نعلم باضطرار أنه متى كان موجوداً فلا يخلو من أن يكون متماس الأبعاض مجتمعاً، أو متبايناً مفترقاً. لأنه ليس بين أن تكون أجزاؤه متماسة أو متباينة منزلة ثالثة. فوجب ألا يصح أن يسبق الحوادث).[2] هكذا تصور "الباقلاني" أن الأجسام لا تنفك عن الحوادث ولا تسبقها وأن ذلك معلوم بالاضطرار.

الأصل الرابع: إن كل ما لا يخلو من الحوادث ولم يسبقها فهو حادث.

هذا الأصل هو بمثابة النتيجة التي يهدف المتكلمون الوصول إليها ولذلك نجد "الباقلاني" في نهاية استدلاله على الأصول السابقة يقول: (وما لم يسبق الحوادث

---

(١) المرجع السابق – ص٢٢.

(٢) المرجع السابق.

فواجـــب كونـــه محدثـــاً، إذ كـــان لابد أن يكون إنما وجد مع وجودها أو بعدها. وأي الأمرين ثبت، وجب به القضاء على حدوث الأجسام).[١]

وبهذا وصل متقدمو الأشاعرة من خلال هذه المقدمات العقلية – حسب تصورهم – إلى الحكم بحدوث العالم.

يقـــول "الـــبغدادي": (وقـــد دخل في حكم هذه الدلالة حكم النار والأرض والهواء والمـــاء والأفـــلاك والكواكب وسائر الأجسام من حيوان ونبات لأنها كلها أجسام غير سابقة الأعراض الحادثة فيها فوجب حدوث جميعها).[٢]

كما وأن للمتأخرين من الأشاعرة استدلالهم في إثبات هذه الأصول ولهذا نجد إمام الحرميـــن "الجويني" والمعروف بإمام المتأخرين قد أحدث بعض التغييرات على أصول هـــذا الدلـــيل وقد ذكر ذلك عندما قال: أن حدوث العالم (يبنى على أصول، منها إثبات الأعـــراض، ومنها إثبات حدوثها، ومنها إثبات استحالة تعرى الجواهر عن الأعراض، ومـــنها إثـــبات اســـتحالة حوادث لا أول لها. فإذا ثبتت هذه الأصول، ترتب عليها أن الجواهر لا تسبق الحوادث، ومالا يسبق الحادث حادث).[٣]

هذه الأصول التي جاء بها الإمام "الجويني" في دليل إثبات حدوث العالم هي التي أخـــذ بهـــا المتأخرون من المتكلمين واستندوا إليها، ولهذا نجد "الشهرستاني" في كتابه "نهايـــة الإقـــدام" قـــد ذكر هذه الأصول بأنها أصبحت هي الطريقة التي يسلكها عامة المتكلمين فقال: (فقد سلك عامتهم طريقة الإثبات بإثبات الأعراض أولاً وإثبات حدوثها ثانـــياً وبـــيان استحالة خلو الجواهر عنها ثالثاً وبيان استحالة حوادث لا أول لها رابعاً ويترتب على هذه الأصول أن ما لا تسبقه الحوادث فهو حادث).[٤]

---

(١) المرجع السابق – ص٢٢-٢٣ وانظر أصول الدين – البغدادي – ص٥٩-٦٠.

(٢) أصول الدين – ص٦٠.

(٣) الإرشاد – ص١٧-١٨.

(٤) ص١١.

وإليك استدلالهم في إثبات هذه الأصول.

أولاً: إثبات وجود الأعراض.

يقــول "الجوينـــي": (والدليل على إثبات الأعراض أنا إذا رأينا جوهراً ساكناً، ثم رأيناه متحركاً مختصاً بالجهة التي انتقل إليها، مفارقاً للتي انتقل عنها، فعلى اضطرار تعلــم أن اختصاصه بجهته من الممكنات وليس من الواجبات، إذ لا يستحيل تقدير بقاء الجوهــر في الجهة الأولى. والحكم الجائز ثبوته والجائز انتفاؤه، إذا تخصص بالثبوت بــدلاً عــن الانــتفاء المجوز، افتقر إلى مقتضٍ يقتضي له الاختصاص بالثبوت، وذلك معلوم أيضاً على البديهة. فإذا تقرر ذلك لم يخل المقتضي من أن يكون نفس الجوهر، إذ لو كان كذلك لأختص بالجهة التي فرضنا الكلام فيها ما دامت نفسه، ولاستحال عليه الزوال عنها والانتقال إلى غيرها، فثبت أن المقتضى زائد على الجوهر. ثم الزائد عليه يســتحيل أن يكــون عدماً، إذ لا فرق بين نفي المقتضى وبين تقدير مقتضٍ منفي. فإذا صــح كــون المقتضى ثابتاً زائداً على الجوهر، لم يخل من أن يكن مثلاً له أو خلافاً. ويــبطل أن يكون مثلاً له ..... فإذا ثبت المقتضى الزائد على الجوهر، وتقرر أنه خلافــه، لــم يخل من أن يكون فاعلاً مختاراً، أو معنى موجباً، فإن كان معنى موجباً، تعين قيامه بالجوهر المختص. بجهته ..... وإن قدر مقدر المخصص فــاعلاً، والكــلام في جوهر مستمر الوجود، كان ذلك محالاً، إذ الباقي لا يفعل، ولابد للفاعل من فعل. فخرج من مضمون ذلك ثبوت الأعراض، وهو من أهم الأعراض في إثبات حدوث العالم).[1]

ثانياً: إثبات حدوث الأعراض.

الملاحظ هنا أن "الجويني" يستدل على حدوث الأعراض بنفس الدليل الذي استدل بــه "الباقلانـــي" وذلك (بما يعتريها من العدم عند مجيء ضدها، فالحركة تختفى عند

---

(١) الإرشاد – ص١٨-١٩.

مجـــيء السكون والعكس ولو أنها كانت قديمة لاستحال عدمها لأن القديم لا يطرأ عليه العدم، وأن ما ثبت عليه العدم ثبت له الحدوث فالأعراض حادثة).[1]

ثالثاً: إثبات استحالة تعري الجوهر من الأعراض.

يـــرى الأشـــاعرة (أن الجوهر لا يخلو عن كل جنس من الأعراض وعن جميع أضداده، إن كانت له أضداد، وإن كان له ضد واحد، لم يخل الجوهر عن أحد الضدين، فإن قدِّر عرض لا ضد له، لم يخل الجوهر عن قبول واحد من جنسه).[2]

ولقد ذهب المتقدمون من الأشاعرة وعلى رأسهم "الباقلاني" بأن هذا الأصل معلوم بالضرورة ولا يحتاج إلى دليل وقد وافقه "الجويني" في ذلك عندما قال: (فإن القول فيها يســـتند إلى الضرورة، فإننا ببديهة العقل نعلم أن الجواهر القابلة للاجتماع والافتراق لا تعقل غير متماسة ولا متباينة).[3]

رابعاً: إثبات استحالة حوادث لا أول لها.

لقد اهتم "الجويني" بهذا الأصل الجديد الذي أضافه إلى دليل الحدوث اهتماماً كبيراً لأنـــه يرى بأن (الاعتناء بهذا الركن حتم، فإن إثبات الغرض منه يزعزع جملة مذاهب الملحدة فأصل معظمهم أن العالم لم يزل على ما هو عليه).[4]

ولهـــذا فهو يقول في إثبات هذا الأصل: (موجب أصلكم يقضي بدخول حوادث لا نهاية لأعدادها، ولا غاية لآحادها، على التعاقب في الوجود، وذلك معلوم بطلانه بأوائل العقـــول، فإنـــا نفرض القول في الدورة التي نحن فيها ونقول: من أصل الملحدة، أنه انقضـــى قبل الدورة التي نحن فيها دورات لا نهاية لها، وما انتفت عنه النهاية يستحيل أن يتصرم بالواحد على إثر الواحد، فإذا انصرمت الدورة التي قبل هذه الدورات، أذن

---

(١) انظر الإرشاد – الجويني – ص٢٠-٢١.

(٢) المرجع السابق – ص٢٣.

(٣) المرجع السابق – ص٢٤.

(٤) المرجع السابق – ص٢٥.

انقضـــاؤها وانتهاؤها بتناهيها، وهذا القدر كافٍ في غرضنا).[1] وهكذا أراد "الجويني" أن يثبت أن الحوادث لها بداية في الماضي وأنه يمتنع تسلسلها إلى ما لا نهاية.

خامساً: إثبات أن ما لا يخلو عن الحوادث ولم يسبقها فهو حادث وهو النتيجة.

وبعد أن أثبت "الجويني" المقدمات السابقة وصحة ما جاء بها يرى بأنه قد وصل إلى النتيجة المقصودة وهي لا تحتاج إلى دقيق نظر أو إعمال فكر بل هي مسألة بدهية وضرورية فيقول: (فإذا ثبت بما ذكرناه، الأعراض وحدوثها، وإستحالة تعري الجواهر عـــنها، واســـتنادها إلى أول، فيخرج من مضمون هذه الأصول أن الجواهر لا تسبقها، وما لا يسبق الحوادث حادث على الاضطرار من غير حاجة إلى نظر واعتبار).[2]

وهكـــذا، وبهـــذا الدليل يرى "الجويني" إنه أثبت حدوث مكونات العالم (جواهره وأعراضه) وإذا كان ذلك حادثاً كان العالم حادثاً بحدوث مكوناته.

هـــذه هـــي الطريقة الأولى عند الأشاعرة في إثبات حدوث العالم ومن خلال ذلك يستدلون على وجود الصانع أو المحدث حسب قولهم.

الطريقة الثانية للأشاعرة للاستدلال على حدوث العالم:

هـــذه الطريقة نسبت للإمام "الجويني" فقد استخدمها في إثبات الحدوث، وقد ذكر ذلك عنه "الشهرستاني" في كتابه "نهاية الأقدام" عندما قال: (إمام الحرمين اعتمد طريقة أخـــرى وذكر الطريقة)[3] وكذلك الشيخ "ابن تيمية" عندما قال: (وقد سلك هذه الطريقة أبو المعالي).[4]

وإليك ملخص هذه الطريقة كما ذكرها "ابن رشد" في كتابه "مناهج الأدلة" فقد قال: (وأمـــا الطريقة الثانية فهي التي استنبطها "أبو المعالي" في رسالته المعروفة بالنظامية، ومبناها على مقدمتين: إحداهما أن العالم بجميع ما فيه جائز أن يكون على مقابل ما هو

---

(١) المرجع السابق – ص٢٦.

(٢) المرجع السابق – ص٢٧.

(٣) انظر ص١٢.

(٤) درء تعارض العقل والنقل – ج٣ – ص٣٥٦.

علـــيه، حتى يكون من الجائز مثلاً أن يكون أصغر مما هو أو أكبر مما هو، أو بشكل آخـــر غـــير الشكل الذي هو عليه، أو عدد أجسامه غير العدد الذي هو عليه، أو تكون حركة كل متحرك منها إلى جهة ضد الجهة التي يتحرك إليها، وفي الحركة الشرقية أن تكـــون غربـــية، وفي الغربية أن تكون شرقية. والمقدمة الثانية، أن الجائز محدث وله محدث أي فاعل صيرة بإحدى الجائزين أولى منه بالآخر).[1]

هذه هي الطريقة الثانية للأشاعرة في إثبات حدوث العالم وبالانتهاء منها نكون قد انتهينا من المرحلة الثانية من مراحل الاستدلال على وجود الصانع، وبهذا يكون قد تم – حسب تصورهم – إثبات المقدمة الأولى من دليلهم وهي قولهم "العالم حادث".

المرحلة الثالثة: الاستدلال على افتقار الحادث إلى محدث.

هـــذه المـــرحلة تمـــثل بالنسبة للأشاعرة الاستدلال على المقدمة الكبرى من هذا الدليل.

يرى البعض من هذه الطائفة أن هذه المقدمة نظرية وتحتاج إلى دليل. يقول الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله –: (وإن كان العلم بأن كل حادث لابد له من (محدثٍ) فاعل قد اعتقده طوائف من النظار نظرياً حتى أقاموا عليه دليلاً: إما بقياس الشمول، وإما بقياس التمثـــيل. فالأول قول من يقول: كل محدث لابد له من محدث، والثاني قول من يقول: هذا محدث، فيفتقر إلى محدث، قياساً على البناء والكتابة).[2]

إذاً الدلـــيل الأول عندهم: هو الاستدلال بقياس الشمول كقولهم كل حادث لابد له من محدث فالعالم له محدث.

إنهـــم يثبتون هذا بالاستدلال بدليل واحد يذكرونه بألفاظ مختلفة ومتعددة، ولكنها جميعها تدور حول معنى واحد. يقول "الجويني" في إثبات هذا الدليل: (إذا ثبت حدوث العـــالم، وتبيـــن أنـــه مفتتح الوجود، فالحادث جائز وجوده وانتفاؤه، وكل وقت صادفه وقوعـــه كـــان من المجوزات تقدمه عليه بأوقات، ومن الممكنات استئخار وجوده عن

---

(١) ص٥٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل – ج٣ – ص١٢٠-١٢١.

وقــته بساعات. فإذا وقع الوجود الجائز بدلاً عن استمرار العدم المجوز، قضت العقول ببداهــتها بافــتقاره إلــى مخصص خصصه بالوقوع. وذلك أرشدكم الله مستبين على الضرورة، ولا حاجة فيه إلى سبر العبر والتمسك بسبيل النظر).[1]

هــذا يعنــي أن الدلــيل عندهم يقوم على أن الأمرين في الجواز أو الإمكان، لا يترجح أو لا يتخصص أحدهما دون الآخر إلا بمرجح أو مخصص. يؤكد "الباقلاني" ما ذكــره "الجويني" آنفاً بقوله: (الدليل على أنه لابد للأفعال من تعلق بفاعل، أنا وجدناها يتقدم بعضها على بعض في الوجود، ويتأخر بعضها عن بعض، وتوجد في زمان كان يصح عدمها فيه، بدلاً من الوجود، وتعدم في زمان يصح وجودها فيه بدلاً من العدم.

فإذا كان هذا وصفها قلنا: لا يخلو ما تقدم منها: أن يكون متقدماً لنفسه، أو لمعنى يوجد به، أو لا لنفسه ولا لعلة، أو لمقدم قدمه، وكذلك حكم القول فيما تأخر منها).[2]

كمــا وأنــه قــد وضع بعد ذلك عدة احتمالات أظهر من خلالها بطلان أن يكون المخصــص عائداً إلى الحادث نفسه أو لعلة فيه، بل أكد على أنه يجب أن يكون هناك مخصص خارج عن ذلك هو الذي خصص تقدم ما تقدم وتأخر ما تأخر فقال:

(وفي فساد هذه الأقسام التي لا يخلو الأمر منها في التقدم والتأخر، دليل على أن مقدمــاً قدم منها ما قدم، وأخر منها ما آخر).[3] ويقول كذلك: (مضمون هذا الكلام أن العلــم بأن المحدث لابد له من محدث يستدل عليه بأن ذلك يتضمن الاختصاص بزمان دون زمــان، والتخصــيص لابــد له من مخصص، لأنه ترجيح لأحد المتماثلين على الآخــر، وترجيح أحد المتماثلين بلا مرجح معلوم الفساد بالضرورة، ولم يحتج بعد هذا أن يســتدل علــى أن الترجيح لابد له من مرجح، لأن ذلك ترجيح لأحد طرفي الممكن على الآخر، فلابد له من مرجح).[4]

ويدلل على ما سبق بقوله: (علمنا بصحة قبول كل جسم من أجسام العالم لغير ما حصل عليه من التركيب، وصحة كون المربع منها مدوراً، وكون المدور مربعاً، وكون

---

(١) الإرشاد – ص٢٨.

(٢) نقلاً من درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية – ج٨ – ص٧٧.

(٣) نقلاً من المرجع السابق – ص٨١.

(٤) نقلاً من المرجع السابق.

ما هو بصورة بعض الحيوان بصورة غيره، وانتقال كل جسم عن شكله إلى غيره من الأشـــكال. فـــلا يجوز أن يكون ما اختص منها بشكل معين مخصوص إنما اختص به لنفســـه أو لصحة قبوله له. لأن ذلك، لو كان كذلك، لوجب قبوله لكل شكل يصح قبوله لـــه في وقت واحد، حتى يجتمع فيه جميع الأشكال المتضادة. وفي فساد ذلك دليل على بطـــلان هذا القول. ووجوب العلم بأن كل ذي شكل منها إنما حصل كذلك بمؤلف ألفه وقاصد قصد كونه كذلك).[1]

وبهذا ينتهي الدليل الأول عند من قال من الأشاعرة بأن افتقار الحادث إلى محدث مسألة نظرية ولابد من الاستدلال عليها.

الدليل الثاني:

(الاستدلال بقياس التمثيل وذلك بتمثيل حالة افتقار العالم المحدث إلى محدث بحالة افتقار أو احتياج البناء إلى الباني، أو الكتابة إلى الكاتب وغير ذلك من مثل هذه الأمور المحسوسات التي تدرك مدى افتقارها إلى الفاعل أو المحدث، كأن يقال: العالم حادث، فيفتقر إلى محدث، قياساً على البناء والكتابة).[2]

يقـــول "الباقلانـــي": (ولابد لهذا العالم المحدث المصور من محدث مصور)[3] ثم يذكـــر الدلـــيل على ذلك فيقول: (والدليل على ذلك أن الكتابة لابد لها من كاتب، ولابد للصـــورة من مصور، وللبناء من بانٍ، وأنا لا نشك في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت لا من كاتب، وصياغة لا من صائغ، وحياكة لا من ناسج).[4]

وإذا كان الأمر كذلك (فوجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صـــنعها، إذ كانـــت ألطف وأعجب صنعاً من سائر ما يتعذر وجوده لا من صانع من

---

(١) نقلاً من المرجع السابق – ص٢٣-٢٤.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية – ج٣ – ص١٢١.

(٣) التمهيد – ص٢٣.

(٤) المرجع السابق.

الحركات والتصورات).[1] وهكذا يرى الأشاعرة أن العالم بكل أجزائه ومكوناته يفتقر إلى فاعل أو محدث.

وبالانـــتهاء من حديث "الباقلاني" هنا نكون قد انتهينا من أدلة الأشاعرة في إثبات أن الحـــادث لابد له من محدث. وبذلك نكون قد انتهينا من المرحلة الثالثة التي توصلوا من خلالها إلى أن العالم يفتقر إلى محدث أو صانع.

أما إثبات أن هذا المحدث أو الصانع هو الله – تعالى – فهذا ما سوف نتحدث عنه في المرحلة التالية إنشاء – تعالى –.

المـــرحلة الـــرابعة: إثبات أن المحدث أو الفاعل أو الصانع هو الله – تعالى – وليس غيره.

مـــن خلال ما لاحظناه في المراحل السابقة نجد أن الأشاعرة قد توصلوا إلى هذه النتـــيجة وهـــي (أن هذا العالم حادث ويحتاج إلى محدث أو صانع) ولكن هذا الصانع الـــذي توصـــلوا إليه بعد هذا الجهد الكبير وجدوا بأنه غير مخصص بل أن تصوره لا يمـــنع من وقوع الشركة فيه.[2] وهذا عكس ما يريدونه، فهم يحاولون إثبات صانع أو محدث مخصوص وهو الله – تعالى –.

لهذا قد اضطروا إلى وضع هذه المرحلة لقطع كل الشبهات التي تثيرها الطوائف الأخرى من أهل الإلحاد.

لذلـــك ومـــن أجل إثبات أن محدث العالم وصانعه هو الله – تعالى – فقد استدلوا على إفساد هذه الشبهات وإبطالها بالأدلة التالية:

الأول مـــنها: إفســـاد قولهـــم أن العالم قد أحدث نفسه بنفسه. ذكر "البغدادي" هذه الشـــبهة بقوله: (زعم قوم من الكفرة الدهرية[3] : أن كل حادث يحدث في نفسه لا من صـــانع)[4] ويرد "الباقلاني" على هذا الزعم فيقول: (والدليل على أنه ليس بفاعل لنفسه

---

(١) المرجع السابق وانظر أصول الدين – البغدادي – ص٦٩ فقد استدل بهذين الدليلين.

(٢) لأن هناك من يرجع هذا إلى العلة الموجبة أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبيعيون ذلك.

(٣) هم: القائلون بقدم العالم وأنه لم يزل وقد أنكروا الخالق والبعث والإعادة.

(٤) أصول الدين – ص٦٨.

أن منه الألوان والأعراض التي لا يصح أن تحيا، والفاعل لا يكون إلا حياً قادراً. ولأن الحـــي منه كان مواتاً في بدء أمره وجاهلاً بنفسه وكيفية تركيبه، ولن يجوز أن يصنع المحكمـــات إلا حـــي قادر عالم. وليس يجوز أن يكون كل شيء منه فعل غيره، لأن المخلـــوق لا يفعل في غيره شيئاً .... وأيضاً فإنه لو صح أن يفعل المحدث غيره وما هـــو مـــثل له، لصـــح أن يفعل نفسه، إذ كانت بمعنى ما هو فعل له ومن جنسه. ولما استحال ذلك ..... صح أن لجميع العالم خالقاً غيره ليس منه).[1]

الثاني: إفساد قولهم: إن العالم قد حدث بالطبع.[2]

يـــورد "الباقلانـــي" هذه الشبهة فيقول: (فإن قال قائل: لم أنكرتم أن يكون صانع العالم طبيعة من الطبائع وجب حدوث العالم عن وجودها؟).[3]

ويرد "الجويني" على هذا الاعتراض بقوله: (ومن زعم أن المخصص طبيعة فقد أحـــال فـــيما قال. فإن الطبيعة عند مثبتها توجب آثارها إذا ارتفعت الموانع، فإن كانت الطبيعة قديمة، فلتقض بقدم العالم وإن كانت حادثة، فلتكن مفتقرة إلى مخصص).[4]

ويقول "البغدادي": (إن الطبع المضاف إليه الفعل لو أريد به فاعل حي قادر عالم فهـــو الصانع الذي أثبتناه وإن أريد به ما ليس بحي ولا موجود أصلاً فما ليس بموجود لا يكون فاعلاً).[5]

الثالث: إفساد قولهم: إن العالم قد حدث بفعل الأفلاك السبعة[6] ذكر "الباقلاني" هذه الشـــبهة بقوـــله: (إن قال قائل: فما أنكرتم أن يكون صانع هذا العالم ومصوره ومدبره

---

(١) التمهيد – ص٢٤.

(٢) هذا قول الطبعيين وهم معطلة الفلاسفة الذين ينكرون الخالق والبعث والإعادة، ويقولون بالطبيعة التي تحيي وتفني، ويخبر عنهم القرآن فـــي ســـورة الجاثية بأنهم الطبعيون والدهريون أيضاً [وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا]، إشارة إلى الطبائع المحسوسة التي يتركب منها العالم وينحل إليها، وقصراً للحياة والموت على تركبها وتحللها، فالجامع هو الطبع، أو الطبيعة، والمهلك هو الدهر، قالوا [وما يهلكنا إلا الدهر] الجاثية ٢٤) (المعجم الفلسفي – الدكتور عبد المنعم الحفني – ص١٥٢).

(٣) التمهيد – ص٣٤.

(٤) الإرشاد – ص٢٩.

(٥) أصول الدين – ص٦٩.

(٦) أصحاب هذه الشبهة هم المنجمون.

ونافعـــه وضـــاره ومبتلية الأفلاك السبعة، التي هي الطوالع: الشمس والقمر والمريخ والمشترى وزحل وعطارد والزهرة).[١]

ويجيب "الباقلاني" على ذلك بقوله: (قيل له: أنكرنا ذلك لعلمنا بحدوث هذه النجوم وأنهـــا جاريـــة مجـــرى سائر أجسام العالم. وذلك أنه قد جاز عليها، من الحد والنهاية والتالـــيف والسكون والانتقال من حال إلى حال، ما يجوز على سائر أجسام العالم. فلو جاز أن تكون قديمة مع ما وصفنا، لجاز قدم سائر الأجسام).[٢]

الرابع: إفساد قولهم: أن العالم قد حدث لعلة موجبة.[٣]

يـــورد "الباقلاني" هذه الشبهة بلسان المعترض فيقول: (فإن قال قائل: فهل تقولون إن القديم –تعالى– فعل العالم لعلة أوجبت حدوثه منه).[٤]

ويـــرد "الجوينـــي" على ذلك فيقول: (فإن العلة توجب معلولها على الاقتران. فلو قـــدر المخصص علة لم يخل من أن تكون قديمة أو حادثة، فإن كانت قديمة فيجب أن توجـــب وجـــود العـــالم أزلاً، وذلك يفضي إلى القول بقدم العالم، وقد أقمنا الأدلة على حدوثـــه، وإن كانـــت حادثـــة افـــتقرت إلـــى مخصص، ثم يتسلسل القول في مقتضى المقتضى).[٥]

كانـــت هذه أهم الشبهات والاعتراضات التي قام الأشاعرة بإبطالها والرد عليها، والتي كانت في تصورهم تحول دون تخصيص أو تعيين صانع العالم ومحدثه وهو الله – تعالى –.

ولهـــذا فهم يتصورون أنهم بإبطالهم هذه الشبهات وإفسادها نفوا كل ما قد يؤدي إلـــى وقوع الشركة التي دلت عليها النتيجة التي توصلوا إليها وهي إثبات حاجة العالم

---

(١) التمهيد – ص٤٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أصحاب هذه الشبهة هم الفلاسفة.

(٤) التمهيد – ص٣١.

(٥) الإرشاد – ص٢٨-٢٩.

إلى محدث أو صانع، وبذلك ثبت عندهم صحة قولهم: بأن العالم قد حدث بالاختيار عن فاعل مختار يقع منه الفعل والترك بالاختيار وهو الله – تعالى–.

يقـول "الجوينـي": (فإن بطل أن يكون مخصص الحادث علة توجبه، أو طبيعة توجده بنفسها لا على الاختيار، فيتعين بعد ذلك القطع بأن مخصص الحوادث فاعل لها على الاختيار، مخصص إيقاعها ببعض الصفات والأوقات).[1]

وبوصول الأشاعرة إلى هذه النتيجة نكون قد انتهينا من المراحل التي سلكوها في الاسـتدلال علـى الصـانع المحدث للكون – كما يقولون – وهو الله – تعالى – وذلك بالاعـتماد علـى الدليل المشهور بينهم والمعروف بدليل الحدوث: العالم حادث، وكل حادث له محدث، فالعالم له محدث وهو الله – سبحانه وتعالى–

ويعتـبر هذا الدليل الأول عندهم في الاستدلال على خالق هذا الكون وهو الله – عز وجل –. وبهذا نكون قد انتهينا من هذا الدليل وننتقل بعده إلى الدليل الثاني.

الدليل الثاني: هو دليل الإمكان.[2]

سوف أذكر هذا الدليل كما ورد عند "الرازي"[3] بصورته الفلسفية وهو كما يلي:

المعـروف أن لهـذا الدليل مقدمات ومراحل، وهذه عادة المتكلمين التي درجوا عليها كما أشرت إلى ذلك سلفاً، ولكنني هنا سأكتفي بذكر ملخص هذا الدليل كما ذكره "الرازي" دون ذكر لتلك المقدمات لعدم الحاجة إليها.

جاء في كتاب "الأربعين" وبعد أن انتهى "الرازي" من بيان مفصل للمقدمات التي يقـوم علـيها هذا الدليل قوله: (وإذا ظهرت هذه المقدمات. فلنرجع إلى أصل البرهان المذكـور على وجود إثبات واجب الوجود. وهو أنه لاشك في وجود الموجودات. وكل موجـود فهـو إمـا واجب لذاته، وإما ممكن لذاته. فإن حصل في الموجودات موجود واجـب لذاتـه. فذلـك هو المطلوب. وإن كان ذلك الموجود ممكناً، افتقر إلى مؤثر.

---

(١) الإرشاد – ص٢٩.

(٢) هذا الدليل نجده عند المتأخرين من الأشاعرة، أما المتقدمون منهم فإنهم يعتمدون على دليل الحدوث.

(٣) الرازي: هو الإمام المتكلم المناظر المفسر أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين القرشي التيمي البكري – ٥٤٣ – ٦٠٦هـ – أصله من طبرستان، شافعي المذهب فاق أهل زمانه في العلوم العقلية والنقلية (الأربعين – الرازي – ص٤٨٩-٤٩١).

والدور والتسلسل باطلان. فلابد من الانتهاء إلى موجود واجب الوجود لذاته. وذلك هو المطلوب).[1]

وبهذا نكون قد انتهينا من أشهر أدلة الأشاعرة في إثبات خلق الله – تعالى– للكون.

نقد أدلة المعتزلة والأشاعرة في إثبات خلق الله للكون:

أولاً: إن هذه الطريقة التي جاء بها هؤلاء المتكلمون بدعية لم يأت بها القرآن ولا السنة.

يقول شيخ الإسلام "ابن تيمية": (لا توجد هذه الطرق البعيدة في كلام أحد من السلف والأئمة، ولا ذكرت في القرآن، فإنها من باب تضييع الزمان، وإتعاب الحيوان في غير فائدة).[2]

ثانياً: اعتمد المتكلمون في طريقتهم على مقدمتين: العالم حادث، وكل حادث يحتاج إلى محدث، وبنوا على ذلك دليلهم، وهذه ليست قضية تحتاج إلى النظر وإعمال الفكر بل هي عند السلف ضرورة، ومعلومة ببداهة العقل.

يقول الشيخ "ابن تيمية": (إن ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو الحق الموافق لصريح المعقول، وأن ما بينه من الآيات والدلائل والبراهين العقلية في إثبات الصانع – سبحانه – ومعرفة صفاته وافعاله هي فوق نهاية العقول)[3] ولكن المتكلمين أغفلوا ذلك واعتمدوا هاتين المقدمتين – العالم حادث، وكل حادث يحتاج إلى محدث – واستخدموا في إثباتها من الأدلة ما خفي وغمض مما يصعب فهمه إلا بالرجوع إلى التمهيدات والمقدمات والمصطلحات الخاصة بهم، وفي ذلك من التطويل والتعقيب ما يدعو إلى السأم والملل، دون الوصول إلى الغرض المطلوب بل لربما ترك ذلك في النفس من الرواسب والشبهات ما يجعل المرء أكثر حيرة وبعداً عن اليقين.

---

(١) ص ١٢١ وانظر محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ص١٤٩.

(٢) درء تعارض العقل والنقل – ج٨ – ص٨٨.

(٣) المرجع السابق – ج٣ – ص٨٧.

يقــول الشيخ "ابن تيمية": (فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات، ينقطع السالكون فيها كثــيراً قــبل الوصول، ومقدماتها في الغالب إما مشتبهة يقع النزاع فيها، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء).[1]

ويقول: (وتجد المصنفين في الكلام يبتدئون بمقدماته في الكلام: في النظر والعلم والدليل – وهو من جنس المنطق – ثم ينتقلون إلى حدوث العالم وإثبات محدثه).[2] إن مما تجدر الإشارة إليه هنا أن السلف لا يعارضون هذه المقدمات والمصطلحات إلا ما كــان مــنها مخالفــاً للشــرع. ولهذا يقول "ابن أبي العز الحنفي": (ولا نقول لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة النظرية – فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره، ويظهر للإنسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال أخرى. وأيضاً فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فــيما هو أجل منها، وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر ما لا تفرح بما علمته مــن الأمــور الظاهرة. ولاشك أن العلم بإثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضروري فطري، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية).[3]

ويقــول الشــيخ "ابن تيمية": (إن الألفاظ نوعان: نوع مذكور في كتاب الله وسنة رســوله وكــلام أهــل الإجماع، فهذا يجب اعتبار معناه، وتعليق الحكم به، فإن كان المذكــور بــه مدحاً استحق صاحبه المدح، وإن كان ذماً استحق الذم، وإن أثبت شيئاً وجب اتباعه، وإن نفى شيئاً وجب نفيه .....

وأمــا الألفــاظ التــي ليس لها أصل في الشرع فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها، إلا أن يبين أنه يوافق الشرع، والألفاظ التي تعارض بها النصــوص هــي مــن هــذا الضــرب، كلفظ "الجسم" و"الحيز" و"الجهة" و"الجوهر" و"العرض").[4]

---

(١) مجموع الفتاوى – ج٢ – ص٢٢.

(٢) المرجع السابق – ص٢٣.

(٣) شرح الطحاوية – ص٦٧.

(٤) درء تعارض العقل والنقل – ج١ – ص٢٤٠ – ٢٤٢.

ثالثاً: إن ما يسعى إليه المتكلمون من خلال هذه الأدلة هو إثبات توحيد الربوبية فقط، وذلك ليس هو مطلب الشرع،[1] كما وأنهم في استدلالهم هذا لا يثبتون فاعلاً معيناً مخصوصاً، بل مطلق لا يمنع من وقوع الشركة فيه، وكان ذلك سبب وقوعهم في هذا التطويل والتعقيد الذي لم يحصدوا من وراءه إلا الحيرة والاضطراب وكان ذلك باعترافٍ منهم[2]، ومثالنا على ذلك ما ذكره "الرازي" في كتابه "أصول الدين" عندما قال:

وأكثر سعي العالمين ضلال (نهاية إقدام العقول عقال
وحاصل دنيانا أذى ووبال فأرواحنا في وحشة من جسومنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقال)[3] ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

وقال أيضا: (ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله – تعالى –، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية).[4]

***

(١) انظر نقد طريقة ابن رشد من هذا الفصل.
(٢) انظر المبحث الأول من هذا الفصل.
(٣) ص٨.
(٤) المرجع السابق – ص٩.

المطلب الثالث

الأدلة العقلية في إثبات خلق الله للكون عند ابن رشد

صـــحيح أن ابـــن "رشد" قد أخذ أدلته من القرآن –الكريم–، وقد كان ذلك حسناً وجمـــيلاً مـــنه، وهذا مما جعل أدلته أكثر قبولاً من أدلة غيره من الفلاسفة، إلا أنه في حقيقة الأمر لم يبعد بها كثيراً عن تلك الطرق الكلامية والفلسفية، وهذا ما سيظهر معنا من خلال عرض أدلته وبيان ما أخذ عليها من ملاحظات في التفصيل التالي:

أشار "ابن رشد" إلى أن هذه الأدلة تنحصر في جنسين:

(أحدهمـــا : طـــريق الوقـــوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها، ولنسم هذه دليل العناية. والطريقة الثانية : ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجـــودات مثل – اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذه دلـــيل الاختراع).[1] وقال: (فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية، وهي التي جاءت بها الرسل، ونزلت بها الكتب).[2]

هكـــذا قـــدم "ابن رشد" أدلته، فقد زعم أن (الشرع قد دعا الناس من خلالها، وأن الصحابة – رضوان الله عليهم – قد اعتمدوها).[3]

إليك عرض هذه الأدلة كما وردت عن "ابن رشد":

الدليل الأول : دليل العناية.

لقد اهتم "ابن رشد" بهذا الدليل اهتماماً بالغاً وقال عنه : إنه من أشرف الأدلة على وجود الصانع لأنه يقوم على دليلين أو أصلين:

أحدهما: أن جميع الموجودات وضعت بحيث تكون موافقة لوجود الإنسان.

الثانـــي: إن هذه الموافقة ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد يقول في ذلك: (فأما الطريقة الأولى فتبنى على أصلين:

---

(١) سلسلة فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٦٠.

(٢) المرجع السابق – ص٦٣.

(٣) انظر المرجع السابق – ص٦٠.

أحدهما: أن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان.

والثانـــي: أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق. فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتـــبار موافقـــة الليل والنهار، والشمس والفجر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة له. والمكان أيضاً الذي هو الأرض. وكذلك تظهر أيضاً موافقة كثير من الحـــيوان له والنـــبات والجماد وجزئيات كثيرة، مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملـــة الأرض والماء والنار والهواء، وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الـــبدن وأعضـــاء الحيوان، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده، وبالجملة فمعرفة ذلـــك، أعني منافع الموجودات، داخله في هذا الجنس. ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله – تعالى – المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات).[1]

لـــم يكـــتف "ابن رشد" بذلك بل استدل في هذا الدليل ببعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن العناية الآلهية وفسرها تفسيراً خاصاً يبرز فيها معنى العناية التي تدل على وجود الصانع.

فقال: (إن هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود في الكتاب – العزيز – فذلك يظهر من غيرما آية من الآيات التي يذكر فيها بدء الخلق).[2]

ثم ذكر من هذه الآيات قوله – تعالى–: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ ﴾.[3]

ثـــم قـــال: (فإن هذه الآيات إذا تؤملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الإنسان، وذلك أنه ابتدأ، فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الأبيض والأســـود، وهو أن الأرض خلقت بصفة يتأتى لنا المقام عليها، وأنها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير شكلها أو في موضع آخر غير الموضع الذي هي فيه، أو بقدر غير هـــذا القدر لما أمكن أن نوجد فيها ولا أن نخلق عليها. وهذا كله محصور في قوله –

---

(١) المرجع السابق – ص٦٠-٦١.

(٢) المرجع السابق – ص٩٩.

(٣) سورة النبأ – الآيات – ٦-١٦.

تعـــالى-: [والجبال أوتاداً] فإنه نبه بذلك على المنفعة الموجودة في سكون الأرض من قـــبل الجبال، فإنه لو قدرت الأرض أصغر مما هي كأنك قلت دون الجبال لتزعزعت مـــن حركات باقي الاسطفسات أعني الماء والهواء، ولتزلزلت وخرجت من موضعها. ولـــو كـــان ذلـــك كذلـــك لهلـــك الحيوان ضرورة. فإذاً موافقة سكونها لما عليها من الموجـــودات لـــم تعرض بالاتفاق، وإنما عرضت عن قصد قاصد، وإرادة مريد، فهي ضـــرورة مصـــنوعة لذلـــك القاصد – سبحانه – وموجودة له على الصفة التي قدرها لوجود ما عليها من الموجودات).[1]

ولم ينقطع تفسير "ابن رشد" لهذه الآيات التي أشار إليها بل استمر في ذلك تأكيداً منه على أن هذه العناية ليست إلا بفعل الصانع، ثم ينتهي به ذلك الحديث إلى أن قال: (ولو ذهبنا لتعداد هذه الآيات وتفصيل ما نبهت عليه من العناية التي تدل على الصانع والمصـــنوع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة وليس قصدنا ذلك في هذا الكتاب. ولعلنا إن أنســـأ الله فـــي الأجل ووقع لنا فراغ، أن نكتب كتاباً في العناية التي نبه عليها الكتاب العزيز).[2]

الدليل الثاني: دليل الاختراع.

دلالـــة الاخـــتراع كما يرى "ابن رشد": (يدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السماوات).[3]

ويذهـــب "ابن رشد" إلى أن دليل الاختراع ينبني على أصلين موجودين بالقوة في جمـــيع فطـــر الـــناس (أحدهما: أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف بنفسه في الحـــيوان والنـــبات، كما قال – تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴿٧٣﴾ ﴾[4] فإنـــا نرى أجساماً جمادية، ثم تحدث فيها الحـــياة فنعلم قطعاً أن ههنا موجداً للحياة ومنعماً لها، وهو الله – تبارك وتعالى – وأما

---

(١) المرجع السابق – ص٩٩-١٠٠.

(٢) المرجع السابق – ص١٠١.

(٣) المرجع السابق – ص٦١.

(٤) سورة الحج – بعض الآية ٧٣.

السماوات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة. وأما الأصل الثاني: فهو أن كل مخترع فله مخترع، فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلاً مخترعاً له).[1]

ويذكر "ابن رشد" أن دلائل هذا الدليل كثيرة ومتعددة تبعاً لتعدد تلك الموجودات، ويرى بأن الطريقة السليمة لمعرفة الله حق معرفته أن تعرف جواهر هذه الأشياء.

يقول في ذلك: (وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿١٨٥﴾ ﴾.[2]

وكذلك أيضاً من تتبع معنى الحكمة في أي موجود، أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به، كان وقوفه على دليل العناية أتم. فهذان الدليلان هما دليلا الشرع)[3] وفي نهاية هذا البيان لهذه الأدلة يؤكد "ابن رشد" على مدى أهميتها وكيف أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الصانع إنما جاءت في التدليل على هذين النوعين من الأدلة.

يقول في ذلك: (وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع – سبحانه – في الكتاب – العزيز – هي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة، فذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب – العزيز – في هذا المعنى. وذلك أن الآيات التي في الكتاب –العزيز– في هذا المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية، وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع، وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً.

---

(١) سلسلة فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٦١.

(٢) سورة الأعراف – بعض الآية ٣٨.

(٣) سلسلة فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص ٦١.

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط، فمثل قوله – تعالى –: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ ﴾.(١)

ومثل قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ ﴾.(٢)

ومثل قوله –تعالى–: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ ﴾.(٣)

ومثل هذا كثير في القرآن. وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط، فمثل قوله – تعالى –: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ ﴾.(٤)

ومثل قوله –تعالى–: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ ﴾.(٥) إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى. وأما الآيات التي تجمع الدلالتين فهي كثيرة أيضاً بل هي الأكثر، ومثل قوله –تعالى–: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ

---

(١) سورة النبأ – آية ٦-١٦.

(٢) سورة الفرقان – آية ٦١.

(٣) سورة عبس – الآية ٢٤.

(٤) سورة الطارق – آية ٥-٦.

(٥) سورة الغاشية – الآية ١٧.

أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] فإن قوله: [الذي خلقكم والذين من قبلكم] تنبيه على دلالة الاختراع.

وقوله -تعالى-:﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.[2]

وقوله -تعالى-: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [3] وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الدلالة).[4]

وبعد أن انتهى "ابن رشد" من عرض أدلته على وجود الله – تعالى – علق على ذلك بالتنبيه إلى أن هذه الطريقة هي التي دعا الله الناس إليها لمعرفة وجوده – تعالى – والتي يجب إتباعها والأخذ بها فقال: (فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده ونبههم عليه بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى وإلى هذه الفطرة المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿١٧٢﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [5] ولهذا قد يجب على كل كائن طاعة الله في الإيمان به وامتثال ما جاءت به رسله أن يسلك هذه الطريقة حتى يكون من العلماء الذين يشهدون لله بالربوبية مع شهادته لنفسه وشهادة ملائكته له، كما قال – تبارك وتعالى -: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.[6]

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢١-٢٢.

(٢) سورة يس – الآية ٣٣.

(٣) سورة آل عمران – بعض الآية ١٩١.

(٤) سلسلة فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٦١-٦٢.

(٥) سورة الأعراف – بعض الآية ١٧٢.

(٦) سورة آل عمران – الآية ١٨.

ومـــن الـــدلالات الموجودات من هاتين الجهتين عليه هو التسبيح المشار إليه في قولـــه – تبارك وتعالى –: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1] فقد بان من هذه أن الأدلة على وجود الصانع منحصرة في هذين الجنســين: دلالـــة العـــناية ودلالـــة الاختراع. وتبين أن هاتين الطريقتين هما طريقة الخـــواص – وأعنـــي بـــالخواص العلمـــاء – وطريقة الجمهور. وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل، أعني أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على مـــا هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس. وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان، أعني من العناية والاختراع. حتى لقد قـــال بعض العلماء: إن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان، هو قريـــب مـــن كـــذا وكـــذا آلاف منفعة. وإذا كان هذا هكذا، فهذه الطريقة هي الطريقة الشـــرعية والطبيعـــية، وهي التي جاءت بها الرسل، ونزلت بها الكتب. والعلماء ليس يفضـــلون الجمهور في هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط، بل ومن قبل التعمق في معـــرفة الشـــيء الواحد نفسه. فإن مثال الجمهور في النظر إلى الموجودات مثالهم في الـــنظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها، فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط، وأن لها صانعاً موجوداً. ومثال العلماء في ذلك مثال من نظر إلى المصـــنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة فيها. ولاشك أن من حَالَهُ من العلم بالمصنوعات هذه الحال، هو أعلم بالصانع من جهة ما هو صانع، من الذي لا يعـــرف مـــن تلك المصنوعات إلا أنها مصنوعة فقط، أما مثال الدهرية في هذا، الذين جحـــدوا الصـــانع – ســـبحانه – فمـــثال من رأى أحسن مصنوعات فلم يعترف أنها مصـــنوعات، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق، والأمر الذي يحدث من ذاته).[2]

هـــذه هي أدلة "ابن رشد" التي اعتمد عليها في الاستدلال على وجود الله – تعالى– وإثبات خلقه للكون.

---

(١) سورة الإسراء – بعض الآية ٤٤.

(٢) سلسلة فسلفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٦٢ –٦٤.

مـــع العلم بأنه كان يشير مع استدلالاته تلك إلى دليلي الحركة[1] والإمكان[2] كما جـــاء ذلـــك فـــي كـــتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة". حيث قال: (وأما الســـماوات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما ههنا ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة).[3]

وقـــد ذكر ذلك الشيخ "ابن تيمية" عن "ابن رشد" في أثناء نقده له عندما قال: (إنه جعل الحركة تارة لا قوام للسماوات إلا بها).[4]

أمـــا بالنسبة لدليل الإمكان الذي أشار إليه "ابن رشد" في استدلالاته فيقول الشيخ "ابـــن تيمية": (وهذا الذي ذكره "ابن رشد" في إثبات واجب الوجود مضمونَةٌ: أن ممكن الوجود، وهو في اصطلاحه الذي ذكره عن القدماء: المحدث بعد عدم، يجب أن يتقدمه واجب الوجود، وهو القديم الذي لم يسبقه عدم. وهذا هو بعينه قول المتكلم: إن المحدث مفتقر إلى قديم).[5]

هذه مجمل أدلة "ابن رشد" في الاستدلال على وجود الله وخلقه للكون ونلاحظ أنه أهـــتم اهتماماً بالغاً بدليل العناية والاختراع، وهذان الدليلان هما ما نريد التركيز عليه لأن "ابـــن رشـــد" اعتمد عليهما في استدلاله وقال عنهما: بأن تلك هي الطريقة العقلية الشرعية.

وسوف نرى ما إذا كانت هذه الأدلة شرعية أم لا من خلال النقد التالي:

أولاً: صـــحيح أن "ابـــن رشد" استمد أدلته من القرآن وهذا الأمر حسن وطيب ولكنني أعـــتقد – والله أعلم بذلك – أن ذلك كان محاولة منه لإسباغ الشرعية على أدلته

---

(١) دلـيل الحـــركة: يعنـــي أن الأفلاك السماوية في حركة مستمرة، ولكل فلك من هذه الأفلاك عقل يحركه وتنتهي هذه المتحركات إلى المحرك الأول الذي يحرك غيره ولا يتحرك وهو الله تعالى، أو بمعنى أن كل متحرك له محركه إلى أن تصل بالضرورة إلى محرك أول لا يحركه محرك آخر وهذا المحرك الأول هو الله (البراهين العقلية على وجود الله – الدكتور عبد المنعم الحفني – ص٥٩ وانظر درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية – ج٩ – ص٣٢٤ – ٣٢٥)..

(٢) دليل الإمكان: يعني أن (لكل ممكن الوجود بما هو كذلك علة ممكنة، والعلة لها علة، والعلل الممكنة لابد بالضرورة أن ننتهي فيها إلى علة أولى ليست لها علة، أي علة ليست ممكنة الوجود وإنما واجبة الوجود، أي أن وجودها ليس بغيرها وإنما وجودها بذاتها، وواجب الوجـــود هـــو الله، ومعنى أنه واجب الوجود أن وجوده لا يحتاج إلى موجد، وعين وجوده هو ماهيته، والله هو المبدأ لكل الموجودات سبحانه (البراهين العقلية على وجود الله – الدكتور عبد المنعم الحفني – ص٥٩-٦٠).

(٣) ص٦١.

(٤) درء تعارض العقل والنقل – ج٨ – ص٢١٧.

(٥) درء تعارض العقل والنقل – ج٨ – ص٢٣٤.

لاسيما وأن (ملاحقة الفلاسفة واضطهادهم بحجة مخالفتهم للشرع لم يكن أمراً مستغرباً في ذلك الوقت)[1] وإلا كيف يكون ذلك و "ابن رشد" من أساطين الفلاسفة وعمدة الفلسفة يدعو إليها ويدافع عنها ويظهر ذلك من خلال قوله: (وإذا كان هذا هكذا، فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية).[2]

ويقصد بالطبيعية هنا أي الفلسفية كما أشار إلى ذلك الشيخ "ابن تيمية" فيما نقله عن "ابن رشد" عندما قال: (وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والفلسفية الحكيمة، وهي التي جاءت بها الرسل، ونزلت بها الكتب)[3] لذلك يقول الشيخ "ابن تيمية": (فهذا الرجل مع أنه من أعيان "الفلاسفة" المعظمين لطريقتهم، المعتنين بطريقة الفلاسفة المشائين، "كأرسطو" وأتباعه، يبين أن الأدلة العقلية الدالة على إثبات الصانع مستغنية عما أحدثه المعتزلة، ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم، من طريقة الأعراض ونحوها، وأن الطرق الشرعية التي جاء بها القرآن هي طرق برهانية تفيد العلم للعامة وللخاصة، والخاصة عنده يدخل فيهم الفلاسفة، والطرق التي لأولئك، هي مع طولها وصعوبتها، لا تفيد العلم لا للعامة ولا للخاصة.

هذا مع أنه لم يقدر القرآن قدره، ولم يستوعب أنواع الطرق التي في القرآن، فإن القرآن قد اشتمل على بيان المطالب الإلهية بأنواع من الطرق وأكمل الطرق.[4]

ثانياً: "ابن رشد" كغيره من الفلاسفة والمتكلمين يؤوّل الآيات بما يتفق مع مقصده وميوله الفلسفية، فالآيات جميعها التي استشهد بها جعلها في إثبات ربوبيته – تعالى – وهنا يلتقي مع الفلاسفة والمتكلمين من حيث اهتمامهم بإثبات هذا النوع من التوحيد وإغفالهم أو تناسيهم توحيد الألوهية الذي جاءت به الرسل – عليهم السلام –، ونزلت به الكتب. وهذه بعض الآيات التي يوجهها "ابن رشد" توجيهاً خاصاً بما يتفق مع منهجه مخالفاً بذلك منهج السلف.

---

(١) انظر سلسلة فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٥.

(٢) المرجع السابق – ص٦٣.

(٣) درء تعارض العقل والنقل – ج٩ – ص٣٣٢.

(٤) المرجع السابق – ص٣٣٣.

أ: قولـه – تعـالى –: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.(١)

فسـر "ابن رشد" هذه الآية بأنها (دليل على ربوبية الله – تعالى – وزعم بأن الله شهد لنفسه بذلك في هذه الآية وشهد له بها الملائكة والعلماء).(٢)

والصحيح في ذلك وما عليه السلف – رضوان الله عليهم– أن هذه الآية دليل على توحـيد الألوهية. المتضمن لتوحيد الربوبية جاء في "شرح الطحاوية" (فعلم أن التوحيد المطلـوب هو توحيد الإلهية الذي يتضمن توحيد الربوبية).(٣) كما وأن توحيد الألوهية هـو المتنازع عليه بين الرسل – عليهم السلام – وأقوامهم، وليس توحيد الربوبية، بل هـذا الـنوع مـن التوحيد (الربوبية) مستقر في الفطر، حتى المشركون أنفسهم كانوا يقرون به ولذلك فهو لا يحتاج إلى نظر واستدلال(٤) إضافة إلى ذلك أنه –تعالى– قال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴿١٨﴾ ﴾ ولم يقل –سبحانه وتعالى – شهد الله أنه لا رب سواه، وذلك لأن المطلوب ليس توحيد الربوبية فقط بل توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية وبهذا فقد خالف "ابن رشد" ما عليه السلف، ووافق بذلك المتكلمين والفلاسفة.

ب : وقولـه –تعالى–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴿٢١﴾ ﴾.(٥)

هذه الآية من جملة الآيات التي اتخذها "ابن رشد" كدليل شرعي وعقلي في إثبات ربوبـية الله –تعـالى–، وقـد أخطـأ هنا أيضاً وخالف ما جاء به السلف في تفسيرها وإثباتهم ألوهيته –تعالى– من خلال ذلك.

---

(١) سورة آل عمران – آية ١٨.

(٢) انظر سلسلة فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٦٣.

(٣) ابن أبي العز – ص٣٣.

(٤) انظر دلالة الفطرة في هذا الفصل من هذا الباب.

(٥) سورة البقرة – بعض الآية ٢١.

يقــول "ابن كثير" في تفسير هذه الآية –الكريمة–: (شرع – تبارك وتعالى – في بــيان وحدانــية ألوهيته وأنه – تعالى – هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة ...).[1]

وهكذا بقية الآيات التي استدل بها "ابن رشد" على توحيد الربوبية فهي تشير إلى توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية وليس كما يزعم "ابن رشد".

ثالــثاً: كذلك ومن الأخطاء التي وقع فيها "ابن رشد" حصره الأدلة التي استدل بها في إثبات وجود الله وخلقه للكون في دليلي العناية والاختراع.

يقــول "ابــن رشد": (وذلك أن الآيات في الكتاب –العزيز– في هذا المعنى، إذا تصــفحت وُجــدت على ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية، وإما آيــات تتضــمن التنبــيه علــى دلالة الاختراع، وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً).[2]

هــذا ما تصوره "ابن رشد" وذهب إليه ولا يوافقه السلف في ذلك لأنهم يرون أن ما دل على العناية فهو يدل على الاختراع وأن ما يدل على الاختراع يدل على العناية.

يقول الشيخ "ابن تيمية": (إن في الآيات ما يدل على العناية دون الاختراع وغير ذلك كلام ليس هذا موضعه، بل كل ما دل على العناية دل على الاختراع).[3]

هكــذا أخذ "ابن رشد" أدلته من القرآن ثم انطلق من منطلق فلسفي يبحث في هذه الأدلــة إلــى ما يحقق به مقاصده الفلسفية وهنا تتكشف لنا حقيقته فهو المحب للفلسفة، والمعظــم للفلاسفة دون غيرهم وقد أخطأ عندما زعم بأن (العلماء الذين خصهم الله – تعــالى – بعلمــه وقرن شهادتهم بشهادته هم أهل صناعة البرهان من الفلاسفة، وأنهم الأجــدر من غيرهم بمعرفة حقائق الأمور).[4] ولهذا يرد عليه الشيخ "ابن تيمية" ويبين له بأن هذا زعم باطل ودعوى كاذبة.

فيقول في كتابه "درء تعارض العقل والنقل":

---

(١) التفسير – ج١ – ص٥٧.

(٢) سلسلة فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٦١-٦٢.

(٣) درء تعارض العقل والنقل – ج٩ – ص٣٣١.

(٤) انظر فلسفة ابن رشد – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة – ص٥٧.

(أمـــا دعـــواه أن العلماء المذكورين في القرآن هم إخوانه الفلاسفة أهل المنطق وأتباع اليونان فدعوى كاذبة، فإنا نعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الذين أثنى الله – تعـــالى – علـــيهم بالتوحـــيد ليسوا هم من المشركين الذين يعبدون الكواكب والأوثان ويقولون بالسحر، ولا ممن يقول قولاً يستلزم أن تكون الحوادث حدثت بأنفسها ليس لها فاعل، ونعلم بالاضطرار أن العلم بالتوحيد ليس موقوفاً على ما انفردوا به في المنطق من الكلام في الحد والقياس بما يخالفهم أكثر الناس، كتفريقهم بين الذاتيات والعرضيات اللازمـــة للماهية، وتفريقهم بين حقيقة الأعيان الموجودة التي هي ما هيتها، وبين نفس الوجود الذي هو الأمر الموجود، وأمثال ذلك).[1]

وبالانتهاء من هذا النقد نكون قد انتهينا من الأدلة العقلية عند المعتزلة والأشاعرة و "ابن رشد"، وما هي إلا أمثلة لأدلة المتكلمين والفلاسفة التي لا تؤدي إلا إلى الحيرة، والاضطراب والشك، وهذا ما نهى عنه الشرع وحذر منه.

أمـــا أدلـــة الكـــتاب والســـنة فهي الأدلة النقلية، والعقلية، والشرعية التي يجب اعتمادها والأخذ بها.

وبعـــد أن ثبت لنا بهذه الأدلة القوية والواضحة أن لا خالق إلا الله – تعالى – ولا معـــبود إلا إياه فهو وحده – عز وجل – المستحق للعبادة، وهذه غايته – تعالى – في الخلق، وتفصيل ذلك في الفصلين القادمين.

***

(١) ج٩ – ص١٢٣.

الفصل الثاني

الغاية من خلق الإنس والجن

تمهيد

إن الحقيقة التي لا ينكرها إنسان عاقل هي أن هذا الكون يوحي بوجود إله خالق ومدبر له وأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة. بمعنى أن الإنسان لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى كما قال -تعالى-: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.(١)

وقال – تعالى-: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾.(٢)

إذاً ليس الأمر كما يتصوره الماديون،(٣) بل هناك غاية خُلق الإنس لأجلها وقد خاطبهم الله – تعالى – بها، وكذلك خاطب الجن(٤) بها لأنهم مكلفون من قبل الله – تعالى – كالإنس، فكما أرسل الله – تعالى – رسله إلى الإنس مبشرين ومنذرين فكذلك للجن أيضاً.

قال – تعالى-: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ ﴾.(٥)

(ورسل الله إلى الجن كانوا من الإنس).(٦)

قال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴿٣١﴾ ﴾.(٧)

---

(١) سورة المؤمنون – الآيتان ١١٥ – ١١٦.

(٢) سورة القيامة – الآية ٣٦.

(٣) انظر الباب الثاني من هذه الرسالة.

(٤) الجن هم عالم آخر غير عالم الإنسان وعالم الملائكة، سموا جناً لاجتنانهم أي استتارهم عن العيون، وخلقوا من نار (عالم الجن والشياطين – عمر الأشقر – ص٧).

(٥) سورة الأنعام – بعض الآية ١٣٠.

(٦) انظر شرح الطحاوية – ابن أبي العز – ص١٢٥.

(٧) سورة الأحقاف – آية ٢٩ – ٣١.

والمقصود بالكتاب هنا القرآن – الكريم – المنزل على رسول الله "محمد" – صلى الله عليه وسلم – وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ۝٢ ﴾. (١)

وبما أن رسل الله كانت للإنس والجن فهذا يعني أن الجن كالإنس مكلفون ومأمورون بعبادة الله – تعالى – ولهذا نجد منهم من آمن ومنهم من ضل.

قال – تعالى– حاكياً مقالة الجن – :﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ ﴾.(٢)

وقال –تعالى–: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ ۝١٤ ﴾.(٣)

من خلال هذه الآيات يتأكد لنا أن الجن كالإنس مكلفون ومأمورون بعبادة الله – عز وجل –.

قال –تعالى–: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾.(٤)

هذا يعني بأن الأصل في خلق الجن والإنس أنهم مكلفون بعبادة الله – تعالى –. إلا إن هذا (التكليف ألصق بالإنس منه بالجن، لأن الإنس هم الذين أهلهم الله – سبحانه – لخلافة الأرض، على خلاف الجن الذين يعيشون في الخفاء، هذا الخفاء الذي هو قرين الانعزالية والتوحش).(٥) ولقد أنذر الله – تعالى – كل من أغفل هذه الغاية العظمى فقال –عز وجل–: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ ﴾.(٦)

---

(١) سورة الجن – الآية ١ وبعض الآية ٢.

(٢) سورة الجن – الآية ١١.

(٣) سورة الجن – الآية ١٤.

(٤) سورة الذاريات – الآية ٥٦.

(٥) الإنسان وحريته في الإسلام – الدكتور محمود بابللي – ص٢١.

(٦) سورة طه – آية ١٢٤.

الحقيقة أن الحياة لا يمكن أن تستقيم ويتحقق فيها الأمن والاستقرار إلا بعبادة الله – عــز وجــل – وعبادة الله التي أمرنا بها ليست مجرد شعائر مخصوصة تؤدى في المســـاجد فقــط كما يتصور ذلك العلمانيون بل العبادة أشمل وأعمق من هذا لأن وراء هذه الغاية العظمى غاية أخرى لا تتحقق الأولى إلا بها.

إن عبادة الله – تعالى – هي الغاية من خلق الإنس والجن، ولكن إضافة إلى ذلك هــناك غايــات أخرى قد أشار إليها القرآن – الكريم – سوف أذكرها في هذا الفصل وبصـــورة مجملــة ولكــن تــبقى عبادة الله – تعالى – هي غاية تلك الغايات ورأسها وأساسها وهي الأصل من هذا الخلق لأن جميع الغايات التي خلق الإنسان لتحقيقها تعود وتلتقــي بهــذا الأصــل وهذا يعني أن لا وجود إلا بتحقيق هذه الغاية أو يكون وجوداً مزيفاً نهايته الفساد والدمار. وإليك بيان ذلك في المباحث التالية والتي تتحدث عن أهم هذه الغايات.

***

المبحث الأول

عبودية الإنس والجن لله ـ تعالى ـ

المطلب الأول

تعـــريف العبوديـــة

الحقـيقة أنْ المـراد بهـذا اللفظ لا يخرج عن معنى الخضوع والطاعة تذللاً لله الخالق المعبود وحده دون سواه. جاء في "مختار الصحاح":

أن معنى العبودية هو: (الخضوع والذل. والتعبيد. التذليل يقال: طريق معبد. والعبادة هي: الطاعة).[1]

يقـول الشيخ "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله –: (العبادة: هي العبودية معنى وحقيقة. أنت عبد الله معبودك، فكل ما يأتي به العبد في طاعة معبوده هو العبادة).[2]

بينما ينظر الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله – إلى هذا المعنى بنظرة أوسع وأعمق فـيقول: (العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب: فهي تتضمن غاية الذل لله – تعالى – بغاية المحبة له).[3]

هذا يعني أن العبادة تعني الطاعة والخضوع والتذلل مع غاية المحبة لله – تعالى – بحيث يكون الله – عز وجل – أحب إلى العبد من كل ما سواه.

والشاهد على ذلك قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

---

(١) الرازي – ص١٧٢.

(٢) مبادئ الإسلام – ص٩٤.

(٣) العبودية – ص٤٤.

وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.[1]

***

(١) سورة التوبة – آية ٢٤.

المطلب الثاني

عبادة الله أول دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ

مـن خلال الأدلة السابق ذكرها[1] تأكد لنا أن الله – تعالى – هو الخالق الرازق، المدبر والمتصرف في شئون هذا الكون، لهذا وجب أن ينفرد بالعبادة وحده دون سواه.

قال – تعالى –: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.[2]

وقال – تعالى –: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.[3] إن هذه العبوية التي أمرنا الله – تعالى – بها هي الغاية التي خلق الله الكون لأجلها ومن أجلها بعث الأنبياء والرسل، وإليها كانت دعوتهم – عليهم السلام – من أولهم "نوح" – عليه السلام – إلى خاتمهم "محمد" – صلى الله عليه وسلم –.

قال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾.[4]

---

(١) انظر المبحث الأول في الفصل الأول من هذا الباب.

(٢) سورة البقرة – الآيتان ٢١ – ٢٢.

(٣) سورة النساء – آية ١.

(٤) سورة النحل – بعض الآية ٣٦.

وقال – تعالى – على لسان "نوح" – عليه السلام –. ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴿٥٩﴾ ﴾.(١)

وقال – تعالى – عن "إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.(٢)

وفي "هود" قال – تعالى –: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٣) وكذلك قال "صالح" – عليه السلام – فيما أخبر الله عنه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴿٧٣﴾ ﴾.(٤)

وكذلك قال "شعيب" – عليه السلام – فيما أخبر الله عنه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴿٨٥﴾ ﴾.(٥)

وقال المسيح "عيسى ابن مريم" – عليه السلام – فيما أخبر الله عنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.(٦)

وقال خاتم النبيين "محمد" – صلى الله عليه وسلم – فيما أخبر الله عنه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.(٧)

وهكذا فإن عبادة الله – تعالى – هي أول ما دعت إليه جميع الرسل – عليهم السلام –.

---

(١) سورة الأعراف – آية ٥٩.

(٢) سورة العنكبوت – آية ١٦.

(٣) سورة الأعراف – آية ٦٥ وهود – عليه السلام – آية ٥٠.

(٤) سورة الأعراف – آية ٧٣ وهود – عليه السلام – آية ٦١.

(٥) سورة الأعراف – آية ٨٥ وهود – عليه السلام – آية ٦٤.

(٦) سورة آل عمران – آية ٥١ ومريم – عليها السلام – آية ٣٦.

(٧) سورة يونس – عليه السلام – آية ٣.

قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾.(١)

وقال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.(٢)

وقال - تعالى - مخاطباً المرسلين: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾.(٣)

***

(١) سورة النحل - آية ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء - عليهم السلام - آية ٢٥.

(٣) سورة الأنبياء - عليهم السلام - آية ٩٢.

المطلب الثالث

خصائـــص العبـــــادة

إن عــبادة الله – تعــالى – لها خصائص تميزت بها حيث لا تقبل العبادة إلا بها وأهم هذه الخصائص ما يلي:

(١) إن العبادة لا تكون إلا لله ـ تعالى ـ:

لقد أجمعت الأمة على إن العبادة لا تكون إلا لله – سبحانه وتعالى – ومن عبد غير الله أو أجازها لغير الله فقد فسق عن الملة.

قال – تعالى –: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴿٢٣﴾ ﴾.(١)

وقال – تعالى – : ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴿٤٠﴾ ﴾.(٢)

وقال – تعالى – : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ ﴿٣٦﴾ ﴾.(٣)

وقال – تعالى – : ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ ﴿٥٥﴾.(٤)

وقال – تعالى – : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.(٥)

العبادة بكل أنواعها القلبية، والقولية، والفعلية، يجب أن تكون لله – تعالى – وحده، وصرف شيء منها لغير الله يعد شركاً بالله.

---

(١) سورة الإسراء – آية ٢٣.

(٢) سورة يوسف – عليه السلام – آية ٤٠.

(٣) سورة النساء – آية ٣٦.

(٤) سورة النور – آية ٥٥.

(٥) سورة الكهف – آية ١١٠.

ولقد أنذر الله – تعالى – وحذر من الشرك فقال – عز وجل –: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.(١)

وقال:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.(٢)

يقول "سيد قطب" – رحمه الله –: (لقد جاء هذا الدين ..... ليوحد العبودية لله في الأرض، أنها عبودية واحدة لله في هذا الكون العريض)،(٣) ويقول "ابن القيم" – رحمه الله –: (إن التوحيد هو الغاية المطلوبة من جميع المقامات والأعمال والأحوال فغايتها كلها التوحيد).(٤)

(٢) لا يعبد الله إلا بما شرع:

وبما أن العبادة يقصد بها العابد وجه الله – تعالى – لذلك يجب أن تكون وفق ما شرعه الله – تعالى – للناس وما خرج عن ذلك فهو بدعة وضلالة.

يقول الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله –: (والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان).(٥)

وذكر الشيخ في الأصل الثاني منها قوله:

(الثاني: أن لا يعبده إلا بما أمر وشرع، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع).(٦)

---

(١) سورة النساء – آية ٤٨.

(٢) سورة النساء – الآية ١١٥.

(٣) المستقبل لهذا الدين – ص٩.

(٤) مدارج السالكين – ج٣ – ص٦٦١.

(٥) العبودية – ص٧٤.

(٦) المرجع السابق – ص٧٤.

يقــول "سيد قطب" – رحمه الله –: (والناس.. إما أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليته فهــم مســلمون. وإمــا أن يعيشوا بأي منهج آخر من وضع البشر، فهم في جاهلية لا يعــرفها هذا الدين... ذات الجاهلية التي جاء هذا الدين ليحطها، وليغيرها من الأساس. لــيخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله.... والناس إما أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليته فهم في توافق مع نواميس الكون، وفطرة الوجود، وفطرتهم هم أنفسهم. وإما أن يعيشوا بأي منهج آخر من صنع البشر، فهم في خصام مع نواميس الكون، وتصادم مع فطــرة الوجــود، ومــع فطرتهم هم أنفسهم، بوصفهم قطاعاً في هذا الوجود... تصادم تظهــر نــتائجه المدمــرة من قريب أو من بعيد).[1] ولكي يكون المرء بعيداً عن هذه الجاهلية، وبعيداً عن هذه البدع والضلالات ويطمئن على ما أتى به من عبادات ويجني ثمــرتها يجب أن يكون متبعاً ومتأسياً بالرسول – صلى الله عليه وسلم – في كل أقواله وأفعاله.

قال الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله –: (وكما أننا مأمورون أن لا نخاف إلا الله ولا نتوكل إلا على الله ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله وأن لا تكون عبادتنا إلا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه، ونتأسى به – صلى الله عليه وسلم – فالحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه).[2]

قال – تعالى –: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.[3]

إذاً العبادة لا تتحقق إلا إذا توجهنا بها إلى الله وبمنهجه – تعالى – متبعين في ذلك الرسول – صلى الله عليه وسلم – فنحن مأمورون بذلك فالحلال ما أحله والحرام ما حرمه.

---

(١) المستقبل لهذا الدين – ص١٠ – ١١.

(٢) العبودية – ص١٧١.

(٣) سورة التوبة – آية ٥٩.

قـــال – تعـــالى –: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.[1]

يقـــول الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله –: (فالعمل الصالح: هو الإحسان وهو فعل الحســـنات، والحســـنات: هـــي مـــا أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب، ولا في صحيح السنة، فإنها – وإن قالهـــا مـــن قالهـــا، وعمل بها من عمل – ليست مشروعة، فإن الله لا يحبها ولا رســـوله، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح. كما أن من يعمل ما لا يجوز، كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح).[2] ويقول "ابن القيم": (فلا يكون العبد متحققاً بـــ [إياك نعبد] إلا بأصلين عظيمين أحدهما: متابعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وثانيها إخلاص العبادة لله – تعالى –)[3] على ما سيأتي بيانه.

يقول الدكتور "محمد سعيد رمضان البوطي": (إن الله – عز وجل – لم يلزم عباده بالغايـــات إلا من حيث ألزمهم بوسائلها ولم يكلفهم بالأهداف إلا من حيث كلفهم بالسير في مناهجها، والعدالة ليست ما يخترعه الإنسان بما يتخذ إليه من وسائل، ولكنها الغاية التـــي يصـــل إليها وراء السير في شريعة الله – تعالى – وحكمه. وأعلم أنه لا ينجي الإنسان عن مسئوليته تجاه تحقيق هذه الوظيفة أن يكون متعبداً كثير الصلوات والنوافل والأذكـــار فـــإن ذلك كله هباء لا قيمة له إذا كان يعتقد أن للإنسان أن يشرع لحياته ما يشاء، أو إذا كان يعتقد أن في أحكام الله وأوامره ما لا يصلح عليه حال الناس اليوم.

لقـــد اجتمعـــت كلمة المسلمين كلهم، بناء على قواطع الأدلة، أن مثل هذا المعتقد مرتد خارج عن دائرة الإسلام).[4]

---

(١) سورة النور – آية ٥٢.

(٢) العبودية – ص٧٥.

(٣) انظر مدارج السالكين – ج١ – ص٨٣.

(٤) كبرى اليقينيات الكونية – ص٣٧٤.

(٣) إخلاص العباد لله تعالى:

يقــول "ابــن القــيم" – رحمــه الله –: (فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر والإخلاص له في العبادة. وهم أهل [إياك نعبد وإياك نستعين]).[١]

ويقــول أيضاً: (فلا يكون العبد متحققاً بـــ [إياك نعبد] إلا بأصلين عظيمين وذكر الأصــل الأول مــتابعة الرســول –صلى الله عليه وسلم – والأصل الثاني الإخلاص للمعبود وقال: فهذا تحقيق [إياك نعبد].[٢]

ويقســم "ابــن القيم" – رحمه الله – الناس حسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام ويجعل الإخلاص هو أساس العمل وقبوله.

ولذا فهو يجعل أهل الإخلاص هم أهل [إياك نعبد] وبيان ذلك في الأقسام التالية:

(الضــرب الأول : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهؤلاء هم أهل [إياك نعبد] حقيقة لأن أعمــالهم كلهــا الظاهــر منها والباطن يبتغون بها وجه الله – تعالى – ولا يطلــبون على ذلك الجزاء من الناس بالثناء والشكر والحمد، كما وأنهم لا يبتغون من وراء ذلك السلطان أو الجاه.

كذلك وقد جاءت أعمالهم وعبادتهم تلك موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه وهذا العمــل هــو الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي ابتلى عباده بالموت والحياة لأجله.

قال – تعالى– : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴿٢﴾ ﴾.[٣]

الضرب الثاني : من لا إخلاص له ولا متابعة وهذا النوع من الناس ليس مخلصاً لله، وأعماله ليست موافقة للشرع وهؤلاء هم المراءون الذين يتزينون بأعمالهم للناس بما لم يشرعه الله ورسوله. وهم شرار الخلق وأمقتهم إلى الله وقد وصفهم الله –

---

(١) مدارج السالكين – ج١ – ص٨٥.

(٢) انظر المرجع السابق – ص٨٣.

(٣) سورة الملك – آية ٢.

تعالى – بقوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾.(١)

وهـذا النوع من الناس يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الإتباع والإخلاص والعلم ولكنهم هم أصل الغضب والضلال.

الضـرب الثالـث : مـن هو مخلص في أعماله، لكنها جاءت على غير ما شرع الله، وهـؤلاء هم جهال العباد، والمنتسبون إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير ما أمره وأعتقد أن عبادته تلك تقربه من الله ذلك كمن يواصل صيام النهار بالليل، ويصوم يوم فطر الناس كلهم.

الضرب الرابع : من كانت أعمالهم على متابعة الأمر، لكنها لغير الله كطاعة المرائين. كمن يحج أو يقرأ القرآن ليقال فلان فعل ذلك أو كمن يقاتل رياء وحمية وشجاعة، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنها غير صالحة ولا تقبل لأنها لغير الله).(٢) وهكذا فإن أساس العبادة أن تكون خالصة لوجه الله – تعالى – قال – عز وجل –: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴿٥﴾ ﴾.(٣)

وقال – تعالى – : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾.(٤)

(٤) لا وساطة في العبادة:

إن الواجب على المرء المخلص لله أن يتجه إليه–تعالى– دون وسيط قال–عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.(٥)

---

(١) سورة آل عمران – آية ١٨٨.

(٢) انظر مدارج السالكين – ج١ – ص٨٣ – ٨٥.

(٣) سورة البينة – الآية ٥.

(٤) سورة الزمر – الآية ١٤.

(٥) سورة البقرة – الآية ١٨٦.

لقــد أســقط الإسلام كل وصاية كهنوتية على الإنسان تتوسط بينه وبين خالقه أو حــتى تحدد له مكانه في جنة أو جحيم بل عمل الإنسان وتقواه هو ما تقاس به منزلته عند خالقه -تعالى-.

قال -عز وجل-: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.[1]

يقول "عباس محمود العقاد": (فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده لا يتوقف على توسيط هيكــل أو تقريب كهانة. يصلي حيث أدركتــه الصــلاة ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [2] ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله، ويحــج فيذهــب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة ولا حق عنده لأحد في قربانه غير حق المساكين والمعوزين).[3]

***

(١) سورة الحجرات – الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة – الآية ١١٥.

(٣) حقائق الإسلام – ص١٥٨.

المطلب الرابع

من مقاصـــــد العبـــــادة

شرعت العبادة للمقاصد التالية:

(١) العبادة حق الله على عباده: لأن الله – تعالى – أهل لذلك، فهو المستحق لها دون سواه.

قـــال –تعالى–: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [١] وقال –تعالى–: ﴿ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴿٤٥﴾ ﴾ [٢] روى "البخاري" و "مسلم" عن "معاذ بن جبل" – رضي الله عنه – قـــال: كنت رديف النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: [حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً]. [٣]

يقـــول "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله –: (ليس في هذا الكون أحد جدير بأن يعبده الناس، ويسجدوا له بالطاعة والعبادة، إلا الله – تعالى – فما لهذا الكون من مالك ولا حـــاكم إلا هـــو وحـــده، وكـــل شيء مفتقر إليه مضطر إلى استعانته، وهو وراء الحواس، ويتحير العقل الإنساني في إدراك ذاته). [٤]

ويقول الدكتور "يوسف القرضاوي": (ليس بمستنكر أن يكون لله علينا حق عبادته وحـــده سبحانه، بل المستنكر أن يكون غير هذا.. المستنكر أن نعبد ما دون الله أو من دون الله فـــتؤدي الحق لغير أهله. أو نزعم لأنفسنا الاستقلال عن الله فنجد عبوديتنا له بغير حق). [٥]

---

(١) سورة طه – الآية ١٤.

(٢) سورة العنكبوت – الآية ٤٥.

(٣) عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي –صلى الله عليه سلم – ما بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: يا معاذ قلت لبيك وسعديك يا رسول الله قال: هل تدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله أعلم قال: [أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً] الحديث المسند المستخرج على صحيح مسلم – ج١ – ص١٢٣ – رقم الحديث: ١٣٧ – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ ما حق الله على العباد – الأدب المفرد للبخاري – ج١ – ص ٣٦٨ – رقم الحديث: ٢٧٠ – السنن الكبرى للنسائي – ج٣ – ص٤٤٣ – رقم الحديث: ٥٨٧٧.

(٤) مبادئ الإسلام – ص٦٣.

(٥) العبادة في الإسلام – ص١٠٧.

(٢) العبادة شكراً لله ـ تعالى ـ على نعمه:

إن مـــن مقاصـــد العبادة تعظيم الله – تعالى – وشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فالله – تعالى – هو الخالق الرازق المنان المتفضل على خلقه بنعم كثيرة ولهذا فهو أهل للشكر والحمد والثناء.

جـــاء في الحديث الذي رواه "البخاري" أن النبي – صلى الله عليه وسلم – صلى حـــتى تورمت قدماه فقيل له: إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: [أفلا أكون عبداً شكوراً].(١)

يقـــول الدكـــتور "يوسف القرضاوي": (وفي ساعة المنحة والنعمة يتذوق المؤمن حلاوة الشكر للمنعم، والحمد لذي الجلال والإكرام).(٢)

وهكذا فإن القصد من العبادة هو التوجه إلى الله وحده وإفراده بالقصد إليه في كل حال وبتحقيق هذه الغاية تتحقق المقاصد التالية من العبادة:

(٣) بالعبادة يحصل الصلاح والاستقامة وطمأنينة النفس:

قال –تعالى–: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾.(٣)

وقال– تعالى–: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾.(٤)

---

(١) عن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: [أفلا أكون عبداً شكوراً].

صحيح البخاري – ج٢ – ص١١٧ – رقم الحديث: ١٥٩ – باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم – صحيح الإمام مسلم – ج٤ – ص ٢١٧١ – رقم الحديث: ٢٨١٩ – باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

(٢) العبادة في الإسلام – ص ١٠٢.

(٣) سورة الرعد – الآية ٢٨.

(٤) سورة طه – الآية ١٣٢.

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.(١)

يقول "أنور الجندي": (الصلاة عبادة ورياضة وقراءة ودعاء، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنمي ملكة حصر الذهن وتقوية النفس والالتجاء إلى الله وحده في الأزمات والملمات وهي أصدق الأساليب التي سنها الإسلام لتربية رجاله وأهله).(٢)

وقال - تعالى - في الصوم: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.(٣)

يقول الدكتور "عبد الكريم عثمان": (وعبادة الصوم تؤدي دورها في تربية الوجدان وتهذيب النفس فهو شهر الرياضة الروحية والتجرد من اللذات والشهوات طوال نهار ذلك الشهر وطرفاً من الليل. ولا يقتصر معنى الصوم على التخلي عن شهوات الجسد: وإنما يشمل كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، أضف إلى ذلك صوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيونية وكفه عما سوى الله -عز وجل-).(٤)

وقال - تعالى - في الزكاة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٥) يقول الدكتور "عبد الكريم عثمان": (فعن طريق أدائها يتحلى المسلمون بأوصاف التضحية والإيثار وتزول من قلوبهم الأثرة وحب الذات وضيق الصدر وعبودية المال).(٦)

وهكذا سائر الآيات التي ورد فيها التكليف بالعبادات، فإن الله - تعالى - قد أخبر عقب ذلك أن ثمرتها صلاح النفوس وتزكيتها وتقواها.

---

(١) سورة العنكبوت - الآية ٤٥.

(٢) بماذا انتصر المسلمون - ص٢٠.

(٣) سورة البقرة - الآية ١٨٣.

(٤) معالم الثقافة الإسلامية - ص١٥٢ - ١٥٣.

(٥) سورة التوبة - ص١٠٣.

(٦) معالم الثقافة الإسلامية - ص١٥٣.

يقــول "أبو أسامة الهلالي": (إن الذي شرع الغاية لم ينسى الوسيلة، فقد شرع الله وسائل تزكية النفوس، وبينها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى هذه الغاية، ليس لتزكية النفوس أعمال خاصة بها دون شعائر الإسلام).[1]

يقول – تبارك وتعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.[2]

يقــول الدكتور "يوسف القرضاوي": (أو إصلاح النفس وزكاة الضمير واستقامة الأخلاق، فهي ثمرة لازمة للعبادة الحقة).[3]

(٤) العبادة أمانة:

قال – تعالى –: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ ﴿٧٢﴾ ﴾.[4] إن العبادات أمانة في عنق الإنسان يجب عليه أداؤها في وقتها وبالكيفية التي جاءت بها شريعة الله – تعالى – فإذا حفظ المرء هذه الأمانة فإن الله – تعالى – بكرمه وفضله ومنه وعطائه يتفضل على المرء بحفظ أمانته في نفسه وأهله وماله.

قال –تعالى–: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴿٤٠﴾ ﴾.[5]

(٥) في العبادة تفريج للكرب والشدائد وانشراح للصدر:

لذلك نجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول: [يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها].[6]

---

(١) مدارج العبودية – ص٩٤.

(٢) سورة يونس عليه السلام – الآيتان ٦٣ – ٦٤.

(٣) العبادة في الإسلام – ص١١٦.

(٤) سورة الأحزاب – الآية ٧٢.

(٥) سورة البقرة – الآية ٤٠.

(٦) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب في صلاة العتمة – رقم الحديث ٤٩٨٥ – ج٤ – ص٢٩٦.

قـــال – تعالى – في محكم كتابه: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.(١)

وقال– تعالى–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴿١٥٣﴾ ﴾.(٢)

يقول الدكتور "يوسف القرضاوي": (إن المؤمن ليجد في عبادة ربه في ساعة الشدة، سكينة لنفسه، وأنساً لوحشته. وانشراحاً لصدره، وتخفيفاً عن كاهله)(٣) قال – تعالى – لرسوله – الكريم –: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.(٤)

(٦) في العبادة غذاء روحي وقلبي:

من المعلوم أن الإنسان فيه الجانب المادي والروحي، فهو جسم وروح، وكما أن للجسم غذاءه الخاص به فكذلك الروح.

ولهذا نجد أن الإنسان دائم الشعور بالحاجة إلى الله، وهذا الشعور نابع من القلب، وهو شعور أصيل صادق لا يملأه إلا الصلة بالخالق، ويتمثل ذلك في العبادة التي يتجه بها الإنسان إلى الله في السراء والضراء.

يقـــول "محمد المبارك": (ومن وظائف العبادة ترقية الجانب الروحي من الإنسان ذلك أن الإنسان يتكون من عناصر عدة: الجسمي العضوي والعقلي، والروحي).(٥)

ويقـــول: (ولمـــا كـــان التذكر القلبي قد يطرأ عليه في حياة الإنسان نسيان بسبب مفاتـــن الحياة ومشاغلها وكان هذا التذكر هو الغذاء الروحي لكل نظام الإسلام بجميع

---

(١) سورة البقرة – الآية ٤٥.

(٢) سورة البقرة – الآية ١٥٣.

(٣) العبادة في الإسلام – ص١٠١.

(٤) سورة الحجر – الآية ٩٧ – ٩٨ – ٩٩.

(٥) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص١٦٧.

أجزائه فقد عالج الإسلام ذلك علاجاً صحيحاً يوافق فطرة الإنسان وذلك بما شرعه الله وسنه رسوله من ذكر الله باللسان أنواعاً من الذكر وفي ضروب متنوعه من الألفاظ والتعابير).[1]

ويقول الأستاذ "محمد أبو زهرة": (إن العبادات غذاء الأرواح، وبها يتقوى الضمير الاجتماعي ويعلو).[2]

ويقول الشيخ "ابن تيمية": (فالقلب لا يصلح، ولا يفلح ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه)،[3] وإذا كانت العبادة هي غذاء الأرواح والقلوب فهي أيضاً غذاء للأجسام، لأن الأجسام لا تحيا إلا بالأرواح والقلوب. يقول الشيخ "محمد أبو زهرة": (إن العبادات غذاء الأرواح، وبها يتقوى الضمير الاجتماعي ويعلو).[4]

(٧) بالعبادة ينال المرء محبة الله ـ تعالى ـ:

لقد جاءت الإشارة إلى ذلك في الحديث القدسي الذي يرويه الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن ربه حيث قال: [إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبُّ إليَّ مما أفترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه].[5]

يقول "ابن القيم" – رحمه الله –.

---

(١) المرجع السابق – ص١٧٢.

(٢) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام – ص١٣٥.

(٣) العبودية – ص١٠٨.

(٤) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام – ص١٣٥.

(٥) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: [قال الله – تعالى –: من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي] الحديث، صحيح البخاري عن أبي هريرة –رضي الله عنه – ج٨ – ص١٨٩ رقم الحديث ٨٩ باب التواضع.

(فالله – تعالى – إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له ولانقـياد لأمره. فأصل العبادة، محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، إنما يحب لأجله وفيه).[1]

ولكي يحقق المرء هذه المقاصد العليا ويصل إلى هذا المستوى الرفيع يجب عليه أن يعبد الله – تعالى – بما أمر.[2]

يقول الشيخ "ابن تيمية": (وعبادته طاعة أمره كما بَلَّغَهُ الرسول عنه، فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً).[3]

***

(١) مدارج السالكين – ج١ – ص٩٩.

(٢) انظر المطلب الثالث من هذا المبحث.

(٣) مجموع الفتاوى – ج١ – ص٥٤٦.

المطلب الخامس

شـــــمول العبـــــادة

يرى السلف أن العبادة تشمل الدين كله، فهي لا تقتصر على جانب من الدين دون الآخـــر، بل كل ما جاء به الرسول – عليه الصلاة والسلام – من أمر هذا الدين سواءً كان في أصوله أو فروعه فهو داخل في إطار العبادة.

يقـــول الشيخ "ابن تيمية": (الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال: دنته، فدان. أي أذللـــته فذل. ويقال: يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه، ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له).[1]

هذا يعني بأن (الدين كله داخل في العبادة).[2]

ويؤكد ذلك قوله –تعالى–: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.[3]

هـــذه الآية جمعت كل جوانب الدين، فقد ربطت بين العقيدة والشريعة والأخلاق، ووضعتها تحت عنوان البر.

وهذا يعني أن التوجه إلى الله – تعالى – بأي نوع من أنواع الطاعات سواءً كان عقيدة أو شريعة أو أخلاقاً مما جاء به هذا الدين فهي من البر ومن العبادة.

---

(١) العبودية – ص٤٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة البقرة – آية ١٧٧.

لهـذا نجـد الدكـتور "عبد الكريم عثمان" يرى أن حقيقة العبادة تبدو في معنيين أحدهما خاص والآخر عام.

فقـال: (العبادة بالمعنى الخاص هي: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت على المستطيع، وهي نوع من التربية على العبادة الكاملة الحقة).[1]

(أمـا العـبادة بالمعنى العام: فإنها تعنى السير في الحياة ابتغاء رضوان الله وفق شـريعة الله، فكل عمل يقصد به وجه الله – تعالى – والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله – تعـالى – بإصـلاح الأرض ومنع الفساد فيها يعد عبادة – وهكذا تتحول جميع أعمـال الإنسـان مهما حققت له من نفع دنيوي إلى عبادة إذا قصد بها رضاء الله)[2] ويؤكد ذلك ما جاء عن الشيخ "ابن تيمية" في قولِهِ: (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضـاه مـن الأقـوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة، والزكاة، والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد ضد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتـيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلـك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمـه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه. وأمثال ذلك: هي من العبادة لله).[3]

يقـول الدكتور "أمير عبد العزيز": (ولا يحسبن أحد أن العبادة في حقيقتها تقتصر علـى الجوانـب الأساسية المخصوصة من الأعمال والأقوال كالصلاة والصيام والحج وعبارات الذكر والتسبيح والتهليل فإنه وإن تكن هذه الأمور عظيمة في قدرها وأهميتها وتأثـيرها لكـنهـا ليست هي وحدهـا العبادة دون غيرهـا من الممارسات والأفعال.

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية – ص١٤٩ – ١٥٠ وانظر نظام الإسلام محمد المبارك – ص١٧١.

(٢) معالم الثقافة الإسلامية – ص١٤٨.

(٣) العبودية – ص٣٨.

فمن المعلوم أن الإسلام بما يتسم به من الشمول والاتساع والمرونة يمتد امتداداً يتناول كل أطراف الحياة ومناحيها من القضايا والمشكلات والأمور).[1]

وهكذا نجد أن (دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة، إنها تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً).[2]

يقول "سيد قطب" – رحمه الله –: (حقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله وحده. بكل مقتضيات العبودية، وأولها الائتمار بأمره – وحده – في كل أمور الحياة صغيرها وكبيرها والتوجه إليه – وحده – بكل نية وكل حركة، وكل خالجة وكل عمل).[3]

ويتابع "سيد قطب" حديثه إلى أن يقول: (ولكن حقيقة الغاية ثابتة لا تتغير. فإذا لم يتجه إلى الله بكل نشاط. وإذا لم يتحاكم إلى منهج الله في كل شأن، فقد أخل بهذه الحقيقة الثابتة، وخرج على غاية وجوده الإنساني، واعتبر عمله باطلاً).[4]

وهكذا نجد أن العبادة تكون بالتوجه إلى الله في كل أمر من أمور الحياة وكما قال "سيد قطب" – رحمه الله – في النص السابق: بكل نية وكل حركة وكل خالجة وكل عمل، ولهذا نجد "ابن القيم" يجعل (العبودية منقسمة على القلب واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه).[5] إذاً العبادة شاملة لكل جوانب حياة الإنسان وأموره الظاهر منها والباطن دون حصر.

قال –تعالى–: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.[6]

---

(١) الإنسان في الإسلام – ص٦٠.

(٢) العبادة في الإسلام – الدكتور يوسف القرضاوي – ص٥٣.

(٣) خصائص التصور الإسلامي – ص٨٨.

(٤) المرجع السابق – ص٩٠.

(٥) مدارج السالكين – ج١ – ص١٠٩.

(٦) سورة الأنعام – آية ١٦٢ – ١٦٣.

وهكذا يتأكد لنا من النصوص السابقة أن (منهج العبادة في هذا الدين واسع شامل، لا يقتصر على الشعائر التعبدية التي تواضع الناس على أن يسموها "العبادة"... إنما هذه الشعائر – على كل أهميتها التي جعلتها تمثل "الأركان" في هذا الدين – هي جزء فقط من العبادة المفروضة .... فالصلاة والنسك تمثل الشعائر .. ولكن المطلوب أكبر من هذا .. المطلوب أن تكون الحياة كلها حتى الموت، بل الموت ذاته، عبادة موجهة إلى الله الذي لا شريك له. أي أن يشمل المنهج التعبدي كل لحظة وكل عمل وكل فكر وكل شعور).[1]

يقول "محمد أسد" النمساوي المسلم: (إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً. وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلها، على أنها تبعة أدبية متعددة النواحي وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلها، حتى تلك التي تظهر تافهة، على أنها عبادات: أي نأتيها بوعي، وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله. تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد، ولكن أليس من مقاصد الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع؟).[2]

إن عبادة الله – تعالى– بما أنها هي الغاية فقد اقتضت هذا الشمول الواسع، كما وأنها اقتضت الاستمرار فيها حتى الموت.

قال – تعالى –: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.[3]

في هذه الآية رد على من يزعم بأن المرء إذا وصل إلى مقام معين يسقط عنه التكليف أو تسقط عنه العبادة. هذه دعوى باطلة تتنافى مع الغاية التي خلق الله – تعالى – الإنسان من أجل تحقيقها.

---

(١) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة – محمد قطب – ص٦٣.

(٢) على مفترق الطرق – ص٢٣.

(٣) سورة الحجر – آية ٩٩.

يقــول "ابن القيم": (فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف .... ومن يــزعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصــل إلى مقام الكفر بالله والإنسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم).[1]

ويقــول "سيد قطب": (والمنهج الإسلامي المنبثق من هذا الدين – بهذا الاعتبار – لــيس نظاماً تاريخياً لفترة من فترات التاريخ، كما أنه ليس نظاماً محلياً لمجموعة من البشــر فــي جيل من الأجيال، ولا في بيئة من البيئات – إنما هو المنهج الثابت الذي ارتضــاه الله لحياة البشر المتجددة، لتبقى هذه الحياة دائرة حول المحور الذي ارتضى الله أن تدور عليه أبداً، وداخل الإطار الذي ارتضى الله أن تظل داخلة أبداً، ولتبقى هذه الحــياة مكيفة بالصورة العليا التي أكرم الله فيها الإنسان عن العبودية لغير الله... وهذا المــنهج حقيقة كونية قائمة بإزاء البشرية المتجددة قيام النواميس الكونية الدائمة، التي تعمــل فــي جسم الكون منذ نشأته، والتي تعمل فيه اليوم وغداً، والتي يلقى البشر من جراء المخالفة عنها والاصطدام بها.. ما يلقون من آلام ودمار ونكال).[2]

ويقــول "محمــد أبو زهرة": (إن العبادة طاعة مستمرة، والإسلام يريد استمرار العــبادة، ولذلــك دعــا إلى التيسير فيها، لأن اليسير يمكن الاستمرار عليه فكان يؤثر العــبادة الدائمة السهلة على العبادة الشاقة التي لا تمكن المداومة عليها)[3] نخلص من هذا إلى أن العبد المؤمن يجب أن يكون دائماً في معية الله – تعالى – وذلك بأن يجعل كل سلوكه في الحياة عبادة في كل أقواله وأفعاله وتحركاته وسكناته.. بمعنى أن العبادة يجــب أن تكون بالنسبة للمرء واقعه العملي الذي يصدق به ما وقر في قلبه ونطق به لســانه، وبهذا الواقع العملي (العبادة) يتحقق الوجود الحقيقي لا الوجود المصطنع الذي يزعمه الماديون.

يقــول "محمد المبارك": (إن العبادة في نظام الإسلام جزء أساسي لابد منه لقيامه وحسن تنفيذه فالعبادة هي التي تجعل العقيدة الإسلامية – أو التصور الإسلامي للوجود

---

(١) مدارج السالكين – ج١ – ص١٠٤.

(٢) المستقبل لهذا الدين – ص١٠.

(٣) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام – ص١٥٨ – ١٥٩.

– حـــية فـــي النفس وتنقلها من حيز الفكر المجرد إلى حيز القلب الذي يحس ويشعر فـــتجعلها بذلـــك قوة دافعة، لها حرارتها ولها نورها. فشتان بين من يعلم عقلياً ويقتنع فكـــرياً بوجـــود الله ومـــن يحـــس ويشعر بإشراقِهِ وهيمنته عليه وبعلمه بسره وعلنه، ويتصـــور تصوراً قلبياً حتمية لقائه وحسابه. فالعبادة في الإسلام هي الوسيلة التي تنقل الإنسان من الحال الأولى إلى الحال الثانية فهي توقد جذوة العقيدة وتغذيها وتتغذى بها وتحييها وتحيا بها).[١]

ويقـــول: (إن العـــبادة تهيئ نفس الإنسان بعد أن ربطتها بخالقها وحاكمها لقبول الســـلوك الـــذي يرتضيه وتنفيذ الأوامر التي يصدرها وحمل الأمانة التي يحمله إياها وبذلك يتهيأ لقبول النظام الأخلاقي والنظام التشريعي الذي شرعه له في رسالة الإسلام ويكون عنصراً صالحاً لإقامة هذا النظام).[٢]

ويقول الدكتور "رفعت فوزي": (العبادة تعنى الجانب العملي من الدين فهو اعتقاد وعمـــل، وتنفـــيذ هذا العمل، وبرهان هذا الاعتقاد إنما هو عبادة الإنسان لخالقه – عز وجل –).[٣]

نعـــم (هذه هي العبادة وهذا هو معناها الحقيقي. وما غرض الإسلام إلا أن يجعل الإنســـان عبداً يعبد الله مثل هذه العبادة في كل حين من أحيانه، وقد افترض عليه لهذا الفـــرض مجموعـــة من العبادات تهيئه لهذه العبادة الكبيرة، فكأنه ليست هذه العبادات المفروضـــة إلا بمثابة التربية للعبادة الكبيرة المنشودة. فكل من يتلقى هذه التربية على أحســـن وجـــه، يـــؤدي العبادة الحقيقية على الوجه المراد. ومن أجل ذلك جعلت هذه العبادات عين الفريضة في الإسلام، وقيل إنها أركان الدين، أي دعائمه التي يقوم عليها بناؤه. فكما أن كل بناء لا يقوم إلا على مجموعة من الدعائم، كذلك لا يقوم بناء الحياة الإسلامية إلا على هذه الدعائم. فمن هدمها، فقد هدم بناء الإسلام نفسه).[٤]

---

(١) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص١٦٤.

(٢) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص١٩١.

(٣) العبادات – ص٤.

(٤) مبادئ الإسلام – أبو الأعلى المودودي – ص٩٥ – ٩٦.

ولهـذا فقـد (جعل النبي – صلى الله عليه وسلم – إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان).[1]

وبهـذا (المفهـوم الصحيح الشامل كان منطلق المسلمين الأول إلى العمل ثم إلى النصر أو الشهادة في سبيل الحق الذي آمنوا به).[2]

وهكذا فالعبودية أو العبادة هي الغاية من خلق الإنس والجن، ومن أدرك ذلك وحققه فقد حقق وجوده المطلوب ومن عطل عقله وفكره وإدراكه، وتغافل عن هذه الغاية بغايات أخرى مزيفة فهو لجدير بالحكم العادل، والوصف الصادق من أنه كالأنعام بل هو أضل منها كما جاء ذلك في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.[3]

وفـي نهاية هذا المبحث أقوال: يجب أن نعرف أن عبادة الله – تعالى – أو التعبد له لا يعني وقف الحياة على الزهد والنسك فإن في ذلك مخالفة صريحة لمفهوم الإسلام لأنـه ابـتعاد عن الحياة العملية التي هي العملية الرئيسية لمعرفة إيمان المرء وقدرته علـى تجنب الشر وعمل الخير. بل على المرء أن يزاول كل نشاطاته في الحياة ولكن فـي حدود ما أمر الله به وترك ما نهى الله – سبحانه وتعالى – عنه كما وأنه يجب أن نعـرف أيضاً أن عبادة الله – تعالى– عطاء من الله للإنسان وليست عطاء من الإنسان لله، فعـندما يعبد الإنسان ربه، فإنه يفعل بذلك ما يجعله مستحقاً للملك الأبدي، أي بجنة عرضها كعرض السموات والأرض.

***

(١) مدارج السالكين – ج١ – ص١٠٣.

(٢) بماذا انتصر المسلمون – أنور الجندي – ص٢٤.

(٣) سورة الأعراف – آية ١٧٩.

المبحث الثاني

غايـــــاتٌ أخـــــرى

إن للخلــق ســوى مــا ذكرنا غايات كثيرة وأهدافاً عديدة منها ما يدركه الإنسان بفضل الله – سبحانه وتعالى – ومنها ما يعجز الإنسان عن إدراكه.

وحــتى تلــك الغايات التي يدركها الإنسان فإنه لا يدرك منها إلا على قدر طاقته ومحــال أن يحــيط الإنســان بالحكمة والغاية من فعل الله – سبحانه وتعالى – ولكن الإنسان يجتهد في التعرف على حكمة الله – تعالى – من خلقه فيدرك منها ما شاء الله لــه أن يدرك ويصل منها إلى ما يسر الله له الوصول إليه والناس في ذلك على منازع شــتى مــنهم مــن يــدرك الشيء القليل ومنهم من يوفقه الله إلى إدراك ما عجز عنه الآخــرون ونحــن تحــت هذا المبحث سنشير إلى بعض تلك الغايات التي وفقنا الله – تبارك وتعالى – إلى إدراكها والتعرف عليها، وهي كالتالي :

(أ) الإنسان آية من الآيات الدالة على وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ .

لقد جعل الله – تعالى – الإنسان من أعظم المخلوقات دلالة على وجوده – سبحانه وتعــالى – والشــاهد على ذلك قوله – عز وجل – : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.(١)

وقولــه –تعالى–: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾.(٢)

يجــب علــى الإنسان أن ينظر إلى نفسه وأن يتأمل الحكمة العظيمة في خلق كل جزء من أجزائه التي يتكون منها جسده.

---

(١) سورة الذاريات – الآيتان ٢٠ – ٢١ .

(٢) سورة فصلت – بعض الآية ٥٣.

يقول "عبد المجيد الزنداني" : (كل جزء في الإنسان يشهد أن الله – تعالى – خلقه لحكمة. والتكوين البشري الموحد الذي لا يتغير باختلاف الزمان والمكان يشهد أن الحكمة واحدة من جميع البشر).[1]

الحقيقة آن الآيات القرآنية التي تشير إلى دلالة خلق الإنسان على وجوده – تعالى – كثيرة، وتأتي بصورٍ مختلفة،وتصب في معنى واحدفمنها قوله –تعالى– : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ ﴾.[2]

إن من دلائل القدرة الإلهية في تكوين جسم الإنسان النطفة كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة.

يقول "خليل إبراهيم أمين": (فانظر كيف صورها فأحسن صورها، شق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل ثم ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه).[3]

إذاً الإنسان يشارك الآيات الكونية بل هو من أعظمها في الدلالة على وجود الخالق – سبحانه وتعالى – ولذا فقد ربط "القرطبي" – رحمه الله – بين الإنسان والكون من حوله وذلك أثناء تفسيره قول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ ﴾.[4]

فقال: (حواس الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر في إدراك المدركات بها، وأعضاؤه تصير عند البلى تراباً من جنس الأرض، وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن، ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس، ومن جنس النار المره الصفراء. وعروقه بمنزلة الأنهار في الأرض،

---

(١) كتاب التوحيد – ج ٣ – ص ٣١٦.

(٢) سورة الطارق – آية ٥ – ٦.

(٣) غرائب وعجائب المخلوقات – ص١٢ وانظر مفتاح دار السعادة – ابن القيم – ج١ – ص١٨٨ – ١٨٩.

(٤) سورة الذاريات – آية ٢١.

وكـــبده بمـــنزلة العيون التي تستمد منها الأنهار، لأن العروق تستمد من الكبد. ومثانته بمـــنزلة الـــبحر لانصـــباب مـــا في أوعية البدن إليها، كما تنصب الأنهار إلى البحر. وعظامـــه بمـــنزلة الجبال التي هي أوتاد الأرض، وأعضاؤه كالأشجار، فكما أن لكل شـــجر ورقـــاً أو ثمراً فكذلك لكل عضو فعل أو أثر والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشـــيش علـــى الأرض. ثـــم إن الإنســـان يحكي بلسانه كل صوت حيوان ويحاكي بأعضـــائه صنيع كل حيوان فهو العالم الصغير مع العالم الكبير، مخلوق محدث لصانع واحد، لا إله إلا هو).[1]

(ب) الاستخلاف في الأرض وعمارتها.

لقـــد خلق الله – سبحانه وتعالى – (الإنسان بنية حية متحركة. وهو يتحرك لأداء وظـــيفة وتحقيق غاية).[2] هذه الغاية قد ذكرها الله – عز وجل – في القرآن وأعلم بها ملائكته كما جاء ذكر ذلك في قوله – تعالى – ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ ﴾.[3]

يقول "القرطبي" – رحمه الله – في تفسيره: ([جاعل] بمعنى خالق و [خليفة] يكون بمعنى فاعل: أي يخلف من كان قبله من الملائكة في الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة ....).[4]

يقرر القرآن – الكريم – أن الإنسان أشرف الموجودات وأعظمها. وهو خليفة الله فـــي أرضـــه قد حمله الله – تعالى – هذه الأمانة دون غيره من الكائنات الأخرى وفي ذلك تكريم له وتعظيم لمسئوليته.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – ج٢ – ص٢٠٢ – ٢٠٣.

(٢) مقومات التصور الإنساني – سيد قطب – ص٣٧٢.

(٣) سورة البقرة – آية ٣٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج١ – ص٢٦٣.

يقــول الدكتور "أمير عبد العزيز": (إن الإنسان لهو كائن مفضل مكرم بما أوتي من أمانة الخلافة في الأرض وبما ركب فيه من شوق روحي فياض ينسكب في العميق من الفطرة وفي العميق من ذات الإنسان).[١]

ويقــول الدكــتور "محمــد سعيد رمضان البوطي": (إن الله – عز وجل – حينما تعلقــت إرادتــه بإيجــاد هذا الكون بما فيه من الموجودات أنواعها وأجناسها، اقتضت حكمــته الــباهرة أن يختار نوعاً من هذه الموجودات (وهو الإنسان) فيجعله سيد هذا الكون بخدمته، وأن يكل إليه عمارته وأمر تنظيمه).[٢]

قال –تعالى–: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾ ﴾.[٣]

يقــول "القرطبــي" – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: [واستعمركم فيها] (أي جعلكم عمارها وسكانها).[٤]

ويقول الشيخ "محمد قطب": (ثم تبين الآيات – هنا وفي أماكن أخرى أن دور هذا الإنســان فــي الأرض هــو عمارتها. فالخلافة عن الله فيما معناها الإنشاء والابتكار والتعمير والتبديل والتغيير).[٥] (إذن، فالوظيفة التي يحملها القرآن للإنسان في الحقيقية، إنمــا هي عمارة الأرض، بمعناها الشامل العام، وهي تشمل فيما تشمل، إقامة مجتمع سليم، وإشادة حضارة إنسانية شاملة، ليكون الإنسان بذلك مظهراً لعدالة الله – تعالى – وحكمته في الأرض).[٦]

قــــال – تعــــالى –: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٥٥﴾ ﴾.[٧]

---

(١) الإنسان في الإسلام – ص٥١.

(٢) كبرى اليقينيات الكونية – ص٦٤ – ٦٥.

(٣) سورة هود – عليه السلام – الآية ٦١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج٩ – ص٥٦.

(٥) دراسات في النفس الإنسانية – ص٣٠.

(٦) منهج الحضارة الإنسانية – الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – ص٢٦.

(٧) سورة النور – آية ٥٥.

هـذه الآيـة وأمـثالها (تنطوي على تعريف صريح بالمهمة الأساسية التي كلف الإنسان في حياته الدنيوية هذه أن ينهض بها، ألا وهي تحقيق جامعة إنسانية فعالة، في سبيل النهوض بعمارة هذا الكوكب الأرضي العمارة الكلية الشاملة لكل ما تتسع له كلمة "العمـارة" من المعاني المادية والعلمية والاقتصادية. ومن هنا شرّف الله الإنسان الذي قـبل الـنهوض بهـذه المهمة على الوجه الذي رسمه الله – تعالى – له بلقب "الخليفة" وأعطاه صفة "الإمامة" وخلع عليه خلعة التكريم).[1]

كما وقد أشارت الآية – السالفة الذكر – إلى أن صاحب هذه المهمة العظيمة يجب أن يتمتع بصفات معينة ومحددة تؤهله للقيام بهذه المسئولية الخطيرة، لاسيما وأنه بهذه المهمة يمثل محور العمارة الكونية في هذه الحياة وهو الهدف من ورائها.

يقـول "سيد قطب": (إن هذه الغاية تتطلب من الإنسان أن يتعامل مع الوجود كله ومـع خالق الوجود ولكي يتعامل مع هذه العوالم ليؤدي بهذا التعامل وظيفته. وليحقق غاية وجوده .... يحتاج إلى تكوين خاص صالح للتعامل مع هذه الأبعاد والآماد في كل اتجاه....).[2]

قـال تعـالى: ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.[3]

يقـول "القرطبي" – رحمه الله – في تفسير قوله –تعالى–: ([ويستخلف من بعدكم مـا يشـاء] أي خلقـاً آخر أمثل منكم وأطوع. [كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين] أي يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافاً مثل ما أنشأكم).[4]

لقـد اقتضـت حكمة الله – تعالى – أن يزود الإنسان بصفات معينة، تعينه على القيام بهذه المهمة.

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية – الدكتور محمد رمضان البوطي – ص٢٦ – ٢٧.

(٢) مقومات التصور الإسلامي – ص٣٧٣.

(٣) سورة الأنعام – آية ١٣٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج٧ – ص٨٨.

يقــول الدكــتور "محمــد رمضان البوطي": (غير أنه – عز وجل – لما شاء أن يخــتاره لعمارة هذه الأرض..... جهزه بملكات نادرة، وميزه بصفات سامية لم توجــد فــي غيره. فأورثه العقل والتفكير، وسخر له كثيراً من الحيوانات والمخلوقات، وغرس في كيانه شعور حب الذات والإحساس بالأنانية، وحب التملك واحتياز الأشياء، وأمده بالطاقة والقوة).[1]

لقد أعطى الله – سبحانه وتعالى – الإنسان من الصفات ما يمكنه من ممارسة هذه الخلافة وأبرز هذه الصفات القوة – جسمية كانت أم فكرية – والعقل والعلم ومنها كذلك الحياة والإرادة وهذه الإرادة إرادة حرة مختارة.

وهكذا فإن الله – تعالى – قد استخلف الإنسان وهو عليم بطاقاته وقدراته النفسية والعقلــية والعملية التي خلقها فيه، ولقد منح الله – تعالى – الإنسان هذه الصفات التي مــيزه بها عن بقية المخلوقات، لكي يتيسر له تحقيق ما كلفه الله به من الاستخلاف في الأرض وعمارتها.

يقول الدكتور "محمد رمضان البوطي": (هذه الصفات ..... أنعم الله بها على هذا المخلــوق ليســتعين بهــا فــي أداء رسالته، ولتيسر له السبل إلى تحقيق خلافته على الأرض، فينشئ فوقها الحضارة الإنسانية المثلى التي حمّله القرآن مسؤولية إنشائها).[2]

وتقول الدكتورة "آمنة نصير": (هذا الإنسان بخلقته وفطرته وقدراته كرمه الله في السماء بذكره في الملأ الأعلى والنفخ فيه من روحه وإسجاده ملائكته المقربين له).[3]

ويقــول الشيخ "عبد المجيد الزنداني": (ومن الواضح أن هذه المنزلة التي أحتلها الإنســان لــم تكن إلا بما أودع الله فيه من طاقات ومواهب وكفاءات من جانب، ومن الجانب الآخر بتسخير ما في الأرض جميعاً له مع عدم خلق من ينافسه أو يتغلب عليه ويستضعفه).[4]

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية – ص٤٩.

(٢) منهج الحضارة الإنسانية – ص٤٩.

(٣) إنسانية الإنسان في الإسلام – ص٣٩.

(٤) كتاب التوحيد – ص٣١١.

ويقول الدكتور "محمود بابللي": (ومن هذا كله يتحقق لنا أن الله – سبحانه وتعالى – يـرتفع بالإنسـان بما أودعه فيه من مواهب وقدرات، فيجعله أكرم خلقه ويسجد له ملائكته ويسخر له ما في السماوات وما في الأرض، ويؤهله للخلافة في هذه الأرض، ويمكنه من الاستفادة من موجودات هذه الأرض جميعها).[1]

وهكـذا أعطـى الله –تعالى – الإنسان من القدرات والوسائل ما جعله أهلاً لهذا التكليف والتكريم.

يقول الشيخ "محمد قطب": (وهو مخلوق مزود بطاقات من أبرزها طاقة المعرفة. وطاقة الإرادة الضابطة. وطاقة القوة الفاعلة المتضمنة في معنى الخلافة ومقتضياتها. وطاقة الصراع. والقدرة على التوجه إلى الله وتلقى كلماته وتتبع هداه... والقدرة كذلك على الاستقرار والمتاع).[2]

ويقـول الدكتور "محمد رمضان البوطي": (إن الإنسان هو ذلك المخلوق المكرم علـى سائر المخلوقات الأخرى، وأنه ذاك الذي أستأهل أن يكلف الله الملائكة بالسجود له، متمثلاً في شخص أبيه "آدم" – عليه الصلاة والسلام – وأنه الذي شرفه الله بالخلافة على هذه الأرض، عندما شاء أن يجعله – بالمهمة التي حمله إياها – مظهراً لعدالة الله – تعالى – وحكمه، وأنه ... الوحيد الذي جهزه الله بالعقل والتفكير والقدرة على إدارة الأمور).[3]

ويقـول الدكـتور "حسن الحياري": (أن الحق – سبحانه وتعالى – جعل الإنسان خليفـته فـي الأرض. فهـذا الشرف الباسق والمجد المؤثل للإنسان أنه استحق خلافة الأرض بعـد أن سـجدت له الملائكة جميعها سوى الشيطان الذي تكبر على الإنسان ورفـض السـجود واستحق على ذلك لعنة الله، ولعنة اللاعنين. وأي شرف، وإجلال، وتكريم يود أن يصل إليه الإنسان أبعد من هذا).[4]

---

(١) الإنسان وحريته – ص٤٠.

(٢) دراسات في النفس الإنسانية – ص٣٣.

(٣) منهج الحضارة الإنسانية – ص٤٧.

(٤) التصور الإسلامي للوجود – ص١٧٤.

يقول "عبد المجيد الزنداني": (فمنزلة الإنسان إذاً في هذه الأرض منزلة المالك لما فيها ولكنه لا يملك منها شيئاً، لأنه لم يخلق منها مثقال ذرة، فتعرف إذاً أن منزلة الإنسان في الأرض هي منزلة المستخلف عليها من قبل مالكها الحق، ومالك الإنسان).[1]

قال -تعالى-: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.[2]

وقال -تعالى-: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.[3]

إن خلافة الإنسان في الأرض تقتضي منه أن يملأها عمراناً، وينشر فيها العلم والمعرفة، وينشئ فيها الحضارات، ويستخرج ما فيها من خيرات ويستثمرها، ويربط بين أفرادها بالتعاون والتآلف.

قال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴿١٣﴾ ﴾.[4]

وبذلك يصبح أفرادها أمة واحدة تسودهم المحبة ويعمهم الوفاق، وتبطل فيهم وسائل العنف وسفك الدماء، فيصبح لهذه الحياة معنى، وللإنسان وجوده الذي فضله الله به وميزه عن بقية الكائنات، لأنه (ما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم، فإن العلاقة بينهما ليست – بالضرورة – علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء .. إنما علاقة انسجام وتقابل، وتواصل وتعاون، وتكامل وكشف وتنقيب)[5] ولذلك فقد (أمر الإسلام بتعمير الأرض والتنافس في الصنائع والفنون النافعة وقد دعا الإسلام المسلمين إلى استخدام

---

(١) كتاب التوحيد – ص٣١١.

(٢) سورة الأعراف – آية ١٢٩.

(٣) سورة النمل – الآية ٦٢.

(٤) سورة الحجرات – آية ١٣.

(٥) حول إعادة تشكيل العقل المسلم – الدكتور عماد الدين خليل – ص١٢٧.

حواسهم الظاهرة في النظر والتأمل كما حرضهم على طلب العلم والمعرفة والنظر في الكون والتأمل في الكائنات والتنقيب عن أسرار الوجود).[1]

يقول الدكتور "محمود بابللي": (إن الاستخلاف في الأرض وفي المال هو لاستعمار الأرض والاستفادة من خيراتها، واستثمارها على خير وجه، لأنها مسخرة له، وكل ما فيها مخلوق له).[2] من المهم أن يكون الاستخلاف في الأرض- لإستعمارها بكل ما هو نافع وجميل والاستفادة من خيراتها بما يعود نفعه على الجميع – في ظل شريعة الله ووفق منهجه وعكس ذلك يكون دماراً على البشرية لا استعماراً لها، ومصادمة للواقع الذي يعيشه الإنسان، لأن كل ما في الكون إنما هو مخلوق لله وطائعٌ له، ولذلك فإن (الإنسان عندما يبتعد عن النهج الإلهي المبين، ويرضى لنفسه أن يتفيأ نهجاً بشرياً في حياته، فإنه ينحدر بنفسه من المكانة السامقة التي وهبها الله لعباده المنيبين، إلى الارتكاس دون الحضيض، في الأذلين، وبهذا العمل الهابط يغدو الإنسان في حزب الشيطان، الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ورواد جهنم).[3]

إذاً بالتبعية للحق يستحق الإنسان أن يكون مستخلفاً في أرض الله – تعالى- وهذا الدور الذي هو خلافته. مما لاشك فيه دور عظيم وله أهميته، ذلك لأن الحياة لا تستقيم إلا به، وتخلي الإنسان عن هذه الوظيفة التي خلق من أجلها يضع البشرية في محن وبلاء عظيم.

(فما فسدت هذه الأرض يوماً ما بعادية من عوادي الطبيعة، ولا بسوء ألم بها من هياج الحيوانات والوحوش، وإنما استشرى فيها الفساد وألم بها البلاء، يوم تاه بنو الإنسان عن هوياتهم وواقع أحوالهم وحقيقة خصائصهم البشرية).[4] حقاً إن الإنسان لم يخلق في هذا الكون عبثاً، ولم تكن حياته فيه عبثاً ولا لهواً، ولا لعباً وأن ما يجري في الحياة من اضطرابات وآلام وأحزان ليس إلا (نتيجة التراخي في البحث عن أهداف الحياة الإنسانية، كما قدرها وأمر بها الله – تعالى – وأن الاهتداء إلى هذه الأهداف،

---

(١) بماذا انتصر المسلمون – أنور الجندي – ص٩٦.

(٢) الإنسان وحريته في الإسلام – ص٢٨.

(٣) التصور الإسلامي للوجود – الدكتور حسن الحياري – ص١٧٥.

(٤) منهج الحضارة الإنسانية – محمد رمضان البوطي – ص٥١.

وترسم المثل الأعلى، الذي يرفعه الله للناس أجمعين في المشارق والمغارب: هو الذي ينفي عن حياة البشر، العبث والتناقض، ويضفي على نشاطهم المعنى والقيمة ويصرفهم عن غايات حقيرة تبدو لهم عظيمة).[1]

ومن هنا تبرز أهمية دور الإنسان وموقفه في الحياة البشرية يقول الشيخ "محمد قطب": (وهو مخلوق خطير الشأن في دورة الحياة. أولى آيات خطره أن الله بنفسه – سبحانه – هو الذي يعلن مولده. ومن آيات هذا الخطر أن تسجد لخلقه الملائكة. وأن يسخر الله له ما في السماوات والأرض جميعاً).[2]

ولقد نبه القرآن –الكريم– إلى أهمية هذا الدور الذي يقوم به الإنسان في الحياة عندما نفى أن يكون قد خلق الإنسان عبثاً، لكي يلهو لنفسه أياماً ثم يموت.

فقال – تعالى – : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾.[3]

وقال – تعالى–: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.[4]

وهكذا فإن الله – سبحانه وتعالى – يستخلف الإنسان على هذه الأرض لمدة محدودة وأجل معلوم، لمعرفة طاعة عبده من معصيته.

يقول الدكتور "محمد رمضان البوطي": (فإذا أدركت هذه الحقيقة، بعد إيمانك بالله – عز وجل – فلابد من أن تجد في البحث عما يكون مرتباً عليك من وظيفة ومسئولية تجاه خالقكم العظيم الذي لم يقتصر على أن يجعلك مجرد مخلوق من مخلوقاته الكثيرة بل جعلك سيد هذه المخلوقات وألقى إليك زمام تسخيرها ومقاليد كثير منها: حتى إذا

---

(١) الإسلام والإنسان المعاصر – فتحي رضوان – ص٢٠٠.

(٢) دراسات في النفس الإنسانية – ص٣٣.

(٣) سورة المؤمنون – آية ١١٥.

(٤) سورة الأنبياء – آية ١٦ – ١٧.

علمـــت وظيفـــتك في الكون، شمرت عن ساعد الجد لتنفيذ الوظيفة وللاشتراك مع هذه المكونات كلها في القيام بما وكل إلى كل منها من الأعمال والمهام).[1]

ذلك هو الموقع الذي وضع الإسلام فيه الإنسان بالنسبة إلى هذا الكون وهو موقع المســـلط على الكون والمكلف بالعمل فيه واستثماره والمهيمن عليه بحكم الله الخالق له وللكون.

لقـــد خلق الله – تعالى – الإنسان، وأنعم عليه بنعم كثيرة، وحدد له مسئوليته في الحياة، وجعل هذه المسؤولية له ابتلاء إما بالخير وإما بالشر.

يقـــول الدكـــتور "محمود البابللي": (إن تحمل المسئولية هو في ذاته ابتلاء بالخير وبالشر، ثم الأخذ بها عن وعي وإرادة، ولهذا استحق الإنسان الخلافة في الأرض، لهذه الخاصية التي أودعها الله فيه وكرمه بها، فإن أحسن فلنفسه وإن أساء فعليها).[2]

ويقـــول "عـــبد المجيد الزنداني": (أعطى الخالق عبده الإنسان صلاحيات الخلافة على الأرض وجعل ما استخلف فيه أداة لمعرفة طاعة الإنسان من معصيته وكفره من إيمانه. وزين الدنيا في نظر الإنسان كما زين الآخرة في كتابه فمن كان قوياً في إيمانه ســـار على هدى ربه ومن كان ضعيفاً في إيمانه غره بريق الدنيا فحرفه عن الطريق وبذلك كانت الدنيا دار استخلاف وامتحان وكان الإنسان هو الخليفة الممتحن[3]).[4]

قـــال – تعالى –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾.[5]

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية – ص١٨١ – ١٨٢.

(٢) الإنسان وحريته في الإسلام – ص٢٨.

(٣) إن مما يجب التنبيه إليه هنا أن المطلوب من الإنسان هنا طاعة الله –عز وجل – وذلك بالصبر على البلاء والشكر والحمد لله – تعالى – لأن الله – سبحانه وتعالى – لا يقضي لعباده إلا كل ما فيه خير ورحمة لهم ولذلك يجب شكره وحمده – سبحانه وتعالى – في كل الأحوال، وهذه هي الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، والغاية هنا تتعلق بأفعال الإنسان، ولذلك فإن الله – تعالى – يجازيه عليها. أما نزول البلاء والمصائب والشدائد فهذه تتعلق بأفعال الله – تعالى – وتدخل في الحكمة الإلهية في الخلق، ولهذا فإن الله – تعالى – لا يحاسب الإنسان عليها.

(٤) كتاب التوحيد – ص٣١٦.

(٥) سورة الأنعام – آية ١٦٥.

يقول "ابن كثير" – رحمه الله – في تفسيره: (أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف [ورفع بعضكم فوق بعض درجات] أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخـــلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلـــك وقوله تعالى [ليبلوكم فيما آتاكم] أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره).[1]

(ج) وذلك يشير إلى غاية أخرى من خلق الله –تعالى– للإنسان في هذا الحياة فقد جعـــل الله له الأرض موضـــع اختـــبـــار وابتلاء. ولقـــد أخبر –عز وجل– بذلك في قولـــه – تعالـــى – : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾.[2]

هـــذا يعني بأن الله – تعالى – قد جعل ما على الأرض زينة لها وابتلاء للبشرية يقـــول الدكتور "محمود بابللي" : (هذه هي الأرض التي خلقها الله – سبحانه وتعالى – لـــتكون مسرحاً للإنسان ومنطلقاً طوال مدة بقائه على ظهرها، وقد كفل له فيها رزقه، كما حدد له فيها عمره، وجعل ما عليها زينة لها ليبلو الإنسان بالخير والشر، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد).[3]

إذاً فالحكمـــة من خلق الإنسان أن يكون خليفة الله في أرضه يمتحنه ربه بالخير والشر أيطيعه أم يعصيه.

قـــال –تعـــالى–: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ۝٢ ﴾.[4]

يقـــول الدكـــتور "حســـن الحياري": (إن الحق – سبحانه وتعالى – خلق الموت والحـــياة فقـــط مـــن أجل أن يمتحن ويختبر هذا الإنسان وماذا سيفعل في الحياة الدنيا، ومـــاذا يخـــتار لنفســـه من سبل وأطر منهجية في هذه الحياة. فالذي يرتضي أن ينيب

---

(١) ج٢ – ص١٩٩ – ٢٠٠.

(٢) سورة الكهف – آية ٧.

(٣) الإنسان وحريته في الإسلام – ص٧١ – ٧٢.

(٤) سورة الملك – آية ٢.

ويستقيم على النهج الإلهي، فيعد من الفائزين، أما الذين يرتضون أي نهج خلاف النهج الإلهي فهم الخاسرون).[1]

هذه هي الغاية من خلق الإنسان في هذا الوجود مهما اختلف به الزمان والمكان، فالخـــالق واحد والحكمة من خلقه للبشر واحدة ولا تتعلق بزمن أو مكان، أو بجاه، أو غـــنى أو فقـــر أو علم أو جهل، إنما تتعلق بأصل الفطرة الإنسانية والتركيب الإنساني وهكـــذا فـــإن الخالق واحد، وخلقه للإنس واحد، وغايته واحدة ومن أعرض عن هذه الغاية فإن سننه – تعالى – وقوانينه في الكون لا تتخلف.

***

(١) التصور الإسلامي للوجود – ص١٧٣ – ١٧٤.

الفصل الثالث

الغاية من خلق بقية المخلوقات

تمهيد

إن الكـــون بما فيه من مخلوقات مخلوق لله – تعالى لأنه لم يوجد بنفسه، ولم يكن نتـــيجة تطـــورات أو تغيرات طبيعية فيه كما يزعم ذلك الماديون، إنما خلقه الله وأراد إيجـــاده على هذه الحال التي هو عليها، فوجوده على هذا النحو يؤكد بأن هذا الكون لم يخلـــق عبثاً كما يتشدق بذلك أصحاب العبثية[1] وغيرهم، بل خلق لغاية عظمى، ولهذا نجد أن جميع ما في هذا الكون من مخلوقات إنما تعبر عن ذلك كل حسب وظيفته التي خلق لها.

مـــا أجمـــل ومـــا أروع أن نرى هذا الكون الكبير، الواسع بكل مخلوقاته، وبكل أحجامها، وأشكالها، وصورها، وألوانها، وأجناسها، وأنواعها، توحدها غاية واحدة من خـــالق واحد، قد خضع له كل من في السماوات والأرض تقديساً، وإجلالاً، وتعظيماً له – ســـبحانه وتعالى– وتلك هي الغاية من خلق الله – تعالى– لجميع المخلوقات في هذا الكون، وبما أننا قد تحدثنا عن الغايةمن خلق الإنس والجن،[2] بقي علينا أن نتحدث عن الغاية من خلق بقية المخلوقات وشرح ذلك وبيانه كالتالي :

***

(١) هم: الوجوديون ومن تبعهم في ذلك انظر الفصل الثالث في الباب الثاني من هذه الرسالة.

(٢) تحدثنا عن ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

المبحث الأول

عبوديـــة المخلوقـــات للـــه ـ تعالـــى ـ
أو عبادة المخلوقات لله ـ تعالى ـ

إن هذا الكون مسلم وخاضع لله – تعالى– لا يخرج عن طاعته بل الكل متجه إليه وحده – سبحانه وتعالى –.

يقول "سيد قطب" – رحمه الله –: (وفي يد هذا الإله الواحد ملك كل شيء، وإليه يـتوجه الكـون كله، جملة وأفراداً، في الدنيا والآخرة، في العمل والصلاة، في المحيا والممـات وإلـيه مـرده كما كان عنه مورده ..... وبذلك ينفي عن الكون والحياة والأحـياء فكرة ضلال الغاية، أو تصادم الغرض، ويقيمها على النهج الموحد الواضح المتناسـق، ويسـلكها فـي الطـريق الواحد المؤدي إلى الغاية. غاية الجميع. ووجهة الجميع).[1]

ويقـول الأستاذ "محمد المبارك": (خلق الله أنواعاً من المخلوقات وكلها لا تخرج عـن إرادة الله ومشـيئته، ولكـن بعضـها يطيع إطاعة آلية آنية بلا إرادة ولا اختيار كالجمـادات من معادن وحجارة وكالنجوم فهذه تخضع للسنن التي سنها الله – تعالى – والخطـط التـي قدرها لها وهي التي نسميها قوانين الطبيعة، خضوعاً لا اختيار فيه، ومنها ما يكون خضوعه بالغريزة كالحيوان ... إلخ).[2]

سبحان من خلق فأبدع في خلقه (إنه كون ذو روح تعرف ربها الحق، فتستسلم له طائعـة، وتسـجد له خاشـعة، وتسبح له عابدة، وتغار على جلاله، وتنتفض لمهابته، وتغضـب للشـرك بـه من بعض البشر الجهال... وهذا ما تقرره النصوص الكثيرة المتنوعة في القرآن).[3]

---

(١) السلام العالمي والإسلام – ص١٦ – ١٧.

(٢) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص٧٣.

(٣) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص٣٤٨.

قال -تعالى-: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾.(١)

وقال -تعالى-: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾.(٢)

وقال -تعالى-: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾.(٣)

يقول "ابن كثير" – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: ([تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض* وتخر الجبال هداً* أن دعوا للرحمن ولدا] أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم أعظاماً للرب وإجلالاً لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وإنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفء له بل هو الأحد الصمد).(٤)

ويقول "سيد قطب" – رحمه الله: (فأما سجود الكون وتسبيحه وحمده لربه، وإيمانه بربوبيته وحده، وغيرته على جلاله، وغضبه على المشركين الجهال من الناس.. فهذه كلها حقائق يحدثنا الله عنها، والقلوب المؤمنة هي التي تستشعرها وتحسها).(٥) نعم إن الكون قائم على توحيد الله – تعالى وطاعته وعبادته، فجميع المخلوقات متعبدة لله

---

(١) سورة فصلت – آية ١١.

(٢) سورة الرعد – آية ١٥.

(٣) سورة مريم – آية ٨٨ – ٩٥.

(٤) تفسير ابن كثير – ج٣ – ص١٣٨.

(٥) مقومات التصور الإسلامي – ص٣٥١.

ومسلمون له، لا يخرجون عن مشيئته، فهو خالقهم ومليكهم والمتصرف فيهم كيف يشاء.

ذكر ذلك الشيخ "ابن تيمية" فقال: (المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مدبرون، فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدّره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرّفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارئهم ومصورهم. وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور، فقير محتاج معبَّد مقهور، وهو سبحانه الواحد القهار، الخالق البارئ المصور).[1]

إذاً جميع المخلوقات عابدة لله – تعالى – لأنها مفطورة على طاعته يقول الدكتور "محمود بابللي": (فهذه المخلوقات تسجد لله دون تردد، لأنها مفطورة على الطاعة وليس لها خيار في غير ذلك باستثناء الإنسان فإن الله – تعالى – قد ترك لهم حرية الاختيار في ذلك مع تحمل المسؤولية).[2]

ويقول الأستاذ "محمد المبارك": (وهذا التمييز في الخلق بين الإنسان المخلوق الحر وسائر المخلوقات التي ليس لها إلا طريق واحد لا اختيار فيه هو الذي تشير إليه الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾.[3] فجعل كل ما في الوجود يسجد لله أي يطيعه عموماً وأما الناس فقد قال عنهم [وكثير] أي يسجدون ويطيعون [وكثير] أي آخرون أيضاً يعصون ولا يسجدون. وهذا ناشئ طبعاً عن الإرادة الحرة التي شاء الله أن يمنحها للإنسان بمحض مشيئته).[4]

---

(١) العبودية – ص١١٧.

(٢) انظر الإنسان وحريته في الإسلام – ص١١٠.

(٣) سورة الحج – آية ١٨.

(٤) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص٧٤.

الحقـيقة إن طاعـة المخلوقات لله – تعالى – وعبادتهم له قد صورها القرآن في مواضع متعددة وعبر عنها بالتسبيح[1] والسجود.[2]

قال– تعالى– :﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ ﴾.[3]

وقال – تعالى – : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ ﴾.[4]

وقال – تعالى – : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ ﴾.[5]

وقال –تعالى–: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾.[6]

وقال –تعالى–: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾.[7]

وقـال –تعـالى–: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١ ﴾.[8]

---

(١) المراد به تنزيه الله تعالى .... وجعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً، أو نية (مفردات ألفاظ القرآن – الاصفهاني – ص ٣٩٢).

(٢) أصله التطامن (الانحناء) والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وهو عام في الإنسان، والحيوانات، والجمادات. (مفردات ألفاظ القرآن – الاصفهاني – ص٣٩٦).

(٣) سورة الحديد – فاتحة السورة.

(٤) فاتحة سورتي الحشر والصف.

(٥) فاتحة سورتي الحشر والصف.

(٦) سورة الحشر – بعض خاتمة السورة.

(٧) سورة الجمعة – فاتحة السورة.

(٨) سورة التغابن – فاتحة السورة.

هذه الآيات الكريمة تؤكد (أن جميع المخلوقات، الحيوانات منها والنباتات، ناطقها وجامدها، تسبح الله وتمجده وتقدسه وتصلي له وتوحده).[1]

يقول "سيد قطب" – رحمه الله –: (إن هذا الكون يتجه إلى المعبود الذي تتجه إليه النفس المؤمنة، إنه يشاركها إيمانها وتسبيحها وصلاتها وحمدها للخالق المنعم، المتفضل القوي القهار الجبار).[2]

قال –تعالى–: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.[3]

جاء في تفسير "القرطبي" – رحمه الله – أن الله –عز وجل– (أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليهما فعل العاقل وهو التسبيح. وقوله [ومن فيهن] يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله: [وإن من شيٍ إلا يسبح بحمده] واختلف في هذا العموم، هل هو مخصص أم لا؟)[4]

ويذكر "القرطبي" – رحمه الله – هذا الاختلاف فيقول: (فقالت فرقة: ليس مخصوصاً والمراد به تسبيح الدلالة، وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله –عز وجل– خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله ألأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه. وأجيبوا بأن المراد بقوله: [لا تفقهون] الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله – سبحانه وتعالى – في الأشياء. وقالت فرقة: قوله: [من شيء] عموم، ومعناه الخصوص في كل حي ونام، وليس ذلك في الجمادات).[5]

---

(١) انظر تفسير ابن كثير – ج٤ – ص٣٠٢ – ٣٥٧ – ٣٦٣ – ٣٣٠ – ٣٤٤ – ٣٧٤.

(٢) انظر مقومات التصور الإسلامي – ص٣٥١.

(٣) سورة الإسراء – آية ٤٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج١٠ – ص٢٦٦.

(٥) المرجع السابق.

إلا أن "القرطبي" يذهب إلى أن التسبيح عام في كل شيء فيما فيه روح وفيما لا روح فيه ويؤكده بقوله -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ ﴾.(١)

وقوله -تعالى-: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۝٧٤ ﴾.(٢)

وقوله -تعالى-: ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ ﴾.(٣)

يقول "القرطبي" – رحمه الله -: (وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيء من ذلك، فكل شيء يسبح للعموم).(٤)

يقول الدكتور "عماد الدين خليل": (إن التسبيح هاهنا لا يقتصر على كون الذرات والأجسام الفضائية تخضع للنواميس التي وضعها الله فيها، فهي بهذا تسبح بحمد الله – سبحانه – .... فهنالك ما هو أبعد من هذا وأقرب إلى مفهوم التسبيح الحر، أو التقديس الواعي.. إن هذه المواجيد المادية تملك أرواحاً.. وهي تمارس تسبيحها وتقديسها بالروح، وربما بالوعي الذي لا نستطيع استيعاب ماهيته.. وإن هذا ليقودنا ثانية إلى مقولة – أدينفتون – إن مادة العالم هي مادة عقلية.. كما يقودنا إلى الآية الكريمة [ولكن لا تفقهون تسبيحهم] .. حقاً إن إدراك الطرائق التي تعمل بها الذرات والأجسام لما يصعب تحقيقه.. ومهما تقدم العلم وخطا خطواته العملاقة، فسيظل جانب من أكثر جوانب التركيب المادي أهمية، بعيداً عن التكشف النهائي، مستعصياً على البوح بالسر المكنون)(٥) وهكذا يتأكد لنا أن كل ما في السموات والأرض يسبح لله – تعالى – حتى الجمادات.

---

(١) سورة ص – آية ١٧ – ١٨.

(٢) سورة البقرة – آية ٧٤.

(٣) سورة مريم – آية ٩٠ – ٩١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج١٠ – ص٢٦٨.

(٥) العلم في مواجهة المادية – ص٦٨.

قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.[1]

يقول "القرطبي" – رحمه الله – في تفسيره: ([ومن عنده] يعني الملائكة [لا يستكبرون] أي لا يأنفون [عند عبادته] والتذلل له [ولا يستحسرون] أي لا يعيون).[2]

إن الملائكة خلق مكرمون، جبلوا على طاعة الله وحده، وعدم مخالفة أمره، بل خلقهم الله – تعالى – لعبادته، وكما أن الإنسان يعبد ربه بأنواع من العبادات **فكذلك الملائكة لها أنواع متعددة من العبادات منها:**

(١) العبادات القلبية:

ومن أنواعها الخوف، والملائكة أشد الخلق خوفاً من الله – تعالى – وأكثرهم خشية له – سبحانه وتعالى – قال – عز وجل – : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [3] وليس معنى قولنا أن الملائكة تطيع بمقتضى الخلق والجبلة أنهم – عليهم السلام – مجردون عن القصد والمشيئة والإرادة والاختيار فيكونون غير أهل لأية فضيلة أو منزلة، ليس المراد هذا ولكن المراد بأنهم يطيعون بمقتضى الخلق والجبلة أن الله – تعالى – ميزهم عن الجن والأنس بأمور:

أولاً: لم يُجعل لإبليس وجنوده سبيلاً عليهم.

ثانياً: لم يخلق الله – تبارك وتعالى – فيهم من الشهوات والنزوات ما خلق في الجن والإنس.

ثالثاً: إن الملائكة هم أعرف الخلق بربهم وأعلمهم بحقوقه على العباد لكل ذلك كانت الملائكة كما وصفهم ربنا – سبحانه وتعالى – لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

---

(١) سورة الأنبياء – آية ١٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن – ج١١ – ص٢٧٧.

(٣) سورة الأنبياء – آية ٢٨.

(٢) ومنها العبادات العملية:

كالسجود والقيام والاصطفاف قال – تعالى –: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾.[١]

(٣) ومنها العبادات القولية:

كالذكر القولي، وأعظم ذكرهم التسبيح وهو دائم في الليل والنهار بدون ملل ولا فتور ولذلك قالوا: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾ ﴾.[٢]

قال – تعالى –: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿٥﴾ ﴾.[٣]

وقال – تعالى –: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.[٤]

وقال – تعالى –: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.[٥]

أي (لا يملون عبادته).[٦]

ولكثرة تسبيح الملائكة لله – تعالى – قالوا: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[٧]

ويخبرنا الله – تعالى – عن تسبيح حملة العرش من الملائكة وتنزيههم له فيقول – عز وجل –: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿٧٥﴾ ﴾.[٨]

أي (يصلون حول العرش شكراً لربهم).[٩]

---

(١) سورة الصافات – آية ١٦٥.

(٢) سورة البقرة – آية ٣٠.

(٣) سورة الشورى – آية ٥.

(٤) سورة الأنبياء – آية ٢٠.

(٥) سورة فصلت – آية ٣٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج١٥ – ص٣٦٤.

(٧) سورة الصافات – آية ١٦٦.

(٨) سورة الزمر – آية ٧٥.

(٩) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ج١٥ – ص٣٨٧.

ويقول – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۝٧ ﴾.(١)

يقـول "القرطبي" في تفسيره: [الذين يحملون العرش ومن حوله] أي (ينزهون الله – عـز وجل – عما يقوله الكفار [ويستغفرون للذين آمنوا] أي يسألون لهم المغفرة من الله – تعالى –).(٢)

كذلـك ومن تسبيح المخلوقات لله – تعالى – وعلى سبيل المثال نأخذ ما ورد في الآيات التالية:

قال – عز وجل –: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ۝١٣ ﴾.(٣)

يقـول "القرطبـي" فـي تفسير: (ويعظم الله الرعد ويمجده، فيثني عليه بصفاته، ويـنزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد، تعـالى ربـنا وتقـدس)(٤) إن تسبيح المخلوقات لله – تعالى – دلالة على تعظيمهم إياه وتعبدهم له وعدم خروجهم عن طاعته.

ومن تسبيح هذه المخلوقات ما أخبر الله به في قوله – عز وجل –: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ ﴾.(٥)

يقول "الطبري" – رحمه الله – في تفسير: ([إن الله يسبح له من في السموات] من الملائكـة [والأرض] من الجن والإنس. [والطير صافات] قال "مجاهد" وغيره: الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق. وقال "سفيان": للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سـجود. وقيل إن ضربها بأجنحتها صلاة وإن أصواتها تسبيح)(٦) وكما أخبرت الآيات

---

(١) سورة غافر – آية ٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن – ج١٥ – ص٢٩٤.

(٣) سورة الرعد – آية ١٣.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – ج١٦ – ص٣٩٠.

(٥) سورة النور – آية ٤١.

(٦) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج١٢ – ص٢٨٦ – ٢٨٧.

الكريمة عن تسبيح المخلوقات لله تنزيهاً وتقديساً له – سبحانه وتعالى– كذلك أخبرت وبصورٍ مختلفة عن سجودها وتذللها وخشوعها له – سبحانه وتعالى – وتلك هي عبادتهم له – تعالى– .

قال – عز وجل –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.(١)

يقول "الطبري" – رحمه الله – في تفسيره: (فإن الذين عند ربك من ملائكته، لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع، وذلك هو "العبادة" ..... [وله يسجدون] يقول: و لله يصلون وهو سجودهم فصلوا أنتم أيضاً له وعظموه بالعبادة، كما يفعله من عنده من ملائكته).(٢)

وقال – تعالى – : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾.(٣)

وقال –تعالى–: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾.(٤)

وقال –تعالى–: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.(٥)

يقول "القرطبي" – رحمه الله –: (أي من كل ما يدب على الأرض [والملائكة] يعني الملائكة الذين في الأرض وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة،

---

(١) سورة الأعراف – آية ٢٠٦.

(٢) جامع البيان عن أي القرآن – ج١٣ – ص٣٥٧ وانظر الجامع لأحكام القرآن – ج٧ – ص٣٥٦.

(٣) سورة الحج – آية ١٨.

(٤) سورة الرحمن – آية ٦.

(٥) سورة النحل – آية ٤٩ – ٥٠.

فمـيزهم من صفة الدبيب بالذكر..... وقيل: لخروجهم من جملة ما يدب لما جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا.

وقـيل أراد [ولله يسـجد ما في السموات] من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والـرياح والسـحاب، [ومـا فـي الأرض من دابة] وتسجد ملائكة الأرض. [وهم لا يستكبرون] عن عبادة ربهم).[1]

وهكـذا تؤكـد الآيـات القرآنية أن هذا الكون طائع لله متعبد له سواءً كان ذلك بالتسبيح أو السجود أو بالامتثال لأوامره – تعالى –.

يقـول "سـيد قطب" – رحمه الله –: (وأخيراً فهو كون مسلم طائع لربه، ومؤمن عابد لمولاه).[2]

ويقول الدكتور "محمد الفندي": (الكون كله مظهر من مظاهر الألوهية، وأن الغاية منه الخضوع للخالق وعدم الخروج على الناموس تمهيداً لحياة أبدية).[3]

***

(١) الجامع لأحكام القرآن – ج١٠– ص١١٢ – ١١٣.

(٢) مقومات التصور الإسلامي – ص٣٤٨.

(٣) الإسلام وقوانين الوجود – ص٤٣.

المبحث الثاني

غايـــــات أخـــــرى

لقد خلق الله -تعالى- هذه المخلوقات لغايات عظيمة، ولحكم جليلة منها ما نعلمه، ومـــنها مـــا لا يعلمـــه إلا الله ومن شاء من عباده. قال - تعالى - ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.(١)

ولهذا فإن معرفتنا لهذه الغايات والاطلاع عليها سوف يكون مستمداً من كتاب الله - تعـــالى - وذلك لأنه قد تكرر في القرآن - الكريم - الكلام عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة تكراراً يلفت النظر، فأكثر سور القرآن تتحدث آياتها عن هذا الموضوع، ولذلك سوف اعتمد هنا على الآيات القرآنية في عرض أهم هذه الغايات وبصورة مجملة وهي كالتالي:

أ : إنها آيات دالة على وجود خالقها سبحانه ـ وتعالى ـ.

لقد خلق الله - تعالى - هذا الكون للتأمل والتدبر في مخلوقاته لأنها آيات دالة على خالقها وموجودها والمالك لها. ولهذا نجد القرآن يعرض هذا الكون بصورة عامة وشاملة ويدعو للنظر فيه والتبصر والتفكر في آياته.

يقول - تبارك وتعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴿٨﴾ ﴾.(٢)

ويقول-تعالى-: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿١٨٥﴾ ﴾.(٣)

---

(١) سورة الإسراء - الآية ٨٥.

(٢) سورة الروم - الآية ٨.

(٣) سورة الأعراف - آية ١٨٥.

ويقول -تعالى-: ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.(١)

ويقول -تعالى-: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.(٢)

ويقول-تعالى-: ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾.(٣)

في هذه الآيات -الكريمة- يخاطب الله - تعالى - أصحاب العقول الراجحة، والقلوب السليمة ولهذا يقول - عز وجل - في نهاية كثير من آيات القرآن: [أفلا يعقلون]، [لقوم يعقلون]، [لعلكم تعقلون].

ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.(٤)

يقول الأستاذ "محمد المبارك": (طالما كرر القرآن الأمر بالنظر والتفكر والتدبر، ونسب إلى المتأملين الألباب والعقل، ولكن الإسلام إذ يمر بنا في آفاق الكون والطبيعة وآفاق النفس الإنسانية لا يقف بنا في المسير حيث تقف النظرة المادية، بل يستمر حتى ينتقل من الكون إلى موجده، ومن الإنسان إلى خالقه، ومن الحياة الإنسانية إلى ما وراءها).(٥)

ويقول: (فالقرآن يأخذ بيدنا ويطوف بنا في أرجاء الكون، وينطلق ابتداء من هذا الكون الذي نعيش فيه، من الأرض التي نعيش فوق ظهرها وما عليها من جبال

---

(١) سورة القصص - آية ٧٢.

(٢) سورة ص - آية ٢٩.

(٣) سورة البقرة - آية ٢٢١.

(٤) سورة ق - آية ٣٧.

(٥) نظرة الإسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة - ص١٦.

وبحار، وما يتخللها من أنهار وجنات، وما يهطل عليها من أمطار وينبت فيها من زرع ونبات).[1]

إن الله – سبحانه وتعالى– يذكر عباده من خلال تلك الآيات الظاهرة، والمحيطة بنا بعظمته – عز وجل – وقدرته التي لا يعجزها شيء.

فقال – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾.[2]

يقول "ابن قيم الجوزية" – رحمه الله –: (ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهاداً ومستقراً للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قراراً ولا هدوءاً ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف كانوا يهنأون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها).[3]

لقد جعل الله – تعالى– هذا الكون من أرض وسماء بكل ما فيها آيات ناطقات بلسان الحال على وجود خالقها – عز وجل – وتلك هي شهادة الوجود الصادقة على وجوده – سبحانه وتعالى – قال –عز وجل–: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾.[4]

يقول "خليل إبراهيم أمين": (إن من بديع صنع الله في ملكوته السموات، فانظر إليها في علوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها

---

(١) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص٣٨.

(٢) سورة طه – آية ٥٣ – ٥٤.

(٣) مفتاح دار السعادة – ج١ – ص٢١٧ – ٢١٨.

(٤) سورة آل عمران – آية ١٩٠.

وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً).[1]

ولـنأخذ مـثالاً على ذلك دلائل القدرة الإلهية في خلق الظلام والحكمة في خلق القمر.

يقول "ابن قيم الجوزية" – رحمه الله –: (اقتضت حكمة الله – تعالى – خلق الظلمة لكي تهدأ فيها الحيوانات وتسكن، ولكن الله – تعالى – لم يجعل هذه الظلمة داجية حندساً لا ضوء فيه، لأن هناك بعض من الحيوانات لا تخرج إلا في الليل ففيه حركتها وسيرها وعملها الذي لا تتهيأ له بالنهار، لضيق النهار أو لشدة الحر فيه أو لخوفها بالنهار، لذلك فقد اقتضت حكمته – تعالى – أن جعل في الليل من ضوء القمر معونة للحيوان على حركاته وأعماله، وجعل طلوع القمر في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوي الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما، فتأمل هذه الحكمة البالغة، وهذا التقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور رحمة منه وإحساناً، فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه).[2] صدق الله العظيم القائل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.[3]

والقائل: : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾.[4]

يقول الدكتور "محمد الفندي": (وما دام القرآن كلام الله والكون من عمل الله فلابد أن يطابق القول العمل).[5]

---

(١) غرائب وعجائب المخلوقات – ص٤٥.

(٢) مفتاح دار السعادة – ج١ – ص٢١٠.

(٣) سورة الأنبياء – آية ٣٣.

(٤) سورة آل عمران – آية ١٩٠.

(٥) الإسلام وقوانين الوجود – ص٩٨ وانظر طريق الإيمان – الزنداني – ص٢١.

وبعد هذه الرؤيا الصحيحة الواضحة لهذا الكون وما فيه من مخلوقات يرى الإنسان أن (الكائنات وقد بدت متجانسة منسجمة ويصدقها الصوت الداخلي للإنسان الذي يملك عليه نفسه، فما يتلوه في الكتاب الإلهي، يشاهده ماثلاً أمامه في الأرض والسماء، وما يتلوه وما يراه ترتضيه فطرته وتقبله، وكأن كل شيء قد خلق تماماً ليتناسب مع المكانة التي يوضع فيها).[1]

إن من اليقين الذي لا شك فيه أن كل من ينظر إلى هذا الكون وما يجري على مسرحه من حوادث وتغيرات وتبدلات يدرك أن هذا الكون إنما يسير وفق قوانين وسنن مطردة تشير بدورهما إلى خالقها الذي أوجدها بهذه الصورة العامة والشاملة لكل هذه المخلوقات التي لا تستطيع أن تشذ أو تخرج عن هذه السنن وتلك القوانين.

يقول "محمد المبارك": (إنه لا تعارض بين وجود ارتباط سببي بين أجزاء الطبيعة وحوادثها ووجود الإله الخالق. فالقرآن يشير... إلى ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض، كارتباط نمو النبات بنزول المطر، وارتباط نزول المطر بتكاثف السحب وتراكمها. فهذه السببية أو الارتباط بين الحوادث هو نفسه جزء من هذه الطبيعة يحتاج مثلها إلى قوة خالقة قدّرته على هذه الصورة.

..... فالسبب أو القانون نفسه ليس قوة عاقلة مدركة خالقة مبدعة، بل هو نفسه جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من الأسباب والسنن والقوانين. وهي بمجموعها مخلوقة منفعلة متأثرة خاضعة موجهة تحتاج إلى من يوجدها ويقدرها ويوجهها).[2]

سبحان الخالق العظيم والمدبر الجليل (كل شيء في هذا الكون من الذرة والمجرات العملاقة، يسير وفق هندسة إلهية وتقدير محكم ونظام دقيق. فالذرة المتناهية الصغر.. عالم هائل فيه هندسة وحركة وقوانين وطاقة. وكل شيء فيها يسير وفق تقدير مطلق الدقة.. وإذا كانت الذرة هي أدق الأجسام في نظرنا – إذ لو جمعنا منها عشرة بلايين ذرة بجوار بعضها ما ساوى ذلك النقطة التي تضعها بالقلم – لأنها هباءة

---

(١) الإنسان القرآني – ص١٠.

(٢) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص٤٨.

لا ترى على الإطلاق، ومع ذلك فهي في الواقع كون صغير فيها كل ما في الكون من نظام وحساب دقيق).[1]

ويقـول الأسـتاذ "محمد المبارك": (حوادث الكون – كما يشير القرآن – مرتبط بعضها ببعض ما بين سابق ولاحق بانتظام واطراد يدل على أنها تتبع سنناً مطردة في حدوثها وحركتها).[2]

قال -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾.[3]

وقال -تعالى-: : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ﴿٩٩﴾ ﴾.[4]

وقال -تعالى-: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.[5]

إن الكون: (يخضع لناموس واحد، ينسق حركاته، ويقيه التصادم والتهدم، ويهيمن علـى أجرامه وأفلاكه، وينظم سيرها ومجراها..... وذلك ينفي عن أجزاء الكون

---

(١) الإنسان في الكون بين القرآن والعلم – الدكتور عبد العليم خضر – ص٢٥٤.

(٢) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص٤١.

(٣) سورة النور – آية ٤٣ – ٤٤.

(٤) سورة الأنعام – الآية ٩٩.

(٥) سورة يس – الآيات ٣٧ – ٤٠.

المـــتفرقة صفة التقاطع والتناثر، ويثبت لها صفة التوحد والتناسق، في طبيعة التكوين، وفي صميم الناموس وفي نظام الحركة سواء).[1]

(هـــذا هو الكون الذي عرضه القرآن – الكريم – بآفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة وأقســـامه المتعددة وحركته الدائبة وحوادثه المتكررة بانتظامه وسننه المطردة هو عالم (الشهادة) الذي يشهده الإنسان فيدركه بحواسه، وبعقله وتفكيره).[2]

يقـــول الأســـتاذ "وحـــيد الدين خان": (فمطالعة الإنسان لذاته وللكائنات من حوله تخـــبره من ناحية أن هناك بالضرورة الخالق.. لها، وهو السبب الحقيقي الذي تصدر عنه أحداث هذا المعمل الكوني ووقائعه).[3]

إن هـــذا (الكـــون العظيم الدقيق المنظم المطرد لم يوجد مصادفة ولا عبثاً، ولكنه منبثق عن قوة خالق حكيم عليم خبير).[4]

يقـــول الشـــيخ "سيد قطب" – رحمه الله –: (فوحدة الإله الخالق تنفي عن ناموس الكـــون تعـــدد التصميم والنظام. وتنفي عنه تبعاً لهذا أسباب التعارض والاصطدام)[5] ويصدق ذلك ويؤكده الآيات التالية:

قال –تعالى–: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾ ﴾.[6]

يقـــول الشـــيخ "عبد المجيد الزنداني": (إن هذا الارتباط المحكم، الدائم بين أجزاء الكون يشهد: بأنه تحت سيطرة مالك واحد ولو كان مع الله آلهة أخرى لفصل كل إله ما خلـــق، ولشاهدنا عمليات الانفصال، والتجزئة ظاهرة في هذا الكون. وكم تكون الحياة ســـيئة لـــو أن للشـــمس إلهاً منع عنا ضوءها، وأن للشجر إلهاً منع عنا ثمارها، وأن للسحب إلهاً منع عنا قطرها).[7]

---

(١) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص١٧.

(٢) نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – محمد المبارك – ص٤٤.

(٣) الإنسان القرآني – ص١١.

(٤) نظرة الإسلام العامة إلى الوجود – محمد المبارك – ص١٧.

(٥) السلام العالمي والإسلام – ص١٥.

(٦) سورة الأنبياء – آية ٢٢.

(٧) كتاب توحيد الخالق – ص٥٦.

وقـــال –تعـــالى–: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾.(١)

يقـــول الشيخ "عبد المجيد الزنداني": (ولو كان مع الله آلهة أخرى، لحاول بعضهم أن يســـتعلي على غيره، وعندئذ يشهد الكون حروباً مروعة، مدمرة، ويكون الملكوت ميداناً لصراع جبار بين الآلهة المتنازعة، أو لحاول الضعاف من هذه الآلهة المتنازعة أن يتعاونوا على من له القوة والنفوذ في هذا الملكوت).(٢)

ولكـــن الحقـــيقة الثابـــتة أن (من تأمل في نظام الكون المستقر، وأحداثه المنسقة، وســـيره المنـــتظم، وجـــد أن ما في الكون الثابت يشهد له: أنه تحت نفوذ إرادة واحدة وتحت تصرف حاكم واحد).(٣) وبهذا نستطيع أن نقول: أن هذا الكون قد خلقه الله –عز وجل– ليكون آيات وعلامات دالة على خالقها – سبحانه وتعالى– الواحد الأحد الذي لا إله سواه.

يقـــول الشـــيخ "ســـيد قطب" – رحمه الله –: (عن إرادة هذا الإله الواحد، يصدر الكون بطريق واحد: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤) فلا وساطة بين الإرادة الموجده والكون المخلوق. ولا تعدد في الطريقة التي يصدر بها هذا الكون كله عن الخالق الواحد.

إنها مجرد الإرادة التي يعبر عنها القرآن بالكلمة: [كن]. وتوجه هذه الإرادة كاف وحـــده لصدور الكون عنها: [كن فيكون] وبذلك ينفي عن صدور الكون كل وساطة أو ثنائـــية أو تعـــدد، فينفي كل ظل للتصادم أو التعويق. أو التفاوت منذ اللحظة الأولى، ويقرر انسياب الكون في طريق الوجود بيسر وبساطة وتناسق).(٥)

---

(١) سورة المؤمنون – آية ٩١.

(٢) كتاب توحيد الخالق – ص٥٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) سورة يس – آية ٨٢.

(٥) السلام العالمي والإسلام – ص١٥ – ١٦.

وهكـــذا (ففي مشاهد الحياة المتفتحة في جنبات الأرض، ينبهنا القرآن إلى صفحة الكـــون المـــنظور لتشهد بديع صنع الله في الماء والإنبات والإثمار، في شتى أنواعها، وشـــتى أشـــكالها. وشتى أطوارها، وليلمس الوجدان ما فيها من حياة نامية، دالة على القـــدرة التـــي تـــبدع الحـــياة، وليـــتوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال).[1]

يقـــول "خليل أمين": (فالتفكير في مخلوقات الله – عز وجل – يزيد المؤمن إيماناً ويردع العاصي ويذكر الغافل ويوقظ النائم ويحرك كوامن النفس للرجوع إلى الله).[2]

ب: إن جميع المخلوقات مسخرة ومذللة للإنسان.

إن المـــتأمل للآيـــات القرآنية يجد أن الله – تعالى – يعرض فيها الكون مسخراً للإنسان، وفائضاً بالنعم والطيبات من الرزق.

ولقـــد جعل الله – تعالى – الإنسان بحاجة إلى هذه الطيبات والنعم كما وأن حياته لا تستقيم إلا بهذه المكونات.

يقول "محمد رمضان البوطي": (هكذا اقتضت رحمة الله بعبادة أن يجعل من كونه أفصح بيان ناطق بألوهية الله وحده وبأنه الخالق والمبدع للكون كله، فجعلك في حاجة مســـتمرة إلـــى كثـــير من الأمور المعينة، ثم جعل بينك وبين هذه الأمور حلقات من الوســـائط والأســـباب، كلما تجاوزت واحدة منها إلى الأخرى تبدى لك جديد من معنى الانســـجام بيـــن أجزاء الكون وجزئياته ووقفت على ما بينها من تعاون ومشاركة في ســـبيل تحقيق أغراضك وحاجاتك، حتى تستيقن أخيراً بأن من وراء هذا الكون كله من يدبره هذا التدبير ويؤلف بينه هذا التأليف).[3]

إن هـــذا الكـــون المسخر للإنسان إنما يسير بأمر الله – تعالى – في كل حركاته وســـكناته فهو كون مدبر ومسير لغاية معلومة. إنه مأمور بذلك ويؤدي ما أمر به فقد اقتضت الحكمة والمشيئة الإلهية ذلك مما ينفي عنه العبثية.

---

(١) الكون والإنسان في التصور الإسلامي – الدكتور حامد قنيبي – ص١١٠.

(٢) غرائب وعجائب – ص٤.

(٣) كبرى اليقينيات الكونية – ص٢٩١ – ٢٩٢.

يقول الشيخ "سيد قطب": (والحياة في هذا الكون مقصودة وليست فلتة عابرة. وقد روعي في تصميم الكون وفي ناموسه أن يسمح بظهور الحياة وأن يوافيها بحاجاتها وحاجات الأحياء، وأن يحرسها من التحطيم والهلاك والفناء).[1]

ويقول: (ولا مجافاة بين أن تكون الظواهر الكونية ناشئة من طبيعة تركيب الكون، وطبيعة حركته، وبين أن يكون نشوءها وتوجهها بمشيئة الله وقدره، وأن تكون موجهة تؤدى غايات عامة، أو خاصة. فالتقدير الإلهي شامل وغير مقيد بزمان. فالكون وظواهره والغايات التي يؤديها بوجوده وحركته، والتي تؤديها ظواهره عامة وخاصة.. كلها تقدر معاً بعلم الله الذي لا يتجزأ، وفي تقديره الذي لا يتجزأ كذلك).[2]

إن هذا الخلق وهذا التسخير إنما هو تمكين من الله – تعالى – للإنسان لكي يستطيع العيش على ظهر هذه الأرض. قال –تعالى–: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.[3]

ويقول "القرطبي" – رحمه الله – في تفسيره: (أي جعلناها لكم قرار ومهاداً وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة).[4] كذلك وقد وجه القرآن الأنظار في آيات كثيرة إلى هذا التسخير وهذه المنفعة حتى يجد الإنسان ويسعى للاستفادة من ذلك.

قال – تعالى– : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴿٢٠﴾ ﴾.[5]

وقال – تعالى–: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.[6]

---

(١) السلام العالمي والإسلام – ص١٧.

(٢) مقومات التصور الإسلامي – ص٣٣٤ – ٣٣٥.

(٣) سورة الأعراف – آية ١٠.

(٤) الجمع لأحكام القرآن – ج٧ – ص١٦٧.

(٥) سورة لقمان – آية ٢٠.

(٦) سورة الجاثية – الآية ١٣.

يخـــبر الله – تعالى – في هذه الآيات أن الكون كله مسخر للإنسان بمعنى أن هذا التسخير مطلق وهو في صالح الإنسان لينتفع به.

يقول الشيخ "سيد قطب" – رحمه الله –: (إنه كون صديق مأنوس. أعده خالقه لاستقبال الحياة وحضانتها وكفالتها وإقاتها وسخره لهذا كله. وأمره فأطاع. والنصوص القرآنية التي تصور هذه الحقيقة كثيرة ومتنوعة. ودالة على أن هذا الكون بتصميمه الأولى. وبظواهره الكونية مستعد لاستقبال الحياة ولكفالة الأحياء).[1]

ومن هذه الآيات القرآنية التي أشار إليها الشيخ "سيد قطب" نختار ما يلي : قال – تعالى–: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ ﴾.[2]

لقـــد جعـــل الله –تعالى– (أقوات الأرض مقدرة فيها منذ خلقها، وفيها الكفاية... وهـــي أقوات مدخرة في تربتها الغنية العجيبة التي ننسى لطول الألفة مدى ما فيها من عجـــب.. إن هذه التربة تنبت باستمرار.. وعلى مدار العام.. وما إن تبذر فيها البذور، أو تغـــرس فـــيها الأغـــراس.. وينالها الماء حتى تنبت وتعطى. ولا تكف عن الإنبات والعطاء. وحين يتأمل الإنسان قطعة صغيرة من الأرض. فلا يجد إلا كمية من التراب، ثـــم يجـــد هذا التراب ما يني ينبت، كلما طلب منه الإنبات.. إنها عجيبة تذهب الألفة بجدتهـــا وطرافتها. فأي شيء من صنع غير الله يمكن أن يعطى هذا العطاء، ولا يكف عن العطاء).[3]

يقـــول "خليل بن إبراهيم أمين": (تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئاً بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتـــت المصـــالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها فإن كل فصل وأوان يقتضي من

---

(١) مقومات التصور الإسلامي – ص٣٤٣.

(٢) سورة فصلت – آية ١٠ – ١١.

(٣) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص٣٤٣ – ٣٤٤.

الفواكـــه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل، وكل في فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه).[1]

وأقـــوات الأرض ليســـت فـــي النبات فحسب وإنما هي أيضاً مدخرة في جوها، المحمل بالأكسجين الذي يعتمد عليه الإنسان في تنفسه ويعيش عليه، والنتروجين الذي يـــذوب جـــزء مـــنه مـــع الماء الهاطل من السماء ليستفيذ منه النبات الذي يعتمد عليه الإنســـان والحـــيوان فـــي غذاءه... ومن أقوات الأرض ما هو مدخر في جوفها وهي معادنهـــا وبـــترولها وفحمهـــا ومياهها الجوفية.... ومازالت الأرض تمد أبناءها بهذه المدخرات وهم يكتشفون منها كل يوم جديد.

يقول الإمام "زكريا بن محمد القزويني": (لينظر إلى أنواع المعادن الموزعة تحت الجـــبال: فمـــنها الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والياقوت، ثم إلى معادن الأرض كالـــنفط والكبريـــت وغيرها وأقلها الملح فلو خلت منه بلد لتسارع الفساد إلى أهلها).[2]

وهكـــذا فقـــد احتوت هذه الأرض على أنواع شتى من النبات والجماد والحيوان المسخرة والمذللة كلها للإنسان ما نعجز عن تعداده وبيانه، ولقد أشارت الآيات القرآنية إلـــى البعض منها، وإضافة إلى ما سبق سوف اذكر بعض من هذه الآيات التي تحدثت عن ذلك للتذكير بخالقها – سبحانه وتعالى – وهي:

(١): قولـــه – تعـــالى – فـــي الأنعام: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ

---

(١) غرائب وعجائب المخلوقات – ص٧٠.

(٢) انظر عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات – ص٥ ، والله والكون– الدكتور محمد الفندي – ص٢١٩.

أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾.[1] وقوله – تعالى –: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.[2]

يقول "خليل أمين": (تأمل الحكمة البالغة في إعطائه – سبحانه – بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها، ثم سلبها العقول على كبر حجمها ليتم تسخيرها للإنسان فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت عن طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحته وسلبت من الذهن والعقل ما يتميز به عليها الإنسان وليظهر أيضاً فضيلة التمييز والاختصاص، ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيرها له سبحانه).[3]

يقول الدكتور "محمود بابللي": (إن هذه العوالم على مختلف خصائصها وما تؤديه من فوائد للإنسان ينتفع بها – ما ظهر منها عياناً وما لم يظهر إلا بمكبرات ضخمة – إنها جميعاً مسخرة له بتسخير الله – سبحانه – فلا تستعصي عليه في أداء النفع الذي أوجده الله فيها، فيما إذا توصل الإنسان إلى اكتشاف سننها والتعرف على خواصها).[4]

قال – تعالى –: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.[5]

ذكر "القرطبي" – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية ثلاث مسائل:

(الأولى – [وما ذرأ] أي وسخر ما ذرأ في الأرض لكم.

[ذرأ] أي خلق .....

---

(١) سورة النحل – آية ٩.

(٢) سورة يس – ص٧١ – ٧٢.

(٣) غرائب وعجائب المخلوقات – خليل بن إبراهيم أمين – ص٨١.

(٤) الإنسان وحريته في الإسلام – ص٨١.

(٥) سورة النحل – ص١٣.

الثانـــية – مـــاذرأه الله – سبحانه – منه مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك.....

الثالثة – قوله تعالى –: [مختلف ألوانه]..... يعني الدواب والشجر وغيرها. [إن في ذلك] أي في اختلاف ألوانها. [لآية] أي لعبرة. [لقوم يذكرون] أي يتعظون ويعلمون أن في تسخير هذه المكونات لعلامات على وحدانية الله – تعالى – وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره).[1]

(٢): وقوله – تعالى– في الانتفاع من الطير بالأكل : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.[2]

(٣): وقوله – تعالى– في تسخير البحر والانتفاع منه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.[3]

يقول "القرطبي" – رحمه الله – في تفسيره: (تسخير البحر هو تمكين البشر في التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا).[4] قال – تعالى–: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [5].

يقـــول "ابـــن كثير" – رحمه الله – في تفسيره: (خلق البحران العذب الزلال وهو هـــذه الأنهـــار الســـارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – ج١٠ – ص٨٤ – ٨٥.

(٢) سورة الواقعة – آية ٢١.

(٣) سورة النحل – آية ١٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج١٠– ص٨٥.

(٥) سورة فاطر – آية ١٢.

والأمصـــار، والعمران والبراري والقفار، هي عذبه سائغ شرابها لمن أراد ذلك [وهذا ملـــح أجاج] أي مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعاقا مرة ولهذا قال [وهذا ملح أجاج] أي مر ثم قال – تعالى – [ومن كل تأكلون لحماً طـــرياً] يعنـــي السمك [وتستخرجون حلية تلبسونها]. ... [وترى الفلك فيه مواخر] أي تمخـــره وتشـــقه بحيزومها وهو مقدمها المستم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره... وقولـــه – جـــل وعـــلا – [لتبتغوا من فضله] أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم [ولعلكم تشكرون] أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض الجميع من فضله ورحمته).[1]

ويقـــول "محمـــود قاسم": (البحر العذب وهو مجموعة الأنهار والبحيرات والمياه الجوفية العذبة.

والبحر الملح هو مجموع المحيطات والبحار الداخلية الملحة. يبرز في هذه الآيات أسلوب غريب جداً.

هـــذه الغـــرابة هـــي في نظرته الاستعلائية الشمولية للأرض، النظرة التي تجمع جمـــيع أنهـــار الدنيا وبحيراتها ومياهها الجوفية غير المرئية في وحدة متميزة تسميها الـــبحر العـــذب (هـــذا عذب فرات) وتجمع جميع بحار الدنيا الملحة في وحدة متميزة تسميها البحر الملح (وهذا ملح أجاج).

فكأن الأرض قد زويت مكاناً وزماناً أمام قائل هذا الكلام، فهو يراها جملة واحدة عـــبر السنين وعبر المادة).[2] كل ذلك يشير إلى قدرة الله – سبحانه وتعالى – في خلق هـــذه المكونـــات وتســـخيرها للإنســـان سواءً كانت بحار أو محيطات يقول "أبو حامد الغزالـــي": (فـــتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الارض ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراهما أنها

---

(١) ج٣ – ص٥٥٠ – ٥٥١.

(٢) الإسلام والحقائق العلمية – ص٤٨.

جـبال أو جزائر وما من صنف من أصناف حيوان البر من إنسان وطائر وفرس وبقر وغير ذلك إلا وفي البحر أمثالها وكل منها قد دبره الباري – سبحانه –).[1]

ويقـول الشيخ "سيد قطب" – رحمه الله – في المحيطات: (إن مساحة المحيطات الملحـة، ومسـاحة الأرض اليابسة محسوبة بدقة لحفظ جو الأرض غير آسن، وغير جاف، بحيث تصلح للحياة وتظل صالحة لها).[2]

ويقـول "محمـد البرازي" في المحيطات أيضاً: (ولو كانت مياه المحيطات حلوه لتعفنـت وتعـذرت بعد ذلك الحياة على الأرض)[3] وكل ذلك يسير بتسخير من الله – تعالى – لمصلحة الإنسان في هذه الحياة.

أن ما تقدمه المشيئة الألهية لا يقتصر على تلك المنافع السابقة بل اقتضت حكمته – تعالى – أن تقدم لهذه البشرية المزيد من منافع ما يحيط بها.

وتشـير النصـوص القرآنية إلى ذلك إشارات متكررة وكثيرة ومتنوعة كتسخير الشـمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر لإعانة الحياة والأحياء والبشر هم قمة هذه الأحياء.

ومن هذه النصوص القرآنية قوله – تعالى – في الرياح ومنافعها:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.[4]

يقول "ابن كثير" رحمه الله في تفسيره: (يبين – تعالى – كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال – تعالى – [الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً] إما من البحر كما

---

(١) أسرار المخلوقات – ص٣٦ – ٣٧ وانظر الكون والإنسان – الدكتور صادق قنيبي – ص٤٨.

(٢) مقومات التصور الإسلام – ص٣٣٦.

(٣) البراهين العلمية – ص٧٠.

(٤) سورة الروم – آية ٤٨ – ٤٩.

ذكره غير واحد أو مما يشاء الله – عز وجل – (فيبسطه في السماء كيف يشاء) أي يمده فيكثره وينميه ويجعل من القليل كثيراً ينشئ سحابة ترى في رأى العين مثل الترس ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة كما قال – تعالى – [وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت] إلى قوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [1] وكذلك قال ههنا [الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً] قال "مجاهد" و "أبو عمرو بن العلاء" و"مطر الوراق" و"قتادة" يعني قطعاً. وقال غيره متراكماً كما قاله "الضحاك" وقال غيره: أسود من كثرة الماء تراه مدلهما ثقيلاً قريباً من الأرض وقوله – تعالى – [فترى الودق يخرج من خلاله] أي فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب [فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون] أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله – تعالى- [وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين] معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك فلما جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعاً عظيماً).[2]

ويقول "زكريا بن محمد القزويني": (وليتأمل ..... تسخير الرياح فإنها تتلاعب بالسحاب وتسوقه إلى المواضع التي أرادها الله – تعالى – فترش وجه الأرض وترسله قطرات متفاضلة لا تدرك قطرة منها قطرة ليصيب وجه الأرض برفق فلو صبه صباً لأفسد الزرع بخدشه وجه الأرض، ويرسلها مقداراً كافياً لا كثير زائداً على الحاجة فلا يتم به النمو كما قال – تعالى-: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ .[3] ثم إلى اختلاف الرياح فإن منها ما يسوق السحب ومنهـا ما ينشرها ومنهـا ما

---

(١) سورة الأعراف – آية ٥٧.

(٢) ح٢ – ص٤٣٦ – ٤٣٧.

(٣) سورة المؤمنون – آية ١٨.

يجمعها ومنها ما يعصرها ومنها ما يلقح الأشجار ومنها ما يربى الزرع والثمار ومنها ما يحفظها).[1]

إن الكون واسع جداً، ومكوناته كثيرة لا تعد ولا تحصى وجميعها مسخرة لتؤدي الخدمة المفطورة عليها للإنسان، ومن المؤكد أن كل ذلك يشير إلى عظمة الخالق – سبحانه وتعالى – وقدرته في تسخير هذه المكونات للإنسان.

يقول "وحيد الدين خان": (يرى أن جميع قوى الأرض والسماء قد سخرت لخدمته في انسجام وتجانس كاملين فوجوده يبدو له كإحسان من الله مجسم، وفي داخله عاطفة شكر لله لا حدود لها، كما أن عاطفة الامتنان قد ملأت وجوده، وهذا الواقع يجعله يشعر بأن الوجود هو كل شيء بالنسبة له، وأن كل هذه الترتيبات وضعت من أجله).[2]

ويقول الدكتور "محمد الفندي": (من أعماق الإعجاز العلمي في كتاب الله العزيز عمق يتصل بما أسبغه الخالق جل شأنه من مزايا على كوكب الأرض وما وفره فيها وعليها من رزق لصالح البشرية جمعاء إلى يوم الدين.

وبطبيعة الحال هذه المزايا الفريدة وذلك الرزق الوفير لا يمكن أن توفرها الصدفة).[3]

كما أنه لا يمكن أن تكون قد وجدت من غير غاية (ولذلك كانت نظرة الإسلام إلى متع العيش ونعم الحياة على أنها نعم من الله وضعت في يد الإنسان وسلط عليها، فتمتزج نظرة الإنسان خلال تمتعه بطيبات العيش بشعور عميق هو الشعور بنعمة الإله المنعم وشكره، ووعي لذاته ولما يحيط به، وإدراك لحايته الفانية القريبة والباقية البعيدة. وتنتهي المتعة المادية في الحياة بنظرة خلقيه تنبثق عن شعور عميق بالمسؤولية: مسؤولية الأمانة الإلهية في هذه الحياة، ومسؤولية استخلاف الإنسان في

---

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات – ص٤ – وانظر آيات الله في الآفاق ص٧٧ وكتاب التوحيد ص٤١ – عبد المجيد الزنداني والإسلام في عصر العلم محمد أحمد الغمراوي – ص٣٩٧ والكون والإنسان – الدكتور صادق قنيبي – ص٩٧.

(٢) الإنسان القرآني – ص١١.

(٣) الإسلام وقوانين الوجود – ص٩٥.

هذه الأرض)[1] وهكذا فإن هذا الكون على اختلاف آياته وتناسق غاياته وتناغم أهدافه وتكامل ذلك كله شاهد على أن خالقه ومدبره واحد هو الله لا إله إلا هو، وحد أصل هذا الكـــون، ونـــوع صـــوره ليشهد العقلاء قدر عظمته وحكمته – تعالى – التي اقتضت تسخير كل ذلك للإنسان وجعل من ذلك كله آيات دالة عليه – سبحانه وتعالى-.

يقول الشيخ "سيد قطب" – رحمه الله -: (وهكذا يجد المسلم نفسه مع كون صديق مساعد، أليف، خلقه، ويسر له ما يكفله ويقوته ويعينه .. وليس هذا فحسب، بل إن بينه وبيـــن لحمة قرابة ونسب عريق. إن الأرض كانت رتقاً مع السماء. ومن الأرض نشأ هو وإليها يعود. فهو مع الأرض مع الكون كله ذو نسب عريق، وهناك وحدة في أصل الخلق، ووحدة في نظام الخلق، تزيد هذا النسب عراقة).[2]

وما دام الإنسان يشعر بقوة ترابط بينه وبين هذا الكون المسخر له فإن ذلك حتماً يقوي صلته بمسخر هذه المخلوقات والمتفضل عليه بهذه النعم الجليلة.

يقـــول الأســـتاذ "محمد المبارك": (إن هذه الصلة لها جوانب ومعان متعددة وهذه بعض منها:

(١) فهي اعتراف بالخالق، خالق الإنسان والكون والمبدع أيضاً للسنن التي يخضع لها الإنسان والكون.

(٢) الاعتراف بعظم قدرة الله وعظيم سلطانه وقوته.

(٣) الاعتراف بنعم الله على الإنسان.

(٤) الشعور والترقب لرحمة الله المبسوطة لمخلوقاته والممنوحة لعباده، ورجاء نوالها والأمل في شمولها له.

(٥) الشعور بمسئوليته أمام الله خالقه ومالك أمره.

(٦) توجه إلى الله بالسؤال والدعاء.

---

(١) نظرة الإسلام العامة إلى الوجود – محمد المبارك – ص١٨.

(٢) مقومات التصور الإسلامي – ص٣٤٦.

(٧) حـــب الله لأنـــه مصـــدر الوجود ومصدر النعم ومصدر الرحمة العامة في الكون وابتغاء مرضاته).[١]

يقـــول الأستاذ "محمد المبارك": (ليس في الوجود شعور أجمل وأروع من شعور الإنســـان أن الله خـــالق الكـــون كله يبادله حباً بحب وذكراً بذكر وقرباً بقرب ورضى برضى).[٢]

ويقـــول الشـــيخ "عـــبد المجيد الزنداني": (وإذا كان الله قد سخر للإنسان ما في الســـموات وما في الأرض، فإنما ذلك ليسخر الإنسان هذا كله في طاعة الله – سبحانه وتعالى –).[٣]

وهكـــذا ينتهـــي هذا الفصل وبالانتهاء منه نكون قد انتهينا من الباب الأول والذي توصلنا من خلاله إلى أن جميع الأدلة قد أثبتت بل وأكدت بأن للكون إله يستحق العبادة وحده دون سواه وتلك غايته – عز وجل – في الكون.

ولكـــن الماديـــن قد خالفوا هذا المنهج الرباني وخرجوا على العالم بآلهة مادية، وغايـــات ماديـــة، ودعـــوا الناس إليها، وجندوا في سبيل ذلك كل وسائلهم الشيطانية. وشرح ذلك في الأبواب التالية.

***

(١) انظر نظام الإسلام في العقيدة والعبادة – ص٦٨ – ٦٩.

(٢) المرجع السابق – ص٧٣.

(٣) الإيمان – ص٨٥.

الباب الثاني

الماديـــون وأنواعهـــم

- تمهيد (١).
- (تمهيد (٢).
- الفصل الأول : العلمانيون.
- الفصل الثاني : الشيوعيون.
- الفصل الثالث : أصناف أخرى.

تمهيد (١) :

الماديون : هم أصحاب المذاهب المادية، والمذهب المادي هو (المذهب الذي يفسر كل شيء بالأسباب المادية).[١]

أي: بالأسباب الحسية والمشاهدة، وهذا يعني أن كل حسي مادي مشاهد هو في تصور هؤلاء الماديين موجود وما كان غير ذلك فهو غير موجود وعلى هذا الأساس قامت معرفتهم، ولذلك فقد أصبحت الحواس أو الآلات العلمية – التي يستطيع بها الإنسان إدراك الأشياء الدقيقة – هي الوسيلة الوحيدة التي توصلهم إلى المعرفة – كما يتصورون –.

هذا هو الأساس الذي بنى عليه الماديون منهجهم المادي ويرون بأن ذلك هو المنهج الصحيح الذي لابد وأن يطبق على جميع الأشياء بما فيها الإنسان.

إن تأثر هؤلاء الماديون بالمحسوس جعلهم يفسرون الكون تفسيراً مادياً بحتاً، فهم لا يرجعون شيئاً منه للإرادة الإلهية ولا للعلم الإلهي، بل يفسرون كل مظاهر الحياة تفسيراً مادياً ولا حكم إلا للتجربة العلمية فكل ما تقول به هو الحق، وكل مالا تدركه الحواس من المجردات عن المادة وما هو ليس من نفس المادة ليس له وجود. ولذلك نسب الماديون الفاعلية في الكون إلى المادة أو الطبيعة، ولم تكن هذه النظرة المادية حديثة العهد بل هي موجودة منذ القدم وقد كان لها دعاتها في العهد القديم والعصر الحديث (فالتعبد للمادة ليس سنة الماديين المحدثين فحسب، بل هو سمة أسلافهم أيضاً)[٢] ممن عرفهم التاريخ وكان لهم أكبر الأثر في الاتجاهات الفكرية المادية الحديثة والمعاصرة ومن هؤلاء السوفسطائيين[٣]، و "الرواقيين[٤]، و "الأبيقوريين[٥]، ولهذا نجد الإمبراطور "مارك أنطونين" أحد أعلام الرواقيين يقول: (إنني إنما أتكون من

---

(١) المعجم الفلسفي – الدكتور جميل صليبا – ج٢ – ص٣٠٩.

(٢) الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية – الدكتور يحيى هاشم فرغل – ص١٠٣.

(٣) هم جماعة سموا أنفسهم بهذا الاسم ومعناه الحكماء ولكنه أصبح بعد ذلك دليلاً على المغالطين والمجادلين بالباطل لأنهم مارسوا الجدل بقصد المغالطة (تاريخ الفلسفة اليونانية – ولترستيس – ص٩٧).

(٤) ينسب هؤلاء الفلاسفة إلى المدرسة التي أسسها زينون الرواقي – ٣٤٠ – ٢٦٥ ق – م – وقد كان يعلم أصحابه في رواق مزخرف في أثنيا فسموا بالرواقيين (تاريخ الفلسفة اليونانية – ولترستيس – ص٢٧٩).

(٥) ينسب هؤلاء الفلاسفة إلى المدرسة التي أسسها أبيقور – ٣٤١ – ٢٧٠ ق – م (تاريخ الفلسفة اليونانية – ولترستيس – ص٣٨٧).

صورة ومادة، كلاهما لا يمكن أن يعدم إلى لا شيء أو يكون قد حدث من لا شيء. كل ما يلائمك أيها الكون الفسيح يلائمني. وكل ما تنتجه أسبابك أيتها الطبيعة العظمى ثمرة شهية عندي، منك كل شيء، وفيك كل شيء).[١]

يقول الأستاذ "جمال الدين الأفغاني": (أثبت ثقات المؤرخين أن حكماء اليونان انقسموا في القرن الرابع والثالث قبل المسيح إلى فئتين).[٢]

ثم ذكر بأن الفئتين هما المتألهون والماديون وقال: بأن فئة الماديين (ذهبت إلى نفي كل موجود سوى المادة والماديات، وأن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئاً وراءه).[٣]

وهكذا فإن الفكر المادي ليس (شيئاً جديداً، ولا معنى لتصوره إحدى نتائج التطور العلمي الحديث، وأنه وجد في القرنين الأخيرين – مثلاً – كباقي النظريات العلمية التي لم تكن معروفة من قبل ثم توصلت البشرية إلى مضمونها أخيراً. كلا فالاتجاه المادي لا يختص بالقرون الأخيرة – قطعاً بل يعتبر من الأفكار القديمة جداً إذ نلاحظ في الفلسفة أن الكثير من فلاسفة اليونان القدماء قبل عصر "سقراط"[٤] ونهضته الفلسفية كانوا ماديين منكرين لما وراء المادة).[٥]

ومن المجتمع اليوناني انتقل التأثر بالمادة إلى المجتمع الروماني ومنه إلى العصور الوسطى ثم تفجرت المادية بصورتها التي عرفت بها في العصور الحديثة.

جاء في كتاب "بين الدين والمدنية" أن المدنية الرومية كانت (نموذجاً مثالياً للمدنية الحسية والمادية وطرازها وهي التي تجلت فيها فلسفة الأخلاق والاجتماع الحسية، وهدف الحياة المادي، الذي كانت الحياة تدور حوله في أروع أشكالها، وقد خلَّفت روما هذه الأفكار والعلوم والفلسفة المدنية والحضارة كتراث ورثته أوربا التي خلفتها في

---

(١) الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية – الدكتور هاشم فرغل – ص١٠٣.

(٢) الرد على الدهريين – ص٣٨.

(٣) المرجع السابق – ص٣٨.

(٤) ولد سقراط في أثينا حوالي سنة ٤٧٠ ق.م – وتخصص في الفلسفة واعتبرها رسالته في الحياة أتهم في نحو سن السبعين بإنكار آلهة اليونان، والدعوة إلى آلهة جديدة، وأنه يفسد عقول الشباب فحكم عليه بالإعدام فأعدم (الملل والنحل – الشهرستاني – ج٢– ص٨٣).

(٥) الدوافع نحو المادية – مرتضى المطهري – ص١٧.

القـــرون الوسطى)[1] ونقسم الماديين تجاه قضية وجود الخالق – سبحانه وتعالى – إلى ثلاثـــة أقسام ليتضح لنا من خلال هذا التقسيم أن الفكر المادي أساسه قديم وآثاره ممتدة إلى عصرنا الحاضر.

القسم الأول منه: ينكر وجود الخالق – سبحانه وتعالى – وهؤلاء قد أخبر الله – تعالى – عنهم فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.[2]

القســـم الثانـــي: يعترف بوجود إله ولكنهم يؤمنون به في صورة حسية ملموسة، على شـــكل وثن أو صنم، وهذا متمثل في المجتمع المادي الوثني الذي تكثر فيه الآلهة بصورٍ وأشكال مختلفة.

يقـــول الله – سبحانه وتعالى – عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾.[3]

ولمـــا كانـــت تلك الوثنية المتقدمة متمكنة من نفوس الجاهليين تعجبوا من دعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – لهم إلى إله واحد فكذبوه وأتهموه بالسحر والكذب.

القسم الثالث: ويظهر ذلك الصنف في الماديين ممن أكرمه الله – تعالى – بالرسالات السماوية ولكنهم عبثوا بها وأنحرفوا عن الحق ونزعوا إلى الشرك والتجسيد والتشبيه، وهؤلاء هم اليهود الذين قالوا: "عزير بن الله" والنصارى الذين قالوا: "المسيح بن الله" ولقد تحدث القرآن – الكريم – في الكثير من الآيات عن نزعة هؤلاء المادية فقال – تبارك وتعالى –: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ

---

(١) أبو الحسن الندوي – ص٤٩.

(٢) سورة الجاثية – آية ٢٤.

(٣) سورة نوح – آية ٢٣.

حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [1] وقال -تعالى- فيهم أيضاً: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾[2] كذلك ومما يظهر مادية هؤلاء اليهود أنهم عندما رأوا قوماً يعبدون الأصنام طلبوا من موسى -عليه السلام- أن يصنع لهم صنماً يعبدونه، فقال الله -تعالى- فيهم: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.[3]

ولقد صنع لهم "السامري" من الحلي عجلاً له خوار لكي يكون لهم إلهاً يعبدونه.

ولذلك قال الله – تعالى – فيهم: ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾.[4]

من خلال ما تقدم يظهر لنا أن الفكر المادي موجود من قبل البعثة ولقد كان منهج الماديين وطريقتهم في التفكير واحده، وقد كان ذلك صفة ملازمة لهم ولم تختص بها طائفة دون الأخرى بل جميعهم في ذلك سواء وإن اختلف بهم الزمان والمكان، ولقد كشف القرآن – الكريم – عن سريرتهم تلك في أوضاع متعددة ومختلفة، منها قوله -تعالى- في المشركين الذين رفضوا أن يؤمنوا بالله -تعالى- ورسوله إلا بأدلة حسية فقال – سبحانه وتعالى -: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا

---

(١) سورة البقرة – آية ٥٥.

(٢) سورة التوبة – آية ٣٠.

(٣) سورة الأعراف – الآية ١٣٨.

(٤) سورة طه – الآيتان ٨٧ – ٨٨.

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.(١)

هـؤلاء هـم الماديون معرفتهم حسية، ومنهجهم وطريقتهم الموصلة إلى المعرفة حسـية ولهـذا فقد جاءت جميع معجزات الأنبياء والرسل السابقين – عليهم السلام – حسـية حـتى تتلاءم وعقلية هؤلاء الماديين، لقد كانت معجزة نوح – عليه السلام – السـفينة، ومعجـزة إبراهيم –عليه السلام– النجاة من النار – ومعجزة موسى –عليه السلام– العصا وغيرها كثير، ومعجزة عيسى – عليه السلام – إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله –تعالى– ومن أجل المنطق المادي الذي يحكم به الماديون على الأشـياء قـدم لهـم القـرآن – الكريم – الأدلة الحسية في إثبات وجود الله –تعالى– ووحدانيـته، بالإضـافة إلـى مـا قدمه من أدلة عقلية تؤكد هذه الحقيقة، ولكن هؤلاء الماديين لا يؤمنون إلا بمعتقداتهم المادية، ولا يعترفون إلا بطرقهم الحسية، ولذلك فقد اسـتبدلوا الأديان الوضعية بالدين الحق الذي بعث الله – تعالى – به الأنبياء والرسل – علـيهم السـلام – ولقـد سجل القرآن – الكريم – أقوالهم التي تشهد بحقيقتهم المادية ورفضـهم وإنكـارهم لدين الله – تعالى – فقال عز وجل: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (٢) وقـال –تعالى–: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.(٣)

هـذا هـو دأبهم في الحياة الدنيا، وهذه هي سنتهم التي لا يحيدون عنها ولذا فلا عجب إذا وجدنا وعلى فترات من التاريخ المتعاقبة، وفي مختلف الأمم والشعوب. وبين الحيـن والحيـن. ظهـور تلك المعتقدات الدينية المادية تحت شعارات براقة، وأسماء مختلفة، وفي مجالات متعددة، ولكنها في أصولها وموضوعها ومنهجها لا تختلف فهي تنـبع مـن مصـدر واحد وتسعى لتحقيق غاية واحدة وإنني في هذه العجالة من هذه

---

(١) سورة الإسراء – الآيتان ٩٠ – ٩٣.

(٢) سورة البقرة – الآية ١٧٠.

(٣) سورة الزخرف – الآية ٢٣.

الرسالة سأذكر – كمثال على ذلك – البعض من هؤلاء الماديين الذين يمثلون كبرى المذاهب المادية والتي كان لها آثارها السيئة على المجتمعات الإنسانية عامة.

ومن هؤلاء الماديين سأذكر، العلمانيين، والشيوعيين، والوجوديين، والطبيعيين، والوضعيين، وجميع هؤلاء تقوم مذاهبهم على أساس مادي بحت، إنهم يقدسون المادة، أو الطبيعة، أو العقل ويحلونها محل الإله ويعطونها صفة الألوهية.

أما العلمانيون فيدخلون في جملة هؤلاء الماديين لكونهم ينادون بفصل الدين عن الدولة، ويدعون إلى قيام نظام الدولة على أساس مادي وهكذا فإن جميع هؤلاء الماديين يجمعهم القول بأن الدين لا شأن له بأمور الحياة على الإطلاق ويعتمدون على المنهج الوضعي المادي في جميع مجالات حياتهم.

أحب أن أشير هنا إلى أن هؤلاء الماديين لا تعنينا فيهم الأسماء وإنما الذي يعنينا فيهم ما يحمله هؤلاء من أفكار مادية أقاموا عليها مذاهبهم المادية، وقد كان لذلك أثره البالغ الخطورة على البشرية بل إن ما تعانيه الإنسانية من بؤس، وشقاء، وحروب، ودمار، ما هو إلا نتيجة لتلك الأفكار الإلحادية التي روج لها أصحاب هذا الفكر المادي، وبثوا سمومها هنا وهناك، فأنقلبت بذلك موازين الحياة وأصبحت على عكس ما يجب أن تكون عليه.

إن هذه الأفكار المادية الإلحادية هي مادة حديثي في هذا الباب بمشيئة الله – تعالى – وسوف يصحب ذلك شيء من الرد حسبما يقتضي الموقف ذلك، أما الرد بشكل عام فقد أفردت له الباب الرابع الذي يتناول الرد على أهم القضايا التي تتعلق بالكون والإنسان والحياة.

***

تمهيد (٢) :

أهم العوامل التي أدت إلى ظهور وانتشار الفكر المادي في العالم الغربي

إن الحديث عن الماديين يقتضي ذكر أهم الأسباب التي هيأت المناخ لنشأة الفكر المادي وانتشاره في ذلك العصر وهي كالتالي:

(١) إنحراف النصرانية:

إن الدين المنزل من عند الله – تعالى – جاء يدعو الناس إلى عقيدة واحدة دعت إليها جميع الرسالات السماوية وهي غير قابلة للتغيير والتبديل. قال –تعالى–: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.(١)

وقال –تعالى– عن "عيسى" –عليه السلام–: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.(٢)

لقد كانت رسالة "عيسى" – عليه السلام – إلى بني إسرائيل رسالة توحيد خالص ليخرجهم بها من الوثنيات والخرافات التي كانوا يعيشون فيها إلى الحق والنور.

---

(١) سورة الأنبياء – آية ٢٥.

(٢) سورة المائدة – آية ١١٦-١١٧.

لقــد قام – عليه السلام – بتلك الرسالة حتى رفعه الله – تعالى – إليه، فحدث ما حدث بعده من تحريف شنيع وتبديل فظيع لهذا الدين السماوي العظيم.

لقــد استمر ذلك التحريف منذ جاء "شاءول" اليهودي بضلالاته، وما يزال التغيير والتبديل مستمراً في سلسلة لا تنقطع سواءٌ كان ذلك في العقيدة أو الشريعة. لقد بدأ ذلك التحريف بالقول بألوهية "عيسى" – عليه السلام – وإعطائه صفة القداسة، وجعل الإله الواحــد ثلاثة أقانيم، وإدعاء بنوة "عيسى" لله – تعالى – والزعم بأنه إله وابن إله، وأنه ثانـــي الثلاثة أو الثالوث المقدس، ثم أضافوا إلهاً ثالثاً هو ما أسموه "الروح القدس" وما يزالون مختلفين حول كنهه وحقيقته.

جاء في كتاب "قصص الأنبياء" (أن جماعة النصارى قد خلقوا لهم عقيدة هي أن الله مركب من ثلاثة أقانيم:

الأب والابــن والــروح القدس وهذه كلها واحدة. فانحدر الله – الذي هو الابن – وحل في مريم وتجسد إنساناً وولد منها وهو "يسوع" إلى آخر ما يقولون وهذا الكلام لم يقله المسيح ولم يعلم به).[1]

وأقــوال المؤرخين التي تشهد بذلك كثيرة منها قول "ويلز" (ولم ير بولس يسوعاً قط).[2]

ويقول "برنتن": (ولم يعرف بولس نفسه يسوع قط بل أن "شاءول الطرسوسي" في الواقــع – كــيهودي أصيل – قد عاون في وقت من الأوقات على اضطهاد مجموعة المسيحيين – أتباع المسيح–).[3]

ويقول "غوستاف لوبون": (فأسس باسم يسوع ديناً لا يفقهه يسوع لو كان حياً).[4]

لقد استمر ذلك التحريف (حتى إذا وافى القرن الرابع من الحقبة النصرانية وجدنا المجتمعات النصرانية بأسرها في حالة من الهياج والسخط بسبب الجدل الملتوي الخداع حول طبيعة الله).[5]

---

(١) عبد الوهاب نجار – ص٤٥٤ وانظر الملل والنحل – الشهرستاني – ج١ – ص٢٢.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية – ص٧٠٦.

(٣) أفكار ورجال – ص١٨١.

(٤) حياة الحقائق – ص ٦٣.

(٥) معالم تاريخ الإنسانية – ويلز – ج٣ – ص٧١١.

ثم تتابعت البدع الواحدة بعد الأخرى مما أدى إلى اختفاء التعاليم الدينية الصحيحة بطريقة خبيثة وماكره.

وبهـذا التحريف الخطير في رسالة المسيح – عليه السلام – بعدت كل البعد عن التوحـيد – الذي جاء به عيسى – عليه السلام – إن لم يكن قد قضي عليها بكل ما هو مجانب للعقل والفطرة.

يقـول "برنتـن": (وقـد امتدت هذه الهرطقات فشملت الجانب الأكبر من السلوك والعقـائد البشـرية ... ونستطيع على أية حال أن نأخذ الجدل النهائي الذي ثار حول العلاقة بين يسوع والإله الواحد – الإله الأب – مثلاً لعصر الهرطقة كله).[1]

ولـم تـنقطع سلسلة الإضافات وصور الشرك حتى قيام "مجمع نيقيه" سنة ٣٢٥ الـذي لم يقم إلا ليناهض "أريوس" الذي أنكر كون الابن إلهاً كالأب ثم انتهى "المجمع" إلـى القول بتأليه يسوع وكان هذا العام (أول تاريخ يتخذ فيه قرار ضد التوحيد ويحكم بألوهـية المسيح)[2] (وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين (أتباع المسيح) قاطبة مؤيدة بسـلطان الامـبراطور "قسطنطين" لاعنة كل من يقول غير ذلك. والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ أسقفاً، ويخالفهم في ذلك نحو سبعمائة وألف أسقف).[3]

وظلت هذه العقيدة المحرفة قائمة إلى اليوم.

(٢) فصل العقيدة عن الشريعة:

لقد عمل "عيسى" – عليه السلام – جاهداً لإقامة حكم الله – تعالى – وتطبيقه في حـياة الـناس الذيـن أرسل إليهم لإصلاح مسار حياتهم وإخراجهم من الظلمات التي يعيشون فيها إلى نور التوحيد. ولكن شاءت حكمة الله – تعالى – أن يرفع إليه قبل أن يقـيم الدولة التي تحكم بشريعة الله لأن دعوته – عليه السلام – كانت في بداية أمرها، وبعـد أن رفـع – علـيه السلام – حرف النصارى دينهم فأخرجوه عن المعنى الذي يقصـده نبيهم – عليه السلام – ومن تلك التحريفات التي أدخلها النصارى على دينهم

---

(١) المرجع السابق – ج٣ – ص٧٠٩.

(٢) المسيحية (النصرانية) الدكتور أحمد شلبي – ص١٤٥ وانظر الإعلام – الإمام القرطبي – ص٢٤.

(٣) النصرانية – محمد أبو زهرة – ص١٥١.

المحرف (النصرانية) تحريفهم لقول "عيسى" – عليه السلام – حين سأله الفريسيون عن جواز إعطاء الجزية لقيصر أم لا ؟ فقال لهم بعد أن طلب منهم العملة التي يدفعون بها الجزية وقد ظهر على أحد وجهيها صورة لقيصر: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

لقد أتخذ النصارى هذه المقولة حجة لهم لفصل الدين عن الدولة، مع أن "عيسى" – عليه السلام – إن كان قد قالها حقاً فإنما يقصد أنه لم يحن الوقت المناسب لمقاتله قيصر، ولا يمكن أن يكون قد أراد المعنى الذي تدعيه الكنيسة من فصل الدين عن نظام الدولة، لأن "عيسى" – عليه السلام – ما هو إلا رسول من عند الله وهذا المعنى (فصل الدين عن الدولة) يناقض رسالة التوحيد التي جاء بها – عليه السلام – والقرآن يشهد له بأنه قد دعى إلى التوحيد الخالص لله – تعالى–.

فقال – عز وجل – على لسان "عيسى" – عليه السلام –: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.(١)

هذه هي دعوة "عيسى" – عليه السلام – ولا يمكن لنبي مرسل من عند الله – تعالى – أن يقسم العالم إلى قسمين ويعطى ما هو ملك وحق لله – تعالى – في الحكم والتشريع لغير الله، بل الكنيسة هي التي فسرت هذه المقولة بفصل الدين عن الدولة واعتبار الدين مجرد علاقة بين العبد وخالقه، ولا شأن للدين بنظام الحياة.

وهكذا سارت حياة الناس تحكمهم ديانة محرفة (النصرانية) وعندما سيطرت الكنيسة لم تغير من هذا الوضع شيئاً ولم تقم بإرشاد الناس إلى دين الله الصحيح بل استمرت في حكمها وسيادتها محتفظة بتلك السيادة لنفسها لتحقيق أطماعها الشخصية واستخدمت من أجل تحقيق ذلك كل أنواع الطغيان في جميع مجالات الحياة وبيان ذلك كالتالي:

---

(١) سورة المائدة – آية ١١٧.

(٣) طغيان الكنيسة:

الكنيسة هي المقر أو المعبد الذي يتعبد فيه النصارى ويقيمون فيه طقوسهم الدينية، وأعضاؤها هم البابوات والقساوسة و "الوعاظ" وجميعهم مقدسون، وهذه القداسة ابتدعوها من عند أنفسهم ولم ينزل بها الله من سلطان، ولقد أعطوا لأنفسهم تلك الصفة المقدسة زيادة في فرض سلطانهم وسيطرتهم على الملوك والناس من أجل تحقيق منافعهم الشخصية، ولقد مارست الكنيسة صوراً عديدة من الطغيان من أهمها:

(أ) الطغيان الروحي:

لقد انحرف النصارى بدينهم عن المسار الصحيح الذي جاءهم به "عيسى" – عليه السلام – فقد أدخلوا فيه مفاهيم جديدة مقتبسة من مصادر وثنية قديمة لم ينزل الله – تعالى – بها من سلطان وسموا ذلك ديناً وجعلوا تعاليمه والتي أصبحت غير مفهومة لدى الناس أسراراً أتخذت الكنيسة لنفسها حق فهمها وتفسيرها لمصالحها الشخصية، أما غيرها فلا يحق لهم مناقشة تلك الأسرار أو السؤال عنها، ونتيجة لهذا الغموض الذي يحيط بهذه العقيدة النصرانية أعطت الكنيسة لنفسها الحق في منح المغفرة لمن تشاء، وحرمانها عمن تشاء، وكذلك الأمر بالنسبة لمن أراد التوبة فليس له طريق إلا اللجوء إلى الكنيسة والجلوس أمام القسيس والكاهن والاعتراف له بذنوبه "ويسمى ذلك عندهم (بكرسي الاعتراف) وكرسي الاعتراف، وعقيدة التثليث، وغيرها مما أدخله النصارى على دينهم حرمت الكنيسة مناقشتها ومن يسأل عن ذلك أو يحاول مناقشته تسميهم الكنيسة "هراطقة" – أي خارجين عن الدين – ويتعرض هؤلاء للحرمان والطرد من رحمة الله – حسب ما تقول بذلك الكنيسة – وهكذا فقد أعطت الكنيسة لنفسها حق المغفرة، وحق الحرمان كيفما تشاء، ولقد شقي بذلك أفراداً وشعوباً وكل ذلك تفعله الكنيسة خشية أن تنكشف حقيقتها، وحقيقة تعاليمها المزيفة.

يصف "ويلز" حالة الكنيسة هذه فيقول: (وفي القرن الثالث لم تعد الكنيسة تشعر بالاطمئنان بل أصبحت في قلق قاتل تجاه تلك الشكوك التي تنخر بناء مدعياتها وقد

تجعلـــه أثـــراً بعد عين. ولهذا كانت تتصيد الهراطقة في كل مكان كما تبحث العجائز الخائفات عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الهجوم إلى فراشهن).[1]

(ب) الطغيان السياسي:

لقد شقيت أوربا بالكنيسة لا سيما وقد أزداد سلطانها وجبروتها عندما جعلت البابا خلـــيفة المســـيح فـــي الأرض فهو ومن يوليهم لهم حق وسلطان مقدس، ولقد فرضوا سلطانهم حتى على الأباطرة أنفسهم وذلك عندما أصدر البابا "نقولا" الأول بياناً قال فيه: (إن ابـــن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول "بطرس" أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثوا سلطان بطرس واحداً بعد واحد في تسلسل متصل ثم استنتج من هاتين القضيتين اســـتنتاجاً لا يقـــبله العقل وهو أن البابا يمثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له الســـيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين – النصارى – حكاماً كانوا أو محكومين في شئون الدين والأخلاق إن لم تكن في جميع الشئون).[2]

إن هذا السلطان السياسي الذي نالته الكنيسة لم يستخدمه البابوات ورجال الكنيسة فـــي تطبيق حكم الله في الأرض ولكنهم استغلوا هذه السلطة السياسية في سبيل تحقيق مـــنافعهم الشخصـــية ولذلـــك أدعت الكنيسة بأن لها سلطة زمنية على أرواح وعقول وأجســـاد البشـــر، ولقـــد بالغت في هذا السلطان حتى وصل بها الأمر إلى حد القسوة والوحشية عندما جعلت ذلك السلطان قوة متسلطة على رقاب أفراد الشعب وأباطرتهم، ولـــم يكـــن يهم رجال الدين والبابوات من ذلك إلا إثبات قوة الكنيسة وهيبتها حتى ولو كان ذلك يسبب كراهية الشعب لهم والحقد عليهم.

لقـــد أعطى رجال الدين لأنفسهم السلطة المطلقة فحاربوا وأراقوا الدماء من أجل إخضـــاع الـــناس وملوكهم لهم وتقديم ولاء الطاعة لهم والامتثال لأوامرهم، وكانوا لا يســـمحون بأســـئلتهم أو مناقشتهم في شيء بل يعتبرون ذلك مخالفة لهم ولا يتسامحون فيها، ولم يكن ذلك لأنهم على ثقة بعقيدتهم وما تحتويه من أفكار، بل لأنهم في ريبة من ذلـــك، ولأنهم غير واثقين مما يقولون، ولإجبار الناس على موافقتهم في رأيهم فرضت

---

(١) انظر معالم تاريخ الإنسانية – ج٣ – ص٩٠٢ – ٩٠٣.

(٢) قصة الحضارة – ول ديورانت – ج٤ – ص٤٢٩.

الكنيسة سلطاناً قاسياً حتى على الملوك والأمراء، ولم يكن ذلك من أجل خدمة الدين – الـذي أمـر بـه الله – وتطبيق شريعته بل كان ذلك من أجل مصالح رجال الكنيسة، ولإظهـار عظمـة بابواتها ولكي تتمكن أكثر من رقاب أفراد الشعب وملوكهم وفرض طغـيانهم الروحي والمالي عليهم. ولذلك لم يعد هناك ملك يجرؤ على مخالفة البابا بل كان الملوك آلة طيعة في يد البابا يحركها كيف يشاء، ولكي تضمن طاعتهم المطلقة لها وعدم الخروج عليها أعدت جيشاً لملاحقة العصاة منهم وتأديبهم، وأذكر هنا على سبيل المثال حادثة الإمبراطور الألماني "هنري" الرابع والمشهورة لدى الكثير من المؤرخين، يذكـرها "ول ديورانت" في "قصة الحضارة" فيقول: (حدث نزاع عظيم بين "هلد براند" والإمبراطور المنتخب "هنري" الرابع على مسألة التعيينات فحاول الإمبراطور أن يخلع الـبابا، فحـرم الـبابا الإمـبراطور، وأحـل اتباعه الأمراء من ولائهم له. واضطر الإمـبراطور أن يذهب تائباً إلى البابا في "كانوسا" وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش وهو حافي القدمين في الثلج في فناء القلعة).[1]

لقـد أسـاء رجـال الكنيسة وبابواتها استخدام السلطة، فكانت تصرفاتهم تعسفيه، وحكمـوا الشـعب بغير ما أنزل الله – تعالى – مما أثار سخط الناس عليهم، وغضب العلمـاء والمفكريـن والملـوك وأصـبحت رغبتهم هي التخلص من سلطان الكنيسة وسـيطرتها علـيهم ومـن ظلمهـا وإذلالها لهم، والتخلص من الدين الذي تدعو إليه، والتحرر من قيوده التي فرضتها عليهم.

(ج) الطغيان المالي والفساد الأخلاقي:

إن الكنيسة لم تكتف بالقهر والتسلط الروحي الذي تمارسه على الناس بل استغلت ذلـك السـلطان أسـوأ اسـتغلال ودفعها جشعها وحبها للمال إلى ابتزاز أموال الناس لمـنافعها الشخصـية وقـد استخدمت في سبيل ذلك مختلف الوسائل ففرضت العشور والضرائب بصورٍ مختلفة وتحولت إلى إقطاعية كبيرة.

---

(١) ج٤ – ص٤٠٠ وانظر معالم تاريخ الإنسانية – ويلز – ج٣ – ص٩١٠.

إن ممـــا يدعو إلى الدهشة والاستغراب كيف تفعل ذلك الكنيسة وهي التي تدعو إلى الزهد والتقشف والكفاف في العيش؟

يقـــول "ويلـــز": (لقد قضت مشروعات البابوية السياسية بأن يزداد البابوات طلباً للمـــال علـــى الأيام. وشاع بين الناس في كل مكان إبان القرن الثالث عشر القول بأن رجال الدين ليسوا بالرجال الطيبين وأنهم لا يفتأون يتصيدون الأموال).[1]

ولقـــد بلـــغ الجشع وحب المال بالكنيسة إلى الاستهانة والاستخفاف بعقول الناس عندما أوهمتهم بأنها سوف تتعهد لهم بمغفرة الذنوب والتجاوز عن كل خطيئة وضمان الجنة لهم مقابل شرائهم صكوك الغفران وهي تعلم أنها لا تملك شيئاً من ذلك.

جـــاء في كتاب "معالم تاريخ الإنسانية" (وكانت خاتمة حماقاتها في القرن السادس عشـــر بـــيع "صـــكوك الغفران" التي بها يمكن افتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية).[2]

إن هـــذه البدعة التي جاءت بها الكنيسة ما هي إلا دعوة إلى التحلل والإباحية إذ يمكـــن للفرد أن يأتي بالمعصية مهما كان نوعها وحجمها ولا يكلفه ذلك سوى الذهاب إلى الكنيسة والاعتراف بذنبه ثم يشتري من صكوك الغفران، فتضمن له الكنيسة مغفرة ذلك الذنب ودخول الجنة.

إن هذه البدعة قد أدت إلى التهاون بالمعتقدات. كما وأن هذه الثروات الطائلة التي جمعـــتها الكنيسة بطرق غير مشروعة قد أدت إلى وجود الفساد الأخلاقي في الكنيسة وانتشار الرذيلة بين البعض من رجالها.

ولقـــد كـــان "ويلز" من جملة المؤرخين الذين كتبوا عن ذلك فقال: (وللمرة الثانية صـــدرت عن "فرد ريك" رسالة قاضية كتبها ضد الكنيسة، صار لزاماً على الناس أن يتذكروها. رسالة شهر فيها بكبراء رجال الدين وانعدام التدين فيهم، وعزى كل مفاسد الـــزمان إلـــى استكبارهم وثرائهم واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة

---

(١) تاريخ معالم الإنسانية – ج٣ – ص٨٩٥.

(٢) ويلز – ج٣ – ص٩٠٥ – ٩٠٦.

مصادرة عامة – لخير الكنيسة نفسها فكانت تلك منه إشارة لم تبارح بعد ذلك أبداً أخيلة الأمراء الأوربيين).[1]

يقـول الدكـتور "أحمد شلبي" نقلاً من المجلة النصرانية "رسالة الحياة": (الأديره تحـتوي علـى فساد عميق، وهيهات أن يوجد بها من يصلح للبقاء، إذا أنها تضم بين جدرانها أفاقين أولى بهم غيابات السجون).[2]

(د) الطغيان العلمي وظهور محاكم التفتيش:

لـم ينتهـي الأمـر بالكنيسة بفرض سلطانها وسيطرتها على الأرواح والأموال وممـتلكات الـناس بل تعدت ذلك وفرضت سلطانها حتى على العقول والأفكار وذلك خوفاً منها على كيانها الهش من أن يتصدع وينهار أمام الدين الحق المنزل من عند الله – تعـالى – والقادم من بلاد المسلمين، وأمام الاكتشافات العلمية وما تحمله من حقائق تكشف زيف وبطلان النظريات العلمية التي تبنتها الكنيسة وألزمت الناس بها بحيث لا يجوز لأحدٍ منهم الخروج عن الدين.

يقـول "ويلـز": (إن "ويكلييف" القسيس الإنجليزي شهر بمبادئ الكنيسة المتعلقة بـالقداس ناعتاً إياها بأنهـا خطـأ ذريع، ولقد كان لذلك عظيم الأثر في نفوس الناس، ففـي (١٣٩٦) ألقى عالم تشيكي اسمه "جون هس" سلسلة من المحاضرات في جامعة "بـراج" تقـوم علـى مبادئ المعلم الأكسفوردي العظيم، فأثارت تعاليمه الكنيسة حتى أصـدرت علـيه قـرار الحرمان (١٤١٢) ثم قضي باحراق عظم "ويكليف" واستدرج "هـس" حـتى ذهب إلى "كونستانس" منخدعاً بوعد منهم يضمن له سلامته، ولكنه قدم للمحاكمـة بتهمة الزندقة، وأمروه بسحب بعض آرائه ولكنه رفض إن لم يقنعوه بذلك فـأراداو إجـباره على ذلك فأبى فأحرق حياً (١٤١٥) بالرغم من ضمان الإمبراطور لسلامته. وفي السنة التالية أحرق زميل "لهس" هو "جيروم البراجس").[3]

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية – ج٣ – ص٨٩٩.

(٢) المسيحية – النصرانية – ص٢٤٧.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية – ج٣ – ص٩٧٧ – ٩٧٨.

ويقول "ول ديورانت": (وفي عام ٨٩٧ أمر البابا "استيفن السادس" بأن تخرج جثة البابا "فورموسوس" (٨٩١ – ٨٩٦) من قبرها، وترتدي الملابس الأرجوانية، وتحاكم أمام مجلس كنسي بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة، ثم يحكم بإدانتها، وتجرد من ثيابها الكهنوتية، وتبتر بعض أعضائها وتلقى في نهر تيبر).[١]

ثم تواصلت اضطهادات الكنيسة لكل من يخالف تعاليمها أو يكون ضدها ولهذا عندما قام "كوبر نيوكس"[٢] بأول تحليل واضح لحركات الأجرام السماوية وأبان أن الأرض تدور حول الشمس، ثم جاء "جاليليو"[٣] وأنشأ أول مرصاد "تلسكوب" وطور آراء "كوبر نيكوس" الفلكية ولكن الكنيسة اعترضت ذلك وقررت أن الاعتقاد في أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى منها مرتبة لا يجعل للإنسان والمسيحية – النصرانية – وزناً. لذلك أجبرت "جاليليو" على التراجع عن آرائه وإرجاع الأرض إلى مكانها الأول كمركز ثابت للكون لا يتحرك وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع لمدة ثلاث سنوات).[٤]

واشتد الصراع بين الكنيسة ورجال العلم، أنهزم فيه الدين النصراني وحطمت الاكتشافات العلمية النظريات الكنسية، ولكن الكنيسة قابلت ذلك بالاضطهاد الشديد والتنكيل البشع في ما يسمى "بمحاكم التفتيش" التي أنشأتها الكنيسة خصيصاً لمحاكمة المخالفين لتعاليمها، ولقد كان أعضاء هذه المحاكم الرهبان الذين يقومون بالتفتيش واكتشاف المخالفين للعقيدة النصرانية ولقد كان لهم سلطة كبيرة في كل ما يقومون به ولهذا نظمت هذه المحاكم (كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمجابهة الضمير الإنساني بالنار والعذاب وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد في السيادة على العالم... فكان كبار رجال الكنيسة يقفون في مئة

---

(١) قصة الحضارة – ج٤ – ص٣٧٧ – ٣٧٨.

(٢) كوبرنيوكس – ١٤٧٣ – ١٥٤٣ مؤسس علم الفلك الحديث ولد في بولندا (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص ٢٤٣).

(٣) جاليليو – ١٥٦٤ – ١٦٤٢ عالم فلك وطبيعة ورياضي إيطالي مؤسس الميكانيكا الحديثة (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٢٤٤).

(٤) انظر معالم تاريخ الإنسانية – ويلز – ج٣ – ص١٠٠٧ – ١٠٠٨ وتاريخ القرن الثامن عشر – ماتيو اندوسون – ص٤٢٧.

ســـاحة من ساحات الأسواق في أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها – وهم في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم – تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة).[1]

إن الأساس الذي قامت عليه محاكم التفتيش هو الاضطهاد الديني، والقضاء على حـــرية الفكـــر بشـــتى أنواع التعذيب والتنكيل، وهذا مما يؤكد شدة خوف الكنيسة من انكشـــاف حقيقة ما تدعو إليه من زيف وأباطيل، ولهذا فقد كانت تحكم بإنهاء وتصفية كـــل مـــن يصل إلى مسامعها بأنه خارج على الدين أو مخالفاً لها، ولهذا فقد كان أكثر ضـــحاياهم الأبرياء من المسلمين وغيرهم، لقد كان هؤلاء يقدمون إلى "محاكم التفتيش" دون شفقة أو رحمة، فتنزل بهم أبشع الجرائم، وأقسى العقوبات.

وفـــي هـــذا يقول "جلال العالم": (وكانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض، بهـــا غـــرف خاصة للتعذيب، وآلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشري. وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً، حـــتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، وكان لدى المحكمة آلات تعذيبية أخرى، منها آلة على شكل تـــابوت فـــيه سكاكين حادة، يلقون الضحية في التابوت ثم يطبقونه عليه فيتمزق جسمه إرباً وآلات الكلاليب في لسان المعذب، ثم تشتد فتقصه قطعة قطعة.... وصور أخرى تتقزز منها النفوس وتشمئز لذكرها).[2]

(٤) حركة الإصلاح:

فـــي القرن السادس عشر ظهر "لوثر"[3] ثم "كالفن"[4] اللذان ظهرت على أيديهما حركة الإصلاح البروتستانتينية، والتي نادت بإصلاح الأخطاء التي وقعت فيها الكنيسة والتـــي لـــم تكن موجودة في الكتاب المقدس، كما نادت هذه الحركة بمحاربة صكوك الغفـــران، كوســـائل للرق والعبودية، ومحاربة سلطة البابا (وبحركة "لوثر" و "كالفن"

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية – ويلز – ج٣ – ص٩٠٩.

(٢) قادة الغرب يقولون – ص١٣ – ١٤.

(٣) لوثر – ١٤٨٣ – ١٥٤٦ – مؤسسة المذهب البروتستانتي وهو من أشهر زعماء حركة الإصلاح (الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ص٢٥٠).

(٤) كالفن – ١٥٠٩ – ١٥٦٤ – لاهوتي فرنسي من رجال الإصلاح الديني (الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ص٢٥٠).

الإصـــلاحية، تعرضـــت النصرانية للجدل الفكري وأصبحت موضوعاً للنقاش العقلي والمذاهب الفلسفية)[1] ولكن كل ما أحدثته حركة الإصلاح هو إنقسام أوربا إلى إمارات بينما التحريف الذي أدخلته الكنيسة على الدين المنزل على "عيسى" – عليه السلام – لم يـــنظر إلـــيه، ولـــم يبحث فيه، ولم يُغير فيه شيء، وهذا يدل على أن معظم حركات الإصلاح كانت تقصد فساد الكنيسة وليس الإصلاح الديني كما تدعي لأن دوافعها كانت قومية لا دينية.

وبقيـــت تلـــك التحريفات في النصرانية كما هي، وظلت أوربا تعتنق ديناً محرفاً ممـــزوجاً بالوثنيات القديمة، فالعقيدة قائمة على القول بالتثليث، والصلب، والفداء، أما الشـــريعة فلم يحكموا بها إلا قليل لأنهم فصلوها عن العقيدة وكل ذلك وما صاحبه من طغيان روحي وعلمي وسياسي والسلطة المطلقة التي منحها الرهبان لأنفسهم، والفساد الأخلاقـــي المتفشـــي بين رجال الكنيسة، إضافة إلى الفساد الذي كان موجود أصلاً في المجتمع الأوربي، كل تلك الأسباب أدت إلى انحراف هذا المجتمع (الأوربي) وكراهيته للديـــن فوقفـــوا ضده وحاربوه واستبدلوه بوثنية جديدة لا تؤمن إلا بالمادة وبما تدركه الحواس.

وأصـــبح ممـــا لاشك فيه (أن دين أوربا اليوم الذي يملك عليها القلب والمشاعر ويحكـــم علـــى الـــروح هـــو المادية لا النصرانية كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوربـــية واتصل بالأوربيين عن كثب لا عن كتب، بل وعن كتب أيضاً – ولم ينخدع بالمظاهـــر الدينـــية التـــي تـــزيد في أبهة الدولة والتي يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعاً، ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس وحضورهم في تقاليدها).[2]

وهكـــذا تحررت أوربا من سيطرة الكنيسة ومن سلطان الدين ولكنها أقامت على أنقـــاض الكنيسة والدين فلسفة مادية تستمد روحها من الواقع المحسوس، وتنكر كل ما غاب عن الحواس.

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي – الدكتور محمد البهي – ص٢٥٠.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي – ص١٩٧.

(٥) ظهور الفلسفات المادية الحديثة:

لقد بدأ ظهور الفلسفة المادية الحديثة والتي انفصلت عن الدين مع بداية عصر النهضة عندما اتجهت أوربا نحو الحضارة اليونانية والرومانية تستقي من معينها وتنهل من مناهجها لكل ماله صلة بحياتها الفكرية والمادية.

يقول الأستاذ "أبو الحسن الندوي": (ليست الحضارة الغربية في القرن العشرين المسيحي – النصراني – وليدة هذه القرون المتأخرة التي تلت القرون المظلمة في أوربا أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية، قد خلفتها في تراثهما السياسي والعقلي والمدني، وورثت عنهما كل ما خلفتا من ممتلكات ونظام سياسي وفلسفة اجتماعية، وتراث عقلي وعلمي وانطبعت فيها ميولها ونزعاتها وخصائصهما).[١]

ولقد تميز هذا العصر بظهور "المذهب العقلي" وكان ذلك عند بداية ظهور الفلسفة الحديثة حيث بدأ التعرض للدين والهجوم عليه وعلى أسسه، والحقيقة لم يكن ذلك موجهاً للدين ذاته وإنما للكنيسة وللتعاليم الباطلة المحرفة التي جاءت بها، والتي لم يتقبلها العقل ولم يستسيغها، ولهذا فقد أصبح السائد لدى الناس أن الحق هو ما يراه العقل ويقتنع به ويدلل عليه، أما ما جاء به الدين من غيبيات وغيرها فهذه تبقى خارج المعقول وغير معترف بها. ولهذا (توجهت الفلسفة إلى الطبيعة وعلومها للبحث والدراسة والتجربة وكان هذا من أهم ما تميزت به تلك الفلسفات التي ظهرت في ذلك الوقت، والهدف من ذلك هو إقرار فردية التفكير، وفردية الحكم على الأشياء)[٢] دون أن يكون هناك تأثير خارجي أو سلطة خارجية.

ولقد أخذ المذهب العقلي في هذا العصر يتجه إلى استبعاد الله – سبحانه وتعالى عما يصفون – وكل ما هو غيبي، ثم أخذ هذا الاتجاه العقلي يقوى شيئاً فشيئاً وفي هذا العصر ظهرت فكرة المادية تدعمها فكرة أخرى وهي: نظرية الملكية المطلقة، ولقد كان الغرض منها هو إعطاء الحق الإلهي للملوك وتحرير الحكومة المدنية من سيطرة

---

(١) المرجع السابق – ص١٧٣.

(٢) انظر تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة – الدكتور محمد بيصار – ص٢٦.

الكنيسة ورجالها ولقد قام الباحثون والكتاب بمحاولة انتزاع هذا الحق وإعطاءه للملوك فأدى ذلك إلى الصراع بين "البابا" والملوك، واستمر هذا الصراع إلى أن انتهى بهم إلى مجتمع موحد فأصبح فيه (ملوك كبار ... حكاماً بأمرهم داخل بلادهم. بدعوى الدفاع عن الحرية الدينية، وهكذا أصبحت سيادة هذه الدول واستقلالها حقيقة واقعة. ولقد جاءت المبادي النظرية بعد ذلك لتؤيد هذه الحقيقة)[1] ولكن التأييد والدفاع جاء مستنداً على العقل لا إلى الدين.

نظرية العقد الاجتماعي:

إن المراد من هذه النظرية أن كل سلطة مدنية ترتكز في أساسها على الشعب، وأن الشعب قد حولها إلى الحكام أو الأمراء ليتمكنوا من القيام بمهماتهم الضرورية.

(فالدولة هي الشعب نفسه ولا ينبغي أن ينظر إلى الشعب إلا على أنه اتحاد اجتماعي حر (عقد اجتماعي) صادر عن إرادة المواطنين، الذين هم كذلك ليسوا شيئاً آخر سوى: أنهم مواطنون، متساوون).[2]

وتركز هذه النظرية على فصل الدين عن السياسة لأن الأساس عندهم سلطة الشعب ثم سلطة الحاكم فهو مصدر كل السلطات، وتقرير هذا الحق يكون من العقل ولهذا فهم يقدمون العقل على الدين.

المذهب التجريبي:

يعتمد هذا المذهب على التجربة الحسية وحدها في تحصيل الحقائق الكونية ومعرفتها، وهذا يعني بأن الحس المشاهد هو مصدر "المعرفة" اليقينية، أما ما وراء الطبيعة – كما يقولون – فهو مرفوض.

يقول الدكتور "فاروق الدسوقي": (المنهج التجريبي ينقل فيه ذهن الباحث من ملاحظة ظاهرة إلى افتراض فرض لتعليل وتفسير هذه الظاهرة ثم اللجوء إلى التجربة

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر – الدكتور محمد البهي – ص٧٣.

(٢) الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة – الدكتور محمد البهي – ص٢١.

للتثبـــت من صحة الفرض أو خطئه ثم الانتهاء إلى وضع قانون كلي يشمل تفسير كل الظواهر المماثلة).[1]

وهكذا فإن المنهج التجريبي يميل إلى إخضاع كل شيء للتجربة وما يتوصل إليه العقل من خلال ذلك تكون هي النتيجة النهائية في الحكم على الأشياء.

لقد تبين لنا من خلال العرض السابق لهذه المذاهب أن الفكر الأوربي كان مسرحاً للصـــراع العنيف الدائر حول مصادر المعرفة، وهي الدين والعقل والحس، ولقد ظهر ذلـــك على مراحل متعددة بدأت بالصراع ضد سلطة الكنيسة دون الخروج على الدين، ولكـــن فيما بعد وصل الأمر – وقد كان ذلك على مراحل متعددة – إلى استبعاد الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – بل إنكار الدين جملة وإبعاده عن واقع الحياة ونظمها.

وخـــير مـــثال على ذلك عصر "التنوير" فقد ذهب فلاسفة ذلك العصر إلى القول بسيادة العقل على الدين وغيره.

يقـــول الدكتور "محمد البهي": (استمر اعتبار الوحي كمرجع أخير للمعرفة على خـــلاف في تحديد تعاليمه، حتى كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو عصر "التنوير" في تاريخ الفلسفة الأوربية.

ويقـــول أيضـــاً: فللعقل – في نظر أصحاب عصر التنوير – الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة، وما فيها من سياسة وقانون ودين ... إلى أن يقول: فالتنوير: لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه، وإحلال العقل محله فيه).[2]

ومن فلاسفة ذلك العصر "فيخته"[3] الذي ركز في فلسفته على قيمة العقل الإنساني وحريته، واعتبره هو الأساس والطبيعة تابعة له، وينادى بأن تكون قيادة الجماهير في يد الخاصة لاعتقادهم بأنهم هم أصحاب العقل.

---

(١) الإسلام والعلم التجريبي – الدكتور فاروق الدسوقي – ص١٦.

(٢) مقتطفات من الفكر الإسلامي الحديث – ص٢٥ – ٢٥٢.

(٣) فيخـــته – ١٧٦٢ – ١٨١٤ – من أهل سكسونيا، درس الفلسفة وفقهها، وعين في جامعة أيينا عام ١٧٩٣ (الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ص٢٥٤).

(٦) الثورة الفرنسية:

إن مـــا تقـــوم بـــه الكنيسة من قهر وتسلط واستبداد أدى إلى قيام حركات ثورية مناهضـــة وعلـــى رأســـها الثورة الفرنسية التي قامت من أجل التحرر من ذلك الظلم والطغيان. فحدث (قبيل شبوب الثورة الإنجليزيـــة، أن شبت نـــار "الجاكري الفرنسية (١٣٨٥) وهي ثورة الفلاحين الفرنسيين التي قاموا فيها باحراق القصور والعبث فساداً في نواحي الريف المحيطة بهم).[١]

لقد جاءت الثورة الفرنسية (لتكون آخر مسمار يدق في نعش السمو الكنسي الذي كان يتلخص بما أعلنه "البابا غريغوري" السابع. من أن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كله وأنها تستمد نفوذها من الله مباشرة، وأنها معصومة لا تخطئ ولا تضل أبداً. تلك الثورة التي كان أحد شعاراتها: أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس. والتي أطاحت بـــرجال الديـــن المستبدين، فقذفت بهم إلى زوايا المعابد المظلمة، وأبعدتهم عن ميدان الحـــياة كلهـــا وخاصة في مجال الحكم والقضاء والتشريع وبذلك تم الفصل بين الدين والدنيا وبين الدين والدولة في أوربا).[٢]

(٧) سيادة الطبيعة على الدين والعقل:

تـــرى هذه الفلسفة أن الطبيعة هي مصدر المعرفة التي يتكون منها العقل، بمعنى أنها هي التي تكون عقل الإنسان، وبناءً على ذلك يكون كل ما وراء الطبيعة[٣] خداعاً. وهـــذا يعنـــي أن ليس هناك معرفة سابقة للإنسان عن طريق الدين، وليس هناك عقل ســـابق علـــى الوجود المادي بل إن عقل الإنسان ومعرفته يوجدان تبعاً لوجود الإنسان المادي ووفقاً لحياته الحسية.

وهكذا (انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر تقريباً، وابتدأ عصر آخر من عصور الفكر الأوربي بظهور فجر القرن التاسع عشر. وموضوع الصراع العقلي عـــند الأوربيين واحد لم يختلف عن ذي قبل – هو: الدين والعقل والطبيعة. ولكن تميز

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية – ويلز – ج٣ – ص٩٨٤.

(٢) فصل الدين عن الدولة – ص١٢٢ – ١٢٣.

(٣) ما وراء الطبيعة ألفاظ مادية أذكرها للتعبير عن أفكار هؤلاء الماديين بألفاظهم من أجل الرد عليهم.

القــرن التاســع عشر بفلسفة معينة، لأن اتجاه التفكير فيه مال إلى سيادة الطبيعة على الديــن والعقــل معاً، وإلى استقلال الواقع كمصدر للمعرفة اليقينية مقابل الدين والعقل ...).[1]

(٨) النظرية الداروينية:

لقد اتخذت النظرية الداروينية بعداً علمياً جديداً للمعركة بين الإيمان والإلحاد وذلك عندما جاء "تشارلز دارون"[2] بكتابه "أصل الأنواع".

ولســت هــنا بصدد تحليل هذه النظرية ولكنني سأعرض ذلك بصورة مختصرة عــنها لكونهــا من أقوى العوامل التي أدت إلى ظهور وانتشار الفكر المادي في العالم الغربي.

إليك مختصر هذه النظرية:

يــرى "دارون" أن الحياة بدأت صغيرة وفي غاية الدقة والبساطة، ثم أخذت تنمو وتــتطور وتزداد كبراً وتعقيداً وتعدداً وتمايزاً بين أفرادها، ويذهب إلى أن ذلك يجري فــي الكائــنات بســبب تطورات كثيرة تحدث في شكلها الخارجي وبنيتها الداخلية منذ ملايين السنين.

ويــرجح "دارون" هــذا التغــير إلــى الانتخاب الطبيعي فيقول: (فإني مقتنع بأن الانــتخاب الطبيعي كان أهم عامل في حدوث هذه التغيرات التي طرأت على الأنواع، وإن لم يكن العامل الوحيد).[3]

ويذهــب "دارون" إلــى أن (عملية الانتقاء الطبيعي هذه ليست قوة خفية، ولا قوة خالقــة، كمــا أنها ليست قوة "شاعرة" وإنما هي مجرد نتيجة "للتفاعلات" بين التغيرات العرضــية وظــروف الحياة. فمن يستطيع التكيف والملاءَمة بين حالة أعضائه وحالة

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ص٢٦٥ – ٢٦٦.

(٢) تشــارلز دارون – ١٨٠٩ – ١٨٨٢ – ولــد في بريطانيا وألف كتاب "أصل الأنواع" وهو صاحب نظرية التطور العضوي (معركة التقاليد – محمد قطب – ص١٢).

(٣) نقلاً من التطور في الحياة وفي المجتمع – الدكتور عبد الرحمن بدوي – ص٥٤.

الطبـيعة الخارجـية، يعيش وينمو ويتناسل. أما من لا يستطيع ذلك فإنه يفنى حتماً إن عاجلاً أو آجلاً).[١]

إن عملـية الانـتقاء الطبيعي، في نظر "دارون" عملية تلقائية تعين الكائنات على حفـظ النوع وبقاء الأصلح. ولهذا فهو يقول: (فيجب علينا أن نفترض بالضرورة، أن الأفراد التي تتميز بأية ميزة، مهما كانت طفيفة وضئيلة، هي الأفراد التي يكون لها حظ أكـبر فـي الـبقاء، والتناسل، وذلك على شرط أن يكون تميزها في صالحها. أما إذا اعـترى الحـيوان أي تغـير من شأنه أن يضر بتكيفه بالبيئة، ... فإن هذا الحيوان لا محالة هالك).[٢]

إن "دارون" يحاول بذلك أن ينفي كلية وجود الخالق – سبحانه وتعالى عما يقولون – وأن يثبـت أنـه لـيس في الوجود فاعل حقيقي سوى "الصدفة" والانتخاب الطبيعي ويؤكـد ذلك بقوله (بعد اكتشاف قانون الانتخاب الطبيعي ضعفت عندي فكرة أن الكون مخلوق لغاية ووفق خطة معينة، تلك الفكرة التي كانت تبدو لي من قبل قوية).[٣]

وقولـه أيضـاً (إن الـنظام الـذي نراه في الطبيعة، ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وبين ظروف البيئة التي يعيش فيها).[٤]

وبذلـك أصـبح النظام في الطبيعة – على حسب ما يراه "دارون" في الانتخاب الطبيعي – ناتجاً عن التوافق والتكيف، وأما ذلك التنوع الطبيعي يرى "دارون" أنه من فعل "الطبيعة" فهو حادث "بالصدفة" ولهذا فهو يقول: (إنه لما كانت التنوعات النافعة لا تحـدث إلا مصـادفة، فإن الفرص لتأكيدها وإبرازها تزداد كلما اتجهنا إلى تربية عدد أكبر من الأفراد، الذين تظهر فيهم الصفات الجديدة).[٥]

---

(١) نقلاً من المرجع السابق – ص٦٨ – ٩٢.

(٢) نقلاً من المرجع السابق – ص٦٨ – ٦٩ – ٩٢.

(٣) دارون ونظرية التطور – شمس الدين آق بلوت – ص٨٦.

(٤) التطور في الحياة وفي المجتمع – الدكتور عبد الرحمن بدوي – ص٦٧.

(٥) المرجع السابق – ص٦٢.

ويقـول "جـورج بـرنارد شـو": (إن القاعدة الدارونية للتطور قد سلمت الكون للصدفة).[1]

إن الأساس الذي اعتمده "دارون" وأقام عليه نظريته التطورية هو إرجاع الفاعلية فـي الكـون إلـى الطبيعة ولا شيء وراء ذلك، ليس هناك إله خالق، وليس هناك من غيبـيات بـل إن كل ما يجري في هذا الكون من متغيرات إنما هو ناتج عن الصدفة العشوائية.

هـذا مـا جاءت به الدارونية المادية، ولقد أحدث ذلك ضجة كبيرة في المجتمع الأوربـي، واهتزت لذلك الكنيسة والأوساط العلمية لما كان لذلك من تأثير سيئ امتدت آثـاره المادية إلى الفلسفة، والاقتصاد، بل وإلى كل العلوم الاجتماعية التي كانت وليدة ذلك الواقع المظلم.

يقـول الأسـتاذ "أنور الجندي": (فمن "دارون" بدأت فكرة التطور المطلق، ومن "دارون" بدأت فكرة حيوانية الإنسان وتفتحت أبواب الفكر الماركسي والفرويدي جميعاً، وبه انفصلت النهضة الصناعية والكشف العلمي والحضارة والاستعمار والرأسمالية عن الديـن واتجهـت الحضارة إلى الاستهلاك: وقامت على صناعة أدوات الترف والزينة والفسـاد ومزيد من الأرباح تدخل إمبراطورية الربا اليهودية. وقد ولدت بذلك النهضة الأوربـية في جو لا ديني وعلى أساس لا ديني).[2] ولقد كان ذلك من أخطر ما تركته "الدارونـية" مـن آثار سيئة أبتلى بها العالم بأسره، فكل نظرية أو مذهب فلسفي مادي إلحـادي أساسـه هذه النظرية الدارونية يقول الشيخ "محمد قطب": (وتركت في حياة الناس نتائج خطيرة بالغة الخطورة، وما يزال "المد" الذي أحدثته في أوربا يفيض حتى اللحظة بأخطر الأمور.

- أول نتائجها زلزلة الإيمان بالله والعقيدة.
- وثاني نتائجها زلزلة الإيمان بالإنسانية والإنسان ورفعته وسموه وروحانيته.

---

(١) نقلاً من الفكر الأوربي الحديث – فرانكلين – ل باومر – ص٩.

(٢) سقوط نظرية دارون – ص١٧ وانظر بين الدين والمدنية – أبو الحسن الندوي – ص٦٣- ٦٤.

- وثالث نتائجها زلزلة الإيمان "بثبات" أي نظام من النظم أو قيمة من القيم أو فكرة من الأفكار.
- ورابع وخامس وسادس.. زلزلة كل شيء كان راكزاً من قبل، وتحطيم كل بنيان راسخ الأساس.

فكـــرة الله الخـــالق المدبـــر المـــريد ذي القصد لقيت أول زلزلة مباشرة على يد "دارون" فـــي قضـــية خلـــق الإنسان، حين نفى "دارون" القصد، ونفى الخلق المباشر للإنســـان بيد الله وأرجعه إلى عملية التطور، ونفى أن ثمة شيئاً في كيان الإنسان يمكن أن يكـــون "نفخةُ الله فيه من روحه" إذ قرَّر على سبيل الجزم الحيوانية المطلقة لأصل الإنسان).[1]

(٩) الاشتراكية:

لقد أحدث اختراع الآلة نقلة كبيرة في الصناعة، فأدى ذلك إلى نشوء طبقة العمال وظهـــرت "الاشتراكية" لرفع الظلم الذي تعاني منه طبقة العمال من أصحاب المصانع والأعمال.

يقـــول الشـــيخ "محمد المبارك": (إن الصناعة الكبرى إثر اختراع الآلة أدت إلى نشـــوء طبقات جديدة وأدت إلى انفصال رأس المال عن العمل وكان من ذلك أن نشأت طـــبقة العمال ونشأت الحركة الاشتراكية لإزالة ما كان يلحق تلك الطبقات من المظالم الاجتماعـــية ونشـــأت عن ذلك مفاهيم للحرية والديمقراطية والاشتراكية هي وليدة تلك الظروف التاريخية المحلية).[2]

ومـــن الاشتراكية نشأت الشيوعية الماركسية ومن بعدها أخذت النظريات المادية تتوالى شيئاً فشيئاً الواحدة تلو الأخرى.

وهكذا نجد أن ظهور الفلسفات المادية لم يكن تلقائياً بل كان نتيجة عوامل متعددة أهمهـــا وأقواهـــا وأشـــدها خطـــورة التحريف الذي قامت به الكنيسة في النصرانية،

---

(١) معركة التقاليد – ص١٥.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية – ص٥٣.

والممارسات العجيبة والمشينة التي ارتكبتها في حق أفراد الشعب، وموقفها المتصلب ضد رجال العلم فظن الناس أن ذلك من الدين فوقفوا ضده وضد الكنيسة التي تمثله، فبعد أن كانوا يطالبون بفصله عن نظام الدولة وإبقائه فردياً أخذوا ينادون بإلقائه من واقع الحياة، بل أخذوا يعملون على هدم الدين واستبعاد الله – سبحانه وتعالى عما يصفون – الخالق للوجود، واستبدلوه بالعقل والطبيعة والمادة آلهة الماديين المقدسة لديهم.

يقول الشيخ "أبو الحسن الندوي": (لم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والتفكير والهدوء والاجتهاد ما يميزون به بين الدين وما يرجع إلى الدين نفسه وبين رجال الكنيسة وما هم عليه من جهل واستبداد فلا ينبذون الدين نبذ النواة ولكن شنآن رجال الدين، والاستعجال لم يسمح لهم بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه لما يمثله أمر الدين من أهمية في كيان الفرد والمجتمع. إلى جانب ذلك كله لم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامي الذي كانت تدين به بعض الأمم ولو فعلوا ذلك لوجدوا فيه المخلص لهم من كل تلك المشاكل والأزمات التي كانوا يعانون منها. قال –تعالى–: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [1] ولكن حميَّة الجاهلية والسدود التي أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب النصراني والشرق الإسلامي منعهم من الأخذ بذلك).[2] فأخذت المادية طريقها، وخرج الفلاسفة الماديون بنظرياتهم المادية الإلحادية، وغايتهم هدم الدين والقضاء عليه لكي يتسنى لهم تحقيق أطماعهم المادية.

وهذا ما سيتضح معنا في الفصول القادمة من هذا الباب بمشيئة الله – تعالى–.

***

(١) سورة الأعراف – آية ١٥٧.

(٢) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – ص١٩٣ – ١٩٤.

الفصل الأول

العلمانيـــــــــون

تعريف :

العلمانيون :هم كل من يتبنى الأفكار العلمانية أو يعمل لها أو ينادي بها، والعلمانية ليست كما يدعي أصحابها بأنها تعنى العلم أو العالم، بل المراد بها على حسب الترجمة الصحيحة لها في المعاجم أنها اللادينية أو الدنيوية بمعنى كل ما لا صلة له بالدين.

ولكن شاع مصطلح علماني وعلمانية نسبة إلى العالم (للمبالغة في الإيمان وللتخصيص بكمال هذه الصفة – كما جاء في لفظ الرباني – فتكون إضافة الألف والنون إلى العالم للمبالغة في الانتماء إليه، دون الانتماء إلى خالق العالم).[1]

وقد اتخذت الأمم الأوربية هذا الاتجاه نتيجة الصراع بين الكنيسة والدولة لذلك رأى المفكرون والمصلحون هناك أن الخلاص من هذه المشكلة يكمن في إبعاد الكنيسة عن السلطة أو المجتمع ولذلك أطلقوا على الوضع الناشئ عن هذا الإبعاد كله (السيكولاريزم).

يقول "منير البعلبكي": إن هذه الكلمة تعني (النزوع إلى الاهتمام بشؤون الحياة الدنيا.

ويقصد بالمصطلح أحياناً العلمنة أي نزع الصفة الدينية أو سلطان رجال الدين عن نشاط من النشاطات أو مؤسسة من المؤسسات).[2]

وجاء في كتاب "الحركات الجماهيرية في الوطن العربي": (العلمنة بهذا المعنى هي اللادينية على وجه الدقة، وهي تكتفي بنفي أي دور للدين في شؤون المجتمع العامة، هي فلسفة مختلفة تماماً تنطوي على "محاولة لإدراك معنى العالم بوصفه معقولاً... وعلى إمكانية إدراكه وبالتالي تغييره... ودون حاجة للدين).[3]

وذكر في قاموس "الكنز" أن (علمانية تعنى دنيوية)[4] ويذهب الدكتور "خليل أحمد" أن العلمانية هي: (نظام علماني قوامه عدم تدخل الكنيسة في شؤون الدولة،

---

(١) جذور العلمانية – السيد أحمد فرج – ص١٤٢.

(٢) موسوعة المورد العربية – ج٢ – ص٧٧٦.

(٣) الدكتور محمد شيا – الدكتور حليم اليازجي – الدكتور أحمد خواجة – ص١٥.

(٤) جروان السابق – ص١٦٩.

وعدم تدخل الدولة في شؤون الكنيسة، وتكون فيه الحرية الدينية والاعتقادية من ضمن الحـــريات العامـــة... فالعلمانية كما يعبر عنها دستور الجمهورية الفرنسية مثلاً، تؤكد عـــدم صـــلاحيات الكنيســـة، فـــي مجـــال الدولة، وعدم صلاحيات الدولة في المجال الكنسي).[1]

أما معجم "الرائد" فجاء فيه أن العلماني هو: (الذي ليس رجل دين).[2]

مـــن خـــلال التعريفات السابقة يتأكد لنا أن العلمانية تعني فصل الدين عن واقع الحـــياة ولـــيس صحيحاً ما يزعمه العلمانيون من أن المراد بها العلم أو العالم لأن ما جاءت به العلمانية يناقض العلم وما يقول به العلماء المنصفون للحقيقة.

إذاً العلمانـــية لا تعـــنى العلـــم أو التفكير العلمي كما يقولون بل هم يقولون بذلك تضليلاً للحقيقة.

يقـــول الدكـــتور "عمـــاد الدين خليل": (يسمى الفكر الغربي ذلك بالعلمانية وهو اصطلاح يوحي للوهلة الأولى بصواب الدعوة واستقامة الطريق، فمن الذي يرفض أن يحـــيا حـــياة تعتمد في مقوماتها على أساس العلم الصحيح إلا أن يكون مخبولاً. إلا أن هـــؤلاء قـــد انكشف غرضهم حين وضعوا الدين والغيبيات في الجهة المقابلة للعلمانية وقالوا للناس إما هذا وإما ذلك).[3]

ولقد كان "العلمانيون" في بداية أمرهم يطالبون بفصل الدين عن نظام الحياة ولكن ســـرعان ما تحول ذلك الأمر إلى محاربة الدين والتشكيك في الغيبيات وإثارة الشبهات حولها، علماً بأن هذه الغيبيات هي لون من ألوان العلم بل هي أدخل في باب اليقين من العلـــوم التي يتعاطاها الناس، ومهما بلغت درجة اليقين في علوم الناس ومعارفهم فإن الغيـــب الذي أتانا به الدين أكثر قطعية وأشد يقيناً، لأن اليقين في العلوم عرفناه بعقولنا وهـــي عرضة للخطأ، وعلومنا عرضة للتغيير، أما اليقين في الغيب فقد جاءنا من قبل الله – ســـبحانه وتعـــالى – الـــذي لا يضـــل ولا ينسى، وشتان ما بين اليقين وما بين المصدرين.

---

(١) معجم المصطلحات الدينية – ص١٤٠.

(٢) جبران مسعود – ص١٠٤٧.

(٣) تهافت العلمانية – ص٣٦.

إن الحقـيقة التي لا مراء فيها أنَّ ما جاء به العلمانيون يشكل خطراً عظيماً على الإســلام والمجــتمع الإســلامي. وقد تكون هناك مبررات[1] لوجود مثل هذه الأفكار العلمانية في المجتمع الغربي، ولكن طبيعة الإسلام تأبى أن يوجد مثل ذلك في مجتمعنا الإسلامي.

يقــول "إسماعيل الكيلاني": (العلمانية وليدة التفكير الثنائي الغربي حيث يوجد في مجــتمعهم: دولــة وكنيســة، مدني وديني، روح ومادة، سلطة كنيسة، وسلطة مدنية، ومدرســة كنســيَّة دينــية ومدرســة مدنية دنيوية، موسيقى دينية وموسيقى دنيوية... وهكذا).[2]

***

(١) أن وجود الأسباب والمبررات لظهور مثل هذه الأفكار العلمانية لا يعطيهم الحق في محاربة الدين بل يجب عليهم أن يبحثوا عن الدين الصحيح.

(٢) فصل الدين عن الدولة – ص٢٥٥.

المبحث الأول

ظهور الفكر العلماني في العالم الغربي وتطـــوره

من المعلوم أن المجتمع الغربي لم يعرف الدين السماوي الصحيح بل عرف الدين النصـــراني المحرف – في عقيدته وشريعته – الذي قدمته لهم الكنيسة وفرضته عليهم بالقهـــر والقوة وحاربت كل من يخالف ذلك، ووقفت موقفاً متصلباً ضد العلم والعلماء، ورفضـــت الـــنظريات العلمـــية الحديـــثة وحرَّمـــتها وحجرت على القلوب والعقول، واستخدمت سلطتها الدينية ضد كل من يعارضها أو يخالف تعاليمها المحرفة بنظرية أو بغيرها. وكان الناس يعتقدون أن ما جاءتهم به الكنيسة من أساطير ووثنيات وما كانت تفعلـــه بهم من تنكيل وتعذيب إنما هو من الدين فأثار ذلك الحقد والكراهية في نفوسهم ضد الدين ونتج العداء الشديد له وللكنيسة، ولهذا قام المجتمع الأوربي الحديث معارضاً للكنيســـة ومطالباً بعزلها والانفصال عنها، فأدى ذلك إلى صراع مرير داخل المجتمع الغربـــي أســـفر عـــن قيام سلطتين: إحداهما "دينية" والأخرى مدنية (علمانية). تشرف الأولـــى على الأمور الدينية بينما تشرف الأخرى على القضايا المدنية ومن هنا كانت ولادة الفكرة العلماني الذي ينادي بفصل الدين عن واقع الحياة بعد أن انتصر العلم على تعاليم الكنيسة المحرفة وسلطة رجال الدين.

يقـــول الدكـــتور "محمـــد البهـــي": ولهذا قام المجتمع الأوربي (كنتيجة للنهضة الأوربـــية، والـــتمرد علـــى حكم الكنيسة، وعلى أثر "الثورة الفرنسية"... ولم يكن من الطبيعي مجتمعاً مؤيداً لاتجاه الكنيسة، ولا محتضناً للقيم التي تدعو إليها فضلاً عن أن يحتفظ بالأسلوب الذي أنتجته في الحكم طوال القرون التي ساد حكمها فيها).[1]

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر – ص١٤.

ويقول "كارل بيكر": (لقد تجلت الحقيقة السياسية البارزة وقتئذ في ظهور سلطتين منفصلة كل منهما عن الأخرى، على أن كلا منهما لم تستطع أن تفرض واجب الولاء والطاعة على رعاياها في جميع الأحوال).[1]

لقد تم الفصل بين السلطتين وهو ما عرف فيما بعد في الفكر الأوربي "بالعلمانية"، ولقد مرَّ ذلك بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة العلمانية الأولى، ولقد أطلق عليها بعض المفكرين: بالعلمانية المعتدلة، وهي مرحلة القرنين السابع عشر والثامن عشر.

المرحلة الثانية: مرحلة العلمانية المتطرفة، وهي مرحلة القرن التاسع عشر، وهي المرحلة التي وصل فيها التطرف بالعلمانية إلى المادية والإلحاد.

المرحلة الأولى: كانت العلمانية في بدايتها وكان التركيز في هذه المرحلة على أن يبقى الدين فردياً وأن يفصل عن نظام الدولة، بمعنى أن يبقى الدين حبيس الجدران لا شأن له بنظام الدولة، مع حماية الدولة للكنيسة وإن كانت رافضة لتعاليمها ومطالبة بإخضاع تعاليمها للعقل ومبادئ الطبيعة.

يقول الدكتور "محمد البهي": (فإن قضية الفصل بين الدين والدولة هي قضية الفصل بين سلطان الكنيسة كحكومة تباشر السياسة باسم الله والدين، وسلطة الدولة "العلمانية" كحكومة تباشر السياسة باسم الإنسان وباسم المجتمع.

واتجاه العلمانية يرفض أي صورة للإيمان الديني أو العبادة الدينية، ويعتقد أن الدين والشؤون الاكليريكية يجب أن لا تدخل في وظيفة الدولة وبالأخص في مجال التربية العامة)[2] ومن الفلاسفة الذين ظهروا على الساحة الأوربية في هذه المرحلة "سبينوزا" [3] الذي أخذ يشكك في مصداقية الكتب المقدسة وما تحتوي عليه من أفكار ومبادئ فقال: (ولما أعجبوا بأسرار الكتاب مع أن هذه الأسرار في الحقيقة لا تتعدى

---

(١) السبيل إلى عالم أفضل – ص٧١ – ٧٢.

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر – ص١٤٠.

(٣) سبينوزا – ١٦٣٢ – ١٦٧٧ – فيلسوف يهودي هولندي، كان معروفاً بشدة عدائه للنصرانية (تيارات فلسفية حديثة ومعاصرة – الدكتور علي عبد المعطي – ص١٢٩ – ١٣٠).

بعض نظريات "أفلاطون"[١] و "أرسطو"[٢] التي وفقوها مع الدين حتى لا يتهمهم الناس باتباع الوثنيين فجعلوا الأنبياء يهذون ولم يشكوا مطلقاً في المصدر الإلهي للكتاب المقدس وكلما شعروا بأسراره ازدادوا طاعة له).[٣]

ولم يكن "بسكال"[٤] عن ذلك ببعيد فقد هاجم هو الآخر عقيدة الخطيئة، وأحدث بلبلة حول ما تحتويه الكتب المقدسة من أفكار ومبادئ، فترك أثراً سيئاً على الكنيسة وتعاليمها عندما قال: (لا شيء يزحم العقل الإنساني بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية).[٥]

كذلك وظهر في هذه المرحلة العديد من الفلاسفة الذين يمثلون الفكر العلماني في مراحله الأولى، ومن هؤلاء "لوك"[٦] و "هوبز"[٧] و "جان جاك روسو"[٨] و "فولتير"[٩] وغيرهم.

لقد كان "لوك" يقدس العقل ويجعله أعلى مرتبة من الوحي. ويظهر ذلك من خلال تقسيمه للمعارف إلى ثلاثة أقسام وجعل العقل أولها والغيبيات بما فيها الوحي ثالثها ولهذا فهو يقول: (فواجب الفلاسفة إذن أن يوجهوا انتباههم إلى دراسة الأجسام المادية وأن يحصروا جهودهم فيها دون منح أي اعتبار للروحانيات التي تقع في دائرة اختصاص معينة، هي دائرة الوحي والإلهام وواجبنا إنما المحافظة على استقلال دائرة

---

(١) أفلاطون – ٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م – فيلسوف إغريقي، ولد في أثينا، أختص علمه بالفلسفة (انظر طبقات الأطباء والحكماء – ابن جلجل – ص٢٣ – ٢٤).

(٢) أرسطو – ٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م – فيلسوف إغريقي تلميذ أفلاطون، إليه انتهت فلسفة اليونانيين وهو خاتمة حكمائهم (انظر الفرق بين الفرق – البغدادي – ص٣٠٧ – ٣٠٨).

(٣) في الفكر العربي المعاصر – الدكتور حسن حنفي – ص٥٧.

(٤) بسكال – ١٦٢٣ – ١٦٦٢ – رياضي وعالم طبيعي ولاهوتي فرنسي (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٢٦٦).

(٥) انظر المشكلة الأخلاقية والفلاسفة – اندريه كرسون – ص١٣٣.

(٦) جون لوك – ١٦٣٢ – ١٧٠٤ – فيلسوف إنجليزي من المؤيدين للمذهب الحسي (تيارات فلسفية حديثة ومعاصرة – الدكتور علي عبد المعطى محمد – ص٧١ – ٥٢).

(٧) توماس هوبز – ١٥٨٨ – ١٦٧٩ – فيلسوف إنجليزي، كان من أشهر المؤيدين للحكم المطلق (تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة – محمد بيصار – ص١٠٣).

(٨) جان جاك روسو – ١٧١٢ – ١٨٨٧ – فيلسوف سياسي وتربوي ولد في جنيف عاش في باريس (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٣١١).

(٩) فولتير – ١٦٩٤ – ١٧٧٨ – فيلسوف ومؤرخ وكاتب مسرحي، قدم للمحاكمة مرات عديدة وسجن مرتين وقضى حياته خارج فرنسا (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٣١٢).

النفوذ لكل من العقل والوحي حيث لا مجال لأحدهما في دائرة اختصاص الآخر، وإنما يبدأ الوحي حيث تنتهي طاقة العقل).[١]

ولهـذا يرى "لوك" أنه (يجب الفصل بين الدولة والكنيسة. إن هدف الدولة الحياة الأرضـية، وهـدف الكنيسة الحياة السماوية. نحن إذ نولد ملك الوطن لا ملك الكنيسة، ولا ندخل فيها إلا طوعاً. ولما كان المجتمع المدني غير قائم على مصالح الكنيسة فليس للدولة أن ترعى العقيدة الدينية في التشريع، ولا محل للقول بدولة مسيحية).[٢]

وإلـى ذلك يذهب "هوبز" أيضاً فهو ينادي بتقديس العقل وأيضاً ينادي (بأن تكون سلطة الدولة مطلقة لا يمكن سحبها)[٣] ويرى بأن هذه السلطة يجب أن تكون أعلى من سلطة الدين ولهذا يقول: (ويذهب حق السلطة إلى حد تقرير المعتقدات الدينية والقواعد الأخلاقـية)[٤] إنه (يجعل الدولة هي المصدر الوحيد للقانون، والأخلاق، وكذلك الدين. ويقـول في شأن ذلك: "لهذا أعلن أن سلطة الدولة العليا لها الحق في أن تفصل هي في بعض التعاليم: هل هذه التعاليم تحتمل بالنسبة لطاعة المدنيين للدولة أم لا؟ فإذا كانت لا تحتمل فيجب تحريم انتشارها). [٥]

أمـا الفيلسوف "جان جاك روسو" فإنه لا يخرج عن هذه الدائرة العلمانية بل هو يـتفق مع فلاسفتها في إبعاد الدين عن نظام الدولة، وكذلك يرى بأنه يجب إبعاد الدين حتى عن التربية، ولهذا فهو يقول: (يجب الرجوع إلى الطبيعة في التربية).[٦]

أما إذا كان لابد من الدين فليكن (قاصراً على العقائد الضرورية للحياة).[٧]

وهنا (يتفق "روسو" مع "هوبز" في إبعاد الدين عن الدولة وعن التربية على وجه أخص. ولكنه يختلف معه في سبب المطالبة بإبعاده).[٨]

---

(١) تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة – محمد بيصار – ص١٠٥ – ١٠٦.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص١٥٢.

(٣) مدخل إلى عمالم السياسة – هارولد لاسكي – ص٣٠.

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص٥٦.

(٥) الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة – الدكتور محمد البهي – ص١٨.

(٦) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص٢٠٤.

(٧) المرجع السابق – ص٢٠٤.

(٨) الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة – الدكتور محمد البهي – ص٢٠.

ثم يأتي الفيلسوف "مكيافيللي" وينادي بالسلطة المطلقة للحكام، وينادي بذلك بعيداً عن الدين والأخلاق بل يجعلها مقصورة على أفراد الشعب، ولذلك نجده عندما عرَّف الدولة قال: إنها (قوة سياسية بحتة، وأن مهمة الأمراء والحكام، أو وظيفتهم الوحيدة، هي اكتساب السلطة واستخدامها، وهم في استخدامهم لهذه السلطة لهم أن يحكموا وحدهم على الأغراض والغايات التي تتحقق عن طريقها، وهم من أجل هذا غير مقيدين بقواعد الأخلاق والدين التي كانت مفروضة على أفراد الشعب خاصة).[1]

أما "فولتير" فقد كان كغيره من هؤلاء الفلاسفة حملة الفكر العلماني في هذه المرحلة، يظهر في هذا العصر فينادي بالعقل ساخراً من الدين ولهذا لم يكن إيمانه إلا ظاهرياً فهو القائل (فلنكف عن شغل عقولنا بالله، ولنجعل ديانتنا ديانة عقل، نظاماً من الأخلاق يخلو من كل هراء علوم الدين).[2]

يتضح لنا من خلال العرض السابق لأفكار هؤلاء الفلاسفة الذين يمثلون العلمانية في مراحلها الأولى تقديسهم للعقل وانتقادهم العنيف لتعاليم الكنيسة ومعتقداتها، وحرصهم الشديد على سيادة الدولة بل البعض منهم كما هو الحال عند "هوبز" يرى بأنها لابد وأن تكون سيادة مطلقة. أما الدين عندهم فليس له إلا الإقصاء، والإبعاد عن نظام الدولة وحتى عن التربية كما هو الحال عند "جان جاك روسو" وذلك لأنهم يرون أن تعاليم الدين "بعيدة عن العقل ومناقضة للعلم ولهذا يجب أن يبقى "الدين" شخصياً ولا دخل له بنظام الدولة.

وهكذا انتهى القرن الثامن عشر بغلبة العقل وطغيانه على سلطان الدين والكنيسة.

المرحلة الثانية للعلمانية:

وهي المرحلة التي أزداد فيها تقديس الإنسان للعقل وانصرف إلى "العلم" وأتجه إلى البحوث الطبيعية (التي كان من نتائجها اكتشاف البخار ثم الكهرباء، وما ترتب على هذه الاكتشافات من صناعة السفينة، والقطار، والطائرة، وامتلاكه عن طريق الكشف التجريبي والصناعة الآلية ناصية الأمر في الماء وعلى الأرض وفي الهواء.

---

(١) مكيافيلي – ١٤٦٩ – ١٥٢٧ – مفكر إيطالي اشتهر بكتابه الأمير (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٢٤٠.

(٢) انظر أفكار ورجال – برنتن – ص٤٧٧ – ٤٧٨.

وتحولت ثقته بإلهه رويداً رويداً إلى العلم التجريبي. وأصبح المعمل محراباً للعلم يقدس، على نحو ما كانت تقدس الكنيسة كمكان للعبادة).[1]

(هنالك نبذت أوربا إلهها – كما قال "سومرست موم" – وآمنت بإله جديد اسمه العلم. وتحللت نهائياً من فكرة الله والتدين، ومن كل القيم والمفاهيم التي صاغها الدين من قبل. وخيل لها أن في مقدورها – بل من واجبها – أن تصوغ اليوم قيمها كلها ومفاهيمها كلها، ولا تركن لوصاية عليها من الله أو سواه. فقد شبت اليوم عن الطوق ولم تعد في حاجة إلى وصايات).[2]

وهكذا كلما تقدم البحث التجريبي، وتقدمت الصناعة الآلية ازداد المفكرون بالعلم الطبيعي تعظيماً وتقديساً له ولم يعد هناك مجال لذكر الدين بل العلم – في تصورهم – قادر على أن يفسر لهم كل أسرار هذا الكون، وبهذا (انصرف الناس اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، حيث أصبحت نظرتهم إلى الكون مؤسسة على أنه ليس وراء الطبيعة قوة خالقة متصرفة مدبرة لشؤون الخلق، بل أصبحوا يفسرون ظواهر هذا العلم وآثاره الطبيعية بطريق ميكانيكي بحت وسموا هذا نظراً علمياً مجرداً وسموا الفكر الذي يعتقد ويؤمن بوجود إله طريقاً تقليدياً واستهزءوا به ثم انتهى بهم ذلك إلى الجحود والإنكار لكل ما وراء الطبيعة أو كل مالا يأتي تحت الحس وبذلك أصبح عندهم الإيمان بالله من قبيل المفروضات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العالم).[3] وتغلب النزعة المادية في هذه المرحلة، ويظهر التيار الإلحادي ويشهد هذا القرن ظهور فلسفات انسلخت عن الدين، وتحررت من قيوده، تهدف إلى إلغاء الدين وليس فصلاً بينه وبين نظام الدولة كما كان الأمر في بداية ظهور هذا التيار العلماني.

ومن الفلاسفة الذين ظهروا في هذه المرحلة المتطرفة الفيلسوف "فيورباخ"[4] من أهم المؤسسين لفكر الثورة العلمانية التي دار رحاها في القرن التاسع عشر، لقد دعا إلى المادية والإيمان بالمحسوس حتى وصل به الأمر إلى الإلحاد. وفي نقده لفلسفة

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر – الدكتور محمد البهي – ص١٣٩.

(٢) معركة التقاليد – محمد قطب – ص٥٠ – ٥١.

(٣) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي – ص١٦٤.

(٤) لودفيغ فورباخ – ١٨٠٤ – ١٨٧٥ – فيلسوف مادي ألماني من المناهضين للدين النصراني في الغرب (الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام – الدكتور عبد الجليل شلبي – ص٥٠ – ٥١).

"هـيجل"[1] (تحدث عن عدم الجدوى من فكرة المطلق – وهي الله – وذكر أن المطلق عـند "هيجل" ليس إلا العقل المفارق للاهوت. ذلك العقل الذي يشبه في فلسفة "هيجل"، الخيال الطائف.

وفـي رسالته: "إصلاح الفلسفة، والمبادئ الأساسية لفلسفة المستقبل" سار قدماً في الطريق – نحو الإيمان بالمحسوس وحده، وبالمادية الهوجاء).[2]

ثـم تأتي الفلسفة "الماركسية"[3] لتستكمل سلسلة التطرف المادي الإلحادي، فتنادي بهـدم "الديـن" واستبداله بسيادة المجتمع والدولة، وتقول بالمادة، وتفسر الكون تفسيراً ماديـاً بحـتاً وهدفهـا من وراء ذلك استبعاد الله – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – الخالق للوجود.

ومـن خلال عرض المرحلتين الأولى والثانية للعلمانية يتضح لنا أن ظهور الفكر العلمانـي في العالم الغربي اتخذ صوراً متعددة أبرزها وأقواها ما حدث في المرحلتين السابقتين ففي المرحلة الأولى كانت السلطة والغلبة للعلم على سلطان الكنيسة ورجالها وكانـت العلمانية هنا في مراحلها الأولى عندما كانت تطالب بأن يكون الدين فردياً لا شأن له بنظام الدولة ما لله لله وما لقيصر لقيصر، ثم انتهى بهم الأمر في القرن التاسع عشـر إلى العلمانية المتطرفة، إلى الإلحاد ونبذ الدين، بل هدمه والقضاء عليه لأنه في تصورهم وكما يعبر الشيوعيون الماركسيون عن ذلك بقولهم الدين أفيون الشعوب.

وفـي هـذه المـرحلة التي بلغتها العلمانية انتهى الأمر بالإنسان إلى الانحطاط والسقوط في براثن المادية التي لم تجلب معها إلا الفساد، والدمار، والهلاك، والضياع الـذي تعانـي منه البشرية اليوم، وما كان ذلك إلا نتيجة لغياب الدين الحق عن واقع الحياة ونظمها، وإبعاد الصورة الصحيحة للحقيقة الكبرى الله – سبحانه وتعالى – عن تصـور الإنسـان وفهمـه لها، فكانت النتيجة أن ضاع الإنسان وسط هذه الضلالات والظلمات.

---

(١) جـورج ولـيم فـريدريك هـيجل – ١٧٧٠ – ١٨٣١ – فيلسوف ألماني من أكبر فلاسفة العصر الحديث في أوربا، من أهم مؤلفاته موسوعة العلوم الفلسفية (تيارات فلسفية معاصرة – الدكتور علي عبد المعطي محمد – ص١٦٤).

(٢) الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسشلامية المعاصرة – الدكتور محمد البهي – ص٢٤.

(٣) الماركسية مذهب "كارل ماركس" وسوف نتحدث عن هذا الفكر المادي في الفصل الثاني من هذا الباب.

إن هــذا الفكــر العلماني اتسعت رقعته وازداد انتشاره وانتقل وللأسف إلى العالم الإسلامي وكان لذلك أسباب متعددة. وبيان ذلك سيكون في المبحث القــادم إن شاء الله -تعالى-.

***

المبحث الثاني

الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انتقال الفكر العلماني إلى العالم الإسلامي

بعد قيام النهضة الأوروبية في المجتمع الأوروبي وحصوله على التحرر الفكري والسياسي من سلطة الكنيسة أخذ نفوذه يقوى ويتعاظم في الوقت الذي ضعف فيه المجتمع الإسلامي ووقع تحت سلطة الاستعمار وتوجيهه الفكري والسياسي.

يشرح الدكتور "محمد البهي" ذلك فيقول: (أن المجتمع الأوربي ابتدأ يقوى، بعد التحرر الفكري، والتوجيهي والسياسي من نفوذ الكنيسة، وازدادت قوته بالتقدم العلمي في البحوث والكشوفات، ثم بالتقدم الفني والتكنولوجي في الصناعات .... وكلما قوى المجتمع الأوربي وتفوق صناعياً... كلما زادت قبضته على ما تم استعماره منهما، وكلما اتسع نفوذه السياسي والاستغلالي فيما تسلط عليه فيهما ... وبالتالي كلما زاد ضعف المجتمع الإسلامي الذي وقع تحت سلطة الاستعمار، واستقلاله، وتوجيهه كلما زاد ضعفه في التبعية والتقبل للقيادة الأوربية الاستعمارية).[1]

من خلال هذه الصورة يتبين لنا أن الاستعمار هو في حقيقته وليد الحضارة الغربية المسيطرة بقواها المادية ومفاهيمها الثقافية باعتبار أن هذه الحضارة حضارة عالمية تعمل على تمدين العالم الثالث المتخلف، وذلك بفرض هذه الحضارة وفكرها ونفوذها على تلك الشعوب وفقاً للمفهوم الذي يقول أن هذه الحضارة هي صاحبة السيادة وأن عملها هذا هو واجب إنساني.

وفي خضم هذه الحضارة والثقافة التي يدعيها المستعمر انتقلت العلمانية الغربية إلى المجتمع الإسلامي (يوم أن تحول المجتمع الأوربي لاستعمار القارتين الإفريقية والآسيوية، وعلى الأخص في القرن التاسع عشر، من أجل تقدم الصناعة الأوربية وازدهار الاقتصاد الغربي.. كان في قمة مجده بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر – ص٤٠.

والدولـــة، واستقلاله بالسلطة الزمنية وبالحرية الفردية في التفكير، والتوجيه، وبالحرية السياســـية.. كمـــا كان في أشد الأوضاع حرصاً على اتجاه العلمانية كمثال للإنسانية. فاستصـــحب الاســـتعمار معه هذا الاتجاه بما يستتبعه في الحكم، والتوجيه والتشريع، والاقتصاد في المجتمع الإسلامي الذي يتمكن منه).[1]

ومـــن هـــنا وجدت العلمانية طريقها إلى البلاد الإسلامية تساندها عوامل متعددة ساعدت على انتقال وظهور الفكر العلماني في المجتمع الإسلامي.

ومن هذه العوامل ما يلي:

***

(١) المرجع السابق – ص٤١.

المطلب الأول

تخلف المجتمع الإسلامي وإصابته بالضعف والهزيمة النفسية

بعد أن كان المجتمع الإسلامي يتزعم قيادة هذا العالم انعكس ذلك الوضع فأصبح منقاداً وذلك لعدة عوامل شاركت في ضعفه وانحطاطه فوصل إلى تلك الحال من الانحدار الذي ما زال يعاني منه إلى يومنا هذا.

إن من أقوى هذه العوامل وأشدها أثراً على المجتمع الإسلامي ضعف تمسك المسلمين بالإسلام وانصرافهم عن هذا الدين وعن مفهومه وتصوره الصحيح لنظام الحياة والانغماس في ملذات الحياة ومباهجها، ثم إلى جانب ذلك (ضعف علماء المسلمين واستسلامهم إلى "التقليد" في تقييم الرأي الإسلامي، وفي عرضه وفي فهمه).[1]

كذلك نجد أن من العوامل التي أدت إلى ضعف المجتمع الإسلامي وتأخره عن مواكبة الحضارة والتقدم عدم اهتمام المسلمين في ذلك الوقت بالعلم وإغفالهم لذلك الجانب بينما حرص الغرب على الأخذ به وأنكب عليه.

يقول الأستاذ "محمد قطب": (لم يكن لهم كبير اهتمام بالعلم ... ومن ثم توقف المد الإسلام في ذات الوقت الذي بدأت فيه أوربا تنهل من المنابع الإسلامية لتستمد منها كل أسس النهضة الحديثة، كما هو مسجل ومعروف لدى المؤرخين).[2]

ويقول الشيخ "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله –: (ولكنه لما انقطع في المسلمين نبوغ أهل الفكر وأصحاب التحقيق ولما ترك القوم مزاولة التفكير والبحث والتدقيق، وقعد بهم الغرب عن موالاة الاجتهاد وتحصيل العلم، فكأنهم تنازلوا من تلقاء أنفسهم عن مكانتهم من قيادة العالم، ونهضت من جانب آخر أمم الغرب تتقدم في هذا السبيل، تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والتدبر وتنقب عن أسرار هذا الكون

---

(١) المرجع الاسبق – ص٤٦.

(٢) هل نحن مسلمون – ص١٠٧.

وتبحث عن ذخائر القوى الفطرية المكنونة في جوف الأرض وأعماق البحار. فكانت نتيجة ذلك ما يجب أن تكون – هو أن انتقلت قيادة العالم إلى أمم الغرب، واضطر المسلمون إلى الخضوع لسلطتها كمثل ما خضعت الأمم – من قبل لسلطتهم).[1]

إضافة إلى ذلك نجد أن المجتمع الإسلامي قد ابتلي بوجود الطوائف الباطنية السرية فيه فقد كانت عوامل هدم داخلية لبنيات ذلك المجتمع، هدفها الأساسي تحطيم دولة الإسلام والقضاء على هذا الدين.

يذكر ذلك الأستاذ "علال الفاسي" في كتابه "دفاع عن الشريعة" فيقول: (إذ غير خفي ما قامت به تلك الجمعيات الباطنية السرية، من وسائل ومؤامرات لتفكيك عرى المسلمين، وإفساد العقيدة الإسلامية، وتحطيم دولة الإسلام وغرس الخرافات والأوهام في المجتمع الإسلامي، ومع ذلك فإن الإسلام بقي غضاً طرياً كما هو، ووقع الضلال لبعض أتباعه، والخلاف من بعض أشياعه، ولكن ذلك لا يضر الحقيقة الدينية شيئاً، ولا يمس المهتدين قليلاً ولا كثيراً).[2]

كذلك وقد تعرض المجتمع الإسلام لأحداث شديدة العنف من الداخل والخارج على حد سواء مما زاد في ضعف ذلك المجتمع وانحطاطه.

يذكر ذلك الأستاذ "محمد قطب" فيقول: (وفي أثناء ذلك كله كان الإسلام قد تعرض لأحداث عنيفة أليمة من الداخل والخارج على السواء. من صراعات الأسر الحاكمة، ومن هجمات المغول والتتار، وهجمات الصليبيين حيناً بعد حين.. فلما جاءت هذه الوقفة المتحجرة على يد الحكم العثماني، كان ذلك إرهاصاً بضربة قاصمة تصيب الإسلام).[3]

إن هذا الضعف الذي أصيبت به الأمة الإسلامية ولَّد لديها شعور الإعجاب بالغرب وبكل ما يأتي به، وهذه نظرة المغلوب المنهزم لمن هو أقوى منه.

---

(١) نحن والحضارة الغربية – ص١٠ – ١١.

(٢) ص٨٤ ومن أراد التوسع في هذا فانظر مذاهب الباطنية وبطلانه – محمد حسن الديلمي – والحركات السرية في الإسلام – الدكتور محمود إسماعيل.

(٣) هل نحن مسلمون – ص١٠٧ – ١٠٨.

يصور لنا الشيخ "أبو الأعلى المودودي" رحمه الله – تعالى – هذا الجانب فيقول: (إن القانون الطبيعي هو أن كل أمة تستعمل ما أتاها الله من قوى الفكر والعقل وتمضي قدماً في طريق البحث والتحقيق والاكتشاف تتمتع إلى جانب رقيها الفكري بالرقي المادي أيضاً. وكل أمة تتقاعد عن السباق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تصاب مع انحطاطها العقلي بالتقهقر والاضمحلال المادي كذلك. ثم إنه لما كانت الغلبة نتيجة القوة، والهزيمة عاقبة الضعف فإن الأمم المتخلفة من الجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية وأكثر استعداداً للخنوع، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها معاً. إن المسلمين يعانون اليوم هذه العبودية المضاعفة).[1]

إن وصول المجتمع الإسلامي إلى هذا الوضع المتردي هو الذي جعله أكثر انبهاراً وإعجاباً بالغرب بل وأكثر انفتاحاً ونقلاً لكل ما يجيء به ظناً منهم بأن هذا هو الطريق الذي سيوصلهم إلى قمة الحضارة التي وصل إليها الغرب عندما نبذ "الدين" بعيداً... بعيداً عن نظام حياته.

هذه هي وللأسف نظرة الشرق للغرب، إنهم لا يرون فيه إلا الحضارة والتقدم والتطور والرقي... إلخ.

يقول الأستاذ "علال الفاسي": (وإذا كنا قد أصبنا اليوم بآفة سياسية واجتماعية، جرت إلينا الاحتلال الأجنبي وحبب إلينا جهلنا وتأخرنا الإعجاب بكل ما هو خارج عن مجتمعنا، حتى وجدنا في بلداننا طوائف من الناس يحسبون أن الخير كله في تقليد أوربا الغربية).[2]

ومن هنا وجدت العلمانية كغيرها من النظريات الوافدة إلى الشرق مجالاً خصباً لدى الناعقين بها في المجتمع الإسلامي.

***

(١) نحن والحضارة الغربية – ص٨.

(٢) دفاع عن الشريعة – ص٨٥.

المطلب الثاني

الاستعمـــــار العسكـــــري

إن القــرن الــذي بلغت فيه هذه الحضارة المادية قمة الإلحاد ابتليت فيه الشعوب الإسلامية بالغزو الفكري والمسلح معاً.

يقول الشيخ "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله –: (إن القرن الذي بلغت فيه هذه الحضـــارة الجديدة أوج قوتها من المادية والدهرية والإلحاد كان هو القرن الذي ابتليت فـــيه ممـــالك الإسلام من لدن مراكش إلى الشرق الأقصى بغلبة أمم الغرب في الحكم والسياسة. فكان هجوم الغرب على الشعوب المسلمة في ميدان القلم والسيف معاً).[١]

جـــاء فـــي كتاب "التبشير والاستعمار في البلاد العربية" أن (أكثر الحروب التي شـــنتها أوربـــا مـــن قـــبل على الدولة الإسلامية دينية في أساسها كالحروب الصليبية والحروب في الأندلس. وكذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين كانت حروب الدول الغربية المشنونة على الإمبراطورية العثمانية مميزة بعامل ديني).[٢]

ويؤكـــد هـــذا "جان بول دو" مؤلف كتاب "الإسلام والغرب" عندما يقول: (لم يكن القضاء على الدولة العثمانية إلا مظهراً من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوربيون على الدول الإسلامية).[٣] لقد كان الصراع محتدماً بين النصرانية والإسلام منذ القرون الوســـطى وما زال مستمراً حتى يومنا هذا وبصورٍ مختلفة وأساليب متعددة وذلك لما تضـــمره الصـــليبية من حقد على الإسلام والمسلمين (وعلى الرغم من أن المؤرخين حـــاولوا أن يصـــوروا هذه الحروب على أنها حروب استعمارية بحتة تهدف السيطرة الاقتصـــادية إلا أنـــنا نقول إنها كانت حروباً دينية المحرك الأول لها الثأر من الإسلام والمسلمين).[٤]

---

(١) نحن والحضارة الغربية – ص٢٢.

(٢) مصطفى كمال الخالدي وعمر الفروخ – ص١٢٨.

(٣) نقلاً من اليقظة الإسلامية – أنور الجندي – ص٢٤.

(٤) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام – الدكتور سعد الدين السيد صالح – ص٢٥.

ويؤكـد هـذا أيضـاً "اللورد اللنبي" قائد الجيوش النصرانية في الحرب العالمية الأولـى عـندما قال: (نعم بعد ستة قرون ما زال النصارى يتذكرون هزيمة المسلمين لهم).[١]

أمـا "لويـد جورج" وزير الخارجية البريطاني فإنه (أطلق على الحرب العالمية الأولـى اسـم "الحروب الصليبية الثانية").[٢] وأما الجنرال "غورو" فإنه (بعد أن تغلب علـى جـنود "ميسـلون" عند دمشق توجه إلى قبر "صلاح الدين" وركله بقدمه وقال: (هانحن قد عدنا يا صلاح الدين).[٣]

إن ما ينطق به هؤلاء ما هو إلا تعبير عما بداخلهم من نوايا استعمارية مصحوبة بعوامل دينية والشاهد على ذلك ما يقوله "وليام غاي كار": (لقد عبر زعماء الكنيسة بعد المشاورات المناسبة عن رضاهم التام لجانب استمرار الحملات الصليبية).[٤]

وكذلك "مورو بيرجر" عندما يقول في كتابه "العالم العربي المعاصر": (إن الخوف من العرب، واهتمامنا بالأمة العربية، ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام. يجب محاربة الإسلام، للحيلولة دون وحدة العرب).[٥]

أمـا "فيليب فونداس" فيزيد ذلك تأكيداً بقوله (إن من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسـلام في هذا العالم وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام، وأن تحاول على الأقل إيقاف انتشاره).[٦]

هـذه الأقوال المتعددة تبين مدى عداء هؤلاء للإسلام والمسلمين وأن حروبهم ما قامت إلا للقضاء على هذا الدين وأهله.

ولهـذا فقد تعرض الكثير من المسلمين للتعذيب في أماكن متعددة، منها ما حدث فـي "الأندلـس" فهـذا دليل واضح على ما تحمله الصليبية من حقد دفين ضد الإسلام والمسلمين.

---

(١) نقلاً من المرجع السابق – ص٢٦.

(٢) نقلاً من المرجع السابق – ص٢٦.

(٣) نقلاً من المرجع السابق – ص٢٦.

(٤) أحجار على رقعة الشطرنج – ص٥٥.

(٥) نقلاً من قادة الغرب يقولون – جلال العالم – ص٤٤ – ٤٨.

(٦) المرجع السابق – ص٤٤ – ٤٨.

تقــول الدكــتورة "ســيجريد هونكــه": (نعم إنه كابوس ثقيل مرعب أوجدته تلك الغارات المتكررة على العالم الإسلامي بغية القضاء على هذا الدين "الإسلام" وتطويق العالم الإسلامي والسيطرة عليه).[1]

(لاشــك كانــت محاولــة الغرب في السيطرة على "العالم الإسلامي" خطة قديمة متجددة، وقد مرت بمراحل متعددة، وكانت أخطر مراحلها "الحروب الصليبية" ... وقد ظلت أوربا منذ الحروب الصليبية التي توقفت في المشرق تحارب المسلمين دون توقف أو هــوادة على جبهة المغرب الإسلامي، هذه الحروب التي وجهت بعنف وشراسة إلى الدولة العربية الإسلامية).[2]

يقــول "لورنــس بــراون": (وكذلك شنت الدول الأوربية في القرن التاسع عشر والقــرن العشــرين حــرباً عدوانية على الحكومات المسلمة، ثم انتزعت منها أراضي ضمتها إلى سلطانها هي. ولقد كانت النتائج في أحوال كثيرة غير سارة لبعض الشعوب التــي اســتعبدت، وخصوصاً من المسلمين ولكن هذه الشعوب لم تصل بعد إلى درجة تشعر فيها أنها أصبحت أقليات مضطهدة).[3]

هــذا يعني أنه بالرغم من كل تلك الأحوال الخطيرة التي مرّ بها العالم الإسلامي إلا أنــه لــم يستسلم للغزو النصراني المتحالف مع الصهيونية العالمية بل واجهوا تلك المعــركة بكــل قــوة وصلابة ولكن المعركة لم تكن متكافئة حيث كان الغرب يمتلك الأســلحة الحديثة إلى جانب ذلك التحالف الداخلي فيما بينهم، بينما المسلمون لا يملكون غير أجسادهم المتراصة التي يضحون بها من أجل هذا الدين وذلك بسبب ما أصيبوا به من ضعف وتفكك.

يصــور لنا هذا الموقف الشيخ "أبو الأعلى المدودي" فيقول: (فخمدت فيهم روح الجهــاد وضــعفت قــوة الاجتهاد. فجعلوا كتاب الله الذي منحهم نور العلم وقوة العمل تذكــاراً مقدســاً غلفوه ووضعوه في المحاريب وتركوا إتباع السنة النبوية، التي شكلت حضــارتهم في صورة نظام مكتمل للفكر والعمل. فكانت النتيجة أن توقف سير رقيهم،

---

(١) انظر المرجع السابق – ص ٨.

(٢) اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار – أنور الجندي – ص٢٣.

(٣) التبشير والاستعمار – مصطفى خالدي – ص١٢٨ – ١٢٩ وانظر اليهود دوراء كل جريمة – وليم كار – ص ٦١.

وتحـــول ذلـــك النهر الذي بقي جارياً منهمراً على طول القرون إلى مستنقع ساكن في وادي الجمود. فانعزل المسلمون عن منصب الإمامة في العالم).[١]

أمـــا الموقف الغربي فيصوره لنا "باركر" مؤرخ الحروب الصليبية عندما يقول: (إن أوربا لم تجد في الحروب الصليبية سبيلاً للاتحاد الداخلي فحسب، أو مؤثراً جديداً في شتى مواقفها الداخلية ولكنها كسبت نظرة جديدة واسعة للحياة، وقد كان الاتساع في مدى النظر أكبر ما كسبته أوربا من الحروب الصليبية).[٢]

الحقـــيقة لـــم تلبث مرحلة تطويق عالم الإسلام أن مضت إلى غايتها حتى بدأت حـــركة الاستعمار والغزو العسكري يقول "أنور الجندي": (وكانت قد انبثقت خلال هذه الفقـــرة "حـــركة الاستعمار الذي أطلق عليها حركة "تطويق عالم الإسلام" عام ١٥٠٠ تقريباً واستمرت إلى عام ١٧٩٨ حين بدأت أول حملة عسكرية غربية مهاجمة الإسلام في مصر وهي حملة "نابليون".

وفـــي خـــلال معـــركة التطويق بدأت أوربا تضع يدها على جميع أجزاء العالم الإسلامي، ثم كانت مرحلة ما بين ١٧٧٩ – ١٩١٨ هي مرحلة السيطرة السياسية على العالم العربي والهند وفارس وتركيا ...).[٣]

إن المجـــتمع الأوربـــي عندما تحرك لاستعمار الدول العربية والإسلامية وعندما بـــدأت حـــركة الاســـتعمار للـــدول العربية والإسلامية كان المجتمع الأوربي في أشد الأوضـــاع حرصـــاً علـــى العلمانية كمثال للإنسانية، ولقد استصحب معه هذا الاتجاه لمحاولة تطبيقه على المجتمع الإسلامي. لكن كيف لهذا المستعمر أن يطبق هذا الاتجاه العلماني في المجتمع المسلم المغاير له في كل خصائصه وتاريخه وواقعه.

يجيب الدكتور "محمد البهي" على ذلك فيقول: (لذلك اضطر هذا الاستعمار إلى أن يســـلك طريق عزل المجتمع الإسلامي كلية عن ماضيه وعن تراثه العقلي والروحي، والتوجيهي والسلوكي.

---

(١) نحن والحضارة الغربية – ص٤٤.

(٢) نقلاً من اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار – أنور الجندي – ص٢٥.

(٣) المرجع السابق – ص١٥٩.

وذلك مرة بتمجيد التقدم العلمي الأوربي في نظر المسلم ومرة بالتزهيد أو التنفير من تراث الأمة الإسلامية بالتقليل من شأنه والحط من قيمه، وإبراز عدم صلاحيته للمجتمع الإنساني).[1]

حتى إذا ما تم له ذلك (أصبح محالاً للعقول التي راعتها غلبة الغرب السياسية وبهتتها أن لا تتأثر بروعة الفلسفة والعلوم الغربية وببريق المدنية التي نشأت في أحضانهما وساءت الحال خاصة في الأمم المسلمة التي دخلت تحت حكم دولة من دول الغرب، لأنها اضطرت لأجل الحفاظ على مصالحها الدنيوية إلى تحصيل علوم الغرب).[2]

وهكذا فقد صحب الاستعمار الغربي في المجتمع الإسلامي الانبهار به وبما جاءت به حضارته المزيفة. ولم يكن وراء ذلك الإعجاب إلا التقليد والأخذ بكل ما أتت به هذه الحضارة البراقة. وقد كان ذلك أحد الطرق لدخول العلمانية إلى المجتمع الإسلامي.

***

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر – ص٤١ – ٤٢.

(٢) نحن والحضارة الغربية – ص٢٤.

المطلب الثالث

سقـــــــوط الخلافـــــة

لقــد كانت الخلافة العثمانية صرحاً شامخاً قوياً يلتف حوله المسلمون ويعتبرونه رمز وحدتهم، وقوتهم، وعزتهم، وحريتهم، بينما كان ذلك مصدر خوف وقلق لأعدائهم الذيــن قــاموا بتكثيف جهودهم ووضع مخططاتهم الماكرة من أجل القضاء على هذه "الخلافــة" التــي تقف سداً منيعاً حائلاً دون تحقيق مآربهم وأطماعهم، فاليهود يريدون إقامــة وطن قومي لهم في فلسطين، وأوربا تريد السيطرة على العالم الإسلامي ولكنهم أدركوا أنه لا يمكنهم ذلك إلا بعد القضاء على هذه الخلافة وتحويل بلدانها إلى دويلات متفرقة يستطيع أعداء الإسلام اقتسامها والتهامها واحدة بعد الأخرى. وتضافرت القوى المتآمرة للتخلص من الخليفة العثماني "عبد الحميد" الثاني تمهيداً للقضاء على "الخلافة" الإسلامية وتحقيق الدولة اليهودية والوطن القومي اليهودي.

(فاستمرت مؤامرات اليهود وتغلغلهم في دوائر الحكم العثماني أكثر من أربعمائة عــام حــتى انتهت بزوال الخلافة العثمانية وهدم ذلك المعقل الإسلامي الخطر على يد "مصطفى كمال أتاتورك").[1]

لقد نجح اليهود في إسقاط الخليفة "عبد الحميد" الثاني وإخراجه من منصبه وتسليم "كمال أتاتورك" هذا المنصب لعلمهم بأنه القائد المخلص لهم الذي سوف ينفذ لهم كل ما يهدفون إليه. وبذلك تحولت تركيا من دولة إسلامية تتزعم العالم الإسلامي إلى دولة لا دينــية لا قــيمة لهــا عــند المسلمين بعد سقوط الخلافة الإسلامية والتي كانت نتيجة (لمؤامرات اليهود وتغلغلهم في الحكم العثماني أكثر من أربعمائة عام).[2]

---

(١) الافعى اليهودية – عبد الله التل – ص٧٥.

(٢) انظر أسرار الانقلاب العثماني – مصطفى طوران – ص٥.

المطلب الرابع

الغـــــــزو الفكـــــــري

لقد كان للانتصارات الإسلامية وتوسعها وقع مؤلم على نفوس أعدائهم فقد أثارت حقـد الصليبية ضدهم، وما زال هذا الحقد موجوداً في نفوسهم فقد استخدمت الصليبية القـوة العسـكرية وأخـذت تشـن حروبها على العالم الإسلامي بما يسمى بالحروب الصليبية، ولكنها جميعها باءت بالفشل أمام قوة المسلمين ورباطة جأشهم.

يقول "باترسون سمث" في كتابه "حياة المسيح الشعبية": (باءت الحروب الصليبية بالفشـل، لكن حادثاً خطيراً وقع بعد ذلك، حينما بعثت انكلترا بحملتها الصليبية الثامنة، ففازت هذه المرة، إن حملة "اللنبي" على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى هي الحملة الصليبية الثامنة، والأخيرة).[1]

ولكـن وبالـرغم من ذلك فقد استطاع العالم الإسلامي أن يحقق انتصاراته على النصرانية وذلك باجلاءها عن العالم وإعادة بلاد المسلمين إلى حوزتهم.

وهـنا وقـف أعداء الإسلام يتساءلون عقب كل معركة انهزموا فيها عن سر قوة المسلمين، ولقد كان أول من طرح هذا السؤال ("هرقل" قيصر الروم عندما جمع قادته وراح يسألهم: من هؤلاء الذين تقاتلون؟ أليسوا بشراً مثلكم؟

فقـال لـه قـائد الجيوش الرومانية أنا أخبرك يا سيدي: إنهم بشر ولكنهم ليسوا كالبشر، إنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار. فقال "هرقل": والله إن كانوا كما تقول ليملكن موضع قدمي هاتين).[2]

كذلـك وقـد كـان "للفـرس" نفس السؤال عقب هزائمهم. لقد (أرسلوا إلى بلاد المسـلمين مـن يبحث لهم عن هذا السر وعندما وصل إلى المدينة ابن الدِهقان الأكبر وأحـد العامليـن بمعـبد الـنار – وبهرام رئيس الجيوش الفارسية لم يجدوا أحداً من

---

(١) نقلاً من قادة الغرب يقولون – جلال العالم – ص٢٦ – ٢٧.

(٢) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام – سعد الدين صالح – ص٢٨.

المسلمين يتحدثون معه، وعندما سألوا عنهم قيل لهم: بأنهم في المسجد يصلون في جماعة).[1]

وكذلك بعد الحروب الصليبية كرر النصارى نفس سؤال "هرقل"، وكان الجواب هو نفسه، إنه الإسلام ولا شيء غيره.

إذاً بالإسلام نهضت الأمة الإسلامية سابقاً، وبالإسلام انتصرت على أعدائها، وهذه هي الحقيقة التي أدركها الغرب المسيحي فأصبح الإسلام يشكل لهم مصدر خوف وقلق لا ينقطع.

يقول "لورنس براون": (إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي).[2]

ويقول المستشرق "غاردنر": (إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربا).[3]

ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة عام على استعمار الجزائر: (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم).[4]

ويقول "غلاد ستون": (ما دام القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوربا السيطرة على المشرق، ولا أن تكون نفسها في أمان).[5]

لهذا اتجه أعداء الإسلام إلى تخطيط جديد أشد خبثاً ومكراً لمواجهة المسلمين لأنهم وجدوا أن مواجهتهم بالقوة لم تحقق لهم إلا الخسارة ولذلك اتخذوا الغزو الفكري وسيلة جديدة لضرب المسلمين وذلك بإخراجهم من دينهم أو تنصيرهم أو إبعادهم عن الإسلام بوسائل متعددة، ومن خلال هذه الوسائل تسرب الفكر العلماني إلى المجتمع الإسلام ودخلت العلمانية في مجالات متعددة.

---

(١) انظر المرجع السابق – ص٢٩.

(٢) نقلاً من قادة العرب يقولون – جلال العالم – ص٣٢.

(٣) نقلاً من المرجع السابق – ص٤٠.

(٤) نقلاً من المرجع السابق – ص٣٣.

(٥) نقلاً من المرجع السابق – ص٤٠.

ومـــن وسائل هذا الغزو الفكري التي استخدمها أعداء الإسلام لضرب هذا الدين والتي من خلالها تسللت العلمانية إلى بلاد المسلمين ما يلي:

(أ) الاستشراق:

تعـــريفه: هـــو علم الشرق أو علم العالم الشرقي. وكلمة "مستشرق" بالمعنى العام (تطلـــق علـــى كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه).[١]

الهدف من الاستشراق:

إن مـــن أهـــم ما تهدف إليه الدراسات الاستشراقية محاربة الإسلام وذلك بالطعن والتشـــكيك فيه وإثارة الشبهات حوله وإخفاء حقائقه وتشويه سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته، وكذلك تشويه معالم التاريخ الإسلامي والدس في ذلك.

يقـــول الدكـــتور "محمود حمدي زقزوق" هناك (فريق من المرتزقة الذين جندوا دراســـاتهم وبحوثهم في خدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعمارية... وفـــريق مـــن المتغطرســـين الذيـــن أخذتهم العزة بالأثم وأعمتهم الضلالة عن النزاهة العلمية، فراحت أقلامهم تقطر حقداً وعداوة وطعناً في الإسلام).[٢]

ويقول "كارادي فو": (إن محمداً ظل وقتاً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه).[٣]

ويقـــول "إســـماعيل الكيلاني": (وقد استتبع هذا إبعاد الإسلام عن مجال العلاقات العامـــة، وعن مجال علاقات الأفراد بعضها ببعض... وظهرت فكرة أن الإسلام دين فردي شخصي لا يصلح أن يتدخل في علاقات الأفراد بعضهم ببعض).[٤]

---

(١) الاستشراق – الدكتور محمود حمدي زقزوق – ص١٨.

(٢) الاستشراق – ص٧٥.

(٣) نقلاً من نظرات استشراقية – محمد غلاب – ص٩.

(٤) فصل الدين عن الدولة – ص١٤١.

لقد دخلت هذه الدعوى إلى المجتمع الإسلامي عن طريق الاستشراق وأخذ يرددها البعض من العلمانيين في كتاباتهم ممن أخذ من الغرب وتأثر به.

(ب) التنصير:

تعـريفه: هـو الدعوة إلى النصرانية ومحاولة إدخال الناس فيها بوسائل وطرق مـتعددة مشـروعة وغير مشروعة (أما في العصر الحديث فقد استغلت فكرة التنصير أسـوأ استغلال عندما أتخذت سلاحاً لإخراج المسلم من إسلامه حتى ولو لم يدخل في النصرانية).[١]

الهدف من التنصير:

لـم تكـن وظيفة الإرساليات التنصيرية ما أعلنوه، وإنما كان ذلك تغطية سطحية للأهداف الحقيقية وستاراً لها وقد اتضح ذلك من خلال أقوالهم التي صرحوا بها والتي سأذكرها من خلال بيان الأهداف الحقيقية للتبشير وهي كالتالي:

إن مـن أهـم مـا يهدف إليه الغرب من التنصير هو القضاء على الإسلام ومنع انتشاره، وفي هذا يقول أحد دعاة التنصير "تكلي": (يجب أن نشجع إنشاء المدارس على الـنمط الغربي العلماني، لأن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية).[٢]

أمـا "صـموئيل زويمـر" رئـيس جمعيـات التنصيـر فإنـه يقول : (ما دام المسـلمون يفـرون مـن المدارس النصرانية فلابد أن ننشىء لهم المدارس العلمانية، ونسهل التحاقهم بها، هذه المدارس التي تساعدنا في القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب).[٣]

وهكـذا يتضح من خلال أقوال (هؤلاء أن ما أراده الغرب النصراني هو القضاء علـى الإسـلام لأنهم وجدوا فيه مصدر القوة للمسلمين، ومركز وحدتهم والمنبع الذي

---

(١) انظر احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام – الدكتور سعد الدين صالح – ص٤١.

(٢) نقلاً من التبشير والاستعمار – عمر فروخ – ص٨٨.

(٣) نقلاً من قادة العرب يقولون – جلال العالم – ص٥٦.

يســـتقون منه أخلاقهم فكان لهم عقبة في طريقهم يجب عليهم التخلص منها. ولهذا نجد أن ("لويـــس التاسع" ملك فرنسا أدرك بعد هزيمته على يد المسلمين أن طريق السيف معهـــم لا فـــائدة منه فحول المعركة إلى طريق "التنصير" وأشار على "البابا انوسنت" الرابع بإنشاء أول جمعية للتنصير سنة ١٢٥٣م).[١]

يقـــول "صـــموئيل زويمـــر": (إن لنتيجة إرساليات التنصير في البلاد الإسلامية مزيتين: مزية تشييد، ومزية هدم: أما الهدم فنعني به انتزاع المسلم من دينه ولو بدفعه إلى الإلحاد وأما البناء فنعني به تنصير المسلم إن أمكن ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه).[٢]

لـــم يكـــن الإسلام وحده هو ما يقصده الغرب بمخططاتهم وإن كان ذلك هو الذي يرعـــبهم ولهـــذا يضعونه نصب أعينهم، وإنما أيضاً وحدة المسلمين وتماسك صفوفهم تقلـــق مضـــاجعهم، لأنهـــم يـــرون أن فـــي ذلك ما يحول بينهم وبين تحقيق أطماعهم الاســـتعمارية ولهذا فقد كان من سياستهم إبقاء هذه الشعوب في صراعات ومنازعات مستمرة فهذه تضعف الدول الإسلامية وبذلك يسهل عليهم الانقضاض عليها، ولهذا اتخذ الغـــرب "التنصـــير" وسيلة لتفتيت تلك الوحدة الإسلامية وإبقاء المسلمين في انقسامات مســـتمرة، ولهـــذا يقـــول القسيس "سيمون": (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر (كذا) وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية).[٣]

ويقـــول دعـــــاة التنصيـــر : (يجب أن نحول بالتنصيـــر مجـــاري التفكير في الوحـــدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين).[٤] كذلك ولم تكن الأخـــلاق الإســـلامية بعـــيدة عـــن هذه الأهداف التنصيرية بل كانت من جملة ما هو مســـتهدف – لأنهـــا مستمدة من الإسلام – فالقضاء عليها يفقد الأمة الإسلامية هويتها وطابعهـــا الإســـلامي – الذي تميزت به عن بقية الشعوب الأخرى – وهو ما يحرص عليه الغرب. بأن تعيش هذه الأمة في ضياع وتيه وبلا هوية، وأن يتسلم الغرب قيادتها

---

(١) التبشير والاستعمار – عمر فروخ – ص١١٥.

(٢) نقلاً من قادة الغرب يقولون – جلال العالم – ص٥٥ وانظر الغارة على العالم الإسلامي – شاتلية – ص٨ – ٩.

(٣) نقلاً من التبشير والاستعمار – الدكتور عمر الفروخ – ص٣٧.

(٤) المرجع السابق – ص٣٧.

حيثما شاء يوجهها طبقاً لأهدافه وغاياته الاستعمارية. وفي هذا يقول "زويمر" للمنصرين في "مؤتمر القدس": (إن مهمة التنصير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في النصرانية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً. إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها. ولذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية).[١]

كذلك ومن جملة تلك الأهداف التجسس على العالم الإسلامي لخدمة الاستعمار.

يقول الأمريكي "جاك مندلسون" أحد دعاة التنصير: (لقد تمت محاولات نشيطة لاستعمال المبشرين لا لمصلحة النصرانية وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية).[٢]

ويقول "نابليون": (إن في نيتي إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عوناً كبيراً في آسيا وأفريقيا، وسأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار، إن ملابسهم تحميهم وتخفي أية نوايا اقتصادية أو سياسية).[٣]

يقول الدكتور "سعد الدين السيد صالح": (المبشرون "المنصرون" في الحقيقة سماسرة وجواسيس من ذوي الأطماع الشخصية والمصالح الخاصة التي عجزوا عن تحقيقها في بلادهم فخرجوا إلى العالم تحت ستار التنصير).[٤]

ومن كتاب "وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج" تحت عنوان "الخليج العربي أمام التحدي العقدي" يقول الأستاذ "سعد عبد الله حارب": (إن كثيراً من منصري القرن التاسع عشر، كانوا يتحركون بعقلية صليبية وكانوا استعماريين يقومون بدور مزدوج في التنصير وخدمة مخططات دولهم الاستعمارية).[٥]

---

(١) نقلاً من قادة العرب يقولون – جلال العالم – ص٥٤ – ٥٥.

(٢) نقلاً من إحذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام – الدكتور سعد صالح – ص٦٢.

(٣) نقلاً من المرجع السابق – ص٦٢.

(٤) نقلاً من المرجع السابق – ص٦٢.

(٥) ص٢٥٧.

هــذه هـــي أهم غايات "الإرساليات التنصيرية" المنبثة في أنحاء العالم الإسلامي والتـــي لم تعد خافية على أحد وإن ظهرت بمظهر الإعانة والمساعدات أو بأي مسمى مـــن المســـميات الأخـــرى، فـــالهدف الأساسي عندها والذي تسعى إليه بكل وسائلها ومخططاتهـــا هـــو إخـــراج المسلمين من دينهم، وإبعادهم عنه بأية صورة كانت لأنهم وجدوه مصدر قوتهم (للمسلمين) ونصرهم.

***

المطلب الخامس

حملة الفكر الغربي من أبناء المسلمين.

فـــي أول اتصال للمسلمين بالغرب من أجل الإطلاع على علومهم لم يأخذوا بكل مـــا قابلهم من علوم بل ما وافق دينهم أخذوه وما كان مخالفاً له رفضوه وتركوه، وفي المـــرة الثانية عندما اتصل المسلمون بالغرب وكان في أعلى درجاته من الرقي، بينما المســـلمون كـــانوا قـــد بلغوا من التخلف ما بلغوا مما جعلهم يمشون إلى الغرب مشية المســـتجدي المتـــتلمذ، ولم يستفيدوا من علومه، بل أخذوا يكفرون بوجودهم وماضيهم وحاضـــرهم، لقد أصبح أبناء الأمة الإسلامية من حملة الفكر الغربي أشد خطراً ووبالاً علـــى أمتهم لحملهم هذه الأفكار واقتناعهم بها، فكانوا يبثونها في مجتمعاتهم عن قناعة تامة بها مما كان له عظيم الأثر في نفوس الأجيال الناشئة.

يقول الشيخ "أبو الأعلى المودودي": (وكان يجلس التلامذة الشرقيون أمام أساتذتهم الغربييـــن بعقـــول مـــرتاعة مفتتنة، درج النشيء المسلم الجديد على أشد ما يكون من الانفعـــال والتأثر بالأفكار الغربية... وظلت عقلياتهم تتلون بلون الغرب وبقى يمتد في نفوسهم نفوذ المدنية الغربية ولم يفتح الله عليهم بالبصيرة الناقدة التي تميز بين الصحيح والزائف فتجعلهم يختارون الصحيح دون الزائف).[1]

ويصـــف الأســـتاذ "علال الفاسي" إلى أي مدى وصل تأثر أبناء المسلمين بالفكر الغربي فيقول بلسان حالهم: (ونرغب في أن نمسخ أنفسنا وأفكارنا عسانا أن نتحول إلى شكله، ننطق بقوله، ونناضل عن رأيه ونفخر بحسباننا عليه).[2]

وهكذا وعن طريق هذه العوامل وجد الفكر العلماني نافذة له إلى العالم الإسلامي. ووجدوا الطريق أمامه قد مهدت ليستقر في ديار الإسلام.

***

(١) نحن والحضارة الغربية – ص٢٢ – ٢٣.

(٢) انظر دفاع عن الشريعة – ص٨٧ – ٨٨.

المبحث الثالث

ظهور الفكر العلماني في العالم الإسلامي.

وجـــدت العلمانية من العوامل السالفة الذكر نافذة لها إلى العالم الإسلامي فتسللت مـــن خلالها بشكل أو بآخر إلى هناك وأصبح لها في تلك البقاع أنصار وأتباع ينادون بهـــا، ويدعـــون إلـــيها بصورٍ وأساليب مختلفة. ولهذا نجد أن (الناظر الآن إلى العالم الإسلامي لا يجد دولة تتحاكم إلى شرع الله – تعالى – فيما يعرض لها من مشاكل في جوانـــب الحـــياة، ســـواء كـــان ذلك في المعاملات المالية أو الإدارية أو في الشؤون الاجتماعـــية الأخرى، كالحدود وغيرها، ولا يكاد المرء يستثني دولة من ذلك، اللهم إلا المملكـــة العربـــية الســـعودية، أو أخـــيراً ما كان من شأن باكستان التي بدأت بتطبيق جزئي).[1]

يقـــول الدكـــتور "محمـــد البهي": (وعلى ذات الأسس التي أقام عليها "أتاتورك" المجتمع التركي، حاول زعماء "عصريون" في بعض الدول العربية الإسلامية المستقلة حديثاً أن يقيموا مجتمعاً كهذا، تحت تأثير التوجيه الاستعماري واليهودي معاً... ومنهم من صرح في إحدى إذاعاته الرسمية الأسبوعية، أن القرآن لم يعد صالحاً لهذا المجتمع الحديث، وإن من الواجب تركه... وفعلاً أصدر من القوانين ما يبعد الشريعة الإسلامية عن الأحوال الشخصية في الميراث وفي الزواج، وفي الطلاق).[2]

وبهـــذه الصـــورة (حلـــت القوانيـــن العلمانية محل الشرائع الدينية في كل حقول التشـــريع المدنـــي والجزائي والتجاري والدستوري، وقد كان هذا التحول تاماً في بلد كمصـــر، حيث جرى بصورة غير ملحوظة تقريباً كما كان تاماً في تركيا، حيث جاء نتـــيجة للـــثورة الكمالية حتى أن هجوماً قد شن في تركيا وتونس على آخر معقل من معاقل الشريعة، أي القوانين الخاصة بالأحوال الشخصية).[3]

---

(١) مجالات انتشار العلمانية وأثرها في المجتمع الإسلامي – الدكتور محمد زين الهادي – ص١١٧.

(٢) الدين والحضارة الإنسانية – ص١٨.

(٣) الفكر الغربي في عصر النهضة – البرت حوراني – ص٤١٨.

وهكـــذا فقد أصبح للعلمانية وجودها في العالم الإسلامي، وقد كانت تركيا ومصر مـــن أســـبق الـــدول إلى تطبيقها والتطبع بها ولقد وجد فيها من يحمل الفكر العلماني وينادي به، بل ويدافع عنه. وإليك بعضاً من صور العلمانية في كل من:

(أ) تركيا:

بعـــد ســـقوط الخلافـــة الإسلامية سارعت "تركيا" إلى تطبيق العلمانية وكان ذلك متمـــثلاً فـــي المتغيرات التي أحدثها "كمال أتاتورك" بداخل ذلك المجتمع المسلم الذي أصبح قطعة من الحضارة الغربية وجزءاً من أوربا.

يقـــول صـــاحب كتاب "الرجل الصنم": (إن المبدأ الرئيسي من الثورة التركية هو العلمانـــية فـــي حقـــيقة الأمر. وقبل فهم معنى هذه الكلمة (أي العلمانية) فلا يمكن فهم تركية الحديثة.

إن العلمانـــية فـــي بلد مسلم تحمل مفهوماً أكثر حدة من ذلك لأن الإسلام ممتزج بالدولـــة بشـــكل قوي، فالشريعة تحكم حياة الأفراد في كل نواحيها، ولم يستطع أي بلد إسلامي اختيار طريق العلمانية سوى تركية. ولذلك فإن تركية أحدثت بموقفها هذا هزة شديدة في العالم الإسلامي).[1]

يقـــول "سيرتيود": (لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تتدبر خطورة ما هو جار في الشرق، فإن العالم الإسلامي أجمع ليعج غضباً، ويحتدم حنقاً من جراء تجربة تركية).[2]

لقد كان الإسلام في نظر "أتاتورك" أكبر عائق بين تركيا وأوربا لذلك نجد أن أول ما قام به هو هدم الإسلام وذلك بالقضاء على كل ماله صلة بهذا الدين (لذلك فإن جميع "الانقلابـــات" والانجـــازات الـــثورية التي حققها "أتاتورك" في الفترة ما بين ١٩٢٠ – ١٩٣٠ كانـــت تـــتعلق بالديـــن بصورة مباشرة أو غير مباشرة – وقد خطا "أتاتورك" خطوات واسعة جداً في سبيل إبعاد تركية عن الإسلام وعن القواعد الإسلامية).[3]

---

(١) ص ٥٤١.

(٢) نقلاً من المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره – دكتور محمد شاد خليل – ص١٥٦.

(٣) الرجل الصنم – ص٥٣٧.

يقول "عبد الله التل": (لقد رسم اليهود الخطة ونفذها "مصطفى كمال" على الشكل التالي:

- ألغى الخلافة الإسلامية.
- أعلن العلمانية وفصل الدين عن الدولة.
- اضـــطهد علماء الدين المسلمين أبشع اضطهاد وقتل منهم العشرات وعلق جثثهم على أعواد الشجر.
- أغلق كثيراً من المساجد وحرم الأذان والصلاة باللغة العربية وأجبر الشعب على تغيير زيه الوطني ولبس الزي الأوربي.
- ألغى وزارة الأوقاف ومنع الصلاة في جامع أياصوفيا وحوله إلى متحف.
- ألغى المحاكم الشرعية وفرض المدنية السويسرية.
- فرض العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلاً عن يوم الجمعة.
- ألغى استعمال التقويم الهجري واستبدله بالتقويم العربي الميلادي.
- ألغـــى قوانين الميراث والزواج والأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة. وحرم تعدد الزوجات والطلاق وساوى بين الذكر والأنثى في الميراث.
- شجع المرأة التركية والفتاة والشاب على الفساد.
- قضى على التعليم الديني في الجامعة والمدارس .... إلخ.
- استبدل الحروف العربية باللاتينية.
- ســـعى إلـــى حذف الكلمات العربية من اللغة التركية إمعاناً في البعد عن العروبة والإسلام.
- فتح باب تركيا على مصراعيه ليدخل منه علماء اليهود الذين نبذتهم ألمانيا.
- أســـس حـــزب الشـــعب، ومارس عن طريقه عمليات الإرهاب والبطش بالشعب التركي).[1]

---

(١) الأفعـــى اليهودية في معاقل الإسلام – ص٩٤ وما بعدها. وانظر الرجل الصنم ص٢٩٦ وما بعدها والعلمانية وجهاً لوجه – الدكتور يوسف القرضاوي – ص٦٠.

تقــول "دائرة المعارف الماسونية": (إن الانقلاب التركي عام ١٩١٨ الذي قام به الأخ العظــيم "مصــطفى كمال أتاتورك" أفاد الأمة، فقد أبطل السلطنة، وألغى الخلافة، وأبطــل المحــاكم الشرعية، وألغى دين الدولة الإسلام ... أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغــيه الماسونية في كل أمة ناهضة؟ فمن يماثل "أتاتورك من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً).[١]

وهكــذا أصبحت تركيا دولة علمانية وأدارت ظهرها للإسلام كما أراد لها أعداء الإسلام وكما خططوا لها.

(ب) مصر:

دخلــت العلمانــية مصر مع "نابليون" الذي حمل معه أفكار الثورة الفرنسية يقول الدكتور "السيد أحمد فرج": (كان "الجبرتي" على حق فقد جاء "نابليون" إلى مصر يحمل معــه أفكار الثورة الفرنسية التي بلورت فكر أوربا كله في القرن السابع عشر والثامن عشــر والقائم على تأسيس مبدأ دنيوي خالص يقوم على احترام بحث الإنسان وفكره، ذلــك الإنســان الــذي يكافح وينجح في حياته المادية الخالصة، ويعلن عصيانه على "الدين"، ويرفع شعار "إنما يصنع الإنسان نفسه عالمه").[٢]

لقد كان ذلك مقدمات لفصل الدين وإبعاده عن نظام الحياة في "مصر" وإقامة ذلك النظام على مبدأ مادي، ولإظهار ذلك بصورة حسنة ومقبولة بحيث يمكن التجاوب معها ظهرت لكتاب التنوير محاولات عدة يزعمون فيها أن "مصر" كانت في ظلام حتى جاء "بونابرت" فأنار الشرق كله، والحقيقة هي عكس ذلك لقد كانت النهضة موجودة ومجيئ "نابليون" كان هدماً لها.

يقــول الأســتاذ "أنــور الجندي": (أما تنوير قادة الإرساليات الأجنبية في "مصر" و"الشام" فهي تصوير مزيف لتاريخ أمتنا).[٣]

---

(١) نقلاً من فصل الدين عن الدولة – إسماعيل الكيلاني – ص٢٣٣ .

(٢) جذور العلمانية – ص٢٧.

(٣) الكشف عن سموم التغريب والغزو الفكري – ص١٩٠.

لقـد كـان "نابليون" أول من أرسى قواعد العلمانية في مصر، وكان "محمد علي" امـتداداً له فـي ترسيخ هذه العلمانية والتمكين لها في أرض "مصر" وذلك عندما قام بـتقويض سلطة الأزهر وإضعاف نفوذ علماء الدين، واستمر على خطة "نابليون" في التحديث حتى أقام بذلك دولة علمانية لا تقيم للدين اعتباراً ولا تفرق بين مواطن وآخر إلا بمـا يقدمه لها من خدمات... وقد استمر ذلك التيار العلماني كما أراده "محمد علي" مـا يقـرب من أربعين سنة (وكان مفكره ورائد حركة التحديث في ذلك العهد "رفاعة الطهطاوي" الذي قاد أول عملية منظمة تدعو إلى ضرورة تغيير العقلية المصرية وتقبل المـبادئ الأوربـية ثم توقف ذلك المد قليلاً وسرعان ما استعاد نشاطه في عهد "سعيد باشا"، و"إسماعيل باشا" الذي ألغيت في عهده المحاكم الشرعية، وترجم القانون الفرنسي المدني والجنائي إلى العربية، ثم سار التنصير والاستعمار جنباً إلى جنب لنشر العلمانية والعمـل على جعل الشعوب الإسلامية تؤمن بأن الدين هو السبب في تخلفها وتأخرها فـي جميع مجالات الحياة، وأنه لا يمكنها النهوض ومواكبة الحضارة إلا إذا انفصلت عن هذا الدين وأخذت بمنهاج أوربا).[1]

ولهـذا قـال "هانوتو" الاستعماري الفرنسي: (الدين الإسلامي يبعث في الإنسان الخمول والكسل... وإن تقدم المسلمين مستحيل لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك... وإن حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا نجحت).[2]

ولأجـل ذلك قامت عدة محاولات لتقبل العلم الأوربي والأخذ به والعمل بما جاء فيه على غرار أن أساس هذا العلم الإسلام وأن أوربا عندما أخذت به نهضت وتقدمت فلماذا لا نأخذ به ويكون ذلك سبب نهضتنا.

أخذت تلك المحاولات تقوى وتتكرر وفي كل مرة تكون أقوى من سابقتها حتى تم الـنجاح لخطة الاستعمار والمنصرين في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية ثم بلغـت هذه الخطة أقصى مداها في "مصر" لأنها كانت أكبر الدول العربية والإسلامية وبالتالي سيكون تأثيرها كبيراً على الأمة الإسلامية.

---

(١) انظر جذور العلمانية – الدكتور السيد أحمد فرج – ص٤١ – ٤٣.

(٢) نقلاً من المرجع السابق – ص٤١ – ٤٣.

وهكـــذا أخـــذ يسير التيار العلماني بخطوات واسعة ويزداد يوماً بعد يوم ولعبت الصحافة دوراً هاماً وخطيراً في ذلك فقد ساعدت على انتشاره وتوسعه.

(لقـــد كانـــت خدمة المقتطف للفلسفات الغربية، وخدمة الهلال للتاريخ والسياسة واضـــحة فقـــد جاء خريجو إرسالية القديس يوسف (بأول إرسالية للتبشير الغربي) إلى مصـــر ونصـــروا الصحافة في البلاد العربية فظلت صحفهم: المقطم، الإهرام، الهلال تـــنمو بينما سقطت الصحف المصرية الوطنية البلاغ، كوكب... لأنها كانت تجاهد في ســـبيل تحريـــر الوطن وليس خدمة "كرومر" وجماعته ولقد قسم "المارون" أنفسهم بين النفوذين المقطم للنفوذ البريطاني والأهرام للنفوذ الفرنسي).[1]

ولقـــد سخر العلمانيون وأنصارهم أقلامهم في الترويج لأفكارهم التي أخذوها من الغرب وتأثروا بها، ومن تلك الأفكار التي استوردوها وأرادوا تطبيقها على مجتمعاتهم نظرتهم إلى الدين نظرة فردية.

فالديـــن فـــي تصورهم يجب أن يكون بين الفرد وربه ولا دخل له بشئون الحياة الأخرى، لذلك يجب أن يفصل هذا "الدين" عن نظام الحياة.

ولهـــذا نجد "علي عبد الرزاق" يقول: (الرسول – عليه الصلاة والسلام – كانت ولايـــته ولايـــة روحـــية تهدي إلى الله، وولاية الحاكم ولاية مادية تدير مصالح الحياة وعمـــارة الأرض، تلك للدين والأخرى للدنيا، تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية، ويا بعد ما بين السياسية والدين).[2]

ويذهـــب إلـــى هـــذا الرأي "فرح أنطون" فيقول: (إن الدين لا دخـــل له بالأمور الدنيوية).[3]

وهـــذا بالضـــبط ما تقول به النصرانية "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وهذا ما يريده هؤلاء العلمانيون بالدين أن يظل حبيساً في زوايا المسجد لا دخل له بشئون الحياة بـــل إن الأخـــذ بـــه رجعـــية وتزمت، والبقاء عليه جمود ويؤخر مجتمعه عن موكب

---

(١) الكشف عن سموم التغريب والغزو الفكري – أنور الجندي – ص١٩٠.

(٢) انظر الإسلام وأصول الحكم – ص٩٦.

(٣) انظر ابن رشد وفلسفته – ص١٤٥.

الحضـــارة والتجديد، ولهذا فإن من أراد أن يسير مع هذه الحضارة فعلية أن يأخذ من الغـــرب وعلومـــه وفلسفته للحياة لأنه قد سبقنا إلى التفوق المادي وهو في طريقه إلى الكمال الاجتماعي.

يقـــول "شـــكيب أرسلان": (أما الجمود على القديم فهو من أكبر عوامل انحطاط المســـلمين، خاصة إذا كانت هناك فئة جامدة لا تريد أن تغير شيئاً ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي).[1]

وهـــذا هـــو الذي يطالب به العلمانيون، إبعاد الدين وعزله عن الحياة أو تغييره، وذلـــك بإدخـــال التعديل على أصول تعاليمه بما يسمونه بالتطور والتجديد. ولهذا يقول الدكـــتور "محمد عمارة": (إن إيمان الإسلام بقانون التطور، وفي كل الميادين، ليس له حدود... ودعوته للتجديد قد تعدت شئون الدنيا إلى شئون الدين).[2]

ولكن ما الذي يريده هؤلاء من إطلاق مثل هذه الدعوات؟ هل المراد بذلك التوفيق بيـــن الإســـلام والأفكـــار التي يدعو إليها العلمانيون وهم يعلمون بالتعارض الموجود بيـــنهما؟ أم هـــو الإفساد في الدين بإدخال ما ليس فيه؟ وقد يكون ذلك بغير قصد منهم ولكـــن المهم في هذا أن كلا الحالتين يرفضها الإسلام لأن الله – تبارك وتعالى – قال فـــي كـــتابه – العزيـــز –: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾.[3]

هـــذه الآية تشير إلى أن هذا الدين تام وكامل ولا يحتاج إلى تطوير أو تجديد كما يزعم هؤلاء.

والحقيقة التي يعلمها الجميع أن إدخال أي نوع من أنواع التجديد أو التطوير الذي يقصـــده العلمانـــيون يخرج هذا الدين عن مفهومه الصحيح الذي أراده الله – تعالى – وألزمنا به.

---

(١) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ – ص٨٨.

(٢) الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية – ص١٧٠.

(٣) سورة المائدة – آية ٣.

يقــول "منــير شــفيق": (ومن هنا يظهر الغش في فكر المتغربين الذين يطالبون بتجديد في الإسلام بهجر النص والأصل، ويتنكر لكل صالح ومستقيم في السلف وخلفهم ممن صاروا سلفاً).[١]

ولــم يقف الأمر وللأسف بالعلمانية عند هذا الحد بل تعداه إلى الطعن في القرآن وإثارة الشبهات حول أحكامه التشريعية ومثالنا على ذلك ما قاله "فؤاد زكريا" : من أن القــرآن – الكــريم – (أحكامه التشريعية مبادئ شديدة العمومية وتحتاج إلى جهد كبير لكي تعطينا مضموناً صالحاً للتطبيق).[٢]

وهــذا يعنــي – في تصورهم – أن القوانين الوضعية الحديثة أسهل وأيسر، وإذا كانت هي كذلك فلماذا لا نأخذ بها؟

كذلــك ومــن الشــبهات التي أثارها العلمانيون ضد القرآن، التشكيك في قصص الأنبياء والرسل – عليهم السلام – التي أخبر الله – تعالى – بها في كتابه – العزيز – يقــول "طه حسين –: (ورود اسم ابراهيم واسماعيل في التوراة والقرآن لا يعني إثبات وجودهما التاريخي).[٣]

ولكن إذا كان كلام الله – عز وجل – الخالق "لفؤاد زكريا" و "طه حسين" وكل ما في هذا الكون شديد العمومية، ولا يثبت حقيقة تاريخية – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – فكــلام من يكون هو الحقيقة ونقتبس منه المنهج التشريعي والأحكام الشرعية؟ أهو كــلام المخلوقيــن البشر؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا فشلت القوانين الوضعية وضاع الإنسان أمام هذا الخضم الهائل من التشريعات اللاإنسانية؟

وتتابعــت دعوات العلمانيين هنا وهناك ولكن هذه المرة تنادي باستغلالية "العقل" وأسبقيته على النقل.

---

(١) ردود على أطروحات علمانية – ص٥١.

(٢) انظر الحقيقة والوهم – ص١٤٤.

(٣) انظر الشعر الجاهلي – ص٢٦.

(ب) وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز.

(ج) محاربة الحجاب وفرض السفور والاختلاط في المدارس والجامعات والمصالح والهيئات.

وبذلك دخلت العلمانية مجالات متعددة في القانون، والإعلام، والتعليم مما ساعد على نشرها وذيوعها بشكل كبير.

(٥) محاربة الدعوة الإسلامية.

(٦) التخلص من المسلمين الذين لا يهادنون العلمانية.

(٧) إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله).[١]

ومن هنا أصبح المسلم بداخل العالم الإسلامي يعيش واقعاً متناقضاً بين المفهوم الصحيح للإسلام الذي يفرض عليه أن يصدق إيمانه بالله بتطبيق شريعته، وبين من ينادي بنبذ هذا التشريع وإحلال القوانين الوضعية محله ويعتبرون ذلك هو "الدين" والإسلام من ذلك براء.

يقول الدكتور "يوسف القرضاوي": (وبهذا نرى المسلم الذي يعيش تحت سلطان العلمانية، يعاني من التناقض بين العقيدة التي يؤمن بها، والواقع الذي يفرض عليه، فعقيدته تشرق، وواقعه يغرب.. عقيدته تلزم، والعلمانية تعارض، وهكذا، لا تعايش بين الإسلام الحقيقي والعلمانية الحقيقية، فهما ككفتي الميزان لا ترجح إحداهما إلا بمقدار ما تطيش الأخرى).[٢]

ويعبر "أنور الجندي" عن مدى خطورة الفكر العلماني على العالم الإسلام فيقول: (فالغاية من وراء العلمانية ضخمة ومسيطرة على مختلف آفاق الفكر والحياة، ولكنها حينما تعرض يتحاشى الكشف عن خطرها، أو مدلولها العميق، فيكتفى بأنه يقال: العلمانية هي حياد الدولة تجاه الدين، وإنها ليست عقيدة إيجابية أو فلسفة تعتمدها الدولة، وتبشر بها، بل هي موقف سلبي. ولا ريب أن هذه العبارات المقنعة خطيرة المدلول وإن حاولت أن تنفي أن العلمانية مذهب أو فلسفة. ولا ريب أن العلمانية تيار

---

(١) انظر العلمانية – محمد شاكر الشريف – ص٢١ وما بعدها وانظر العلمانيون والإسلام – محمد قطب – ص١١٥ – ١٣٣.

(٢) الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه – ص١١١.

خطـــير مســـيطر أقوى من كل مذهب وفلسفة... وهي في عبارة موجزة شطب الدين وإلغاؤه كلياً من مختلف طوابع الحياة والمجتمع والفكر).[1]

ولكـــن إذا كـــان شطب الدين من مختلف مجالات الحياة في المجتمع الأوربي له مبرراته فهل يمكن أن ينطبق ذلك على المجتمع الإسلامي؟

الحقـــيقة أن الوضع يختلف في المجتمع الإسلامي، فالإسلام إنما جاء لكي يصحح هـــذه المغالطـــات إذ لـــيس في الإسلام حكم طغياني وليس فيه الرهبانية الموجودة في النصـــرانية والتـــي كانت من أهم العوامل التي أدت إلى النفور من الكنيسة والوقوف ضدها.

إن كـــل ذلك ليس موجوداً في الإسلام، فالقرآن أبطل سلطان الأحبار والرهبان، والوساطة بين العبد والرب، وجعل العلاقة بين الله والعبـــاد خالصة. قال – تعالى- : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴿١٨٦﴾ ﴾.[2]

إذاً ليس في الإسلام كهنوت يملك التحليل أو التحريم أو الغفران كما فعلت الكنيسة.

يقـــول الدكـــتور "محمد البهي": (ويضل كثير من الكاتبين: إذا ما حاول أن يقيس حكـــم الخلفـــاء المســـلمين علـــى الحكم البابوي، فالخلفاء لم يدعو لأنفسهم ولحكومتهم العصمة لحظة ما، ولم يدعوا نيابتهم عن الله – تعالى – في الأرض حتى يكون لقولهم من القداسة ما لكتاب الله – تعالى – ووحيه – رسول الله كان بشراً، وظل بشراً، ومات بشراً.

قـــال –تعـــالى-: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴿٦﴾ ﴾.[3]

وقال –تعالى-: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.[4]

---

(١) سقوط العلمانية – ص٢٥.

(٢) سورة البقرة – آية ١٨٦.

(٣) سورة فصلت – آية ٦.

(٤) سورة الإسراء – آية ٩٣.

وخلفاؤه من بعده أدخل في البشرية منه – وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم – وهم الخلفاء الراشدون لم يسلم واحد منهم من النقد، ولم تسلم حكومتهم من المعارضة، ولم يدع أحد منهم العصمة لنفسه).[1]

إذاً ليس في الإسلام سلطة إلهية لأحد بل الذي يملك حق التشريع هو الخالق لهذا الوجود وهو الله – عز وجل – المستحق لذلك والإنسان مكلف بالعمل وقد حثه الله – تعالى – على ذلك وحمّله مسئولية عمله الذي يترتب عليه الجزاء والحساب في الآخرة.

إضافة إلى ذلك لا نجد في الإسلام إغفالاً للعقل كما هو موجود في النصرانية والذي كان سبباً من أسباب عداء العلمانيين للدين، والمطالبة بإبعاده وفصله عن شئون الحياة. بل الإسلام يبرز دور العقل ويحدد مهمته في الحياة، ولذلك خاطب القرآن في الناس عقولهم وقدم لهم الحجج والبراهين واعتمد في طريقته الإقناع بالفكرة وجعل العقل أحد مصادر "العلم" وهذا ما يؤكده لنا الشيخ "ابن تيمية" – رحمه الله – عندما قال في بيان منهج أهل السنة في موضوع العلم: (طرق العلم ثلاثة الحس والعقل والمركب منهما).[2]

إن هذا يعني أن الإسلام يعترف بدور العقل ولا ينكره ولكن هذا لا يعني تقديم العقل على النص بل النص أولاً ثم العقل فالعقل سراج نستضيء به فيكشف لنا ما جاء في النص من حقائق وأحكام.

وهكذا فليس في المجتمع الإسلامي ما يدعو لقيام العلمانية بمعنى الدعوة بفصل الدين عن واقع الحياة أو الأخذ بالنظم البشرية، لأن ذلك يتعارض مع طبيعة الإسلام.

يقول الدكتور "يوسف القرضاوي": (ترى العلمانية أن التشريع للمجتمع من حقها هي، وليس من حق الإسلام أن يحكم ويشرع، ويحلل ويحرم، أي أنها تغتصب حق التشريع المطلق من الله الخالق، وتعطيه للإنسان المخلوق).[3]

---

(١) الدين والحضارة الإنسانية – ص١٠.

(٢) درء تعارض العقل والنقل – ج١ – ص١٧٨ – ١٧٩.

(٣) الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه – ص١١٧.

ويقـــول أيضـــاً: (وبهـــذا تجعل العلمانية الإنسان المخلوق لله نداً لله عندما تمنحه السلطة والاختصاص وتسلب ذلك عن الله – سبحانه وتعالى –.

بهذا يصبح الإنسان "رباً" يحكم بما يريد، ويأمر بما يشاء).[1]

ويتابع الدكتور "يوسف القرضاوي" حديثه فيقول: (قد تعترف العلمانية لله، في هذا الكـــون بـــالخلق، ولا تعترف له بالأمر، والإسلام يجعل كلا الأمرين لله الخلق والأمر جميعاً.

قال –تعالى–: : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾.[2]

وإذا تسامحت العلمانية واعترفت بحق التشريع لله فإنها كذلك تعطي الإنسان حق النســـخ لما شرع الله، فهي تحل وتحرم بغير ما أنزل، وتسقط فرض الله وتعطل شرع الله.[3]

إن هذا يشير إلى أن العلمانيين لم يقدروا الله حق قدره، لأن تقدير الله – عز وجل – لـــيس فقـــط بالاعتراف له بالخلق وإنما أيضاً بحق التشريع له – عز وجل – وحده دون سواه، وتطبيق ذلك التشريع كما أمر وكما أوجب ذلك.

ولكـــن وبما أن العلمانيين يعطون حق التشريع للإنسان فإنهم بذلك ينزلونه منزلة الألوهية، وهذه الازدواجية يرفضها الإسلام وبشدة، لأنه إذا كان الإنسان مؤمناً بخالقه – عـــز وجل – فلابد أن يكون مؤمناً بكل ما أنزله – سبحانه وتعالى– لا أن يؤمن بأن الخلق للخالق، ويعطي حق الله في التشريع للمخلوق (الإنسان).

إضـــافة إلـــى ذلـــك فإن من خصائص الإسلام التي يتميز بها عن بقية المناهج الأخـــرى الشمول والتكامل، فالإسلام دين شامل لجميع جوانب الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ وهو في ذلك كله كل لا يتجزأ ولهذا لا يمكن أن نأخذ مـــنه جانباً ونترك الجوانب الأخرى، أو أن نأخذ بجوانب ونترك جانباً واحداً، فالإسلام يرفض هذا الانفصال وهذا التقسيم.

---

(١) المرجع السابق – ص١١٧.

(٢) سورة الأعراف – آية ٥٤.

(٣) انظر الإسلام والعلمانية وجهاً ولجه – ص١١٨.

يقــول الله – تبارك وتعالى-: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.(١)

وهكــذا لا يمكن فصل الإسلام عن أحد هذه الجوانب اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية، لأن هذا يتعارض مع طبيعته الشمولية.

يقــول الشيخ "سيد قطب" – رحمه الله –: (ليس من طبيعة "الدين" أن ينفصل عن الدنيا. وليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجدانية، والأخلاقيات التهذيبيــة والشــعائر التعبدية. أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية... ركن ما يســمونه "الأحــوال الشخصية" ليس من طبيعة الدين أن يفرد لله – سبحانه وتعالى – قطاعــاً ضيقاً في ركن ضئيل – أو سلبي – في الحياة البشرية، ثم يسلم سائر قطاعات الحــياة الإيجابــية العملــية الواقعــية لآلهة أخرى وأرباب متفرقين، يضعون المناهج والمذاهب، والأنظمة والأوضاع، والقوانين والتشكيلات على أهوائهم، دون الرجوع إلى الله).(٢)

ويقول "باول شمتز": (لم تكن مهمة الخلفاء دينية خالصة، ولا اقتصرت سلطتهم – حــتى فــي العصــر الذهبي للخلافة – على الناحية الفكرية والروحية، فالخلافة هي: (الواجهــة السياســية التي توضح نظرة الإسلام إلى الحياة وموقفه من قضية الوجود، ودعوته في المجتمع العالمي).(٣)

وهكذا فإن العلمانية ليس مكانها العالم الإسلامي، ولقد أخطأ من اعتقد غير ذلك، ومــا يهذي به العلمانيون فلن يضر الإسلام شيئــاً لأن الحق – تبارك وتعالى – يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.(٤)

---

(١) سورة ا لبقرة – آية ٨٥.

(٢) المستقبل لهذا الدين – ص٢٧.

(٣) الإسلام قوة الغد العالمية – ص١٧٧.

(٤) سورة الحجر – آية ٩.

إذاً كتاب الله – تعالى – محفوظ – إلى يوم القيامة، ودين الله – تعالى – هو الحق وهو المنتصـــر بـــإذن الله – تبارك وتعالى – والله غالب على أمره ولو كره الكافرون، وما تزال طائفة من أمة محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قائمة بمنهج الله –تعالى– لا يضـــرهم مـــن خـــالفهم شيئاً. ومن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

***

الفصل الثاني

الشيوعيـــــــــون

تعريف :

الشـــيوعيون: لفـــظ يطلـــق على كل من ينتمي إلى الفكر الشيوعي ونعني بذلك شيوعية "كارل ماركس".[١]

والشـــيوعية: معناها "عام" أو "مملوك للجميع" ولهذا نقول: "الشيوعية" هي: (نظام اجتماعـــي لا طبقـــي، الملكية فيه عامة، والعمل لكل الناس بحسب قدراتهم، ولكل فرد نصيب في الثروة بحسب حاجاته).[٢]

جـــاء فـــي "موســـوعة لا لاند الفلسفية" أن هذه الكلمة تعني (كل تنظيم اجتماعي واقتصـــادي يكـــون أساسه الملكية المشتركة في مقابل الملكية الفردية، والتدخل الفعّال للمجتمع في حياة الأفراد).[٣]

ويشـــرح الأســـتاذ "عـــباس محمود العقاد" هذه الكلمة فيقول: هي (ترجمة عربية لمذهـــب "كـــارل ماركس" في حالة التطبيق، لأنه يزعم أن مذهبه ينتهي إلى إباحة كل شـــيء علـــى الشـــيوع أو بالمشاع، ولكنه هو وأتباعه جميعاً يسمونه "التفسير المادي للتاريخ" أو "المادية الثنائية" تمييزاً له من جميع المذاهب الاشتراكية التي كانوا يعدونها اشتراكيات أحلام لا تقوم على غير الأمل والخيال).[٤]

***

(١) كار ماركس – ١٨١٨ – ١٨٨٣ – فيلسوف وسياسي ألماني، ينحدر من أبوين يهوديين، ومن أهم مؤلفاته رأس المال، وبؤس الفلسفة (تيارات فلسفية حديثة ومعاصرة – الدكتور علي عبد المعطي محمد – ص٢٦٣).

(٢) المعجم الفلسفي – الدكتور عبد المنعم الحفني – ص١٣٧.

(٣) – ج١ – ص١٨٥.

(٤) الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام – ص ١٢.

المبحث الأول

نشأة المذهب الشيوعي

قامت الثورة الشيوعية للإطاحة بالنظام القيصري الذي عاشت روسيا تحته تعاني مـــن الاضطرابات والقلاقل التي كان لها أكبر الأثر على الإنتاج، والضعف العام الذي منيت به البلاد لاسيما بعد دخولها الحرب ضد ألمانيا.

جاء في كتاب "الإسلام في الواقع الأيدلوجي المعاصر" (أن الثورة الشيوعية قامت قبـــيل نهايـــة الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٧ لتقوض نظام المجتمع القيصري الروســـي، وتقيم مجتمعاً آخر يكون أكثر توازناً وانسجاماً – في نظرها – من المجتمع السابق عليه، أو تنعدم فيه عوامل الاحتكاك والاصطدام بين الطبقات والأفراد.

قامـــت لتحقيق المجتمع العمالي ذي الطبقة الواحدة زاعمة أنه إذا انعدمت عوامل الاحـــتكاك والاصـــطدام فيه، لم تكن هناك حاجة إلى وجود القوة البوليسية، وهي القوة التي يناط بها صيانة الأمن الداخلي في المجتمع).[1]

ولكن الظروف التي تحيط بالشعب الروسي جعلته يرزح تحت أعبائه الثقيلة دون أن يتغـــير مـــن وضـــعه شيء. فلا الأثرياء ولا الأشراف ولا النبلاء حاولوا تخفيف وطـــأتهم على العمال والزراع، ولا القيصر فكر في وضع دستور لتحسين الوضع في بلاده بل قابل استياء المستاءين بالعقوبات القاسية والسجن الطويل أو النفي إلى "سيبريا" أو خـــارج "روسيا" كلها (ولما قامت الثورة الفرنسية – وكانت الأسباب التي دعت إلى قيامها هي الأسباب التي يشكو منها الشعب الروسي، وربما كانت روسيا أشد وطأة مما هي في فرنسا – لم يتعظ بها القيصر، وكان في قيامها نذير له وللأشراف والإقطاعيين جمـــيعاً، لكـــن لم يأبه أحد منهم لتأثيرها، ولا ظن أن الشعب الروسي سيثور، وظلت الكراهـــية ومشـــاعر الاســـتياء تزداد، وتكونت جمعيات سرية تعمل لقلب نظام الحكم

---

(١) الإسلام في الواقع الأيديولوجي المعاصر – ص١٠٩.

الروســـي، وكانـــت هذه الجماعات تعمل جهراً خارج روسيا وحولها، وتعمل سر في داخلها وحول القيصري).[١]

وعـــندما أخذت بوادر الثورة في الظهور نشبت الحرب العالمية الأولى وهنا وجد البلشفيك[٢] فرصتهم للغدر بالحكومة كما وجدوا في الحرب اليابانية الروسية فرصة لهم لإشـــعال ثورتهم الأولى ولكن وبالرغم من أن الحكومة قد تمكنت من القضاء عليها إلا أن "البلشـــفيك" واصلوا تحريضهم للعمال وقد نجحوا في هذا والذي ساعدهم على ذلك الحالة الاقتصادية السيئة التي وصلت إليها البلاد، إضافة إلى ذلك الهزائم المتكررة التي مني بها الجيش الروسي مما أدى إلى كراهية الحكومة القيصرية وفقد الثقة بها حتى أن طـــبقة "البرجوازية"[٣] أصبحت تخشى من عجز القيصر "نيقولا الثاني" عن الاستمرار فـــي الحـــرب فـــأخذت تعمل سراً على عزله وإقامة أخيه "ميخائيل رومانوف" مكانه (واستمر "البلشفيك" في أعمالهم التحريضية وعندما رأى "البلشفيك" أنهم قد أتموا عدتهم وأحكموا أواصر التحالف بين العمال والفلاحين قررت لجنة حزبهم المركزية الاستعداد لـــبدء الحملة بمجرد إعطاء الإشارة، وأرسلت رسلها إلى الأقاليم ليدبروا حركة الثورة طبقاً لخطتها.

وفي يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٩ أعطت الإشارة، وكان الكثير من رجال الجيش والأســـطول قـــد انحازوا إلى جانب الثوار. وتم قلب الحكومة المؤقتة والاستيلاء على الحكـــم في روسيا وإعلان النظام الشيوعي. وبدأت حينئذ فترة ديكتاتورية "لينين"[٤])[٥]

---

(١) الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام – ١٩.

(٢) هو الاسم الذي أطلق على الفريق المتطرف من الشيوعيين بعد انقسامهم على أنفسهم، ومعناه الأكثرية (الشيوعية على حقيقتها – عمر الاسكندر بك – ص١٨).

(٣) البرجوازية: هي طبقة نشأت في عصر النهضة الأوربية بين الأشراف والزراع ثم صارت في القرن التاسع عشر مالكة لوسائل الإنتاج، وهي متوسطة بين طبقة النبلاء وطبقة الشعب، يتميز أفرادها على غيرهم بثقافتهم ودخلهم وممارستهم لإحدى المهن الحرة، أما في اصطلاح "الماركسيين" فإن البرجوازيين هم الذين يمثلون النظام الرأسمالي، ويقابلهم طبقة العمال (المعجم الفلسفي – الدكتور جميل صليبا – ص ٢٢٠٥).

(٤) فلاديمير لينين أوليانوف – ١٨٧٠ – ١٩٢٤ – اعتنق الماركسية سنة ١٨٩٤، ثم شارك في التنظيمات الشيوعية في روسيا وأوربا وتزعم الأغلبية الشيوعية المسماة "بولشفيك" (الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام – الدكتور عبد الجليل شلبي – ص١٢٠ – ١٢٧).

(٥) انظر الشيوعية على حقيقتها – عمر الاسكندر – ص١٩ وما بعدها والديمقراطية والشيوعية– فرانك بريتون – ص٨١ وما بعدها – واليهود وراء كل جريمة وليم كار – ص١٦٨ – ١٦٩ والمذاهب المعاصرة – الدكتور عبد الرحمن عميره – ص١١٧ وما بعدها.

يقـــول "لينين": (إن دكتاتورية "البروليتاريا" عبارة عن نضال عنيد دموي وغير دموي. قسري وسلمي حربي واقتصادي).[1] وبهذا الانقلاب أعلنتها الشيوعية ثورة حمراء بما ارتكبـــته في حق شعبها من استبداد، وعنف، وإراقة الدماء التي كانت تسيل من غرف التعذيـــب وغـــيرها – وعلى ما يبدو أنها جعلت الدم شعاراً لها – وبذلك استطاعت أن تحـــول المجـــتمع الروسي من مجتمع ذي طبقات متعددة إلى مجتمع ذي طبقة واحدة عمالـــية. (وأصبح المجتمع الروسي الشيوعي في اتجاهه وفي توجيهه مجتمعاً مضاداً تمـــام المضـــادة للمجتمع السابق عليه... ولكي يبقى هذا المجتمع بعد ذلك ولكي يبتعد أيضـــاً عـــن الاضـــطرابات التي تثيرها رواسب المجتمع الماضي من عناصر النظام القيصـــري فـــي الحكم، والنظام الرأسمالي والإقطاع في الملك، ونظام الكنيسة كسلطة دينية، مما أسمتها جميعها "بالرجعية" عنيت الشيوعية بالفلسفة التي كانت هي نتيجة لها – وهـــي الفلسفة الماركسية – وبالدعوة إليها وبتحويلها إلى "دين" و "إيمان" كما حولت المجتمع نفسه إلى مجتمع ذي طبقة واحدة).[2]

واهـــتم أصحاب هذه الفلسفة وهم الشيوعيون اهتماماً كبيراً بها ونادوا بها ودعوا إليها.

***

(١) نقلاً من قراءات من كتاب أحمر – الدكتور عبد العظيم المطعنى – ص٢٦.

(٢) الإسلام في الواقع الأيدلوجي المعاصر – ص١١١.

المبحث الثاني

مصادر الفكر الشيوعي أو جذور الفكر الشيوعي

إن الشـــيوعية الحديـــثة يعـــزى أساسها وتحديد مبادئها تلك إلى "كارل ماركس" و"فـــردريك انجلز"[1] لأنهما اشتركا معاً في وضع "المانفستو" البيان الشيوعي المشهور والذي أصبح فيما بعد المرجع للشيوعية الماركسية.

إلا أن فكـــرة الشيوعية لم يكن "ماركس" هو الذي ابتدعها، إنما كان لذلك مقدمات فـــي أنحـــاء شتى من العالم وفي أزمنة مختلفة، وكانت كلما ظهرت في ثوب جديد من دعايات سخيفة مختلفة قضي عليها، وذلك لما تحدثه من فساد في "الدين" و "الأخلاق".

ويـــروي المؤرخـــون بأن الفكر الشيوعي قديم في أصله وأن "ماركس" لا يتعدى دوره فيها عن إبرازها والمطالبة بتطبيقها.

نعـــم إن أقدم شيوعية في تاريخ البشرية ظهرت عند "أبيقور" الفيلسوف اليوناني الذي أنكر الألوهية واليوم الآخر ونادى بالتحلل والإباحية.

وكذلك شيوعية "أفلاطون" الفيلسوف الإغريقي في "جمهوريته" أو "مدينته الفاضلة" والتـــي أقامها لتحقيق العدالة التي ينشدها الناس والتي ظلت مثالية ولم يستطع تطبيقها ببلاد اليونان.

يقول الدكتور "أحمد فؤاد الأهواني": (أقدم شيوعية في التاريخ من الناحية النظرية هي شيوعية "أفلاطون"، تلك التي صورها في كتاب "الجمهورية"، أو "المدينة الفاضلة" كما سماها العرب).[2]

---

(١) فريدريك انجلز – ١٨٢٠ – ١٨٩٥ – فيلسوف سياسي ألماني من أهم مؤلفاته "أنتى دوهرنج" و "لود فيج فورباخ" (تيارات فلسفية حديثة ومعاصرة – الدكتور علي عبد المعطي – ص٢٦٣).

(٢) الشيوعية اليوم وغداً – ص٢١٩.

وكذلك ومن المجتمعات التي ظهرت فيها فكرة الشيوعية بلاد "فارس" عند "مزدك"[1] الذي نادى بشيوعية المال والنساء لاعتقاده أن ذلك هو سبب الاختلاف والصراع بين الناس، ولذا جعله مشاعاً يشترك فيه الجميع.

ذكر "الشهرستاني" في كتابه "الملل والنحل" (أن مزدك كان يرى أن النساء والأموال سبب في وقوع الخلافات والبغضاء والقتال بين الناس ولهذا فقد أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلا).[2]

ولكن هناك من يرى بأن مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ما تزال قائمة ولم يصل الإنسان فيها إلى حل، ولهذا ظلت العدالة والمساواة هدفاً ينشده الجميع ولكن ذلك لم يتحقق، لذلك نجد أن "الثورة الفرنسية" عندما قامت كان شعارها العدل والمساواة والإخاء ولكن ذلك لم يتحقق أيضاً مما حدا بجماعة من المفكرين إلى محاولة تنظيم المجتمع وتحقيق العدالة عن طريق "الاشتراكية" وهؤلاء هم: "سان سيمون"[3] و "شارل فروبيه"[4] و"وربرت أوين".[5]

وهؤلاء هم المصدر الأول من مصادر الفكر الشيوعي. فمن هذه الاشتراكية التي دعا إليها هؤلاء نشأت الاشتراكية الماركسية وذلك لما للأولى من تأثير قوي على الثانية إعترف به "الماركسيون" أنفسهم. وفي هذا يقول الدكتور "أمير عبد العزيز": من (المفاهيم الحديثة للاشتراكية التي نشأت من تفكير العلماء الاشتراكيين الفرنسيين تلك المفاهيم التي تبعتها الاشتراكية العلمية الماركسية).[6]

---

(١) مزدك أو مزدق كما جاء في بعض الروايات فارسي الأصل من "نيسابور" ولد في أواخر القرن الخامس وكان ظهوره ايام "قباذ بن فيروز) وقد دعاه إلى مذهبه (مزدك) فأجابه، وأطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله (الفهرست – ابن النديم – ص ٤٧٩ – والملل والنحل – الشهرستاني – ج١ – ص٢٤٩).

(٢) – ج١ – ص٢٤٩.

(٣) سان سيمون – ١٧٦٠ – ١٨٢٥ – فرنسي وهو أحد الآباء المؤسسين للاشتراكية الفرنسية وشارك ي الثورة الفرنسية وعاصر اندلاعها (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٤١٤).

(٤) شارل فوربيه – ١٧٧٢ – ١٨٣٧ – اشتراكي طوباوي فرنسي، من أسرة متوسطة عمل موظفاً وتاجراً (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٤١٥).

(٥) روبرت أوين – ١٧٧١ – ١٨٥٨ اشتراكي طوباوي إنجليزي، كان من رجال الأعمال الناجحين، من أهم كتبه "رؤيا جديدة للمجتمع" (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص ٤١٩).

(٦) النظرية الماركسية في ميزان الإسلام – ص١٦.

أما المصدر الثاني لهذا الفكر الشيوعي فهو جدلية "هيجل"[1] الذي يعتبره الفلاسفة والباحثون صاحب أكبر فلسفة جدلية، ولقد كان لهذه الفلسفة تأثير كبير على "ماركس" أعترف به "لينين" وصرح به في تعليقاته الفلسفية التي نشرت بعد موته وذلك عندما قال: (إن كتاب رأس المال لا معنى له بغير مذهب "هيجل" القائم على تطور النقائض أو الثنائية).[2]

لقد أخذ "ماركس" نظرية "هيجل" (فتبناها وحاول تطبيقها على جميع ميادين الحياة).[3]

يقول الأستاذ "عباس العقاد": (تقوم المادية الماركسية على أساس مستعار من مذهب "هيجل" الفيلسوف الألماني).[4]

أما المصدر الثالث للفكر الماركسي فهو النظرية الداروينية. لقد استمد "الماركسيون" مبدأ "النقيض" و "التطور" في ماديتهم الجدلية من "دارون" ولقد أرادوا بذلك التدليل على أن الحال التي ينتقل إليها الكائن الموجود هي أفضل من الحال التي قبلها.

يحاول الماركسيون التأكيد على أن تلك ظاهرة عامة في الوجود يخضع لها كل كائن طالما هو موجود، فكل شيء موجود تصاحبه هذه الظاهرة ولا يمكنه الإفلات منها.

إن الهدف الذي يريد الماركسيون الوصول إليه من خلال ذلك هو القضاء على الدين والأخلاق وبيان ذلك والرد عليه سوف يكون إن شاء الله – تعالى – في أثناء الحديث عن القانون الرابع من قوانين ا لمادة في هذا الفصل.

---

(١) هيجل – ١٧٧٠ – ١٨٣١ – فيلسوف ألماني اتسم بطابع الغموض والصعوبة، من أهم مؤلفاته موسوعة العلوم الفلسفية (تيارات فلسفية حديثة ومعاصرة – الدكتور علي عبد المعطي – ص٢٣٧ – ٢٣٨ – وفي الفكر الحديث والمعاصر – الدكتور علي عبد المعطي – ص١٦٤).

(٢) نقلاً من الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام – عباس محمود العقاد =– ص٩٩.

(٣) فلسفتنا – محمد باقر الصدر – ص٢٤.

(٤) الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام – ص٩٩.

أمـــا مـــا أريـــد الإشارة إليه هنا فهو تأثير هذه النظرية كمصدر للفكر الشيوعي الماركســـي، والشـــيوعيون يفـــتخرون بذلك ويقولون: بأن هذه النظرية (الداروينية) قد أضفت على فلسفتهم الطابع العلمي الذي تميزت به عن باقي الفلسفات المادية الأخرى.

أما المصدر الرابع فهو التأثير اليهودي.

لقد كان التأثير اليهودي على الفكر الشيوعي الماركسي واضحاً تماماً مما جعلني أذكره كمصدر رابع من هذه المصادر.

إن مما يسترعى الانتباه هنا أن "ماركس" زعيم الفكر الشيوعي يهودي ولم يتخلَّ عن يهوديته وكان أعوانه وجلساؤه من اليهود.

يقول الدكتور "عبد الجليل شلبي": (إن أعوان "ماركس" وجلساءه كانوا من اليهود، وأنـــه هو نفسه لم يتخل عن يهوديته رغم تبرئته منها، وإذن فالشيوعية في أصلها فكر يهودي بحت).[1]

وما دام الأمر كذلك فلا غرابة في ما تحتويه الشيوعية من أفكار مادية إلحادية إذا كـــان معظم قادتها، ومخططيها، ومدبريها، والقائمين عليها من اليهود، ولهذا (فقد بذلوا أموالهـــم رخيصـــة من أجل إنجاح هذه الحركة)[2] وذلك تحقيقاً لأطماعهم ومقاصدهم المادية والتي لم تأتِ إلا بالفساد والدمار.

جاء في كتاب "الشيوعية" للأستاذ "أحمد عبد الغفور عطار" قوله: (وما فكر اليهود فـــي إيجاد هذا المذهب الخطر الهدام إلا رغبة منهم في تدمير الإنسان وقيمه، وتجريده من خصائصه الإنسانية ومعتقده، حتى يستطيعوا استعباده والاستيلاء عليه وعلى كل ما يملك).[3]

ومن خلال ما سبق اتضح لنا أن الفلسفة الماركسية هي عبارة عن مجموعة أفكار ملفقـــة مـــن نظريات أو مذاهب مختلفة ظهرت في أماكن متعددة، وفي أزمنة مختلفة، صـــنع مـــنها "مـــاركس" وزمـــيله "انجلز" نظريتهما "الشيوعية الماركسية". ولهذا فإن

---

(١) الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام – ص٢٥٤ وانظر حركات ومذاهب – الدكتور فتحي يكن – ص٢٤ – والصهيونية والشيوعية – فرانك بريتون – مقدمة الكتاب والشيوعية الصنم الذي هوى – متولي الشعراوي – ص٧٧.

(٢) انظر الشيوعية منشأ ومسلكاً – دندل جبر – ص٨٤.

(٣) انظر الشيوعية وليدة الصهيونية – ص٥٤.

(الماركسية – بمقاييس العلم – ليست بالنظرية المبتدعة التي لم يسبق لها أحد بل هي تكرار لأفكار قديمة ترجع إلى ما قبل الميلاد، ثم هي في الحديث سرقة علمية من مجموعات فلسفات قال بها "هيجل" و "فورباخ"[1] وجرى التوفيق أو التلفيق بين أجزائها، ومع ذلك بقيت تحوي التناقض وتصطدم بالعلم في مسلماته الحديثة كما تصطدم بالفطرة والطبيعة في حالتها السوية السليمة).[2]

إذاً من تلك الأفكار القديمة، ومن الفلسفات الحديثة وضع الشيوعيون تفسيرهم الشامل للكون وجعلوا أساسه الفكر المادي الإلحادي.

يقول الأستاذ "فتحي يكن": (تقييم الشيوعية المادي للكون والإنسان والحياة جعلها تنكر وجود الله وتنكر سائر المغيبات الأخرى كالروح والجنة والنار والحساب والعقاب والجان والملائكة).[3]

لم تأتِ الفلسفة الشيوعية إلا بكل ما هو كفر وإلحاد ومع ذلك فقد أدعى "الشيوعيون" العلمية لفلسفتهم تلك، لكي تصبح مستساغة ومقبولة وقالوا بـ "المادية الجدلية" "الديالكتيك" وشرح ذلك والرد عليه في المبحث القادم بمشيئة الله – تعالى –.

***

(١) سبق التعريف عنه.

(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة – المستشار الدكتور علي جريشه – ص١٥٣. وانظر الشيوعية اليوم وغداً – أحمد فؤاد الأهواني– ص٢٢٣.

(٣) كيف ندعو إلى الإسلام – ص٥٦ – ٥٧.

المبحث الثالث

المادية الجدلية (الديالكتيك) الماركسية

قـــبل أن نبدأ بشرح "المادية الماركسية"، أشير إلى أن كلمة جدل: تعني المناقشة (والمحـــاورة والمساجلة ومن ثم التحاور بالأسئلة والأجوبة)[١] وكذلك تأتي هذه الكلمة بمعنى (شدة الخصومة).[٢]

والديالكتـــيك: كلمة يونانية بمعنى الجدل والنقاش ولقد كانوا في المجتمع اليوناني (يعتـــبرون أن مناقشـــة مسألة ما من كل جوانبها ومن كل زواياها، والسماح لمختلف وجهـــات النظر ذات الجانب الواحد بأن تتعارض وتتناقض خلال المجادلة هي أفضل الطرق للوصول إلى الحقيقة).[٣]

ذلـــك يعني أن كلمة (ديالكتيك) كان أول ظهورها في المجتمع اليوناني فقد كانوا يعـــبرون بها عن تصوراتهم الكثيرة للكون والطبيعة، ثم ظهر استعمال هذه الكلمة في الفلســـفة الحديـــثة وبخاصـــة عند "هيجل" الذي عُرِف باستخدامه للجدل في فلسفته ثم أصبحت جدليته هي حجر الأساس للفكر الماركسي فيما بعد وهذه بعض أقوال "هيجل" التي تبين إلى أي مدى كان ينظر إلى أهمية الجدل في عالم الواقع.

يقول "(إن الجدل هو الطابع الحقيقي والمناسب لماهية كل شيء)[٤] ويقول أيضاً: (إنه لمن الأهمية بمكان أن ندرك طبيعة الجدل وأن نفهمها فهماً سليماً. فالجدل، بصفة عامـــة، هـــو مبدأ كل حركة وكل حياة وكل ما يتم عمله في عالم الواقع، بل إنه أيضاً روح كل معرفة تكون حقاً علمية).[٥]

---

(١) الموسوعة الفلسفية – لا لاند – ج١ – ص٢٧٢.

(٢) لسان العرب المحيط – ابن منظور – ج١ – ص٢٤٠.

(٣) مدخل إلى المادية الجدلية – موريس كورنفورث – ج١ – ص٧٧.

(٤) موسوعة العلوم الفلسفية – ص٢١٦.

(٥) المرجع السابق – ص٢١٧.

هكذا يذهب "هيجل" في إعطاء الجدل أهمية بالغة عندما جعله يكمن في طبيعة كل الأشياء الموجودة في الحياة إنه في تصوره مبدأ كل حركة وكل حياة وكل تأثير في هذا الوجود.

هذه التصورات للطبيعة والحياة عند "هيجل" انتقلت إلى الفكر الماركسي وأصبحت بمثابة الأرضية التي أقام عليها "ماركس" مذهبه المادي، ولقد جاء ذكر ذلك على لسان "انجلز" عندما قال: (إن ما تزعمه الشيوعية المعاصرة هو أنها إذا لم تكن الفريدة في نوعها وأكثر النظريات إطلاقاً وحتمية، فإنها على الأقل أكثر العلوم سمواً بحكم ارتكازها على المادية الجدلية).[1]

تلك المفاهيم والمقولات عند "هيجل" قد وجد فيها الماركسيون ضالتهم المنشودة فهي بالنسبة لهم دعائم يرتكزون عليها لنشر أفكارهم الإلحادية وقولهم بالمادة، ولهذا فقد أخذ "ماركس" من "هيجل" طريقته الجدلية وحولها بما يتفق مع مذهبه المادي يقول الأستاذ "عباس محمود العقاد": (وجاء "كارل ماركس" فأبقى إطار هذا المذهب وأفرغه من محتوياته، ونقله من مذهب فكرى لا يرى في الكون شيئاً غير الفكرة إلى مذهب مادي لا يرى فيه شيئاً غير المادة)[2] ويصرح بذلك "ماركس" فيقول: (أعلنت نفسي بصراحة تلميذاً لهيجل هذا المفكر العظيم).[3]

أخذ "ماركس" من "هيجل" طريقته "الديالكتيكية" إلا أنه عكسها بما يتفق مع قوله بالمادة لأنه (يعتبر المادة هي المألوفة وأنها وحدها هي في الأصل الذي تنبثق عنه كل التصورات والأفكار والأوهام والحقائق بما في ذلك الفكر أو الوعي أو الروح. وبذلك فإنه لا مكان البتة لحقيقة الألوهية في هذا الوجود الذي يقوم على المادة بكل مالها من مقومات وبكل ما يتأصل عنها من ألوان التطوير والتفريغ وبكل ما يتمخض عنها من توابع وذيول وأشياء).[4]

---

(١) الماركسية – ص٩٦.

(٢) الشيوعية والإنسانية – ص١٠٢.

(٣) نقلاً من الماركسية – ص٢٢.

(٤) النظرية الماركسية – الدكتور أمير عبد العزيز – ص١٩ – ٢٠.

لقــد اعــتمد الشيوعيون الجدلية منهجاً لهم في تفسير الكون بالمادة وجعلوا المادة هي الأصل في الوجود لإنكارهم خالق هذا الوجود – سبحانه وتعالى عما يصفون–.

ولتثبيت وتدعيم مزاعمهم تلك قالوا بالتالي:

المطلب الأول: أن المادة سابقة في الوجود على الفكر.

المطلب الثاني: أن المادة أزلية أبدية.

المطلب الثالث: أن المادة لها قوانين ثابتة تسمى بقوانين الجدل وهي:

الترابط والحركة والتطور والتناقض.

وإليك الشرح بالتفصيل :

* * *

المطلب الأول

المادة سابقة في الوجود على الفكر.

يـــرى الشـــيوعيون الماديون أن المادة موجودة خارج وعي الإنسان ومستقلة في وجودها عن إدراكاته، وهي في وجودها أسبق من وجوده ووعيه وإدراكه.

يشـــرح ذلـــك "لينين" فيقول: إن (الأشياء، الشمس الأرض النبات، جسد الإنسان، الإدراك، الصـــور الأفكار المفاهيم ... إلخ واقع ذاتي: هذا المعطى الثاني انعكاس عن الأول).[1]

ويؤكـــد "مـــاركس" هذا المعنى بقوله (ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة إلى دماغ الإنسان ومستقرة فيه).[2]

هـــذا يعنـــي – حسب تصورهم – أن وجود المادة والتي هي الواقع الموضوعي وجودها سابق للفكر وما احساساتنا وفكرنا إلا إنعكاس هذا الواقع على دماغ الإنسان.

يعبر "أفانسييف" عن ذلك فيقول: (المادة – كمفهوم فلسفي أو مقولة فلسفية، تعبر عن خاصية مشتركة في كل الأشياء والظواهر، وهي كونها واقعاً موضوعياً، ووجودها خارج وعي الإنسان، وانعكاسها في هذا الوعي).[3]

ويؤكد "انجلز" هذا المعنى عند الشيوعيين فيقول: (شعورنا وفكرنا – مهما ظهرا لنا متعاليين – ليسا سوى نتاج عضوي مادي جسدي – هو الدماغ).[4]

مـــن خـــلال أقـــوال زعماء الفكر الماركسي يتأكد لنا مدى إجماعهم على القول بأســـبقية المـــادة فـــي الوجود على الفكر فالأول عندهم المادة ثم الفكر وهو من نتاج الدماغ.

---

(١) دفاتر عن الديالكتيك – ص٢٤ – ٢٥.

(٢) رأس المال – ج١ – ص٢٢.

(٣) أصول الفلسفة الماركسية – ص٤٥.

(٤) نقلاً من فلسفتنا – باقر الصدر – ص٢١٩.

يقول "أفاناسييف": (وتسمى الفلسفة الماركسية المادية الجدلية فهي مادية لأنها في إجابتها على المسألة الأساسية للفلسفة تنطلق من قضية أن المادة والوجود أوليان والوعي ثانوي).[١]

إذاً المادة عند هؤلاء الماديين هي السابقة في الوجود وما دامت كذلك فهي الأصل فيه بمعنى أنها هي المصدر لكل شيء فهي مصدر الإحساسات والتصور والإدراك ولا يوجد إدراك بدون المادة التي ينعكس عنها الإدراك. والفكر نتاج المادة ولهذا (لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة. فإن هذه هي جوهر كل التغيرات).[٢]

يقول "لينين": (إن المادية، متفقة تمام الاتفاق مع العلوم الطبيعية، تعتبر المادة معطى أولياً، والوعي، والفكر، والإحساس، معطى ثانوياً).[٣]

وبما أن المادة هي الأساس – عند هؤلاء الماديين وهي جوهر كل التغيرات فليس هناك حاجة للقول بوجود خالق لهذا الكون لأن كل (حوادث العالم ما هي إلا الأوجه المختلفة للمادة المتحركة).[٤]

يقول الأستاذ "محمد سعيد رمضان البوطي" في ذلك:

(أما الديالكتيكية فإنما تنهض على تأليه المادة وحدها، إنها بدون ريب تنكر وجود الخالق – عز وجل – وتكفى نفسها مشكلة أعظم برهان على وجوده: ألا وهو الروح والفكر، عندما تقرر أن كلاً من الروح والعقل، أثر من آثار المادة).[٥]

إن الماركسيين عندما أنكروا وجود الله – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – وقالوا بالمادة لم يأتوا بالأدلة العلمية التي تثبت ما يقولون – لا سيما وهم يدعون العلمية لفلسفتهم – بل إن ما قالوا به مجرد فرضيات قد أثبتت التجارب والأبحاث العلمية بطلانها.

---

(١) أصول الفلسفة الماركسية – ص١١.

(٢) نقلاً من فلسفتنا – باقر الصدر – ص٣١٩.

(٣) نقلاً من النظرية المادية في المعرفة – غارودي – ص١٦٣.

(٤) المرجع السابق – ص٥.

(٥) نقض أوهام المادية الجدلية – ص٣٣ – ٣٤.

إذ كيف يقول هؤلاء الماديون بأسبقية المادة على الفكر، ثم كيف يقولون بأن شعورنا وفكرنا من نتاج أو من ثمرة المادة. وقد أثبت العلم أن الإنسان استطاع بفكره أو عقله أن يصل بالمادة إلى صور وأشكال متعددة؟ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن في الإنسان شيئاً يعلو على مكونات المادة ومفارقاً لها في كل خصائصها المعروفة وذلك هو العقل الذي استطاع الإنسان به أن يخضع المادة ويكيفها كما يريد. وهذا بالتأكيد يشير إلى قدرة الخالق للعقل وللمادة ولكل ما في هذا الوجود. وبهذا يتضح لنا أن ما يقوله الشيوعيون هنا ما هو إلا قلب للحقائق.

يقول الأستاذ "عبد الحليم خفاجي": (ثم لم يكن مفر من العقل كأداة أرقى في المعرفة حتى انتهت به رؤيته للمادة إلى حافة الأثير عندما خرج عن كل صفة معروفة من صفات المادة ولم يبق إلا حسبة رياضية لها دلالة كبرى وهي أن الإنسان ليس من صنع المادة لأن المصنع لا يحيط بصانعه، والإنسان قد أحاط بكل صور المادة وخرج بها إلى دائرة أوسع منها هي دائرة الأثير... بل إلى عمليات رياضية فكرية في قدرة الإنسان أن يحتويها وهذا لا يتأتى إلا إذا كان في طبيعة الإنسان شيء يعلو على مكونات المادة.. شيء مفارق لكل خصائصها المعروفة.. وإذا تحولت المادة إلى حسبة رياضية يحتويها الفكر فإن ذلك يجعل المنطق القائل بأن المادة أسبق في الوجود على الفكر في مأزق علمي شديد التناقض مع معطيات العلم الجديد).[1]

وأمام معطيات العلم ينكشف زيف هذه الفلسفة التي يتغنى بها الشيوعيون الماديون ويسقط الركن الأول من أركانها الذي أعتمده الشيوعيون وأقاموا عليه فلسفتهم. وببطلان هذا الركن تبطل هذه الفلسفة لأن ما قام على باطل فهو باطل.

***

(١) حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون – ص١٠٤.

المطلب الثاني

أزليـــة المـــادة وأبديتهـا

لقد ذهب الماركسيون – شأنهم في ذلك شأن الماديين – إلى أن المادة أزلية أبدية ليس لها بداية، وكذلك ليس لها نهاية، غير أن من الماديين القائلين بأزلية المادة وأبديتها من يدين ببعض الأديان ومنهم ملحدون غاية الإلحاد منكرون للخالق – سبحانه وتعالى عما يقولون – والماركسيون هم أشد وأعنف الفريق الثاني الملحد ولذا فهم يحاولون أن يكســبوا المادة صفة الخالق – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – فقالوا بأزليتها وأبديتها في الوجود وأنها لم تخلق بل هي مصدر الحركة والتغيرات في العالم المادي اللانهائي.

يقــول "روجــيه غــارودي": (وهكــذا، في هذه المادة الخالدة في الزمان، وغير المحدودة في المكان، في هذه المادة التي لم تخلق ولا يمكن أن تضمحل، فإن المصدر ذاته للحركة، والتبدل، والانتقال من الكيفية إلى الكيفية، يوجد في المادة ذاتها).[1]

وهكذا وصل الماركسيون – في تصوراتهم المادية وتجاوزهم للمعنى الحق – إلى تقديس المادة حيث لا شيء عندهم في هذا الوجود سوى المادة فهي أزلية التبدل، أزلية الحركة لأنها هي الأصل في الوجود، فالوجود منها وإليها.

يقــول "غارودي": (وحيث لا شيء أزلي سوى المادة أزلية التبدل أزلية الحركة، والنوامــيس التي بموجبها تتحرك وتتبدل).[2] (ونحن على يقين أن المادة في جميع هذه التحولات تبقى كما هي إلى الأبد).[3]

إن الماركســين عــندما قدمــوا فلسفتهم المادية أدعوا لها العلمية وقالوا بأنها هي الفلســفة العلمــية الوحــيدة التي تتفق مع سائر العلوم، وإذا كان الأمر كذلك فعليهم أن يثبــتوا بالدلــيل العلمي أن المادة وجدت من الأزل إلى الأبد، كما وأن عليهم أن يثبتوا بالدلــيل العلمــي عــدم وجود الخالق – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – لأنهم أقاموا

---

(١) النظرية المادية في المعرفة – ص٩٣.

(٢) النظرية المادية في المعرفة – ص٩٣.

(٣) مقتطفات من المرجع السابق – ص٩٣ – ١٢٠ – ١٢١.

فلسفتهم على إنكاره – عز وجل – . بل الكفر بكل ما هو غيبي، وإذا كانت هذه الفلسفة علمية بالفعل كما يدعي لها أصحابها فعليهم أن يأتوا بما يثبت أقوالهم تلك إن كانوا صادقين، ولن يستطيعوا فعل ذلك.

إن مما يظهر بطلان قول هؤلاء الماديين أنه من المعروف عقلاً أن من أهم خصائص الأزلي أنه في وجوده مستغنٍ عن غيره وأن غيره لا يستطيع أن يؤثر فيه لا سلباً ولا إيجاباً. وأن القديم لا بداية له، لأنه لو كانت له بداية لكان محدثاً من العدم وهنا لا يصح أن يكون أزلياً أو قديماً. كما وأنه لا نهاية له بل يستمر في بقائه ووجوده ولو كانت له نهاية وانتهى وجوده وبقاؤه فهذا يعني أن هناك من استطاع إفناءه، وهؤلاء الشيوعيون الماديون يسلمون بهذا ويحاولون تطبيقه على المادة، ولكن ذلك لا ينطبق عليها لأن المادة حادثة، والدليل على حدوثها أن الكون – والذي أصله المادة – حادث وليس بأزلي وتبرهن لنا ذلك (الأدلة العقلية الفلسفية القديمة، والقوانين العلمية الحديثة. فالأدلة العقلية الفلسفية تثبت لنا حدوث العالم من ظاهرة التغير الملازمة لكل شيء فيه، وذلك لأن التغير نوع من الحدوث للصورة والهيئة والصفات وهذا الحدوث لابد له من علة، وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى. سنصل حتماً إلى نقطة بدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية في صفاته وأعراضه وفي ذاته ومادته الأولى.

وحينما نصل إلى هذه الحقيقة لابد أن نقدر أن خالقاً أزلياً لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضي حدوثه، وهذا الخالق هو الذي خلق هذا الكون وأوجده بالصفات التي هو عليها).[1]

ويؤكد لنا ذلك ما يقوله "ابن حزم" – رحمه الله – من أن (كل شخص في هذا العالم، وكل عرض، وكل زمان، كما أن له بداية فإن له نهاية، فنهاية الشخص تكون بنهاية زمن وجوده، ونهاية العرض تكون بنهاية وجود الحامل له، ونهاية الزمان تكون باستئناف آخر يأتي بعده وهكذا يفني زمان ويأتي آخر بعده، وإذا كانت أجزاء العالم ذات أول ومتناهية فكذلك الذي ليس هو شيئاً غير أجزائه).[2]

---

(١) صراع مع الملاحدة – الأستاذ حبنكة الميداني – ص١٠٥ – ١٠٦.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل – ج١ – ص١٤ – ١٥.

وإذا كان قد ثبت أن للكون بداية ونهاية وهذا دليل حدوثه فكذلك المادة والتي هي أصل العالم فهي حادثة ووجدت من العدم لأن الأصل في الكون العدم، والعدم لا يمكن أن يتحول إلى الوجود ولا يمكن أن يعطي وجوداً لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

قال الله – تعالى –: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.(١)

يقول "ابن كثير" – رحمه الله –: (أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً).(٢)

لقد جاء القرآن بأدلة كثيرة، جلية، وقوية، تؤكد أن هذا الكون بما فيه من مخلوقات قد خلقه الله – عز وجل – وأوجده من العدم منها قوله – تعالى –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴿٧٣﴾ ﴾.(٣)

نعم بملاحظتنا لكل شيء في الكون من إنسان، وحيوان، ونبات، وغير ذلك يتضح لنا أنها وجدت بعد أن لم تكن موجودة، ولقد وجدت على صورة، وحالة معينة من الإتقان، والنظام، والترتيب البديع، مع أنه بالإمكان وجودها على غير هذه الصورة وهذه الحالة التي هي عليها الآن فما الذي يمنع من أن يكون العقل في البهائم، وأن تكون الشمس أقرب إلى الأرض من الوضع الذي هي عليه الآن، وأن تكون الأيام كلها شتاء أو كلها صيفاً، أو أن تكون الأرض كلها يابسه، فإن قيل بأن الحكمة تقتضي أن تكون هذه الأشياء على ما هي عليه الآن نقول: بأن الحكمة هي صفة الحكيم وهو الله – عز وجل – وما دام أن كل شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من هذه الحالات الكثيرة غير الحالة التي هو عليها فإننا نحكم ببداهة العقول بأن ما كان كذلك فلابد له من مخصص قد خصص وجوده في تلك الحالة التي هو عليها من جملة حالات وأوضاع كثيرة (ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح أو القول بأن موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان

---

(١) سورة الطور – آية ٣٥.

(٢) تفسير ابن كثير – ج٤ – ص٢٤٤.

(٣) سورة الأنعام – آية ٧٣.

علـــى طـــريقة التصـــادف، وكلاهمـــا مستحيل عقلاً، وحيث ثبت لدينا أن جميع هذه الممكـــنات محـــتاجة إلـــى المخصـــص الحكـــيم فإن عقولنا تحكم بشكل قاطع أن هذا المخصص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلاً لأي احتمال من الاحتمالات الممكنة، التي تتعرض لها الأشياء الكونية في نظر العقل. وإنما يجب أن يكون على وضع ثابت واجب عقلاً لا يقبل العقل بحال من الأحوال أن تحتمل ذاته أو صفاته وضعاً آخر).[1]

قـــال -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾.[2]

وقال -تعالى-: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.[3]

مـــن خلال ذلك يتبين لنا أن الكون مخلوق، وخالقه هو الله – تعالى – وأن المادة التي يتكون منها الكون تفتقر في وجودها إلى غيرها، لأن كل مخلوق عاجز عن الخلق لافتقاره لغيره، ولقد اثبت – آنفاً – أن الكون لابد له من إله عليم حكيم قادر يدبر أمره وسننه، وبهذه الأدلة ثبت أن المادة مخلوقة، وخالقها هو الله – عز وجل – لأنها وجدت مـــن العـــدم، فهـــي حادثـــة، والحـــادث لابد له من محدث، وبهذه يبطل قول الماديين الشـــيوعيين بأزلية المادة، كما أنها في حالة حدوث وتغير مستمرين ودائمين، وحدوثها وتغـــيرها دلـــيل على أن لها بداية وهذا بدوره دليل على أن لها نهاية لابد وأن تنتهي إليها، لأن كل شيء له بداية فلابد أن تكون له نهاية.

قـــال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴿٨٨﴾ ﴾.[4]

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حبنكه الميداني – ص١٣٤.

(٢) سورة الفرقان – آية ٤٥.

(٣) سورة الملك – آية ٣٠.

(٤) سورة القصص – آية ٨٨.

هذا ما جاءت به الأدلة النقلية العقلية في إثبات حدوث الكون وأنه مخلوق وخالقه هـو الله – تعـالى – وأن له بدايـة ونهاية، ولم ينف العلم ذلك ولم يناقضه بل جاءت الكشوفات العلمية تصدق ذلك وتؤكده، وهذه أقوال بعض العلماء الشاهدة بذلك:

يقـول عـالم الطبيعة "أدوين فاست": (عندما تحاول عقولنا المحدودة أن ترتد إلى الـوراء وتبحـث عن ساعة الصفر في تاريخ هذا الكون، نجدها تسلم ضمناً بأن لهذا الكـون بداية ولحظة معينة نشأت فيها الذرات الدقيقة التي تتألف منها مادة هذا الكون. ولابـد أن تكـون خواص هذه الجزئيات التي تحدد سلوكها، قد ظهرت معها في نفس الوقـت. ومن المنطق السليم أن يكون السبب الأول الذي أوجد هذه الجزيئات هو الذي أودع فيها صفاتها التي تحدد سلوكها. ولابد أن نسلم بأن قدرة الخالق وتدبيره وإحكامه تفوق قدرة وتدبير الإنسان بل البشر جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً).[1]

ويـرد "ادوارد لوثركيسـيل" – أسـتاذ علم الأحياء – على القائلين بأزلية الكون فـيقول: (ولكـن القـانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي الأخـير. فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، فهناك انتقال حـراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحـارة. ومعـنى ذلـك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضـب فـيها معين الطاقة. ويومئذ لن تكون هنالك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العملـيات الكيماوية والطبيعية تسير في طريقها، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكـن أن يكـون أزلياً، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود.

وهكـذا توصلت العلوم – دون قصد – إلى أن لهذا الكون بداية. وهي بذلك تثبت وجود الله لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولابد له من مبدئ أو من محرك

---

(١) نقلاً من الله يتجلى في عصر العلم – ص٩٤.

أول أو مـــن خـــالق، هو الإله. ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة).[1]

ويقـــول عالم الكيمياء والرياضة "جون كليفلاند كوثران": (وتدلنا الكيمياء على أن بعـــض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة. وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلـــية، إذ أن لهـــا بداية. وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقـــت الـــذي نشـــأت فيه هذه المواد. وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لابد أن يكون مخلوقـــاً، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المادة بينها مكان).[2]

وبعد هذه الأقوال التي جاءت من تخصصات متنوعة أقول:

إنـــه ما دام قد ثبت لنا أن للمادة نهاية كما أن لها بداية فهي إذاً حادثة، والحادث لابد له من محدث، والحادث لا يستطيع أن يخلق وعلى هذا الأساس يبطل الركن الثاني مـــن أركان الفلسفة المادية الجدلية التي اعتمد عليها "الشيوعيون" في تفسيرهم المادي للكون، وقد سبق وأظهرت بطلان الركن الأول من أركان هذه الفلسفة المادية.

وببطلان هذين الركنين تبطل هذه الفلسفة (المادية الجدلية) لأن أساسها الذي قامت عليه باطل.

***

(١) نقلاً من المرجع السابق – ص٢٧.

(٢) نقلاً من المرجع السابق – ص٢٥.

المطلب الثالث

قوانيـــــن المـــــــادة

يــرى الماركسيون أن المادة لها قوانين عامة وشاملة وثابتة تسمى قوانين الجدل وهي:

(١) قانون الترابط.

(٢) قانون الحركة.

(٣) قانون التطور.

(٤) قانون التناقض.

يقــول "انجلــز": (الجــدل هو علم القوانين العامة للحركة والتطور في الطبيعة والمجتمع الإنساني والفكر).[١]

جــاء في كتاب "حوار مع الشيوعيين" أن (المادة تخضع لقوانين عامة ثابتة تسمى قوانين الجدل هي قانون التناقض، الحركة، التغير، الترابط).[٢]

وقبل البدء في شرح هذه القوانين أشير إلى أن هذه القوانين هي من فعل الخالق – سبحانه وتعالى – للمادة ولهذه القوانين التي تسير عليها المادة، فالله – عز وجل – هو الذي خلق الأسباب والمسببات وربط بينها بنظام دقيق لا يسع العاقل تجاهله.

يقــول المستشــار "جون أدولف يوهلر": (والواجب أن نتلمس قدرة الله في النظام الــذي خلقه والقوانين التي أخضع لها جميع الظواهر والأشياء، فقد يستطيع الإنسان أن يفسر ما كان غامضاً عليه باكتشاف القوانين التي تحكمها، ولكن الإنسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين، فهي من صنع الله وحده. ولا يفعل الإنسان أكثر من أنه يكتشفها ثم يســتخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون وكل قانون يكتشفه الإنسان يزيده قرباً من الله وقدرة على إدراكه، فتلك هي الآيات التي يتجلى بها الله علينا وقد لا تكون هذه

---

(١) أصول الفلسفة الماركسية – ص٧٨.

(٢) انظر حوار مع الشيوعيين – عبد الحليم خفاجي – ص٢٧.

هـــي طريقته الوحيدة في التجلي، فهو يتجلى أيضاً في كتبه المقدسة[1] مثلاً، ومع ذلك فـــإن طـــريقة تجلّه تعالى – في آياته التي نشاهدها في هذا الكون تعتبر بالغة الأهمية بالنسبة لنا).[2]

وهكـــذا فـــإن هذه القوانين التي يسير عليها هذا الكون ليست من المادة، بل هي والمادة تسير وفق خطة إلهية حكيمة ومدبرة، لاسيما وأن المادة مخلوقة ويثبت ذلك ما يطرأ عليها من حركة وتغير وهذا ما سنكشف عنه من خلال الحديث عن القانون الثاني والثالث من قوانين المادة التي يقول بها الشيوعيون الماركسيون.

أولاً: قانون الترابط في الطبيعة

يرى الشيوعيون أن الأشياء في الطبيعة وما يحيط بها من حوادث وحدة مترابطة لا ينفصـــل بعضـــها عـــن بعـــض لارتباطها العام وأنه لا يمكن دراسة أي حادث من حوادثها أو فهمه وهو منفصل أو منعزل عن بقية حوادثها لأنه في هذه الحال لا يكون لـــه معـــنى بل إذا أردنا أن نفهم أي حادث من حوادثها يجب أن ننظر إليه في ضوء الحوادث التي تحيط به. وفي هذا يقول "ستالين": (لا ينظر الجدل إلى الطبيعة باعتبارها مجـــرد ركـــام من أشياء، يوجد كل منها مستقلاً عن الآخرين، وإنما هو يعتبر الأشياء "مرتبطة وتابعة ومحدودة ببعضها البعض" ومن هنا فإنه يرى أنه لا يمكن فهم شيء إذا ما أخذ وحده، معزولاً، وإنما يجب فهمه "في العلاقة التي لا تنفصم بغيره من الأشياء، وباعتباره مشروطاً بهذه الأشياء).[3]

يشـــرح ذلـــك "موريس كورنفورث" بصورة أوسع فيقول: (فلا يوجد شيء، ولا يمكـــن أن يوجـــد شـــيء في عزله رائعة، مفصولاً عن ظروف وجوده، ومستقلاً عن علاقاته بالأشياء الأخرى، فالأشياء تولد وتوجد وتكف عن الوجود لا في استقلال سائر الأشـــياء، بـــل في علاقة سائر الأشياء الأخرى، فحين تدخل الأشياء في علاقة تجعلها

---

(١) صحيح أن الله – تعالى – أنزل التوراة والإنجيل والزبور وهي كتب مقدسة إلا أن الموجودة الآن محرفة لأنها من وضع البشر فيكون القرآن هو الكتاب الوحيد المقدس.

(٢) نقلاً من خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب – ص١٠٢ – ١٠٣.

(٣) نقلاً من مدخل إلى المادية الجدلية – موريس كورنفورث – ج١ – ص٩١.

تصبح جزءاً من كل، فإن الكل لا يمكن النظر إليه باعتباره مجرد المجموع الكلي لهذه الأجـــزاء، صحيح أن الكل ليس شيئاً بعيداً ومستقلاً عن أجزائه، لكن العلاقات المتبادلة التي تدخل فيها الأشياء التي تكون الكل تعدل من خصائصها بحيث نستطيع أن نقول أن الجزء يحدد الكل ونستطيع بنفس الدرجة أن نقول أن الكل يحدد الجزء).[1]

إن هـــؤلاء الماديـــن قالوا بذلك لتصورهم أن هذه القوانين موجودة في الطبيعة وأنهـــم قاموا فقط بالكشف عنها فوجدوا هذا الترابط العام بين الأشياء بحيث لا يمكن – فـــي تصـــورهم – فهـــم شيء منها معزولاً بل لابد وأن يكون مترابطاً مع غيره من الأشياء، يقول "لينين": (العالم مترابط، وحدة كلية، ليس تراكماً عرضياً لأشياء وأحداث، ووظـــيفة العقـــل الإنساني (العلم، المعرفة الخ) النقل الأمين لهذا الترابط، إنشاء اللوحة المترابطة عن العالم المترابط).[2]

إن قـــانون الترابط الذي يدعيه الشيوعيون ليس شيئاً جديداً في الفهم البشري العام بل ذلك معروف ومفهوم حتى عند العامي – الذي لم يكتسب علماً ولا معرفة منتظمة– لأنـــه كغـــيره من الأدلة التي تتجلى فيها قدرة الخالق – سبحانه وتعالى – ولقد أدرك العامـــي ذلك بفطرته فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا يدل على اللطيف الخبير.

وهكـــذا فـــإن الإنسان بفطرته السليمة يصل من خلال هذا الترابط الشمولي بين ظواهـــر الطبيعة إلى مصدره الصحيح وهو الله – تعالى – الخالق لهذا الكون ولكل ما فيه من ظواهر، وترابط، وشمول.

يصـــور لنا ذلك الشيخ "سيد قطب" – رحمه الله – بأسلوبه الرائع الجميل فيقول: ("هـــذا الوجود كله بنشأته إبتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقه فيه، وكل تحور وكل تغـــير وكـــل تطور والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه.. إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة ... هذه الذات المريدة القادرة المطلقة المشيئة، المبدعة

---

(١) مدخل إلى المادية الجدلية – موريس كورنفورث – ج١ – ص٩١.

(٢) دفاتر عن الديالكتيك – ص٩٦.

لهـذا الكـون، ولكل شيء فيه ولكل حي، ولكل حركة، وكل انبثاقه، وكل تحور، وكل تطور... بقدر خاص ... ولمجرد توجه الإرادة).[1]

وبهـذا يتضـح لنا أن قانون الترابط الذي يقول به الشيوعيون الماديون هو حجة علـيهم وليست لهم، ولكنهم وكما هو معروف عنهم يتخبطون، ويخلطون الحق بالباطل حتى يتسنى لهم تحقيق ما يهدفون إليه.

ثانياً: قانون الحركة في الطبيعة.

يذهـب الماركسيون إلى أن الحركة هي شكل من أشكال المادة وخاصية ملازمة لها فحيثما وجدت المادة وجدت معها الحركة، وإذا انعدمت المادة انعدمت معها الحركة وبذلك لا نستطيع الفصل بين المادة والحركة لأنها وجه من وجوه وجود المادة.

يصور ذلك "ستالين"[2] فيقول: (ينظر الديالكتيك إلى الطبيعة لا كحالة من السكون والجمـود، مـن الـركود والثبات، بل كحالة من الحركة والتبدل الدائمين، من التجرد والتنمية المستمرين، حيث يولد شيء ما. وينمو على الدوام ويتفكك شيء ويزول).[3]

هكـذا يذهـب الماركسـيون إلى أن كل شيء في الطبيعة لا يخرج عن الحركة والتطور والتغير ويستمر ذلك في الحياة بلا انقطاع. ولهذا يقول "روجيه غارودي": (إن وجـود الطبـيعة بكاملها، من حبة الرمل إلى الشمس ومن دودة الأرض إلى الإنسان يخضع لحركة وتبدل دون هوادة).[4]

إذاً الحركة هي أسلوب وجود المادة وهي خاصية كامنة فيها لا تنفك عنها.

يؤكـد ذلك "انجلز" فيقول: (تشمل الحركة بمعناها العام. تلك الحركة التي ندركها كأسلوب وجود المادة والخصيصة الكامنة لها، كل التغيرات والعمليات التي تحدث في الوجود).[5]

---

(١) خصائص التصور الإسلامي – ص١١٠ – ١١١.

(٢) اسمه الحقيقي جوزيف فيسيار فيتش شوجانتشفيلي، واسمه المستعار "ستالين" – ١٨٧٩ – ١٩٥٣ – التقي مع لينين عندما كان في المنفى، وأصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (الشيوعية والشيوعيون – الدكتور عبد الجليل شلبي– ص١٢٨– ١٣٢).

(٣) نقلاً من النظرية المادية في المعرفة – روجيه غارودي – ص١١٩.

(٤) النظرية المادية في المعرفة – ص٦٤.

(٥) نقلاً من مدخل إلى المادية الجدلية – موريس كورنفورث – ص٥٦.

هكذا تصور الماركسيون قانون الحركة في الوجود ولهذا فهم يقولون: (العالم في حركة تغير، تحول، كل الأشياء خاضعة للولادة والموت، النشوء والزوال. لا مادة بلا حركة)[1] بل (الحركة هي نمط وجود المادة).[2]

هـذا هـو موقف الماديين الشيوعيين من الحركة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، هل حتمية الحركة تدل بالضرورة على أنه لا يوجد خالق ؟

هذا ما يريد الشيوعيون الماركسيون إثباته، من أن المادة إذا وجدت وجدت معها الحـركة ولـيس هناك قوة خارجية، بل المادة وحسب. فكأنهم يقولون: بأن المادة هي الفاعل الحقيقي في هذا الوجود. ولا إله إلا المادة.

أمـا موقـف الإسلاميين فهو عكس ذلك (لأن القول بأن كل شيء يتحرك ويتغير تعمـيم خاطـئ يـنأى عنه الواقع العلمي. من المعلوم أن المادة تحتوي على الذرات وجزئـياتها مـن كهـارب وإلكترونات وإذاً فلابد أنها تظل خاضعة للون من التفاعل الكيميائي.

ومـن هـنا صح أن ننسب الحركة – بتعبير مطلق – إلى المادة، ومن هنا صح أيضـاً أن نقـول بأن معظم ظاهرات المادة معرضة للتغير والتطور تحت سلطان هذه الحركة.

ولكـن هـل نستطيع أن ننسب الحركة إلى المادة بصيغة التعميم فنقول مثلاً: إن المادة كلها تتحرك وتتغير دائماً؟ هذا مالا نملك أي دليل علمي عليه، بل الدليل العلمي ينقض ذلك).[3]

لقـد كان هذا من جهة أما من جهة أخرى، فإن الماركسيين يجعلون الحركة صفة ملازمة للمادة فإذا وجدت المادة وجدت معها الحركة. نقول لهؤلاء الماديين إن الحركة – والتـي هـي صفة للمادة – تعني التغير، والتغير يعني الحدوث، وهذا دليل على أن الحـركة حادثـة وبما أن الحركة صفة للمادة ومعروف أن الصفة ملازمة لموصوفها

---

(١) دفاتر الديالكتيك – ص٩٦.

(٢) نقلاً من النظرية المادية في المعرفة – روجيه غارودي – ص٦٦.

(٣) نقض أوهام المادية الجدلية – الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – ص١٠٩.

(المـــادة) فهـــذا يعني أن المادة حادثة وقد أثبت ذلك سابقاً وإذا كانت المادة حادثة فهي تفـــتقر لمـــن يخرجها من العدم إلى الوجود ويمنحها صفة الحركة ولا يستطيع ذلك إلا الخالق وحده الله – جلَّ جلاله.

ولذلك يؤكد الأستاذ "محمد باقر الصدر" على أن (هناك سبب خارج حدود الطبيعة هـــو الـــذي أخـــرج هـــذه الحركة في المادة إلى الفعل وليست المادة. كما يدعي بذلك الشيوعيون).[1]

ثالثاً: قانون التطور في الطبيعة.

إن حركة التطور – وعلى حسب ما يصورها لنا الشيوعيون الماركسيون – هي عـــبارة عن حركة تغيرات أساسية تتم في كل شيء تمر من تغيرات كمية إلى تغيرات كيفية، وهذه التغيرات الكيفية تحدث تطورات فجائية من حالة إلى أخرى، وهي تغيرات ضرورية وحتمية انتقالية من أدنى إلى أعلى.

يقـــول "ســـتالين": (لا ينظر الجدل إلى عملية التطور على أنها "عملية بسيطة من الـــنمو" بـــل على أنها "تطور يمر من ..... التغيرات الكيفية "التي تحدث" فجأة، متخذة شكل الوثبة من حالة إلى أخرى".

ومـــن هنا فإنه يعتبر التطور "حركة صاعدة، انتقالاً من الحالة الكيفية القديمة إلى حالة كيفية جديدة، تطوراً من البسيط إلى المعقد، من الأدنى إلى الأعلى").[2]

ويؤكد "لينين" ذلك المعنى فيقول: (العالم في حركة، تغير، صيرورة، هذه الحركة ليســـت حركة تكرارية بل هي تطور – نمو – تقدم... التغير ليس كمياً وحسب، بل إن تراكم التغيرات الكمية يفضي إلى تغيرات في الكيف).[3]

يحـــاول الماركسيون إثبات أن هذه التغيرات تسير في حركة صاعدة من الأدنى إلـــى الأعلـــى، تنقل المادة فيها من الحالة الأولى إلى حالة أفضل منها ويكون ذلك في طريق تقدمي تصاعدي.

---

(١) انظر فلسفتنا – ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

(٢) نقلاً من مدخل إلى المادية الجدلية – موريس كورنفورث – ص٩٢.

(٣) دفاتر عن الديالكتيك – ص٢٨.

ولهـذا يقـول "موريس كورنفورث": (إنه يوجد "تجدد وتطور، حيث هناك دائماً شيء صاعد ومتطور وشيء متحلل يموت").[1]

ويقـول "أفانـا سييف": (وهكذا يحدث التطور من خلال نفي الجديد للقديم، ونفي الأعلى للأدنى).[2]

بهـذه المغالطـات يـريد الماركسيون إثبات أن كل شيء في هذا الوجود يتطور ويتغـير وتكـون الحالة الجديدة التي ينتقل إليها هي الأفضل وتنفي ما قبلها وهو القديم الذي يجب أن ينتهي ويموت.

إن الذي يهدف إليه الماركسيون من وراء قولهم بالتطور والتغير هو القضاء على الإيمان بوجود الخالق وما يتبع ذلك من قيم وأخلاق وذلك عندما قالوا بأن كل شيء في هـذا الوجـود يتطور ويتغير، فإذا كان للدين والأخلاق وجود فلابد هي الأخرى وأن يطـرأ عليها التغير وذلك طبقاً للمبدأ العام للتطور، ومن هذا المنطلق يرى الشيوعيون أن الاعتقاد بوجود قيمة أزلية ثابتة اعتقاد خاطئ، فالقيم الدينية والأخلاقية لا وجود لها ولا ثبات لأنها لابد وأن تكون قد انتهت بحكم ما طرأ عليها من تغير.

الحقيقة إن هذا القول غير صحيح لأن القيم الدينية والأخلاقية ثابتة وهذا ما سوف أوضـحه فـي الـباب الرابع من هذه الرسالة إن شاء الله – تعالى – أما قولهم بوجود الـتطور في الطبيعة فهذا نقر به ولكن قولهم بأن ذلك التغير يكون دائماً تصاعدياً من الأدنى إلى الأعلى فهذا القول باطل ويبطله ما هو مشاهد ومحسوس على أرض الواقع فهـناك أشـياء يكون تغيرها من الأدنى إلى الأعلى وهناك أشياء يكون التغير فيها من الأعلـى إلى الأدنى. بل إن سنة الله – تعالى – في الوجود أن يكون التغير دائماً وفي الـنهاية من الأعلى إلى الأدنى. وحتى الأشياء التي توجد بسيطة ثم تترقى من الأدنى إلى الأعلى فمصيرها في النهاية أن تنحدر من الأعلى إلى الأدنى.. ذلك كله واضح في كل شيء في الحياة. من الجماد إلى النبات إلى الحشرات إلى الحيوان والإنسان فالطفل

---

(١) مدخل إلى المادية الجدلية – ص١٠٥.

(٢) أصول الفلسفة الماركسية – ص١١٧ – ١١٨.

يولد ثم تتغير حالة من الأدنى إلى الأعلى ثم يصير إلى النهاية المحتومة التي قدرها الله لكل حي من الأعلى إلى الأدنى ثم الفناء.

قال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴿٥﴾ ﴾.(١)

وقوله -تعالى-: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾.(٢)

وكذلك النبات -قال تعالى-: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.(٣)

فقـــانون التغير هو في نهايته إلى فناء وكل شيء مثل النبتة.. وليس في الإسلام شـــيء يفنى ثم يولد لا في الجماد ولا في النبات ولا في شيء.. هذا موجود عند الهنود الذين يقولون بتناسخ الأرواح. ولا تناسخ في الإسلام.

وهـــناك أيضاً العديد من الأمثلة الموجودة في الطبيعة والتي يظهر فيها التغير في الأشـــياء مجـــرد تغير وليس بشرط أن يكون هذا التغير من الأدنى إلى الأعلى، بل قد يكـــون كذلك، وقد يكون من الأعلى إلى الأدنى، كما وأنه ليس بشرط أن يكون التغير من السيء إلى الأحسن، بل قد يكون من الأحسن إلى الأسوأ، ومن الأسوأ إلى الأحسن

---

(١) سورة الحج - آية ٥.

(٢) سورة الروم - آية ٥٤.

(٣) سورة الكهف - آية ٤٥.

(فتعفن الخبز انتقال من حال حسنة إلى حال سيئة، وتفتت الأحجار انتقال من حال حسنة إلى حال سيئة وفي الكائن الحي من إنسان وحيوان ونبات تختلف كذلك التغيرات).[1]

وهكذا ومن خلال ما يجري في الطبيعة المشاهدة التي يقدسها الماديون يتضح لنا أن التطور الذي يقول به الشيوعيون الماركسيون لا ينطبق على جميع الأشياء الموجودة وهذا يبطل قانون التطور عند هؤلاء الماديين وبالتالي يبطل ما يبنونه على هذا القانون من مزاعم.

رابعاً: قانون التناقض في الطبيعة.

عندما نفى "الشيوعيون الماركسيون" وجود الخالق – سبحانه وتعالى عما يقولون– قالوا بأن المصدر المحرك لعملية تطور الطبيعة هي التناقضات الداخلية الطبيعية في المادة أو من المادة. ولهذا يقول "موريس كورنفورث": (ولا يرجع التطور الموجه للأشياء إلى الله أو الروح الذي يعمل فيها، ولا هو مظهر لقانون كوني غامض، بل إنه ينشأ ويفيض عن التناقضات الخاصة للأشياء الخاصة. فالأشياء الخاصة تتميز بتناقضات خاصة وكنتيجة لها تأخذ حركتها اتجاهاً خاصاً).[2]

يشرح "ستالين" عملية التناقض الداخلية والموجودة في كل ظواهر الطبيعة فيقول: (يؤمن الجدل بأن التناقضات الداخلية كامنة في كل الأشياء وفي كل ظواهر الطبيعة، ففي كل منها جوانب سلبية وجوانب إيجابية، ماضي ومستقبل، شيء يموت وشيء يتطور، والصراع بين هذه الأضداد، الصراع بين القديم والجديد، بين ما يموت وبين ما يولد، بين ما يختفي وما يتطور، يشكل المحتوى الداخلي لعملية التطور، المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية.

---

(١) نقض الاشتراكية الماركسية – ص٨٩ – ٩٠.

(٢) مدخل على المادية الجدلية – ج١– ص٨٦.

ومن هنا يؤمن المنهج الجدلي بأن عملية التطور من الأدنى إلى الأعلى لا تحدث كتفتح متناسق للظاهرة، وإنما كتكشف للتناقضات الكامنة في الأشياء وفي الظواهر، "كصراع" بين الاتجاهات المتضادة التي تعمل على أساس هذه التناقضات).[1]

وتتابع أقوال الماركسيين لتأكد بأن عملية التناقضات الداخلية كامنة في صلب الأشياء، وأنها هي التفسير العلمي الصحيح لظاهرة التطور والتغير الموجودة في الطبيعة.

يقول "لينين": (التناقض في صلب الأشياء، صراع الضدين هو دافع التطور، محتوى الشيء المتحرك، الحركة = تناقض).[2]

ويقول "أفانا سييف": (ويرى الجدل أن مصدر التطور هو التناقضات الكامنة في الأشياء والظواهر.

والجدل الماركسي هو وحده الذي يقدم فهماً سليماً علمياً لعملية التطور).[3]

وهكذا اعتقد الماركسيون أن التناقض هو السبب الأساسي للتطور في الطبيعة، وليس هناك أي سبب خارجي.

يقول "باقر الصدر": (هذا هو القانون الأساسي الذي يزعمه "الديالكتيك" صالحاً لتفسير الطبيعة والعالم، وتبرير الحركة الصاعدة، وما تزخر به من تطورات وقفزات، فهو حين أقصى من فلسفته مفهوم المبدأ الأول، واستبعد بصورة نهائية افتراض السبب الخارجي الأعمق وجد نفسه مضطراً إلى إعطاء تبرير وتفسير، للجريان المستمر، والتغير الدائم في عالم المادة، ليشرح كيف تتطور المادة وتختلف عليها الألوان؟ أي ليحدد رصيد الحركة، والسبب الأعمق لظواهر الوجود، فافترض أن هذا الرصيد يوجد في المحتوى الداخلي للمادة. فالمادة تنطوي على التموين المستمر للحركة).[4]

إن القول بالتناقض والصراع في الطبيعة كما يصوره الشيوعيون قول خاطئ ويدل على تزييفهم للحقائق لأن الأصل في الكون التوازن البديع، والتوافق المدهش،

---

(١) نقلاً من مدخل إلى الجدلية المادية – موريس كورنفورث – ج١ – ص١١١.

(٢) دفاتر عن الديالكتيك – ص٩٦.

(٣) أصول الفلسفة الماركسية – ص٧٨.

(٤) فلسفتنا – ص٢٢٠.

والنظام الدقيق، وذلك شامل لجميع ظواهره لا تشذ عنه ظاهرة من تلك الظواهر وذلك مشاهد بالحس، فكل شيء في هذا الوجود شاهدٌ، وناطقٌ بذلك فأين الصراع الناشئ عن التناقض الذي يدعيه الماركسيون؟

إن (كل محاولة ديالكتيكة تستهدف إظهار الطبيعة بمظهر تناقض فهي محاولة بدائية، وقائمة على سوء فهم عدم التناقض، أو على شيء من التضليل).[1]

الحقيقة إن الواقع المحسوس هو خير شاهد ودليل على هذا الزعم الباطل، لأن كل ما في هذا الوجود بأرضه وسمائه وشمسه وقمره وكل ما فيه يسير في توافق، وتوازن، وانضباط تام، والقرآن - الكريم- يصور لنا ذلك بما لا يترك مجالاً للشك في أن منظم هذا الكون، ومرتبه، ومنسقه بهذا الشكل الدقيق الرائع هو الله -عز وجل-.

قال -تعالى-: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.[2]

وقال -تعالى-أيضاً: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.[3]

وقال -تعالى-: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴿٦٥﴾ ﴾.[4]

لقد خلق الله - عز وجل - هذه المخلوقات المختلفة وجعل كل واحد منها مكملاً للآخر، وجميعها تسير في نظام دقيق لا تحيد عنه ولا تضطرب بل تزداد بذلك صورة الكون روعة وجمالاً، وإننا على سبيل المثال لو نظرنا إلى ظاهرة الذكورة والأنوثة، ثم الليل والنهار، ثم السالب والموجب، وكذلك الناقص والزائد، لوجدنا أن كل واحد منها مكمل ومتمم للآخر، إذ لا حياة للذكور بغير الأنوثة، ولا معنى لوجود الليل بغير النهار، ولا يعرف السالب إلا بالموجب، وهكذا فكل واحد من هذه الظواهر مكمل

---

(١) فلسفتنا - باقر الصدر - ص٢٢٣.

(٢) سورة يس - آية ٤٠.

(٣) سورة الذاريات - الآيات ٤٧-٤٨.

(٤) سورة الحج - آية ٦٥.

للآخـــر بحيـــث تـــبقى جميع عناصر الكون المختلفة، والمتنوعة، والمتعددة في توافق وتناســـق تـــام، وليس في صراع كما يصور ذلك الشيوعيون الماركسيون وبهذا يمكننا القول (أن هذا الكون الواسع الهائل بجميع ظواهره وأجزائه وبل جوانبه ومركباته التي تبدو متفارقة إن هي إلا عناصر متكاملة يتمم بعضها الآخر لتسير عجلة الحياة والكون في تناسق مطرد منتظم من غير خلل أو نشاز).[١]

وبهـــذا يتضـــح لنا أن (القول بقانون التناقض وصراع الأضداد خطأ من الناحية العلمـــية، لأن ظواهر الوجود قائمة على التوازن الناتج من الحركة حول محور ثابت، فالتوازن هو الأصل والصراع يحدث عند الإخلال بهذا التوازن. ومن ثم كان الصراع معطـــلاً للحركة ومعوقاً للتقدم، وليس عاملاً في الحركة وباعثاً على التقدم... واشتداد الصراع قد ينجم عنه التدمير الكامل للظاهرة محل الصراع).[٢]

مـــن خلال النصوص السابقة المتعددة، والمتنوعة، لزعماء الفكر الشيوعي ومن كتب عنهم من المفكرين والمؤرخين لهذا الفكر المادي تأكد لنا بوضوح تام أن "المادية الديالكتيكـــية" والتـــي هـــي أساس الفكر الشيوعي اتخذها أصحابها وسيلة لهم لعرض أفكارهم المادية الإلحادية، وترويجها من خلال هذه الفلسفة والتي يصورون فيها الكون بأنه مادي، وأن كل ما فيه من ظواهر وأحداث، وتطورات، وتغيرات، ما هي إلا بفعل المادة فهي منها وإليها، وليس هناك خالق.

لقـــد كـــان الإلحاد هو أساس هذه النظرية المادية وغايتها ولقد صرح بذلك كبار قادتها، فهذا "ماركس" يقول: (لا إله والحياة مادة).[٣]

وهـــذا "لينيـــن" يعلن ذلك في خطاب له ألقاه في المؤتمر الروسي لمنظمة الشباب الشـــيوعي في سنة ١٩٢٠ الذي قال فيه: (إن تهذيب الشباب وتعليمهم يجب أن يتوخى تلقـــيحهم بالأخلاق الشيوعية ولكن هذه الأخلاق ليست مستمدة من وصايا إلهية لأننا لا نؤمن بالله).[٤]

---

(١) النظرية الماركسية في ميزان الإسلام – الدكتور أمير عبد العزيز – ص٣٢ – ٣٣.

(٢) حوار مع الشيوعيين – عبد الحليم خفاجي – ص١٧٣.

(٣) نقلاً من كيف ندعو إلى الإسلام؟ فتحي يكن – ص٥٧.

(٤) نقلاً من المرجع السابق – ص٥٧.

يقــول المستشار الدكتور "علي جريشه": (إن حقيقة هذا المذهب المادي والتي لم تعد خافية على أحد أنه قائم على الإلحاد ويدعو إليه ويعمل على نشره).[1]

ويقــول الأســتاذ "محمد قطب": (إن المادية الجدلية التي اعتنقها "كارل ماركس" وأقام على أسسها فكرة الشيوعية. ولكنها – جدلية كانت أم غير جدلية – مادية على أي حال، لا ترتفع عن مدركات الحس، ولا تؤمن بالروح، بل تعتبر كل ما لا يقع في دائرة الحس خرافة من مخلفات العصور البائدة).[2]

هــذه هــي حقيقة الفكر الشيوعي القائم على الإلحاد والكفر بالغيبيات، ويبررون كفرهم وإلحادهم بأن الغيبيات لا ترى ولا تشاهد في الواقع المحسوس ولقد أوقعهم ذلك فــي تــناقض كبير لأنهم من مبدأ الواقع الذي يبررون به إلحادهم يعودون فيقعون في الذي فروا منه عندما دعوا إلى إله جديد (الثالوث) ألا وهو العلم والمجتمع والدولة.

يقــول الدكتور "محمد البهي": (ذلك "الثالوث" الذي ادعت الماركسية أنه من واقع الطبــيعة التــي ترى وتشاهد مع أنه نفسه لا يرى ولا يشاهد. فنحن لا نرى العلم، بل نتصــوره. ولا نرى المجتمع وإنما نتصوره أيضاً على أنه جملة من الروابط المشتركة بيــن الأفــراد ولا نرى الدولة وإنما نحس آثارها فحسب في "التنفيذ" والإله الجديد في الديــن لا يوجــد إذن في الواقع المشاهد. وقد أنكرت الماركسية الله – عز وجل – من قــبل، لأنــه لا يوجد في الواقع المشاهد. وبذلك تنكر بناء على تبرير خاص، ثم تعود فتؤمن بما يقوم على ذلك التبرير الخاص ذاته).[3]

إن هــذا التــناقض الكبير الذي وقع فيه الشيوعيون يؤكد بأن مذهبهم باطل وبعيد عــن العلمية التي يزعمون وإلا لماذا هذا التناقض الكبير والواضح والذي إن دل على شيء فإنما يدل على عدم صحة ما يقولون به.

يقــول الأســتاذ "عــباس العقاد": (إنما حق الشيوعية من العلم أن نفسرها بتفسير الظواهــر النفســية في الطبائع المريضة فأكبر مبادئها واضح البطلان إذا طبقته على قواعــد البحــث وبرامج الإصلاح، وأصغر وساوسها – بل أخفى خفاياها – واضحة

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة – ص١٨٩ – ١٩٠ وانظر لعنة هذا الزمن – محمد علي مغربي – ص٧٣.

(٢) الإنسان في المادية والإسلام – ص٥٦.

(٣) الإسلام في الواقع الأيدلوجي المعاصر – ص١٢٠ – ١٢١.

المعنى إذا رجعت بها إلى دخائل النفوس المريضة التي تتحفز للنقمة وتلبى من يحفزها إليها).[1]

هـــذه هـــي الشيوعية، وهذا هو الفكر المادي الذي يحمله الشيوعيون الماركسيون الذي تمثله الفلسفة "المادية الجدلية (الديالكتيك) والتي كشف التقدم العلمي زيفها، وأثبت بطلان قوانينها – التي هي أسس لهذه الفلسفة – فظهرت أدلة "ماركس" وطائفته – التي يحسبونها حقائق علمية – مجرد أوهام وأباطيل، وأقبح هذه الأباطيل ما زعموا من مبدأ التناقض الذي أسقطه العلم وسقطت النظرية كلها.

وهـــذه (هـــي النهاية الطبيعية لحضارة خالية من الروح خاوية من المثل، مجردة الأحلام)[2] حاربت الدين من أجل القضاء على الإيمان بوجود الخالق فكان عاقبة أمرها الخسران المبين.

***

(١) الشيوعية والإنسانية – ص٩٧.

(٢) نحو مجتمع إسلامي – سيد قطب – ص٢٥.

الفصل الثالث

أصنـــــاف أخـــــرى

- المبحث الأول : الوجوديـــــــون
- المبحث الثاني : الطبيعيـــــــون
- المبحث الثالث : الوضعيـــــــون

تمهيد

إن التيار العلماني والشيوعي من أقوى التيارات المادية وأكثرها انتشاراً، وأشدها أثراً على المجتمعات الإنسانية ولذلك فقد أفردت لكل منهما فصلاً خاصاً تناولت فيه أهم الأفكار التي جاء بها العلمانيون، والشيوعيون، ويليهم الوجوديون، والطبيعون، والوضعيون، وهم لا يقلون عن أولئك خطورة في أفكارهم وفي آثارها السيئة على المجتمعات البشرية، ولكن مما لاشك فيه أن العلمانيين، والشيوعيين، هم أكثر رواجاً وانتشاراً، ولهذا فقد وضعت الوجوديين، والطبيعيين، والوضعيين وهم الأقل انتشاراً في فصل واحد، وسوف أعرض في كل مبحث من هذا الفصل أهم سمات كل مذهب، والأسس التي تميزه ويقوم عليها، وسيكون الكلام هنا عن الوجوديين أكثر منه عن الطبيعيين، والوضعيين وذلك بحكم ما يحمله الوجوديون من أسس ومبادئ مادية يقوم عليها مذهبهم مما يستوجب علينا أن نعرض المهم منها، وأعني بذلك التي لها علاقة بموضوعنا هنا. مما يستلزم الإطالة في هذا المبحث دون المبحثين الآخرين، كذلك وسيصحب عرض كل من الوجوديين، والطبيعيين، والوضعيين في الفصل القادم شيء من الرد[1] إن شاء الله – تعالى – حتى يتبين للقارئ مغالطة هؤلاء الماديين للحقائق.

وعرض ذلك كالتالي:

---

(١) كما جرى ذلك في الفصل الأول والثاني من هذا الباب.

المبحث الأول

الوجوديـــــــون

الوجوديــون: هــم أصــحاب الفلسفة الوجودية، وكل من أخذ بهذه الفلسفة يعتبر وجودياً.

والوجوديــة: مذهب فلسفي إلحادي، يركز على أهمية الوجود الفردي المشخص للإنســان باعتــباره الوجود الحقيقي، وعلى حرية الإنسان في أن يزاول حياته بالشكل الــذي يــراه فيشبع نزواته وشهواته دون اعتبار بدين أو قيم أو أعراف أو عادات أو قوانين.

فالمذهــب يقــوم أساساً على أن يرفض الإنسان أي توجيه أو ضغوط من خارج ذاته.

ولهذا نجد الدكتور "عبد الرحمن عميرة" عندما ذكر السبب من تسمية هذه الفلسفة بالوجوديــة قــال: (لاهــتمامها بوجود الإنسان ويقرر أصحابها بأن الوجود مقدم على الماهــية، وهذا لم يقل به أحد من قبل هؤلاء. وهي دعوة إلى التفرد، تفرد الإنسان في سلوكه، وفي حياته حتى لا يصبح – في نظرهم – كما مهملاً لا يعبأ به، كما حدث في النظرية الشيوعية التي تهمل الفرد في سبيل المجموع، ولا تنظر إليه إلا كما تنظر إلى قطع الغيار في ماكينة من الماكينات، كلما أصابه عطب أو تلف ألقت به، واستبدلت به آخر)[1] (الإنسان هو الوحيد الموجود، وأن كلمة وجود لا تنطبق إلا عليه).[2]

يقــول الدكتور "حبيب الشاروني": (ونحن قد انتهينا – رغم التقسيمات – إلى أن الفلســفة الوجوديــة بصــفة عامة هي فلسفة الوجود وليست فلسفة الماهية. فإذا كانت التقســيمات... تشــير إلى ما بين الفلاسفة الوجوديين من فوارق، فإن ما يجمع هؤلاء

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها – ص٢١٣.

(٢) المعجم الفلسفي – الدكتور عبد المنعم الحفني – ص٣١٩.

الفلاسفة تحت اسم الفلسفة الوجودية هو اهتمامهم – على نحو أو آخر – بمسألة الوجود، واعتبارهم البحث الوجودي مقدماً على أي بحث فلسفي آخر).[1]

وتشير كتابات المفكرين والباحثين في هذا الفكر المادي إلى أن جميع الوجوديين متفقون على أن الوجود سابق للماهية، فالإنسان عندهم يوجد أولاً ثم تحدد ماهيته، بمعنى أن الإنسان هو الذي يخلق وجوده وماهيته ويصنع قيمه وأخلاقه، ويضع لنفسه تشريعاته وليس هناك من إله.

ولقد جعل الوجوديون ذلك أساساً بنوا عليه بقية مبادئهم وهي:

المعرفة، والحرية، والقلق. تلك هي الدعائم التي شيد عليها الوجوديون فلسفتهم.

ولقد ربط الوجوديون الوجود والماهية بالحرية (الإنسان كائن يسبق وجوده ماهيته وإنه لا يستطيع في مختلف الظروف إلا إن يريد حريته).[2]

يقول "بول فولكيه": (لقد قلنا إن الوجود يسبق الماهوية عند الإنسان وحده، فلماذا؟ لأن الإنسان هو وحده الحر).[3] وما دامت الحرية لازماً من لوازم الوجود الإنساني، والوجود والماهية أساس للمبادئ التي بنى عليها الوجوديون فلسفتهم، ولما لهذا من صلة بموضوع هذه الرسالة فسوف أتناول ذلك بشيء من التفصيل حتى نتمكن من الرد على هذه المزاعم وإبطالها إن شاء الله – تعالى – لأنها تمثل دعائم لهذه الفلسفة المادية وإبطالها هو إبطال لهذه الفلسفة المادية.

ولكنني سوف أبدأ الحديث عن المعرفة، والقلق وسيكون ذلك بإيجاز، لأن ذلك ليس هو موضوعنا وذكري له هنا فقط من باب أن تكون الصورة مكتملة عن هذه الأسس لدى القارئ.

وإليك عرضاً لهذه الأسس في الفكر المادي الوجودي:

***

(١) فلسفة جان بول سارتر – ص٢٠.

(٢) الفلسفة الوجودية – جان فال – ص٥٣.

(٣) هذه هي الوجودية – ص٦٠.

المطلب الأول

المعرفـــــــــــة

يــزعم الوجوديون أن المعرفة هي المعرفة الحسية ويجعلون حجتهم في ذلك أن الإنســان لا يستطيع إدراك ما وراء الحس، ومن ثم لا يستطيع الحكم عليه. لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

ولهــذا فهــم يرون أن الطريق الوحيد الذي يوصلهم إلى هذه المعرفة هو طريق الحــواس النابع من ذاتية الإنسان. وهذا يعني أن المعرفة عندهم تنبع من ذاتية الإنسان ولــذا نجدهــم ينظرون إلى الذات على أنها فاعلة أي أنها هي التي تقوم بالمعرفة لكي تحقق وجودها.

وبهــذا تكــون المعارف والحقائق عند الوجوديين تنبثق من الذات دون أي تدخل خارجي.

يقــول الدكتور "حبيب الشاروني": إن "سارتر"[١] (جعل المعرفة تابعة للوجود[٢] وقائمة فيه).[٣]

ويقــول الدكــتور "محمد علي أبو ريان": إن الوجودية (جعلت الذات أساس كل معرفة وهذه المعرفة ليست معرفة استدلالية عقلية... بل هي معرفة شعورية هي تواجد الذات مع نفسها، هي تجربة حية يعيش الإنسان في غمارها ويعاني خلالها الواقع بكل ذبذباتــه الأصيلة).[٤] هذا يؤكد بأن الوجوديين يغفلون دور العقل ويعتمدون على الذات الإنسانية.

---

(١) جان بول سارتر – ١٩٠٥ – ١٩٨٠ – فيلسوف فرنسا العظيم، وواضع الفلسفة الوجودية في صورتها النهائية، بدأ اسمه كفيلسوف يلمع منذ عام – ١٩٢٤ – وذاع صيته نظراً لاشتراكه في حركة المقاومة الفرنسية اثناء الحرب العالمية الثانية، ونظراً لظهور مؤلفه الضخم الذي وضع فيه معالم الوجودية في نضجها الأخير وهو كتاب "الوجود والعدم" (في الفكرالحديث والمعاصر – الدكتور علي عبد المعطي محمد – ص١٥٠).

(٢) يقصد بالوجود هنا الوجود العيني أو المشخص وهو وجود الذات وليس الوجود العام.

(٣) فلسفة جان بول سارتر – ص٢٧٢.

(٤) الفلسفة ومباحثها – ص٤٦.

يقــول الدكــتور "محمــود حمدي زقزوق": (الوجوديون من أشد أعداء المعرفة العقلــية، لأن العقل في رأيهم لا يوصل إلى معرفة حقيقية، فالمعرفة لديهم لا تجيء إلا عن طريق ممارسة الواقع).[1]

وبهــذا يقلــل الوجوديون من قيمة العقل ويبرزون دور الشعور، وإذا كان الأمر كذلــك فهــذا يعنــي أن لــيس هناك حقائق ثابتة لأن مقياس الحقيقة عندهم هو الفرد وشــعوره، وبناء على ذلك فالحقيقة تختلف من فرد لآخر، وذلك لأنه ليس هناك مقياس ثابــت فمــا يــراه أحدهــم حقيقة معينة قد لا يراه الآخر كذلك أو قد يراه شيئاً مختلفاً وكلاهمــا لــدى الوجوديــين على صواب. كما وأن إغفال دور العقل في أداء مهماته مصادمة للواقع الذي يفرض على الإنسان أن يستخدم عقله وحواسه لمعرفة واستكشاف الحقائق.

ولهــذا نجد آيات كثيرة في القرآن – الكريم – تحث الإنسان على التعقل والتفكير فــي آيــات الله – تعالى – الكونية من أجل الوصول إلى الحقيقــة الكبرى من خلال الآيــات المنبثــة في هــذا الكون. قــال – تعالى – : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾.[2]

وقال –تعالى–: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ ﴾.[3]

***

(١) دراسات في الفلسفة الحديثة – ص٢٤٠.

(٢) سورة الرعد – آية ٤.

(٣) سورة الرعد – آية ٣.

المطلب الثاني

القلـــــــــــــق

يـــزعم الوجوديون أن القلق مرتبط بالوجود الإنساني (أما القلق فلابد من ظهوره حـــتى ولو أخفي)[١] يقول "سارتر": (الإنسان قلق)[٢] ويقول "جان فال": (إن الفيلسوف الوجـــودي يعلـــن أن الإنســـان قلـــق)[٣] ويقول "لوك لوفافر": (نعم، ليس هنالك، عند الوجوديين، سوى القلق. فقلق قبل الاختيار وقلق في الاختيار وبعده).[٤]

ويقـــول "بـــول فولكيـــيه": (يـــرى "سارتر" أن القلق إنما ينتج عن شعورنا بتبعة الأعمال الاختيارية التي نقوم بها).[٥]

هـــذا مـــا يتصوره الوجوديون أن القلق ملازم للوجود الإنساني بمعنى أن لا مفر للإنسان منه (القلق الذي يزيد زيادة مطردة بسبب شعورنا الحاد بالسير المتواصل نحو الموت).[٦]

(القلـــق هـــو قلق على الحياة ككل، قلق على الموت باعتباره نهاية وأساساً واحداً للحـــياة، وذلك لأن الحيـــاة في كليتها هي الحيـــاة التي تواجه الموت)[٧] (القلق ليس له موضـــوع مسمى معزول. إنه شعور يفقد الأشياء، إنه شعور بالعدم – شعور باللاشيء الـــذي يحـــيط بي عندما أواجه – لا هذا الشيء أو الشخص أو ذاك – بل عندما أواجه النسيج الكلي للوجود – في العالم ذاته).[٨]

هكـــذا يعـــتقد الوجوديـــون أن القلق يوجد عند كل موجود بشري وبصفة دائمة ومستمرة حتى ولو اختفى فإنه يعود ويظهر من جديد، ولا يمكن للإنسان أن يفلت منه.

---

(١) الفلسفة الوجودية – جان فال – ص٢١.

(٢) نقلاً من سارتر والفلسفة – لوك لوفاقر – ص٣١.

(٣) الفلسفة الوجودية – ص٢٠.

(٤) سارتر والفلسفة – ص٣٥.

(٥) هذه هي الوجودية – ص٩٠.

(٦) الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة – الدكتور محمد غلاب – ص٢٣.

(٧) هيدجر – مارجوري جرين – ص٣٠.

(٨) المرجع السابق – ص٣٠.

هذه هي رؤية الوجوديين للقلق وتلك هي أقوالهم التي يؤيدون بها ما يزعمون.

ولكـــن الحقيقة التي نشاهدها ونلمسها على أرض الواقع تؤكد عكس ما يقولونه، فـــالقلق، لـــيس ملازماً للوجود الإنساني بل يظهر في مواقف معينة وما إن تنتهي تلك المواقف فإن القلق سرعان ما يذهب ويزول.

كمـــا وأن هـــذا القلق لا يظهر عند كل الأفراد بل البعض منهم وبنسب متفاوتة، ويكـــون مـــنعدماً عـــند الإنسان المؤمن بالله – تعالى – الذي لا يشعر إلا بالاطمئنان والاستقرار النفسي حتى ولو كانت المواقف التي يمر بها شديدة وعصيبة.

ولهـــذا أقـــول بأن حالة القلق التي يتحدث عنها الوجوديون لا يمكن أن تكون إلا حالة مرضية.

كمـــا أنهـــا لا يمكن أن تكون إلا بسبب كونهم ملاحدة لا يؤمنون بالله – سبحانه وتعـــالى – فـــإنهم في نفس الوقت الذي فقدوا فيه الإيمان بالله – سبحانه وتعالى – قد فقـــدوا الاســـتقرار والأمان والطمأنينة وغرقوا في بحار الاضطراب العفن والأمراض العصـــبية والحيرة واليأس، وجماع ذلك كله القلق الذي لا سبيل لديهم للخلاص منه إلا بالانتحار، وبذلك تلفظهم الحياة كما يلفظ البحر جيفة نتنة.

***

المطلب الثالث

الوجـــــود والماهيـــــة

الماهية: مصطلح مأخوذ من لفظه "هو" وكان حقها أن تقال "ماهوية" لكنها خففت إلى "ماهية" اصطلاحاً لا لغة. ويراد بها أحد أمرين: إما ذات الشيء وحقيقته، وإما ما تتركـــب مـــنه ذاته وحقيقته، ولذلك تطلق الماهية إطلاقاً فرعياً على النوع كله (ما به الوجـــود هو هو، وهي تشتمل على جميع المميزات التي يحتويها كل أفراد النوع على هيـــئة "العام المشترك" وهي التي تحدد التعريفات ولكنها لا تتضمن وجود كائنات هي مـــتحققة فيها بالضرورة فالكيميائي والمهندس مثلاً يدركان أجساماً ليس لها نماذج في الواقع وإن كانا يعرفان خاصياتها واستعمالاتها الممكنة إذا وجدت).[1]

وهـــذا يعني أنها صورة الشيء غير المحسوس وأن الوجود هو الذي يحقق فعلية هذه الماهية – كما يتصور ذلك الوجوديون – ولهذا (فإن الفلسفات الوجودية قد اهتمت بـــالوجود اهتماماً مباشراً وبالوجود الإنساني بنوع خاص، باعتبار أنه الحقيقة الأصلية التي لا تقبل أن ترد إلى غيرها).[2]

وخلال تاريخ الفلسفة كان القول بالماهية يسيطر أحياناً على التفكير وأحياناً أخرى كان يسيطر القول بالوجود إلى أن ظهرت الفلسفة الوجودية فقالت: بأسبقية الوجود على الماهـــية وأصـــبح القول به أساس موقفهم الوجودي، ولقد ركز عليه الوجوديون وبنوا عليه فلسفتهم.

إن التمييز بين الوجود والماهية ثم القول بأسبقية الوجود على الماهية لا يكون لها أي معنى خارج الإنسان لهذا فإن تقدم الوجود على الماهية[3] أمر يخص الإنسان وحده

---

(١) الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة – الدكتور محمد غلاب – ص٦ – ٧.

(٢) أضواء على الفلسفة المعاصرة – الدكتور يحي هويدي – ص١٠٤.

(٣) هذه المقولة وهي أسبقية الوجود على الماهية قد سبق بها "الماركسيون" عندما قالوا: بأن (وجود الأشياء المادية سابق على وجود الذات المدركة أي الأنا العارفة أو النفس التي تعرف هذه الموجودات، بل أنهم يذهبون في تصورهم إلى أبعد من ذلك عندما يقولون: إن الذات المدركة هي صورة من صور المادة أو هي انعكاس لها. (الفلسفة ومباحثها – الدكتور محمد علي أبو ريان – ص٣٥ – ٣٦).

ولهـــذا يرى الوجوديون أن الإنسان يوجد قبل كل شيء، ويظهر في الكون ثم بعد ذلك يحدد ويعرف.

ولذلك كتب "سارتر" يقول: (إن الماهية تأتي بعد الوجود)[1] ويقول أيضاً: (هناك كائـــن واحـــد على الأقل وجوده سابق الماهية كائن يوجد قبل أن تستطيع تعريفه بأية فكرة، وهذا الكائن هو الإنسان).[2]

يظهـــر لـــنا مـــن خلال هذه النصوص أن "سارتر" يحاول التأكيد على أن وجود الإنسان سابق لماهيته. فالإنسان في تصوره (يوجد قبل كل شيء. إنه يلقى ذاته ويبرز إلى العالم ثم يعرف بعد ذلك).[3]

لأن الإنســـان وكما يرى هؤلاء الوجوديون هو الذي يوجد نفسه، ويكون مستقبله كما يريد، باختياره المبني على إرادته.

يقول الدكتور "محمد شفيق شيا": (والإنسان كما تتصوره الوجودية ليس في البدء أي موجـــود حـــتى يمكـــن تعـــريفه وتحديده، وإن هذا التعريف وهذا التحديد لا يصح وجودهمـــا إلا بعد أن يكون الإنسان قد وجد على الشكل الذي يوجد نفسه عليه. وهكذا يصح الاعتقاد أنه لا توجد (طبيعة إنسانية).[4]

إنه يوجد نفسه على الشكل الذي يريد أن يوجد عليه. لذلك لا توجد ماهيات مسبقة أو طبيعة إنسانية مقررة من قبل، إذ ليس هناك إله يحقق وجودها بل إن ماهية الإنسان وحقيقته يصنعها بنفسه بعد وجوده ولهذا فإن وجوده يسبق ماهيته.

وهكـــذا وكما يرى الوجوديون أن لا وجود للطبيعة الإنسانية لأنه لا يوجد تصور إلهـــي لها (الإنسان موجود فقط، ليس كما يتصور ذاته، بل كما يريدها وكما يتصورها بعد الوجود).[5]

---

(١) نقلاً من الوجودية – جون ماكوري – ص٢٧.

(٢) نقلاً من سارتر والفلسفة – لوك لوفافر – ص١٠.

(٣) المرجع السابق – ص١٤.

(٤) المرجع السابق – ص١٤.

(٥) المرجع السابق – ص١٦.

هــذا ما يردده "سارتر" في أقواله، بل وهذا ما يقول به الوجوديون ويبنون عليه فلســفتهم الوجودية الإلحادية التي تنفي وجود الخالق – سبحانه وتعالى عما يصفون – بطريقة ماكرة وخبيثة وذلك عندما يقولون: بأن الإنسان هو الذي يوجد حقيقته بفعله هو (ليس الإنسان في ذاته إلا ما يفعل).[١]

هذا يعني أن حقيقة الإنسان لا تتحقق إلا بفعله، فالإنسان هو صانع ذاته وموجدها بفعله وهذا يستلزم عملية الاختيار.

(إن ما به نحن، نحن يكون ماهيتنا، وبالتالي إننا نختار ماهيتنا عندما نحدد اختيار الشخصية التي نريد أن نكون إياها. وهذه الماهية بعد الوجود، لأنه لكي يختار الإنسان، ينبغي أن يكون موجوداً، وتلك فكرة عامة مشتركة لدى جميع الوجوديين).[٢]

إن الوجود الذي يقصده الوجوديون يكمن في الوجود الإنساني، ذلك الوجود الذي يفعله الإنسان باختياره وليس مفروضاً عليه من الخارج، بل يفعله بنفسه.

ولهذا يقول "مارسل"[٣] : (أكون ما اخترت لنفسي أن أكون).[٤]

هكذا أراد الوجوديون أن يكون الوجود وجوداً حسياً مادياً بعيداً عن العقل وبدون أي تدخل خارجي، ويؤكد ذلك اتفاق أقوالهم على إن الوجود يسبق الماهية، وهذا المبدأ الــذي اشــتق مــنه اسمهم فبنوا عليه كل مقولاتهم، إيماناً منهم بقيمة الذات الإنسانية المفردة.

المهــم عــندهم أن الإنسان يوجد أولاً يلقى به، يسقط في العالم، ثم يكون كذا أو كذا...

يقــول "جان فال": (وإذا كان الإنسان، كما يتصور الفيلسوف الوجودي، غير قابل للتعريف فلأنه ليس شيئاً في البدء بل إنه سيكون بعدئذٍ كما يصنع ذاته. فلا وجود إذن للطبــيعة الإنســانية لأنــه لا وجود لتصور إلهي لها – الإنسان موجود فقط، ليس كما

---

(١) المرجع السابق – ص١٦.س

(٢) الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة – الدكتور محمد غلاب – ص١٨.

(٣) جابرييل مارسل – ٨٨٩ – كان مولعاً منذ صغره بكتابة القصص والروايات، واستطاع بواسطة الدراما أن ينفذ إلى التفكير الميتافيزيقي ويحوله إلى مواقف عينية (في الفكر الحديث والمعاصر – الدكتور علي عبد المعطي محمد – ص١٤٣).

(٤) نقلاً من الصراع في الوجود – بولس سلامة – ص٣٥٥.

يتصـــور ذاتـــه، بل كما يريدها وكما يتصورها بعد الوجود، بل أيضاً كما يريدها في اندفاعه نحو الوجود. وليس الإنسان في ذاته إلا ما يفعل).[1]

هـــذا يؤكد بأن الوجوديون لا يؤمنون إلا بالوجود الفردي بلا ماهية، وإن الإنسان هو الذي يصنع ماهيته بنفسه ويحدد ذلك باختياره الحر.

ولكـــن بعد أن يوجد ألا يلاحظ الوجوديون (أن وجوداً محروماً من الماهية، إنما هو وجود فارغ. أعني أنه عدم بحت).[2]

لقد عميت قلوب الوجوديين وأبصارهم عن رؤية الحقيقة ولذلك فهم لا يقولون إلا بما يناقضها وهذا دليل خطئهم وبطلان ما جاءوا به.

يقـــول الدكـــتور "مصـــطفى حلمي": (أول ما يقال أن تصور سبق الوجود على الماهية خطأ في العقل والمنطق.. فوجود النوع الإنساني أولاً وجود حقيقي صادق في الحـــس كصدق وجود الفرد أو أصدق لأن وجود النوع الإنساني حقيقة (بيولوجية) من حقـــائق اللحم والدم، وليس فرضاً من فروض التصور في الأذهان، ولا يتم كيان الفرد نفســـه إلا إذا نضـــجت مـــنه الوظائف النوعية التي يتحقق بها وجوده كما يتحقق بها النوع).[3]

وهذا لا يمكن أن يكون إلا بقدرة الخالق – عز وجل – ولكن الوجوديين يرفضون هذه الحقيقة ولهذا قالوا: بسبق الوجود للماهية، فكأنهم يقولون: أنه لا توجد ماهية مسبقة في العلم الإلهي، لقد أرادوا بذلك نفي الغاية من خلق الإنسان، لأن نفيها هو نفي لوجود الخـــالق وفـــي إثـــباتها إثبات لوجود الخالق – عز وجل – وكل ما يسعى إليه هؤلاء الماديون هو نفي وجود الخالق – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً –.

إن هـــذا الاتجـــاه الوجودي المادي يتناقض مع تعاليم الدين الإسلامي القائمة في أساســـها وغايتها على عقيدة الإيمان بالله – تعالى – الخالق لهذا الوجود من العدم، فله وحده – عز وجل – الخلق والتدبير.

---

(١) الفلسفة الوجودية – ص١٦ – ١٧.

(٢) حقائق الوجود – الدكتور فؤاد كامل قدح – ص١٧.

(٣) المخاطر التي تواجه الشباب المسلم – ص١٤٧.

قـــال -تعـــالى-: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾.(١)

وقال -تعالى-: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ ﴾.(٢)

فـــالله – تعالى – هو الخالق وحده لا شريك له، وهو الذي يصرف الأمور كيف يشـــاء – سبحانه وتعالى – وإليه مصير ومرجع الخلائق. قال -تعالى-: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥ ﴾.(٣)

وبمـــا أنه – تعالى – قد أكد عودة الخلق إليه للحساب والجزاء بالبراهين القوية، والأدلـــة الواضحة، فهذا يعني أن الإنسان إنما خلق في هذه الحياة لغاية محدودة منه – عز وجل – ولم يخلق عبثاً – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – وبما أنه قد خلق الإنسان لغايـــة عظيمة فقد تحددت حقيقته أو ماهيته تبعاً لذلك من قبل الله – تعالى – ولهذا فقد اقتضـــت حكمـــته – عز وجل – خلق الإنسان على صورة تجمع بين الوجود المادي والوجود الروحي، وخلق فيه العقل وميزه عن بقية المخلوقات، كما وأنه – عز وجل – لـــم يـــترك الإنســـان لعقله بل أرسل إليه الرسل – عليهم السلام – وأنزل معهم الكتب الســـماوية لكي يأخذوا بيده إلى المنهج السليم الأقوم الذي تحددت فيه الغاية من الوجود في هذه الحياة.

إذاً الإنسان ليس جانباً مادياً فحسب كما يدعي الوجوديون وليس جانباً روحياً كما تدعـــي بعـــض الفلســـفات وإنما هو يجمع بين الجانب المادي والروحي معاً وعليه أن يعيش الجانبين معاً ولكن هيهات – هيهات أن يدرك الوجوديون ذلك أو يأخذوا به وذلك لأنهـــم نظروا إلى الإنسان من زاوية واحدة وحصروه في الجانب المادي الذي لم ينتهِ بهـــم إلا إلـــى الضياع وسط الشعور بالقلق، والضجر، واليأس، والخوف، والرغبة في الانتحار.

---

(١) سورة التغابن – آية ٣.

(٢) سورة النحل – آية ١٧.

(٣) سورة المؤمنون – آية ١١٥.

يقول الدكتور "محمد غلاب": (إن فلسفة "سارتر" الإلحادية تنتهي إلى نتيجة واحدة هي أن وجود الإنسان هو التناقض ذاته اللامعقول وهذا يقتضي طرح السؤال الذي لابد منه، وهو أليست الحكمة في أن ينجو الإنسان بنفسه – وعن طريق الانتحار – من ذلك التناقض المطبق عليه من كل جانب).[1]

هكـــذا تصور الوجوديون الحياة، إنها لا تقوم إلا على إنكار الخالق، والتمرد على العقـــل والاعتماد على المحسوس، وبذلك شوهوا الوجود، وأفسدوا الحياة عندما جعلوا كـــل شـــيء فـــيها بعـــيداً عن الحق والواقع، قائماً على الباطل والمغالطات الشنيعة، والأكاذيب المفضوحة.

يقـــول "جـــورج جيرفتش" – الأستاذ بجامعة السوربون –: (لم يحدث أن أجدب الوجـــود أو شوه في فلسفة من الفلسفات بقدر ما أجدب وشوه في الفلسفة الوجودية).[2] وهذه نتيجة حتمية لكل من أنكر دين الله – تعالى – وما جاء به من حقائق.

قال –تعالى–: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.[3]

---

(١) الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة – ص٦٣.

(٢) نقلاً من دراسات في الفلسفة الحديثة – الدكتور محمود حمدي زقزوق – ص٢٤٥.

(٣) سورة طه – آية ١٢٤.

المطلب الرابع

الحريـــــــــــــة

اعـــتمد الوجوديون مبدأ الحرية كمبدأ من مبادئهم، بل وجعلوها أساساً بنوا عليها فلســـفتهم الماديـــة، ولذلـــك فهم يذهبون إلى أن ما يميز الإنسان عن جميع الموجودات الأخـــرى هو ممارسته للحرية، وقدرته على تشكيل مستقبله، فمن خلال اتخاذه لقراره الحر يستطيع أن يحقق ذاته (إن الوجود يسبق الماهية عند الإنسان وحده لماذا؟

لأن الإنســـان وحـــده هو الحر، في العالم الخاضع لتجربتنا. أما كل ما عداه من المخلوقات فمقيد سلفاً بحدوده).[١]

معنى ذلك أن الوجود الإنساني يقوم على الحرية فهي لازم من لوازمه إن لم تكن جوهر الوجود الذاتي – كما يتصورون ذلك –.

(إن الإنســـان كائن يسبق وجوده ماهيته وإنه لا يستطيع في مختلف الظروف إلا أن يريد حريته).[٢]

لقـــد ربط الوجوديون بين حرية الإنسان وبين وجوده لأنه طالما الإنسان موجود لابـــد أن يحقـــق وجـــوده ولا يمكـــن أن يحقق ذلك إلا بفعله الحر، ولهذا يذهب "كير كجارد"[٣] إلى أن الوجود البشري والحرية (تعبيران مترادفان تقريباً)[٤] وأنه (لا يمكن التمييز بين الحرية والوجود البشري، فالإنسان لا يوجد أولاً ثم يصبح حراً بعد ذلك، بل كونه إنساناً معناه أنه حر بالفعل).[٥]

يؤكـــد الوجوديـــون علـــى أهمية مبدأ الحرية عندما ربطوا بين الحرية والوجود الإنساني وهذا يعني – في تصورهم – أنه لا وجود بلا حرية ولا حرية بدون وجود.

---

(١) هذه هي الوجودية – بول فولكييه – ص٦٠.

(٢) الفلسفة الوجودية – جان فال – ص٥٣.

(٣) سورين كير كجارد – ١٨١٣ – ١٨٥٥ – مفكر دانمركي الأصل ويعتبر المؤسس الأول للوجودية النصرانية (في الفكر الحديث والمعاصر – الدكتور علي عبد المعطي محمد – ص١٦٦).

(٤) الوجودية – جون ماكوري – ص٢٥٦.

(٥) المرجع السابق – ص٢٥٦ – ٢٥٧.

ولهذا يقول "ياسبرز"[1]: (إني متقين من شيء وهو أنني من حيث كوني موجوداً حراً).[2]

ويعبر الوجوديون عن أهمية الحرية بالنسبة لهم بأقوال متعددة، منها:

قول "سارتر" (إنني أعبر عن ذلك بقولي عن الإنسان أنه محكوم عليه بالحرية).[3]

وقول "مارسل" (فقولك أنا حر يعادل قولك إني أنا ذاتي).[4] وبذلك تكون الحرية (عندهم) نسيجاً من الوجود الإنساني بل يصبح الإنسان هو الحرية ولهذا يتصور الوجوديون أنهم عندما ينادون بالحرية فكأنما ينادون بالعودة إلى ذواتهم، ولهذا كانت الحرية عندهم هي أعظم شيء منح للإنسان (إن أعظم شيء منح للإنسان هو الاختيار وهو الحرية).[5]

وإذا كانت الحرية هي أعظم شيء منح للإنسان فعليه أن يختار فعله في لحظة خاطفة بدون تخطيط مسبق أو تحديد لغاية، لأن الإنسان هو صانع نفسه باختياره الحر.

وإذا كان الإنسان هو الذي يحقق وجوده بفعله الحر فهذا يعني أنه لا يوجد خالق – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – ولا توجد غاية.

يصف الدكتور "يحي هويدي" هذا الوجود الإنساني عند الوجوديين فيقول: (يتصف كذلك بالاختيار فالإنسان عند الوجوديين صانع وجوده ورب أفعاله. ولا وجود لقوة خارجية تفرض نفسها عليه وتجبره على السير في طريق غير الطريق الذي رسمه لنفسه بيده فالأمر كله بيده).[6]

---

(١) كارل ياسبرز – ١٨٨٣ – فيلسوف وجودي ألماني شهير، درس القانون والطب والفلسفة وحصل على الدكتوراه وأصبح أستاذاً لعلم النفس بجامعة هيدلبرج، وأستاذ الفلسفة (في الفكر الحديث والمعاصر، الدكتور علي عبد المعطي محمد، ص١٥٠).

(٢) مدخل جديد إلى الفلسفة – الدكتور عبد الرحمن بدوي – ص٢٣٢.

(٣) نقلاً من الفلسفة الوجودية – جان فال – ص٢٥.

(٤) نقلاً من الصراع في الوجود – بولس سلامة – ص٣٨٨.

(٥) في الفكر الحديث والمعاصر – الدكتور علي عبد المعطي محمد – ص١١٧.

(٦) أضواء على الفلسفة المعاصرة – ص١٠٨.

إذاً الإنســـان حر ويفعل ما يريد (الفعل الحر لا مبرر ولا مصدر له ولا غاية من ورائه).[1]

هــذا هو المفهوم الإلحادي لمعنى الحرية الذي يعتقده الوجوديون ويريدون التأكيد علــيه، ولكـــي تصـــبح الحرية وبهذا المعنى من صميم الوجود الإنساني ولكي تصبح ملازمـــة للإنسان ولا يستطيع التخلي عنها أو الإفلات منها مهما قام من محاولات قال الوجوديون: (بأن الإنسان محكوم عليه بالحرية).[2]

لقـــد أراد الوجوديـــون تأكيد حرية الإنسان ولكن أوصلهم ذلك إلى القول بحرية خاويـــة مـــن كل قيمة، عملت على (تقطيع كل الجذور التي تربط الفرد بدينه وطبقته ومجتمعه).[3]

الحقـــيقة إن هـــذه الحـــرية التي يتشدق بها الوجوديون ليست سوى الأنانية التي أتصـــف بها هؤلاء الماديون الذين أطلقوا العنان لحريتهم دون قيد أو شرط، بل ودون اكـــتراث لأي شـــيء على الإطلاق، لأن الوجودي وكما يتصور ذلك أنه لو فعل شيئاً بوحـــي مـــن العقل أو الدين فإن ذلك يقف عقبة في طريق حريته، ولهذا نجدهم عندما نادوا بهذه الحرية نادوا بها بعيداً عن العقل ومفاهيم الدين، ولهذا فقد انطلقوا من الذات الإنســـانية، وقالوا بأنها هي التي تخلق نفسها بنفسها، وتصنع وجودها، وتصنع لنفسها القـــيم والمفاهيم الذاتية، ومن هنا كانت حريتهم قائمة على اختيار وهمي غير منضبط، ومن هنا أيضاً تكمن خطورة هذه الحرية، حيث تصبح حرية مطلقة بلا عنان ولا تعقل بـــل وبـــدون أي رادع يحدد مسارها، بل إنها تنطلق حيث تشاء فمقياسها الذات وحدها وهـــذا ممـــا يؤكد بأن الحرية التي يدعو إليها الوجوديون إنما هي حرية كاذبة ومزيفة وهي ليست في حقيقتها سوى حرية مادية وسلبية تدعو إلى الانحلال الخلقي وتؤدي إلى الفوضى والفساد لأنها غير مرتبطة بأية غاية خلقية.

يقـــول الدكـــتور "يحـــي هويدي": (إنه إذا كان علماء الأخلاق قد قسموا المذاهب الأخلاقـــية إلـــى قسمين أخلاق المصدر (سواء كان هذا المصدر ديناً أو عقلاً) والغاية

---

(١) دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة – الدكتور يحي هويدي – ص٢٧٣ – ٢٧٤.

(٢) نقلاً من سارتر والفلسفة – لوك لوفافر – ص٤١.

(٣) دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة – الدكتور يحي هويدي – ص٢٧٨.

(سـواء كانـت هذه الغاية هي اللذة أو المنفعة أو السعادة أو المجتمع) فإن "سارتر" قد أضاف إلى هذا التقسيم الثنائي أخلاقاً أخرى أسقط من حسابه فيها المصدر والغاية على السواء، فالأخلاق السارترية والوجودية بوجه عام ترفض رفضاً باتاً البحث عن مصدر للفعـل الحـر أو للفعـل الأخلاقي، وترفض كذلك البحث عن الغاية التي يرمي إليها.

ومـا ذلـك إلا لأنها أخلاق غير مرسومة: الأفعال الإنسانية فيها ليس لها مبدأ تصدر عنه. وليس لها غاية تهدف إليها).[1]

هذه هي الحرية التي أنشغل بها الوجوديون وركزوا عليها، ونادوا بها، إنها حرية متمردة ومتفلتة من كل قيد، لا تحكم العقل ولا تعترف بالدين.

لقد أراد الوجوديون أن يجعلوا فلسفتهم في الحرية التي يتشدقون بها فلسفة متفائلة كمـا يـزعمون، فأنقلبت تلك الفلسفة التي صنعوها بأيديهم إلى فلسفة تشاؤمية بائسة، الإنسان فيها يعاني القلق، والتوتر، والخوف من الموت.

لقـد وقع الوجوديون في تناقض عجيب إذ كيف يقولون بالحرية فينتهي بهم الأمر أن جعلوا الإنسان أسيراً للحيرة، والاضطراب، واليأس، والقلق؟

فهذا "كيركجارد" يرى أن (من المحال أن نفلت من اليأس)[2] وهذا "سارتر" يقول: (إن الإنسـان عند الفيلسوف الوجودي ليس مجرد جزء من الكون على الإطلاق، وإنما هو يرتبط به باستمرار بعلاقة التوتر مع إمكانات الصراع المأساوي).[3]

يقـول الدكتور "محمد شفيق شيا": (فالوجودي يؤمن إيماناً قاطعاً بأن الإنسان هو كآبة عميقة).[4]

هذه هي نظرة الوجودي للحياة فهو لا يرى فيها إلا القلق، والملل، والغثيان، وإذا كـان الأمـر كذلـك فمـاذا فعلت لهم الحرية التي ينادون بها؟ إلا أنها قد سلبت منهم الطمأنينة، والاستقرار النفسي، والسعادة الروحية.

---

(١) دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة – ص٢٧٤.

(٢) نقلاً من في الفكر الحديث والمعاصر – الدكتور علي عبد المعطي محمد – ص١٢٩.

(٣) الوجودية فلسفة إنسانية – ص١٦.

(٤) مدخل إلى الفلسفة المعاصرة – ص١٥٥.

يقول الأستاذ "محمود علي البغدادي": (فالحرية التي تسلب الإنسان أمنه وطمأنينته النفسية وسمعته الأخلاقية وسعادته الروحية، وطمأنينته لمصيره بعد الموت ليست حرية في الواقع لأنها رخيصة، ولا تفترض أية مسؤوليات وواجبات ملزمة تجاه الذات وتجاه الآخرين، فهي إذن عبودية وأنانية).(١)

ويقول الدكتور "يوسف القرضاوي": (إن الحرية إذا كان معناها... التحلل من عرا الفضائل والأخلاق والقيم العليا التي هي أغلى ما ورثته الإنسانية من تاريخها الطويل، فهذه الحرية ليست حينئذ كسباً يسعى إليه، ولا غنماً يحرص عليه، بل هي خسارة جسيمة على البشرية، وهزيمة منكرة للمعاني الإنسانية التي بها صار الإنسان إنساناً).(٢)

وهكذا فإن الحرية التي ينادي بها الوجوديون ليست في حقيقتها إلا حرية مزيفة لا يتحقق بها الوجود الإنساني الذي يزعمه الوجوديون بل هي نكسة مؤلمة للإنسانية جمعاء وضياع لقيمها ومبادئها، وفقدان لذاتها وبالتالي فهي انعدام لوجودها.

وما هو أهم من ذلك أن الإسلام لا يقر بهذه الحرية المطلقة التي ينادي بها الوجوديون بل يرفضها بشكل قاطع.

إن الإسلام لا يحرم الإنسان حقه من الحرية بل يعطيه الحرية المنضبطة المحدودة بحدود الشرع التي لا يمكن تجاوزها وذلك حفاظاً على المصالح العامة.

كما وإن الإسلام عندما أعطى الفرد هذه الحرية وجعله مختاراً في أفعاله جعله أيضاً مسئولاً عن ذلك الاختيار وكونه مسئولاً فإنه يترتب على ذلك الثواب والعقاب.

قال -تعالى-: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.(٣)

وحفاظاً على تلك الحرية ولكي تمارس بعيداً عن الفوضى والفساد وانتهاك المحرمات شرع الله – تعالى – الحدود والعقوبات.

---

(١) الإسلام والحرية – ص١٨٣.

(٢) الإيمان والحياة – ص٣٤٣.

(٣) سورة فصلت – آية ٤٦.

يقــول الدكتور "فاروق دسوقي": (بل تضمن التشريع الإسلامي ما يعرف بالحدود حفاظاً على حرية المسلمين في المجتمع باعتبار أنهم جميعاً خلفاء في الأرض. كما أنه جعــل فــي نظامه ما يمكن تسميته بالسبل الوقائية القاضية على التربة المتيحة لإنبات الرذيلة والشر في المجتمع قبل إقامة هذه الحدود).[1]

إن الإســلام عــندما أقــر مبدأ الحرية، أقرها لأن الإيمان به – تعالى – يقتضي التحرر من عبودية غير الله، وأن تكون الحرية الحقيقية في ظل شريعته –عز وجل–.

وهكــذا فــإن (وجهــة النظر الإسلامية تعتبر الاعتقاد والإيمان بالله – تعالى – متســاوياً مــع كــون الإنسان حراً مختاراً، وأن الحرية بمعناها الواقعي هي الجوهرة الإنسانية الأصيلة).[2]

يقول الدكتور "محمد البهي": (وإذا تناولنا الحديث عن الإسلام والحرية الإنسانية. ومهمــا أطلنا في الحديث عن معنى الحرية ومعنى الإنسانية فإنا في النهاية سنصل إلى أن الحــرية هي الإنسانية، والإنسانية هي الحرية... إذ الحرية هي الاختيار في الفعل والترجــيح والمــؤازرة فــي الحكم على الأشياء وتقديرها، والإنسانية التي يتميز بها الإنســان عــن الحيوان هي استعداده لأن يفكر ويوازن فيما يفكر فيه ثم يختار ما يراه جديراً بالتنفيذ).[3]

إن الإســلام لم يغفل الحرية بل أعطى الفرد حرية الاختيار ولكن بعد أن حدد له طريق الخير وطريق الشر وما يترتب على ذلك.

يقول "مرتضى المطهري": (إذ نجد القرآن – الكريم – في نفس الوقت الذي يؤكد فيه على عظمة الله بكل معاني العظمة ويصر على عمومية إرادته ومشيئته، يدافع بقوة عن الحرية فيقول : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا

---

(١) حرية الإنسان في الفكر الإسلامي – ص٤٣٠.

(٢) الدوافع نحو المادية – مرتضى المطهري – ص٨٦ – ٨٧.

(٣) الدين والحضارة الإنسانية – ص١٦٥.

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾[1])[2].

هذه الآيات تؤكد حرية الإنسان في الاختيار أما طريق الخير والشكر على النعمة وإما طريق الشر والكفر بالنعمة.

يقول الله – تعالى –: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ﴾.[3]

إن الإســـلام عندما منح الإنسان حرية الاختيار جعلها مرهونة بنتائجها إن خيراً فخـــير وإن شـــراً فشر ولا يظلم ربك أحداً. فالتشريع القرآني قد كفل (للفرد ضمانات صـــلبة وراسخة لحريته، حيال المجتمع ورعايته. فجعل لكل فرد حق الاختيار في كل أمور حياته وآخرته).[4]

وهكذا فإن الحرية الحقيقية هي الحرية التي أقرها الإسلام لا الحرية المطلقة التي ينادي بها الوجوديون والتي لا يمكن أن يستسيغها عقل ولا يتقبلها منطق سليم، لأن أهم ما تتميز به هو الخلط بين الحق والباطل وضياع الحقوق، وإثارة الشك، وزرع الإلحاد في النفوس.

إن الحـــرية التـــي يـــنادي بها الوجوديون ما هي إلا دعوة إلى التحلل والإباحية المطلقة التي لا تتقيد بشيء، وهذه هي الغاية المستهدفة التي يرمي إليها هؤلاء الماديون (ومن يقرأ كتب "سارتر" وقصصه ومسرحياته وكتب غيره من الوجوديين تظهر بجلاء أمامه هذه الحقائق التي توضح جلياً الأهداف الحقيقية لمثل هذه الحركات التي أوجدتها

---

(١) سورة الدهر – الآيتان ١ – ٣.

(٢) الدوافع المادية – ص ٨٦.

(٣) سورة الإسراء – الأيتان ١٨ – ٢٠.

(٤) حرية الإنسان في الفكر الإسلامي – ص٤١٩.

وغذتهـــا دوائـــر اليهودية العالمية السرية منها والعلنية والقصد منها قطع العلاقة بين البشر وخالقهم والخروج النهائي على جميع القيم الفاضلة وتحطيم المجتمعات الإسلامية والمسيحية كي تتمكن من رقاب أبنائها وتسخيرهم لخدمة أهدافها).[١]

والفلســفة الوجوديـــة إحـــدى هـــذه الحركات الضالة والمضللة والتي لم يعرف أصحابها من الوجود إلا سلسلة قاتمة من اليأس والقلق والحسرات والتي انتهت بهم إلى القـــول بالعبثية واللامعقول وهذا ليس بمستغرب على الوجوديين فهم لا يؤمنون بالله – تعـــالى – فقد كان طبيعياً أن يعتنقوا فكرة أن الحياة عبث وأنها خالية من كل هدف أو غاية، وأنها خاوية من كل حكمة، وحياة هذه صفتها جديرة ألا تعاش، وجدير بالإنسان أن ينـــبذها ويـــتخلص منها. لذلك كانت قضية الانتحار سائغة عندهم شائعة بينهم وهذا المعـــنى يعـــبر عنه فيلسوفهم المشهور "البيركامي"[٢] الذي يقول: (الجميع يعرفون أن الحياة ليست جديرة بأن تعاش. ولم أكن أجهل في الحقيقة أن الموت في الثلاثين أو في السبعين سيان).[٣]

ويؤكد "كامي" هذه العبثية عند الوجوديين بقوله (فإنني أجد الكثيرين يموتون لأنهم يقررون أن الحياة لا تستحق أن تعاش).[٤]

إن القـــول بعبثـــية الحياة وعدم معقوليتها هو ما انتهى إليه الوجوديون على لسان "كامـــي" وغيره، ولم يكن "سارتر" إلا واحداً من هؤلاء، فقد ظهرت عنده هذه المعاني في كتاباته الأدبية.

يقول الدكتور "حبيب الشاروني": (ففي قصة الغثيان... بدا لنا الوجود مختلطاً من جمـــيع المـــبررات وباعثاً بالتالي على الإحساس بالاشمئزاز والغثيان وفي سنة ١٩٤٣ صـــدر كـــتاب "الوجـــود والعدم" وقامت قضيته الأساسية.... على أن الإنسان هو –

---

(١) الإنسان والداروينية – محمد صالح كريم خان – ص٣٣٨.

(٢) البيركامي – ١٩١٣ – ١٩٦٠ – فيلسوف وكاتب وروائي فرنسي أهم أعماله (أسطورة سيزيف (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٥٢٠).

(٣) الغريب (رواية) ص٩٨.

(٤) أسطورة سيزيف – ص١٢.

بمقتضى تركيبه الانطولوجي – انفصال مستمر على الوجود – وفي نفس العام صدرت مسرحية الذباب...).[1]

ونجـد أن "مسرحية الذباب" تسير على نفس النسق في تصوير الحياة بأنها عبثية وأنه لا جدوى منها.

يقـول الدكـتور "محمـد رشوان": (إن الفلسفة الوجودية نزعة تشاؤمية انهزامية تتشـدد في القول بأن الإنسان مقذوف به في العالم رغماً عنه، ويترك هذا العالم رغماً عنه، ويعيش حياته كلها في ضجر، وسأم، وقلق، وندم، ويأس، ينظر إلى الآخرين على أنهم هم الجحيم بعينه، وينظر إلى حياته على أنها عبث، ووجوده عبث بل حريته عبث في عبث. وهكذا ينتهي الأمر بالوجودية وخاصة تلك الوجودية الملحدة إلى العدم).[2]

هـذه هي المحصلة التي وصل إليها الوجوديون كنتيجة ضرورية لمقدمات غير منطقـية ولا غـرابة فـي ذلك، إذا كانت هذه الفلسفة قائمة على الإلحاد والتشكيك في معقولية الكون، وسمتها المميزة لها الإباحية المطلقة بحجة أن الإنسان حر فيما يختار.

أليـس ذلـك كافـياً لضـياع القيم وانقلاب الموازين؟ أليس ذلك مدعاة إلى حياة فوضوية عابثة انتهت بهم إلى الإقبال على الانتحار والمناداة بذلك؟

يقـول "البيركامـي": (إن المرء ينتحر لأن الحياة لا تستحق أن تعاش، وتلك هي حقيقة أكيدة – ولكنها غير مثمرة لأنها حقيقة عادية).[3]

ويقـول أيضـاً: (أستطيع الآن أن اتغلغل في فكرة الانتحار. لقد توفر حتى الآن شعور بالحل الممكن إعطاؤه).[4]

ولهذا نجده يدعو إلى التمرد بابتداع ميتات واعية عندما يقول: (أن التقدم الحقيقي الوحـيد للحضـارة، الـتقدم الـذي يتعلق به أحد البشر من زمن هو أن نبدع ميتات واعية).[5]

---

(١) فلسفة جان بول سارتر – ص٨٦.

(٢) مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة – ص١٢٠.

(٣) أسطورة سيزيف – ص١٢.

(٤) المرجع السابق – ص٦٢.

(٥) أعراس (الريح في جميله) – ص٢٧.

ويقــول: (هناك أيام يريد فيها الإنسان أن يكون محله، ولكن هناك مرات يحتاج فيها الإنسان إلى مزيد من الشجاعة ليعيش أكثر مما يحتاج لينتحر).[1]

إن هــذه الأفكار الوجودية قد انتقلت إلى العالم العربي والإسلام في شكل أعمال أدبية كالقصة والرواية وغيرها.

يقــول الدكــتور "مصطفى حلمي": (انتقلت هذه الأفكار ضمن ما انتقل إلى العالم الإســلامي من خلال ترجمة الأعمال الفلسفية والأدبية، ولكن لم تعرف الوجودية على الأغلــب في العالم الإسلامي كفلسفة بقدر ما عرفت مما تسرب من آثارها في الأعمال الأدبية كالقصة والرواية التي عبرت عن حالة من الغربة والضياع واللاجدوى لاسيما عقب الحرب العالمية الثانية).[2]

لقــد كان هذا الفكر الوجودي انتكاسة مشؤمه على أصحابه أكثر من غيرهم وهذا مــا عبر عنه "كامي" و "سارتر" في النصوص السابقة، وهذه نتيجة كل من اتخذ طرق الغي والضلال سبيلاً.

***

(١) الموت السعيد – ص٦٨.

(٢) المخاطر التي تواجه الشباب المسلم – ص١٤٤.

المبحث الثاني

الطبيعيـــــــــــــون

الطبيعيون: هم مؤلهة الطبيعة والمنكرون لوجود الخالق –عز وجل– ولا يقرون بالبعث والحساب.

جـــاء فـــي "الموسوعة الفلسفية المختصرة" أن الطبيعي هو (كل من يعتقد أن أي رجـــوع إلـــى إله، أو إلى عالم القيم،... باعتباره شيئاً يزيد على كونه ظاهرة طبيعية– أمر غير مشروع).(١)

ويقـــول فـــي تعريفهم "جمال الدين الأفغاني": هم (الزاعمون أن لا وجود للصانع الأقـــدس، وهـــم المعـــروفون بيـــن شـــيعهم أو عـــند الإلهيين بالطبيعيين، والماديين والدهريين).(٢)

إذاً الطبيعـــيون: هم الذين لا يؤمنون بخالق لهذا الكون مفارق له، ولا داخل فيه، ولا يقرون بقوة عليا أوجدت هذا الوجود المحسوس بأرضه وسمائه، وتدبره وتتصرف فيه، بل يذهبون إلى أن الكون المحسوس – الذي يسمونه الطبيعة – أوجد نفسه بنفسه، هكذا كان وهكذا يكون، والطبيعة التي يقصدون بها الوجود المحسوس بسمائه وأرضه لا تحـــتاج إلى مدبر ولا خالق، بل هي هكذا بنفسها وهي أزلية أبدية، لا بداية لها ولا نهايـــة وجدت بنفسها، وأوجدت قوانينها، وتستمر هكذا، وهؤلاء الطبيعيون سموا بذلك نســـبة إلـــى الطبيعة.. ولهم أسماء أخرى تعطي نفس الوصف والاعتقاد. فهم يسمون الدهريين نسبة إلى الدهر. ويدخلون – بالإطلاق العام – ضمن الماديين والحسيين.

وقد ورد ذكرهم في القرآن – المجيد – حيث قال الله – تعالى– عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾.(٣)

---

(١) الدكتور نجيب محمود – ص٣٠٩.

(٢) الرد على الدهريين – ص٤٨.

(٣) سورة الجاثية – آية ٢٤.

وهناك من الباحثين من يذهب إلى أن الدهريين ليسوا جميعاً طبيعيين بل منهم من يؤمن بالخالق. لكنهم ينكرون البعث والآخرة.

عندما أنكر هؤلاء الطبيعيون وجود الخالق – سبحانه وتعالى – قالوا: (فليس العالم متروكاً للصدفة، ولا مدبراً بإله، وكل الأدلة على وجود الله منقوضة).[١]

ويؤكد هذا المعنى أحد قادتهم رأس الكفر والإلحاد "دولباخ"[٢] الذي يقول: (كلما أمعنا في إله اللاهوتيين بدا لنا أنه مستحيل ومتناقض ويخيل إلينا أن اللاهوت لا يكونه إلا ليهدمه في الحال.

ما هو في الحقيقة هذا الكائن الذي لا يسعنا أن نؤكد عنه شيئاً حتى نلقى التكذيب في الحال).[٣]

ثم يتابع "دولباخ" حديثه – إمعاناً منه في التكذيب وتضليل العقول عن رؤية الحقيقة – فيقول: (هذا الكائن المزعوم غير موجود فلنخلص إذن إلى القول أن كلمة الله، وكلمة خلق أيضاً لا تمثل بالنسبة إلى الذهن أي فكرة حقيقية، لذلك يجب حذفها من لغة كل من يريد الكلام من أجل التفاهم).[٤]

ولقد أنكر الطبيعيون كل الأدلة المحسوسة والمشاهدة الدالة على الخلق والخالق – سبحانه وتعالى – وقالوا: (إنه لا شيء في معطيات التجربة يدفع إلى افتراض وجود إله. كل شيء يفسر تفسيراً كافياً بواسطة الصفات الملازمة للمادة الخالدة، وما نرى من نظام وفوضى وتنوع في الأشكال ينشأ في الحقيقة عن نماذج صفات المادة وعن ترتيباتها وتبدلات أشكالها).[٥]

وهكذا يستمر الطبيعيون في كفرهم وتماديهم في الضلال حتى أنهم قد أنكروا الغاية من وجود الأشياء، وذلك لأنها من أهم مايؤدي إلى الإيمان بوجود الخالق – سبحانه وتعالى– فقالوا زيادة منهم في التمويه والإضلال أنه (لا غائية في الطبيعة :

---

(١) نقلاً من تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص١٩٢.

(٢) دولباخ – ١٧٢٣ – ١٧٨٩ – فيلسوف مادي فرنسي اتهم بالإلحاد أصله ألماني، أهم كتبه "نسق الطبيعة" (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٣٠٤).

(٣) نقلاً من تيارات الفكر الفلسفي – اندريه كريسون – ص١٧٠.

(٤) نقلاً من المرجع السابق – ص١٧٠.

(٥) نقلاً من المرجع السابق – ص١٦٧.

فالعيـــن ليســـت مصنوعة للرؤية، والقدم ليست مصنوعة للمشي، لكن المشي والرؤية نتيجتان لاجتماع أجزاء المادة ولا نفس في الإنسان، ولكن الفكر وظيفة الدماغ،والفرق بين العقول نتيجة الفرق بين الأدمغة).[1]

هكـــذا وصل الحال بالطبيعيين إلى إنكار حتى الضرورات والبدهيات التي تتضح في وظائف الأعضاء حتى يصلوا إلى إنكار الغاية والحكمة، فيصل أمرهم إلى إنكار أن تكون العين آلة للرؤيا والقدم آلة الغاية منها المشيء وصولاً إلى إثبات أنه لا غاية ولا حكمة إذاً فلا خالق.

ولهـــذا نجـــد أن "كابانـــيس"[2] وهو أحد قادة هذا الفكر المادي ينطلق من مهنته كطبيـــب ويفســـر الظواهـــر في الإنسان بأسباب مادية كالبيئة والغذاء وغيرهما ويغفل الجانب الروحي فيها.

يقـــول "يوســـف كرم": إن "كابانيس" (أرجع جميع الظواهر النفسية إلى العوامل الماديـــة، عوامـــل البيئة والغذاء ومزاج الجسم... وله عبارة اشتهر بها وهي قوله إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة وكما يفرز الكبد الصفراء).[3]

هكـــذا أنكـــر الطبيعيـــون الماديـــون وجود الخالق وكل ما يؤدي إلى الإيمان به – سبحانه وتعالى– وقالوا بالطبيعة وفسروا كل شيء في الوجود بها.

كذلـــك وقد أنكروا الحياة الآخرة والبعث والحساب والجزاء. قال الله – تعالى – فيهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.[4]

ولقد برر هؤلاء الماديون كفرهم هذا فقالوا بأن العقل يحيل ذلك.

ولهـــذا نجد "فولتير"[5] وهو أحد زعماء هذا المذهب المادي يقول : (إن الاحتمال العقلي لا يسير في هذا الاتجاه. ولكننا لا نعرف عن ذلك شيئاً، ولن نعرف فلنمتنع أذن

---

(١) نقلاً من تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص١٩٢ – ١٩٣.

(٢) كابانيس – ١٧٥٧ – ١٨٠٨ – فيلسوف مادي وطبيب فرنسي (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص٣٠٤).

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة – ص١٩٣.

(٤) سورة الأنعام – آية ٢٩ .

(٥) سبق التعريف عنه.

عـــن التماحك حول هذه المواضيع)[1] ويقول "دولباخ" : أنه (لايرى رابطة ضرورية بين روحانية النفس وخلودها، فقد تكون النفس روحية ثم لا تكون خالدة)[2] إن هؤلاء الطبيعيين الماديين قد عميت أبصارهم وقلوبهم عن رؤية الحقيقة وضلوا عنها ولم يروا إلا ما هم فيه من باطل وضلال وإلا فالأدلة الحسية والتي يطالبون بها موجودة أمامهم. وواضـــحة وضـــوح الشمس الساطعة، وناطقة بوجود خالقها الله – سبحانه وتعالى – ولكن لسوء طويتهم أنغمسوا في جهلهم وماديتهم وقالوا: بالطبيعة إلههم المقدس ونسبوا إليها الفاعلية في الكون.

ولـــم يكتفـــي هـــؤلاء المـــاديون بذلك بل أمتدت أفكارهم المادية والإلحادية إلى الأخـــلاق، ولقـــد أرادوها أخلاقاً مادية بعيدة عن الدين لأنهم وجدوا أن الدين يمثل لهم العقبة الكؤد التي تقف في سبيل تحقيق أغراضهم المادية في الحياة فقالوا: أن الأخلاق يجب أن (تسوغ... بمعزل عن كل دين).[3]

هـــذا ما يعتقد به الطبيعيون ويؤمنون به، والحقيقة أن إنكارهم للخالق – سبحانه وتعـــالى – ونفـــيهم الغاية من الوجود، وإرجاع الفاعلية في الكون إلى الطبيعة مغالطة كـــبرى لمـــا علـــيه الواقع، وتكذيب صريح للحقائق الكبرى التي أثبتها العلم والعلماء، وإنكار لدور العقل في استنباط الحقائق الصحيحة والإقرار بها.

إن الحقيقة التي لا يملك أي إنسان إغفالها أو إنكارها هي وجود الخالق – سبحانه وتعـــالى – وأن جميع ما في هذا الكون ما هي إلا آثار وإن شئت فقل أدلة أو براهين قوية ودامغة تشهد بأنه – عز وجل – هو الفاعل الحقيقي في هذا الكون، وأنه وحده – جـــلَّ جلاله – المتصرف، والمدبر، والمسير للكون ولقوانينه الفاعلة فيه. كيف لا وهو الخالق، العظيم، الجليل، القدير وحده لا شريك له.

يقول العالم الفسيولوجي "اندرو كونواي إيفي": (ففي علم وظائف الأعضاء، عندما يـــدرس الإنسان النمو والتكوين والصيانة وإصلاح الجسم، يجد أن كل خلية من خلايا الجسم – دون استثناء – "تعرف" الدور الذي تلعبه في سبيل تحقيق سلامة الجسم كله.

---

(١) نقلاً من تيارات الفكر الفلسفي – اندريه كرستون – ص ١٥٨.

(٢) نقلاً من تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص ١٩٠.

(٣) نقلاً من تيارات الفكر الفلسفي – اندريه كريسون – ص١٧٣.

ففـــي الجهاز العصبي تتسم الأفعال العكسية البسيطة بالفرضية كصفة من صفاتها الأساســية. فــإذا مــا أمعــنا النظر والدراسة فإننا واصلون حتماً إلى أن الاستعدادات الموروثة في تكوين العقل قد ركبت بحيث إنه عندما يتأثر هذا العقل بالخبرات الحسية تأثــراً كافــياً يصــل حتماً إلى مبدأ السببية. وبعبارة أخرى فإن الجهاز المسئول عن التصرفات الغرضية في سائر الكائنات يزداد تخصصه زيادة مستمرة حتى يصير قادراً على المعرفة التمييزية أو الشعور. ويتم ذلك نتيجة لتفاعل الخبرات الحسية مع العقل".

وبازدياد قدرة الإنسان على التمييز الإدراكي تنشأ لديه حاسة ترتيب الأشياء تبعاً لأســبقيتها الســببية، أو يصــير قــادراً على رد الأشياء إلى أسبابها الأولى، فإذا بدأنا بالطبــيعة الغرضــية التي تظهر في الخلايا المفردة وتتبعنا ما يطرأ عليها من التطور حتى تصير مدركة للبيئة التي تحيط بها، فإننا نستطيع أن نتوقع ظهور القدرة على الحكم واستخدام قانون السببية الذي وصل الإنسان باستخدامه إلى مزيد من السيطرة على البيئة.

ففي علم وظائف الأعضاء تدل خياشيم الأسماك على أسبقية الماء كما تدل أجنحة الطــيور ورئات الإنسان على أسبقية الهواء، وتدل أعين الإنسان على أسبقية الضوء، كما يدل حب الاستطلاع العلمي على أسبقية الوقائع، كما تدل الحياة على أسبقية القانون الطبيعــي اللازم لنشأتها. وإنني أتساءل الآن: أفلا يدل التدبر العميق والتفكير الصافي والشــجاعة العظمى والواجب الأعظم والإيمان الكبير والحب العميق – أقول أفلا يدل كل أولئك على شيء سابق؟ من الحماقة أن نظن أن أعمق الأفكار والعواطف والأعمال التــي نشــاهدها في الإنسان لا تدل على شيء سابق. إنها تدل على أسبقية وجود عقل علوي. إنها تدل على وجود خالق يتجلى في خبرة أولئك الذين لا يضعون الحواجز في طريق عقولهم عند البحث عن العقل الأسمى أو الخالق الأعلى).[1] كذلك وهذه شهادات لــبعض العلمــاء الماديين التي سجلت لهم، يؤكدون فيها وجود الخالق – عز وجل – وتصريفه وتدبيره لهذا الكون.

لقــد (استفتت مجلة "كوليرز" المعروفة عدداً كبيراً من علماء الذرة والفلك وعلم الأحياء "البيولوجيا" والرياضيات، فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم، ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له).[2]

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم – ص١٥١ – ١٥٢.

(٢) نقلاً من صراع مع الملاحدة – عبد الرحمن حبنكه الميداني – ص١٣٦.

ويقول أحد العلماء ولم يذكر اسمه الأستاذ "عبد الرحمن حبنكه الميداني" في كتابه المنقول عنه:(إنه لا شك في أن الكائن الأعظم- وهو ما تسميه الأديان السماوية الله عو الـذي يسـيطر علـى الطاقـة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود).[1]

ويقـول الفيلسـوف "كمـيل فلامـريون": (إذا انتلقنا من ساحة المحسوسات إلى الروحـيات. فإن الله يتجلى لنا كروح دائم موجود. ليس هو (أي الله) سلطاناً يحكم من فـوق السماوات، بل هو نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات، ليس مقيماً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة. بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به، فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء، وكل لحظة من الزمان، أو بتعبير أصح: هو قيوم لا نهائي منزه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب).[2]

وهكـذا فـإن هـذه الأقوال المتعددة وغيرها كثير تؤكد بأن لهذا الكون، أو لهذه الطبـيعة خالقـاً خلقها وأوجدها من العدم وسيرها بهذه الصورة وبهذا الشكل المبدع، وأجـرى فيها هذه القوانين بفعله وتقديره – عز وجل – وهذا ما تقر به العقول وتشهد بـه الفطـر السليمة، أما ما هو مناقض للعقل، وما تأباه الفطر فهو القول: بأن الطبيعة القابلة للحركة والتغير ولكل ما يشهد بحدوثها وخلقها من العدم أن تكون هي الخالق.

ولنأخذ مثالاً بسيطاً من الطبيعة لنؤكد صدق ما قلناه، وهو أننا لو نظرنا إلى هذا العالم بين الحي والميت ونحن أحياء فهل استطاع أحد منا أن يعرف يوم ابتدائه، أو هل استطاع أحدنا أن يستمر يوماً على حاله ولم يلحظ في نفسه الفساد، وهل استطاع أحدنا أن يصـلح مـا اعتراه من فساد، وإذا كان ذلك في الأحياء فالأموات أولى لأنهم كانوا أحـياء ثم ماتوا، وكل ذلك يثبت أننا لسنا بأنفسنا بل هناك فاعل قادر، عظيم، هو الله – عز وجل – الخالق المتصرف وحده في شئون خلقه لا إله سواه.

***

(١) المرجع السابق – ص١٣٦.

(٢) المرجع السابق – ص١٣٦.

المبحث الثالث

الوضعيـــــــــــــــون

الوضعيون: هم أصحاب المذهب الوضعي[١] وهو الاسم الذي يطلق على المذهب الـــذي أسســـه "أوجســـت كونت"[٢] في القرن التاسع عشر، ويطلق أيضاً على الاتجاه الفلســـفي العام – لأنه من وضع البشر – الذي لا تعد وضعية "كونت" إلا مثالاً واحداً منه.

يقول "اندريه لالاند": (إن هذا الاسم يطلق على المذاهب المتعلقة بعقيدة "أوجست كونت" أو المشابهة لها، ولو بكيفية بعيدة جداً، أحياناً، والتي تجمعها أطروحات مشتركة تقول إن معرفة الوقائع هي المثمرة وحدها، وإن العلوم الاختبارية هي التي تمد بنموذج اليقين).[٣]

وجـــاء فـــي كـــتاب "مقدمة في علم الاستغراب" (ولكن اسم الوضعية كان أفضل التســـميات نظـــراً لأنهـــا تضـــم باقـــي التيارات وفي نفس الوقت تطوير لها كما أنها آخرها).[٤]

ومن أهم ما تميزت به وضعية "كونت" والتي نقصدها بالحديث هنا هو رفض كل ما هو غيبي، واعتبار الملاحظة والتجربة أصلاً وأساساً لكل معرفة.

ولهـــذا يرى الباحثون أن الوضعية هي مذهب من (يرى أن الفكر مناطه الواقع، وأنـــه وقد عجز عن الكشف عن المبادئ والعلل الأولى والغايات النهائية انصرف عن

---

(١) إن عرض هذا المذهب سيكون من خلال ذكر أهم أفكار "كونت" رائد المدرسة الوضعية وزعيمها وقد تحدث عن المذهب الوضعي بصورة متكاملة ومطبقة على العلوم المختلفة وهو أشهر من عرف به المذهب الوضعي وقعد له ولذلك فإنه حيثما يذكر المذهب الوضعي يتبادر إلى الذهن اسم "كونت".

(٢) أوجست كونت – ١٧٩٨ – ١٨٥٧ فيلسوف فرنسي وضع أسس الفلسفة الوضعية وفكرة الإنسانية بمفهومها الحديث، كما أنه وضع مبادئ علم الاجتماع التي أكملها تلميذه "دور كايم" (الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ٢٣٥).

(٣) الموسوعة الفلسفية – ج٢ – ص١٠٠٢.

(٤) الدكتور حسن حنفي – ص٣٨٦ – ٣٨٧.

الميتافـيزيقا – ما وراء الطبيعة – والدين، واكتفى بالواقع يبحث في ظواهره ويكشف عن العلاقات بينها ويتحرى قوانينها).[1]

ولهذا يقول الوضعيون: أن المعرفة قد مرَّت في الفكر الإنساني بثلاث مراحل:

(فـي المـرحلة الأولى: كان الإنسان فيها يشرح الشيء الطبيعي، ويعلل وجوده ومظاهره من القوى الخارجة عن الطبيعة، وهي القوى الإلهية، أي من دائرة الدين ...

وفـي المـرحلة الثانـية: كـان يشـرح فيها الإنسان الحياة الإنسانية وقوانينها وأغراضـها، مـن عبارات نظرية تصورية إنسانية، أي من دائرة الميتافيزيقا، أي من العقل النظري الخالص ...

وفـي المرحلة الثالثة : وهي المرحلة الوضعية وهي التي يقف فيها الإنسان على علاقات الظواهر الطبيعية بعضها ببعض، من طريق الملاحظة والتجربة وحدها).[2]

يعـتقد أصـحاب هذا المذهب أن المعرفة اليقينية لا يمكن أن نصل إليها إلا من خـلال الواقع المحسوس عن طريق الملاحظة والتجربة لأن (الفكر الإنساني لا يدرك سـوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، وأن المثل الأعلى لليقيـن يتحقق في العلوم التجريبية، وأنه يجب من ثمة العدول عن كل بحث في العلل والغايات وما يسمى بالأشياء بالذات).[3]

لقـد جعـل هـؤلاء الوضعيون الأساس الذي أقاموا عليه فلسفتهم تقدير الواقع[4] وتقيـيمه وحـده كمصـدر للمعرفة الحقة بمعنى أن الواقع أو الطبيعة (هي التي تنقش الحقـيقة فـي عقل الإنسان، وهي التي توحي بها وترسم معالمها الواضحة. هي التي تكون عقل الإنسان، والإنسان – لهذا – لا يملي عليه من خارج الطبيعة[5] أي لا يملي علـيه مما وراءها، كما لا يملي عليه من ذاته الخاصة، إذ ما يأتي من (وراء الطبيعة)

---

(١) المعجم الفلسفي – الدكتور عبد المنعم الحفني – ص٣٢٢.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ص٢٣٥ – ٢٣٦.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص٣١٧.

(٤) إن لفظ الواقع أو الطبيعة أو الحقيقة أو الحس كلها تدل على معنى واحد عند هؤلاء الوضعيون.

(٥) ما وراء الطبيعة أو خارج الطبيعة هي ألفاظ مادية يستخدمها هؤلاء الماديون. وقد تكرر ذكرها معنا للتعبير عن مذهبهم بألفاظهم من أجل الرد عليهم.

خداع للحقيقة وليس حقيقة، وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة، وليس حقيقة أيضاً).[1]

هكذا يرى الوضعيون الماديون الواقع المدرك بالحواس القابل للملاحظة والتجربة هو موضوع المعرفة الإنسانية.

يقول الدكتور "محمد علي أبو ريان": ولهذا يرى "كونت" أن (ماعدا الواقع المدرك بالحواس لا يصلح موضوعاً لأي علم. فهو إذن لا يعترف بالفلسفة ولا يعتبر إلا العلوم التي تقوم على الملاحظة والتجربة).[2]

ولذلك يعتقد هؤلاء الماديون أن كل مالا يقع تحت الملاحظة والتجربة يجب أن يكون بعيداً عن دائرة العلم. ولهذا نجدهم دائماً يقولون: (في العلم الواقعي نحن نسأل عن "الكيف" لا عن "لم")[3] وهذا هو الذي يحاول الوضعيون بطريقة أو بأخرى إبرازه وتأكيده في مذهبهم الوضعي أي عدم البحث عن أسباب الأشياء وعللها، وعن جواهرها وحقائقها، بل إلى استنباط القوانين التي تحكم هذه العلاقات بينها. والمقصد من وراء ذلك نفي الغاية لأن في إثباتها إثباتاً للخالق – عز وجل – الذي خلق هذا الوجود لغايات معلومة، وهذا عكس ما يريد إثباته وتأكيده الوضعيون وهو استبعاد قضية الخلق والخالق – سبحانه وتعالى عما يصفون – واستئصالها من الوجود واستبدالها بالواقع المحسوس، هذا الواقع الذي يصوره الوضعيون بأنه ينطق، بمعنى أنه حسي ومشاهد ويعطينا ما نبحث عنه بدراستنا لظواهره ووقائعه.

والمحصل هنا: إلقاء المصادر الأخرى وعلى رأسها الدين – وهو المستهدف – ونستقي المعرفة من مصدرٍ واحد وهو الواقع المادي.

وهذا ما يسعى إليه الوضعيون، ويريدون الوصول إليه وهو (الاستمرار في "افتقار" النظر إلى الحياة (الواقع) عن طريق إخراج معنى الله من هذه النظرة، والتضحية بحقائق العقل، بعد تجريد ذلك كله من الاعتبار الواقعي، والطابع اليقيني).[4]

---

(١) الفكر الإسلامي – الدكتور محمد البهي – ص٢٦٧.

(٢) الفلسفة ومباحثها – ص١٢٥.

(٣) المرجع السابق – الدكتور محمد علي أبو ريان – ص١٢٦.

(٤) الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ص٢٣٦.

ولهـذا نجد الوضعيين لا يعترفون بالمعرفة إذا كان مصدرها الدين ويقولون: أن المعـرفة لا تكتسب صفة اليقين إلا إذا كانت آتية عن طريق الملاحظة والتجربة وذلك لا يكون إلا من الواقع المحسوس فهو الحقيقة، وهو اليقين.

وبـناءً على ذلك فقد أصبح (عقل الإنسان في منطق هذه الفلسفة – أي ما فيه من معـرفة – ولـيد الطبـيعة، التـي تتمـثل فـي الوراثة، والبيئة، والحياة الاقتصادية والاجتماعية... إنه مخلوق. ولكن خالقه الوجود الحسي... إنه يفكر. لكن عن تفاعل مع الوجـود المحـيط به... إنه مقيد مجبر، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية... ليس هـناك عقل سابق على الوجود المادي، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان عن طـريق الوحـي... عقل الإنسان ومعرفته يوجدان تبعاً لوجود الإنسان المادي... هما انطباع لحياته الحسية المادية التي يتنفسها).[1]

وهكذا يحاول الوضعيون التأكيد على الواقع المادي المحسوس كمصدر للمعرفة، ونفي الدين بما أنه لا يعبر عن الحقيقة فهو وهم وخيالات – في تصورهم – وقد انتهى في المرحلة الأولى من مراحل المعرفة في الفكر الإنساني وفي (المرحلة الأخيرة يجب أن تسـتهلك الفلسـفة (الوضعية) وينتهي وضعها في التوجيه، ويفنى أمرها في العلوم المخـتلفة التـي تنشأ على أثرها، وتكون نتيجة التجارب وحدها)[2] (مادامت المعرفة الحقيقـية كلهـا مؤسسة على الخبرة الحسية ولا يمكن أن تتقدم إلا بواسطة الملاحظة والـتجربة، فإن المحاولات التأملية أو الميتافيزيقية لاكتساب المعرفة عن طريق العقل غير المحدود بالخبرة لابد أن يتخلى عنها لصالح مناهج العلوم الخاصة).[3]

وبهـذه الصـورة يسـير المذهب الوضعي في الاتجاه المادي المبني أساساً على الإلحاد والكفر بالخالق – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – وإلا فكيف ينكر الوضعيون الدين كمصدر للمعرفة وينفون عنه صفة الحقيقة واليقين. ويبررون ذلك بأن ما جاء به الديـن غيبـيات لا تحـس ولا تشاهد. ألا يعلم هؤلاء الماديون بأن الواقع المحسوس والمشاهد – الذي يقدسونه – بكل ظواهره، ووقائعه، وقوانينه، وصوره وأشكاله ما هو

---

(١) المرجع السابق – ص٢٦٧.

(٢) المرجع السابق – ص٢٣٦.

(٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة – الدكتور زكي نجيب محمود – ص٣٢٤.

إلا آثـــاراً[1] تدلل على وجود الحقائق الغيبية الكبرى التي جاء بها الدين ومن أعظمها وأكـــبرها وجود الخالق – سبحانه وتعالى – وليس في الواقع المشاهد دليل واحد يثبت غير ذلك.

إلا أن هـــؤلاء الوضـــعيون قد أعمتهم ضلالاتهم فأصبحوا لا يرون إلا ما يوافق أهواءهـــم وتفكيرهم المادي الساقط، ولهذا نجد أقوالهم في تناقض مستمر والشاهد على هـــذا أن "كونـــت" نفسه عندما قال: "بقانون المراحل الثلاث" التي تمر فيها المعرفة في الفكـــر الإنســـاني وكان ذلك تأييداً منه لمعرفة الحس، أسقط الدين ليستقر في الوضعية ولكنه عاد إلى الدين بعدما تركه إذ دعا إلى ديانة جديدة وجعل المعبود فيها الإنسانية.

يقـــول الدكتور "قباري محمد إسماعيل": (حاول "كونت" أن يصطنع ديانة وضعية تـــتجه نحـــو عـــبادة الإنسانية، ولذلك أطلق كونت على تلك الديانة الوضعية اسم ديانة الإنســـانية لأنهـــا تدعو إلى تمجيد الإنسانية ذلك الكائن الأسمى وتقديس ذلك الموجود الأعظـــم الذي تتحقق فيه معاني الخلود والبقاء والتضحية. تلك هي ديانة الإنسانية التي نصـــب "كونت" نفسه كاهنها الأكبر، وضع لها شعاراً يستند إلى المحبة كمبدأ والنظام كقاعدة والتقدم كغاية).[2]

وإن كـــان هذا الدين الأضحوكة الذي جاء به "كونت" قد انتهى ولم يعد له أثر إلا أن ذلـــك قـــد وقع منه ويعطينا مثالاً واقعياً يؤكد بأن أقوال هؤلاء الماديين الوضعيين متناقضـــة – وهـــذه تكـــاد تكون صفة مشتركة بين الماديين جميعاً قد تميزوا بها حتى يفتضـــح أمرهم، وتنكشف حقيقتهم – وإلا فكيف ينكر "كونت" الدين ثم يعود إليه، هذا دلـــيل على عدم صحة ما يزعم به "كونت" وإلا لو كان كلامه صحيحاً فلماذا يعود إلى الديـــن ويدعـــو إلى ديانة جديدة، لقد أثبت بذلك من حيث لا يعلم أن الدين موجود وهو حقيقة ثابتة لا يمكن الاستغناء عنها والفطرة خير دليل وشاهد على ذلك وإلا فلماذا عاد "كونت" إلى الدين. هذا كان من جهة.

---

(١) انظر المبحث الأول في الفصل الأول من الباب الأول في هذه الرسالة.

(٢) علم الاجتماع والفلسفة – ج٣ – ص٢٧ – ٢٨.

أما من جهة أخرى فنقول: إذا كانت الدورة الثلاثية التي يقول بها "كونت" (قانوناً لا يتخلف (للمعرفة) أو بالأحرى (لاعتبار) مصدر المعرفة، فالمنتظر – بناء على سير (التاريخ) – أن يعود (الاعتبار) إلى الدين من جديد، بعد أن قويت موجة الوضعية في القرن التاسع عشر... فتنكسر حدتها فتضعف، فيقل اعتبارها وعندئذ يعود الاعتبار في المعرفة للدين وحده).[1]

ولكن "كونت" قال: بأن الوضعية هي المرحلة الأخيرة وهي التي يجب أن تستقر وأن تأخذ بها جميع العلوم، ولكن عودته إلى الدين دليل على أن الوضعية أمر مؤقت ينتظر أن تذهب لكي يأتي ما هو بعدها من هذه الدورات الثلاثية، وهذا يعني أن الوضعية ليست إلا نتائج ليست لها صفة الثبات أو الاستقرار وإذا كان الأمر كذلك فهي لا تصلح أن تكون منهجاً تستقر عليه جميع العلوم وهذا يبطل ما يدعيه "كونت" للوضعية.

إن هذا التناقض الواضح الذي وقع فيه "كونت" يدل على التخبط الأعمى وهذه نتيجة طبيعية لمن جعل الإلحاد والكفر بالخالق – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – طريقه وغايته.

لقد حارب "كونت" – كغيره من الماديين – الدين وأراد أن يقضي على الإيمان بوجود الخالق – عز وجل – ولكن الله غالب على أمره، ومظهر لدينه ولو كره الكافرون.

قال –تعالى–: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.[2]

وقال –تعالى–: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.[3]

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث – الدكتور محمد البهي – ص٢٧٠.

(٢) سورة التوبة – آية ٣٣ وسورة الصف – آية ٩.

(٣) سورة الصف – آية ٨.

وهذه أقوال لبعض العلماء تؤكد بأن وجود الخالق – عز وجل – حقيقة ثابتة يشهد بها الواقع المحسوس وتؤكدها العلوم على اختلاف تخصصاتها.

يقـــول "هرشل" وهو من فلاسفة القرن الثامن عشر: (إنه كلما اتسع نطاق العلوم، تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة، وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعـــيات والرياضـــة يهيؤون – بمساعيهم واكتشافاتهم – كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم، إعلاءً لكلمة الخالق).[1]

ويقول "ولتر إدوارد لاميرنس" – أخصائي علم الوراثة –: (إن دراسة الطبيعة لا تكشف لنا إلا عن قدرة الخالق ونظامه المحكم، رغم أنها لا تستطيع أن تكشف لنا عن حكمـــته ومقصـــده. وكما يقول "بول": إننا نبصر اليوم الحقائق من وراء حجاب، وغداً عندما يكشف عنها الغطاء سوف نراها سافرة. إننا لا نعلم اليوم إلا قليلاً وغداً ينكشف لنا علم ما لم نكن نعلم).[2]

***

(١) نقلاً من العقيدة الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حبنكة الميداني – ص١١٨.

(٢) نقلاً من الله يتجلى في عصر العلم – ص٧٢.

الباب الثالث

غاية الكون عند الماديين

- تمهيد.
- الفصل الأول : قضية الخلق والخالق.
- الفصل الثاني : الأخلاق والقيم الإسلامية.

تمهيد

لقد جنى هؤلاء الماديون على البشرية عندما قاموا ينادون بأفكارهم المادية الإلحادية، وقد كان هؤلاء لا هم لهم إلا إشباع مطامعهم المادية القائمة على الإلحاد والكفر بالله – تعالى عن ذلك علواً كبيراً –.

ولهذا فقد أصبح هدم الأديان السماوية غاية هؤلاء الماديين التي يتطلعون إلى تحقيقها، ولذلك فقد أنكروا وجود الله – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – وأنكروا البعث والحساب والجزاء، بل (ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية: تنبت في الربيع مثلاً، وتيبس في الصيف، ثم تعود تراباً. والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمية).[1]

يقول "جمال الدين الأفغاني": (بهذا الرأي الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم، ودفعوها إلى أنواع العدوان، من قتل وسلب، وهتك عرض، ويسروا لها الغدر والخيانة، وحملوها على فعل كل خبيثة، والوقوع في كل رذيلة، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري، وأعدموها الرغبة في كشف الحقائق، وتعرف أسرار (الطبيعة)[2] كيف لا يكون ذلك؟ وقد أنكر الماديون الحقائق التي أمر الله – تعالى – بالإيمان بها، وشغلوا الناس بكل ما هو زيف وباطل لاهم لهم إلا هذه الحياة المادية وكيفية الاستمتاع بها.

ولذلك فقد وظفوا نظرياتهم لخدمة هذه الغايات المادية فجاءت فلسفتهم جوفاء، خاوية، لا روح فيها.

يقول الأستاذ "أنور الجندي": (إن الفلسفة إذا انفصلت عن العلم أصابها العطب وإذا انفصلت عن الدين أصابها العفن وأصبحت وباء يحرق الأخضر واليابس).[3]

وهذه هي حقيقة فلسفة الماديين التي لم تجلب معها إلا الفساد والدمار بشتى صوره وأنواعه وإن كانت قد ظهرت في بداية أمرها بأسلوب له طابع علمي براق إلا أنها بدأت أيضاً (بمحاولات لتحل محل الأديان ثم أصبحت معارضة لها، وقد ظهرت

---

(١) الرد على الدهريين – ص٦٤.

(٢) المرجع السابق – ص٦٤.

(٣) نحو بناء منهج البدائل الإسلامية – ص٢٥٩.

هــذه المذاهــب حيــن عجز الدين في الغرب عن العطاء وحين انفصلت الأخلاق عن الدين).[1]

ولهــذا يرى الأستاذ "أنور الجندي" أن كل منهج من المناهج الغربية قد (نشأ في بيــئة معيــنة، وحاول الاستجابة لتحد معين، ومنها مناهج طرحت في مواجهة الدعائم والأســس التــي يقــوم عليها منهج الإسلام كالقرآن، ونبوة الرسول – صلى الله عليه وسلم–، ووحدة المسلمين، وأريد بها ضرب هذه القيم).[2]

ولذلــك (فهــي تقــبل العلــم وترفض الدين، وتقبل المادة وترفض الروح، وتقر المحسوس وترفض الغيبيات).[3]

ذلــك لأن الاعتراف بالدين، والإيمان بالروح والغيبيات يؤدي إلى الإقرار بوجود خــالق لهذا الكون وهو الله – تعالى – وهذا يتعارض مع قضيتهم التي يسعون لتحقيقها وهــي القضاء على الإيمان بوجود الخالق – سبحانه وتعالى – وعلى كل ما يلزم ذلك من قيم وأخلاق ومبادئ إسلامية.

ولهــذا نجدهــم يــتخذون نظرياتهم في الأخلاق وسيلة ينادون من خلالها بالمتع المادية الحسية بل وإلى كل ما فيه إسقاط للأخلاق والقيم الإسلامية.

هــذه هــي غاية الماديين في الكون، إلحاد وكفر بالله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – وقضاء على الأخلاق والقيم الإسلامية، ودعوة إلى التحلل والإباحية والانحلال الخلقي.

هــذه الغايــات المسمومة والخطيرة التي جاء بها الفكر المادي هي التي ستكون موضوع بحث هذا الباب إن شاء الله – تعالى – في الفصلين التاليين.

وأحــب أن أنــبه هنا إلى أن عرض هذه الغايات إنما هو بمثابة تمهيد للرد عليها وسيكون ذلك الرد في الباب الرابع بحول الله – تعالى –.

***

(١) معلمة الإسلام – أنور الجندي – ص٨٣.

(٢) المرجع السابق – ص٨٤.

(٣) المرجع السابق – ص٢٠٣.

الفصل الأول

قضية الخلق والخالق

لقد نشأت النزعة المادية التي تميز بها العالم الغربي نتيجة الصراع المرير بين رجال العلم ورجال الدين.

لقد كان لرجال العلم موقف خاص من قضايا الدين وذلك كرد فعل لموقف الكنيسة[1] ثم انسحب ذلك على الدين عامة وتفشى في العصر الحديث (القرن التاسع عشر) الذي انتشر فيه الإلحاد واشتهر بأنه عصر الفكر المادي.

كتب الأستاذ "أنور الجندي" عن صورة الإلحاد هذه والتي تميز بها هذا العصر فقال: (لقد كانت النزعة المادية في حقيقتها رد فعل عنيف لمقاومة رجال الدين لمقررات العلم مما حدا بالعلمانيين إلى الوصول لآخر الشوط في التحدي، وإنكار أصحاب الفكر المادي الغيب والروح والوحي، وكل ما يتصل بالدين جملة).[2]

عندما وصل أصحاب الفكر المادي إلى هذا المستوى من الإنكار والتحدي دعوا في كل قوة، وصراحة، وجرأة إلى التفكير والبحث ودراسة الكون من غير أن يكون ذلك قائماً على أساس ما بعد الطبيعة، حتى لا يصل بهم البحث إلى الإيمان بوجود الخالق – عز وجل – وهذا يعني إصرارهم وتماديهم في الكفر والإنكار.

ولذلك كانت نتيجة (الاكتشافات العلمية التي تمت على أيدي الأوربيين على مدى القرون الثلاثة الماضية، وما أسفرت عنه من ثورة صناعية كبرى، جعلت النزعة المادية تترسخ في الفكر الأوربي الحديث والمعاصر، فظهرت نظريات عامة تفسر جميع جوانب الكون والحياة تفسيراً مادياً وآلياً خالصاً).[3]

ولهذا فقد أصبح التفكير على الطريقة العلمية في المجتمع الغربي في الاتجاه المادي ومضاداً للفكر الديني الذي يرجع كل ما في هذا الكون من مظاهره وآثاره إلى قوة إلهية، وعندما كانت هذه نظرية أعداء الحركة العلمية نظر إليها أصحاب الحركة العلمية على أنها طريقة رجعية وغير علمية، وبذلك نشأ عند أهل الفلسفة منهم في ذلك العصر تعصب ضد القول بالوجود الإلهي، وهم أخذوا ينكرون ذلك ليس لأنه (قد ثبت لهم عدم وجوده بالأدلة والبراهين بل لأنه إله خصومهم والمخالفين لحرية فكرهم، لذلك

---

(١) سبق شرح ذلك في الباب الثاني في الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢) سقوط العلمانية – ص٥١ – ٥٢ وانظر الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر – الدكتور محمد البهي – ص١٣.

(٣) نقد المذاهب المعاصرة – الدكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم – ص٣١١.

كلمـــا أتـــت بـــه عقولهم وأنتجته مساعيهم العلمية نفروا منه. وكان ذلك نتيجة لثورة العواطف وغليانها). [1]

لقـــد أدت بهـــم تلـــك العواطف الهوجاء إلى إنكار الحقائق الغيبية فاضطروا إلى تفســـير كل شيء في الكون بالمادة واعتبروا هذا التفسير هو الطريقة العلمية للاستدلال والبحـــث ومـــا عـــدا ذلك عدوه طريقة غير علمية، وغير معقولة، وبذلك غلب الطابع المادي وأصبح هو البارز عند أقطاب الفكر من الحكماء والفلاسفة في تفسيرهم للكون، فهـــؤلاء (جـــاءوا إمـــا ينفون وجود الله علناً أو يصدقونه من حيث أنه حاكم دستوري منزوي في ملكوته السماوي بعد أن أعطى هذا الكون خلقه وحرك دولابه فليس له الآن يد في تدبير هذا النظام). [2]

هـــذا ما انتهى إليه حال هؤلاء الماديين، وذلك لأنهم لا يرون إلا كوناً واحداً وهو الكون المادي الذي يسير بلا خالق ولا مدبر حسب تصورهم لذلك.

إن هذا الاتجاه المادي قد تعمق لدى أصحاب هذا الفكر فأصبحت مواجهتهم للدين لا تـــنطلق إلا مـــن تلـــك المعـــتقدات المادية، ولهذا فليس بمستغرب أن يجابهوا الدين بالرفض المطلق والإنكار التام.

يقـــول "محمد أسد": (إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فـــائدة لله فـــي نظامها الفكري الحالي. لقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكري في الإنسان، أي من عجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة. وهكذا يميل الأوربي الحديث إلى أن ينســـب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية أو تلـــك التـــي ينـــتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموســـة. وبمـــا أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذلك، فإن العقل الأوربي يميل بداءة إلى إسقاط الله من دائرة الاعتبار العملية). [3]

لاشك أن الحضارة الغربية قد اصطبغت بالنزعة المادية ولم يعد أصحابها يرون في هذا الكون سوى المادة وحركتها وما عدا ذلك فهو وهم وخيال.

---

(١) انظر نحن والحضارة الغربية – ص١٤ – ١٥.

(٢) نحن والحضارة الغربية – ص١٧ – ١٨.

(٣) الإسلام على مفترق الطرق – ص٣٩.

يصـــور لـــنا الدكـــتور "عماد الدين خليل" هذه النظرة المادية للكون عند هؤلاء الماديـــن فـــيقول: (تراه المذاهب الأخرى بنياناً مسطحاً ذا وجه واحد ومضمون غير مـــزدوج. فهـــو ذلك البنيان المادي المنظور، الظاهر، الذي تقدر الحواس على التعامل معه والكشف عن أسراره ومعمياته).[1]

على هذا الأساس بنى الماديون تصورهم للكون وقالوا بأنه مادي بطبيعته، ويسير بـــلا خـــالق، وأن كل ما نراه من حوادثه وظواهره إنما يرجع إلى المادة نفسها، وأن حـــركة هـــذا الكون وتطوره وما يعتريه من تغيرات ما هي إلا أوجه لهذه المادة فكل شيء ينبثق من المادة صادراً منها وعائداً إليها وهكذا دواليك.

فـــالكون – عندهم – يبدأ من المادة وينتهي إليها، إذاً الكون ليس إلا المادة فهي – في تصورهم – الخالق والمدبر.

هـــذا مـــا وصل إليه الفكر المادي: تفسير سطحي للكون، وتشبث بالمادة، وكفر بالخالق – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً –.

يعـــبر الأســـتاذ "محمـــد عبد المنعم خفاجي" عن هذه الصورة المادية عند هؤلاء فيقول: (والمادية في جملتها تذهب إلى أن المادة في كافة صورها هي المؤثرة في كل شـــيء، وإلى أنها في الوجود أسبق، وأن لها – للمعنويات – القدح المعلى في مصائر الشعوب والإنسانية).[2]

لقد ظل القول بالمادة هو السائد عند هؤلاء الماديين – يروجون له بكل ما يملكون من وسائل، وغايتهم أن يبقى هو الغالب وأن يصبح الإيمان بالله – تعالى– نسياً منسياً.

يقـــول الشيخ "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله –: (كلما تقدمنا في المسير ظل المذهب يتغلب على الإيمان حتى خلت تلك الفلسفة والعلوم من تصور وجود الإله وكل ما فوق الطبيعة. وانتهت بهما الحال إلى أن لم يبق شيء من أشياء هذا الوجود، سوى المادة والحركة، حقيقياً عندهم. وأصبحت العلوم التجريبية مرادفة للمذهب المادي، وقر

---

(١) حوار في المعمار الكوني – ص٣١.

(٢) الرد على الماديين – ص٢١.

اعـــتقاد أصحاب الحكمة والفلسفة على أن كل ما لم يكن قابلاً للوزن والذرع فهو خيال لا حقيقة له).[١]

وهكـــذا أخـــذ الاتجاه الفكري المادي يقوى شيئاً فشيئاً حتى وصل بأصحابه إلى القـــول (بموت الآلهة وأنهم اختتموا حياتهم منذ عهد بعيد وأنهم في موتهم لم يتلكأوا... بل أضحكوا أنفسهم حتى الموت).[٢]

الحقـــيقة أن الماديـــين لـــم يصلوا إلى هذا المستوى من الإلحاد والكفر إلا بسبب اعـــتمادهم على الحس والمشاهدة وإدخالهم المنهج التجريبي في كل شيء مما أدى بهم إلى إنكار كل ما لا يمكن مشاهدته وكل ما لا يمكن إخضاعه للتجربة. ولقد أخطأوا في ذلك.

ومثالـــنا الشـــاهد على ما نقول "أرنست هيكل"[٣] الذي يقول: (الأديان تقوم على الوحـــي، والعلم لا يعرف إلا التجربة، ولا قيمة في نظره لأي فكرة إذا لم تكن تعبيراً مباشراً عن وقائع، أو نتيجة لاستنباط محدود قائم على القوانين الطبيعية).[٤]

أما مثالنا الثاني على ذلك فهو "أميل بوترو"[٥] الذي يقول: أن (العلم أصبح يكفي نفسه في نموه وتطوره، وإن أول سمة للروح العلمية من الآن فصاعداً هي عدم التسليم بأي مبدأ للبحث، وأي مصدر للمعرفة سوى التجربة، فالعلم يوضع في نظر العالم كأنه أمر أولي مطلق، ومن العبث أن يطلب منه اتفاقه مع أي شيء).[٦]

إن ممـــا افترى به أصحاب الفكر المادي على العلم وتجنوا به على الحقيقة قولهم أن العلم لا يقبل أي مصدر للمعرفة إلا إذا كان قائماً على الحس والتجربة، ولقد أرادوا بذلك أن يؤكدوا مادية هذا العالم وأن لا شيء فيه له قيمة سوى المادة.

---

(١) نحن والحضارة الغربية – ص١٥.

(٢) قصة الفلسفة الحديثة – زكي نجيب محمود – ص٢٢٥.

(٣) أرنست هيكل – ١٨٤٠ – ١٩١٩ – هو أحد فلاسفة الإلحاد المعاصرين (الفكر المعاصر في ضوء العقيدة – الأستاذ الدكتور يحي هاشم حسن فرغل – ص٤٠).

(٤) نقلاً من الفكر المعاصر في ضوء العقيدة – الأستاذ الدكتور يحي هاشم فرغل – ص٤٠.

(٥) أميل بوترو – ١٨٤٥ – ١٩٢١م – فيلسوف فرنسي من أهم أعماله "العلم والدين" و "الفلسفة والحرب" و "حدوث قوانين الطبيعة" (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص ٣٧٨).

(٦) نقلاً من الفكر المعاصر في ضوء العقيدة – الأستاذ الدكتور يحي هاشم فرغل – ص٤٠.

يقــول الشــيخ "أبو الأعلى المودودي": أن (في القرن التاسع عشر بلغت المادية منــتهاها... حيث تقدم العلوم وتكاثر الوسائل المادية – جاء بكل ذلك يؤكد ويثبت في نفوس الناس أن هذا الكون قد حدث من نفسه ليس له خالق، وهو سائر في طريقه على قوانين معلومة وليس من ورائه مدبر، وقد بقي يتدرج في منازل الرقي بدون أن يكون للــذات فــوق الطبيعة أثر يعرف في هذه الآلة المتحركة بنفسها. وأن المادة غير ذات الروح لم تكن تتلقى الروح بأمر من رب، وإنما المادة متى ارتفعت في نظمها وتركيبها وقعــت فــيها الــروح من ذات نفسها. وإن النمو والحركة التابعة للإرادة والإحساس والشعور والفكر، كل أولئك خصائص لتلك المادة المرتقبة).[1]

لقــد اســتبدل الماديون إله الكنيسة الذي قدمته لهم بصورة مجسدة إلهاً آخر، في صورة جديدة ومجسدة هي المادة أو الطبيعة لاسيما وأن الطبيعة في تصورهم (جميلة.. خلابة.. الطبيعة هي الأم التي ولدتنا.. أو "خلقتنا".. فلنعبدها. إننا كاسبون بذلك مكاسب عظــيمة. ســنحطم الكنيســة ذات الســلطان الطاغي الذي لا يرحم، وذات الجهالات والخــرافات والأســاطير وســنعبد إلهــاً "جميلاً".. وفوق ذلك فإنه إله بلا كنيسة. بلا الــتزامات. بلا ضرائب ولا عشور، بلا رهبانية... بلا تزمت. إله يمنحنا الحرية لأننا ســنعيش في ظله أحراراً من كل قيد... طلقاء... نفعل ما يحلو لنا، لأنه لا يحاسبنا ولا يزجــر أفعالــنا. سنولد من جديد. لن نولد – هذه المرة – في المسيح. ولكن سنولد في أحضان الطبيعة.. فأي فرحة لنا في هذا الدين الجديد).[2]

بهــذه الصــورة ورَّثــت النظريات الفلسفية المادية الإلحاد والكفر بالخالق والذي أصــبح سمة الماديين في كل زمان ومكان على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وقد كان ذلــك سبباً في هبوط الناس في جاهلية جديدة طالما حاربها الإسلام وحذر من الوقوع فــيها، وبالرغم من ذلك فإن أصحاب هذه الجاهلية زعماء الكفر والإلحاد وأتباعهم كلما ظهــروا (في أمة، نفذت وساوسهم في صدور الأشرار من تلك الأمة، استهوت عقول الخبثاء الذين لا يهمهم إلا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهم من أي وجه كان، لموافقة هذه

---

(١) نحن والحضارة الغربية – ص١٩ – ٢٠.

(٢) التطور والثبات – محمد قطب – ص٢١.

الآراء الفاسدة لأهوائهم الخبيثة، فيميلون معهم إلى ترويج المشرب المادي، وإذاعته بين العامة غير ناظرين إلا ما يكون من أثره).[1]

يقـول "محمـد عبد المنعم خفاجي": (المادية آخر المذاهب الحديثة، وأشدها حرباً لفكرة التدين في الإنسان، ولفطرة العقيدة التي فطر الله البشر عليها. وقد شن دعاتها في الغـرب الحـرب على الأديان، وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الإلحادي، وتحمل الناس عليه بقوة القانون، وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا).[2]

لاشـك أن الأفكـار المادية التي أخذ يبثها أصحابها هنا وهناك قد كان لها أثرها علـى المجتمعات البشرية وذلك لما تملكه من وسائل وطرق فعاله، ولكن الأكثر تأثراً بهـا وقبولاً لها هم ذووا النفوس المريضة والعقول السقيمة ممن غلبت عليهم أهواءهم، وشهواتهم، هؤلاء هم الأرض الخصبة لتقبل مثل هذه الأفكار المادية الإلحادية، وهم في الغالـب المروجون لها الذين عملوا على طمس الحقائق، وإظهار كل ماهو باطل على أنه هو الحق بأساليب وطرق ماكرة، وهؤلاء هم من رفع شعار الشرك والوثنية عندما قدسـوا المـادة، والطبيعة، والعقل، وصبغوا الحياة بصبغة مادية فأصبح كل شيء في نظرهم مادياً ولابد أن يوزن أو يقاس بمقياسٍ مادي.

يقـول الدكـتور "عبد الحميد الكردي": (وقد خبطت الفلسفات العقلية والمادية بأن جعلـت هذا الكون بماديته أو العقل بما فيه من قدرة على المعرفة آلهة تقدسها فخسرت الغاية من وجودها).[3]

ويقول "محمد أسد": (ولا ريب في أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني ولكن هؤلاء شواذ فقط.

إن الأوربـي سواءً أكان ديمقراطياً أم فاشياً، رأسمالياً أم بلشفياً، صانعاً أم مفكراً يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخـر سـوى جعـل الحياة نفسها أيسر فأيسر، إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع ودور السـينما والمختـبرات الكـيماوية وباحات الرقص.. وأما كهنتها فهم الصيارفة

---

(١) الرد على الماديين – ص٢١.

(٢) المرجع السابق – ص٢١.

(٣) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – ص٦٤٨ – ٦٤٩.

والمهندسون وكواكب السينما... والنتيجة التي لا مفر منها هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح يفني بعضها بعضاً).[1]

نعم لقد كانت وما زالت البشرية في صراع مرير وحرب شرسة لا هوادة فيها بين بني البشر قد أوجدها أصحاب الفكر المادي الذين خسروا الغاية العظمى من وجودهم، وأخذوا يلهثون وراء مادية باطلة.

***

(١) انظر الإسلام على مفترق الطرق – ص٤٧ – ٤٨.

الفصل الثاني

الأخلاق والقيم الإسلامية

لقد خلق الله – تعالى – الإنسان وغرس فيه حب الخير، وكراهية الشر، والميل إلى العدل، والنفور من الظلم، واستحسان كل ما هو حسن، واستقباح كل ما هو قبيح ومؤذٍ للنفس.

هذه الصفات هي طبيعة الإنسان التي فطره الله – تعالى – عليها والمراد بها أخلاقه. قال – عز وجل–: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾.(١)

وإذا كانت هذه صورة الإنسان الباطنة فإن ظاهره أي سلوكه يأتي مترجماً لذلك الباطن.

جاء في "ترتيب القاموس المحيط" أن الخلق هو: (الطبع والسجية والمروءة والدين).(٢)

ويزيد على ذلك "ابن منظور" فيقول: (وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة).(٣)

ويؤكد هذا المعنى ما ورد في "المعجم الوسيط" من أن الخلق (حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية).(٤) أما القيم فهي (ضربان: ذاتية تخص الشيء لذاته. وتكون صفات كامنة فيه، وغير ذاتية خارجة عن طبيعة الشيء ولا تدخل في ماهيته).(٥)

يقول "منير البعلبكي": إن المقصود بالقيم (كل مبدأ (أو صفة) هو في جوهره قيم أو مرغوب فيه ومن ذلك مثلاً الوفاء والصدق والعفة والعدل وغيرها).(٦)

---

(١) سورة الروم – بعض الآية ٣٠.

(٢) طاهر أحمد الزاوي – ج٢ – ص٩٩ وانظر مختار الصحاح – الرازي – ص١٨٧.

(٣) لسان العرب – ج١ – ص٨٨٩.

(٤) إبراهيم مصطفى أحمد الزيات – ج١ – ص٢٥٢.

(٥) المعجم الفلسفي لمجتمع اللغة العربية – ص١٥١.

(٦) موسوعة المورد العربية – ج٢ – ص٩٣٦.

إن الأخـــلاق والقـــيم التـــي فطـــر الله – تعالى – الإنسان عليها من حب للخير وكراهـــية للشر، وميل للعدل ونفور من الظلم وما إلى ذلك من الطباع التي غرسها الله – عـــز وجل – ورسخها في النفس البشرية – جاءت موافقة لما أمر به الإسلام ولهذا فإن لها دوراً كبيراً وفعالاً في بناء الأمم والمجتمعات التي تأخذ بها وتتمثلها واقعاً عملياً في حياتها.

إن هـــذا الدور الخطير – للأخلاق والقيم الإسلامية – لم يغفل عنه أعداء الإسلام ولم يسكتوا عنه – حسداً وحقداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق – بل كان لهم في مقابل ذلك ومعارضته طرق ووسائل مختلفة وكان من ضمن ذلك نظرياتهم المادية فـــي الأخـــلاق التي أخذوا يبثون سمومها هنا وهناك ولكن ما الغاية التي يسعى هؤلاء الماديون لتحقيقها من وراء كل ذلك؟

لاشـــك أن غايـــتهم هـــي القضاء على الأخلاق والقيم الإسلامية وأن تحل محلها الأخـــلاق المادية التي لا تعترف إلا بكل ما هو بعيد عن الدين وعن كل ما جاء به من قيم ومبادئ إنسانية سامية.

جـــاء في كتاب "الرد على الدهريين" والذي خصصه "جمال الدين الأفغاني" للرد علـــى هـــذه الطائفـــة قوله: (ومقصد أرباب هذه الطريقة، محو الأديان، ووضع أساس الإباحـــة، والاشـــتراك فـــي الأمـــوال والأبضاع بين الناس عامة، وقد كدحوا لإجراء مقصـــدهم هـــذا وبالغوا في السعي إليه، وتلونوا في ألوان مختلفة، وتقلبوا في مظاهر متعددة، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها وعاد عليهم سعيهم بالزوال).[1]

هـــذه هـــي الأخـــلاق التي يقصدها أرباب الفكر المادي، بل هذه هي الغاية التي يســـعون لتحقيقها بكل ما يملكون من وسائل، ولهذا فقد كان القدماء منهم يقولون: (إن الحـــياء مانع للرزق، أما المعاصرون منهم فإنهم يهتفون "بموت الحياء" وكلا الأمرين يعني موت الضمير).[2]

---

(١) الرد على الدهريين – ص٣٥.

(٢) المرجع السابق – ص٢٢.

ومـــوت الضـــمير يعنـــي نهاية الأخلاق إن لم يكن انعدامها، وإن كانوا يتشدقون بالأخلاق إلا أنه ليس لهم منها نصيب سوى اسمها.

يقول الدكتور "علي عزت بيجوفيتش" – رئيس البوسنة والهرسك–: (فلابد للمادية أن تنكر الأخلاق في النهاية).[1]

الحقيقة إن هؤلاء الماديين لا يؤمنون إلا بالإباحية والفوضى والفساد. وقد أرادوا أن يحملـــوا الأمة على ذلك، وأن تعم الفاحشة والرذيلة بينهم، كيف لا وهم لا يؤمنون بـــالله – تعـــالى – ولا بالـــيوم الآخـــر ولا بالجنة ولا بالنار. بل إنهم يحاربون الدين ويستخفون بما جاء به من أخلاق وقيم ومبادئ. أما الأخلاق التي يقولون بها فإنها قائمة علـــى تصورات مادية ضحلة لا ترى في الإنسان إلا جانبه المادي وتستقل هذا الجانب وتصـــوره بصـــورة بشعة لا يمكن للضمير الحي أن يتقبلها بل يرفضها كل ذي حسٍ سليم.

لقـــد أسقط الماديون أعظم ما في الإنسان وهو الروح والنفس وادعوا بأن الإنسان مجرد دم وجسد وبذلك أنكروا حقيقة الإنسان التي جاء بها الدين والعلم.

يقـــول "أنـــور الجندي": (حدد الفكر الغربي موقفه تماماً في هذه المرحلة في كل القضايا على أساس التجزئة الانشطارية، فاعترف بالعلم والعقل والمادة، وأنكر ما سوى ذلك من مقررات النفس البشرية الجامعة للروح والمادة والعقل والقلب).[2]

هـــذا هو تصور الماديين للإنسان، تصور حسي مفرغ من النفس والروح، ولهذا أرادوا تطبيق نظرياتهم ومناهجهم عليه.

ذكـــر ذلـــك الأستاذ "أنور الجندي" في كتابه "معلمة الإسلام" فقال: (خطأ تطبيق مـــنهج التجريب في العلوم المادية على الإنسان ودراسات النفس والأخلاق والاجتماع، ومعـــنى ذلـــك أن الإنسان مفرغ من الروح والنفس، وأنه جهاز مادي أو حيوان أليف. ولذلـــك فـــإن النتائج التي تحققها هذه الدراسات فاشلة وباطلة، لأنها لا تستوعب الكيان

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب – ص٢١٤.

(٢) المرجع السابق – ص٨٥.

الإنســـاني كلـــه، ولا تحاكمه غلى منهج خاص به يتمثل في تكامله وجمعه بين الروح والمادة).[1]

وكيف تحاكمه إلى منهج متكامل وذلك المنهج مفقود، لأن أصحاب هذه الدراسات لا يملكون إلا تصورات مادية منكرة للخالق ومتجاهلة للروح وللنفس الإنسانية، ولذلك ما زال الإنسان يعاني من أزمة هذا الفكر المادي الذي أخذ ينفخ في نظريات مادية أدت إلى ضياع الإنسان وسط ضياع القيم والأخلاق.

لقد أصبحت الأخلاق عند هؤلاء الماديين تفسر تفسيراً مادياً، وإذا سألت عن سبب ذلك فسوف تجد الجواب عند فيلسوف عصرهم "ميكيافيلي" الذي يقول: إن الغاية تبرر الوسيلة.

نعـــم إن الغاية عندهم مادية ولذلك يجب أن تكون الوسيلة (النظريات المادية في الأخلاق) المؤدية إليها أيضاً مادية.

إنهـــا تصـــورات ماديـــة، وغايات مادية، وليس هذا بمستغرب من سدنة الإلحاد والرذيلة فهذه طبيعتهم المادية.

يقـــول الدكتور "محمد البهي": إن من صفات أصحاب هذا الفكر المادي (الإيمان بالمادة ومتع الحياة المحسة.. والاستخفاف بالقيم الإنسانية).[2]

ويقـــول "جـــيمس كوليـــنز": (شهد القرن التاسع عشر مولد مذهب في الإلحاد – مذهـــب كامل التكوين يرمي إلى استبعاد الله بلا قيد ولا شرط من معتقداتنا المتواضع علـــيها. وكان من النادر – فيما سبق من عصور – أن يعتنق الإلحاد علانية مفكرون بـــارزون، إذ كـــان يـــنظر إليه على أنه موقف هدام. أما في خلال الفترة التي أعقبت "هـــيجل" فقـــد اعتـــنقه جهاراً نهاراً عدد من زعماء الفكر الذين أضفوا عليه نوعاً من التوقـــير الذهنـــي، بـــل من التداول الشعبي أيضاً. وقد نجحوا في هذا بأن ربطوا بين الإلحاد وبين الاتجاهات الرئيسية في حياتنا العلمية والثقافية والأخلاقية).[3]

---

(١) ص ٨٥ – ٨٦.

(٢) انظر القرآن في مواجهة المادية – ص٢٤.

(٣) في الفلسفة الحديثة – ص٣٣٨.

ولقـد ظهـر كل ذلك على شكل نظريات علمية تعبر عنها فلسفتهم المادية التي تحمل بين طياتها كل أنواع الفساد الفكري والخلقي.

لقـد أهدرت هذه الفلسفات كرامة الإنسان وأفقدته إنسانيته التي كرمه الله – تعالى – بهـا، وجعلـته يعـيش عكس طبيعته الإنسانية التي لم يخلقها الله – عز وجل– إلا لغايات عظيمة وحكم جليلة.

نعـم إن هـذه النظريات التي يتسلح بها أرباب الفكر المادي والتي انتشرت هنا وهناك (سلبت الإنسان الحرية، وجردته ليس فقط من إرادته واختياره بل ومن إنسانيته التي فطره الله – تعالى – عليها، وأخضعته لحيرة صارمة، وكبلته بقيود حتمية لا فكاك مـنها، فأضـحى ترساً صغيراً يدور في آلة ضخمة.. ففقد كرامته التي أرادها الله – تعالى – له في قوله – تعالى –: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴿٧٠﴾ ﴾.[1]

فلـم يعد الإنسان يحيا وفق طبيعته، بل وفق نظريات متضاربة. وأنساق مهزوزة اخـترعها أصـحابها مـن أهل الغرب لأنهم لا يجدون في النصرانية ما يشفي ظمأهم ويروي عقولهم ويحي أرواحهم، ولو بحثوا عنه بعيداً عن الله – تعالى – وما أنزل من الحق لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً).[2]

لم تكن العلة في كل ذلك كون هذه النظريات المادية قائمة على تصورات إلحادية بعـيدة عـن الحـق وهي أشد خطراً ووبالاً على الإنسانية جمعاء، ولكنها أيضاً تضع الإنسان في عذاب وصراع دائمين بين صوت الحق الكامن في الفطرة البشرية وبين ما تمليه عليه المغريات المادية، وهي لا تقل خطورة وفتكاً بالإنسان من سابقتها.

الحقيقة إن هذه المأساة التي يعاني منها الإنسان، سببها غياب الغاية العظمى التي خلق الله – تعالى – البشرية من أجلها. واستبدال ذلك بغايات أخرى مادية مزيفة جعلت الإنسـان يتخـبط في دهاليز المادية المظلمة باحثاً عن تلك الغايات في نظريات مادية وضعها أصحاب الفكر المادي، وهي لم تزد الإنسان إلا ضياعاً وضلالاً.

---

(١) سورة الإسراء – آية ٧٠.

(٢) نقد المذاهب المعاصرة – إبراهيم مصطفى إبراهيم – ص٣١٢.

يقـول "إبراهـيم مصـطفى إبراهـيم": (ولكن الإنسان الغربي الحديث في أوربا وأمـريكا وغيرهما زاغ عن الحق، وألتمسه في غير مصادره، فكان مصيره الضلال والضـياع وفقـدان الأمل.... لقد ظن هذا الإنسان أنه قادر على الحياة وعلى تفسيرها فشـرع يضـع لنفسـه النظرية تلو النظرية... وما صدقت منهن نظرية)[1] لأن تلك الـنظريات وضـعت لغايات مادية أساسها الكفر بالله – تعالى – وباليوم الآخر. ولكي يُـروِّج دعـاة الفكر المادي الإلحادي لتلك النظريات الفاسدة في الأخلاق والقيم، ولكي يدلِّسُـوا علـى الـناس فَيُقْـبِلُون عليها وسموا نظرياتهم تلك بالتطور، ووسموا أنفسهم بالتطوريـن، وزعمـوا أن كل شيء في الكون يتطور، وأن التطور هو قانون الوجود الـذي لا محيص ولا محيد لشيء إلا بالأخذ به، وأن كل شيء لابد له أن يتطور وأن الديـن بعقـائده وشرائعه وقيمه وأخلاقه لا يستثنى من هذه القاعدة، ولا يفلت من هذا القـانون.. وأنـنا إذا أردنا للدين أن يعيش ويستمر ويظل الناس مستمسكين به لابد أن نخضـعه لقانون التطور هذا وإذا لم نفعل فسيموت الدين ويتخلف عن ركب الحضارة، وينطلق الناس في مسيرتهم مخلِّفين الدين وراءهم.

وإذا نحـن هادنَّـاهم قلـيلاً أو مرحلـياً وسألناهم عن ماهية هذا التطور وحقيقته التي يريدونها للدين والأخلاق خرجوا علينا بنظرياتهم المادية، وقدموا لنا فلسفاتهم في الدين والأخـلاق والسـلوك التي تنسلخ عن الدين، وتتمسك بالمادة، وتضع لنا مذاهب اللذة بأشكالها في الأخلاق والسلوك، وتنتقل بالإنسان بأخلاقه وسلوكه إلى عالم الحيوان، بل إلـى ما يعف عنه الحيوان. وصدق الله – تعالى – القائل: **قال تعالى :** ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.[2]

---

(١) نقد المذاهب المعاصرة – ص٣١٢.

(٢) سورة الفرقان – آية ٤٤.

ولهـــذا يقول "عبد الله عمر العمر": إن التطور عند أصحاب المذاهب (لا ينحصر فـــي عـــالم الحـــياة العضوية فحسب، بل يجاوزها إلى ميادين ثقافية كالدين والأخلاق، فالدين والأخلاق قد أتى عليهما فعل التطور بالمعنى الحيوي نفسه).[1]

لقد اتخذ الماديون فكرة التطور وسيلة للقضاء على الدين والأخلاق والقيم باعتبار أن كـــل شيء موجود لا يبقى على حاله بل هو قابل للتطور، وبذلك فليس هناك قدسية ولا ثوابت لا للدين ولا للأخلاق، ولا للقيم لأنها كغيرها من الموجودات القابلة للتطور والتغير وعلى هذا الأساس الذي وضعه الماديون انطلقت النظريات المادية في الأخلاق بلا قيد ولا ثوابت، ملقية الدين وما يتبعه من أخلاق وقيم ومبادئ.

وهـــذه هي غاية الماديين التي يسعون لتحقيقها من خلال ما يطرحونه من مذاهب ونظريات مادية.

ولهـــذا فإن ما تأتي به هذه المذاهب والنظريات من فلسفات معاصرة في الأخلاق فإن طابعها مادي وهي في جانب العلم والتطور الصناعي قد تكون مفيدة نوعاً ما لكنها في جانب الدين والضمير وما ينبع منهما من أخلاق وقيم، فلا قيمة لها. بل هي ضارة ضالة، وإلا فكيف تلقي الدين، والروح، والنفس التي لا يمكن أن تقوم حياة الإنسان إلا بالإيمان بها.

إن هذه النظريات لم ترى إلا الجانب المادي في الإنسان ولهذا فقد انصبت في هذا الجانـــب، تدفـــع الإنسان بوسائل ماكرة، وطرق خبيثة إلى كل ما فيه ضياعه وهلاكه، ولكـــن بمسميات براقة وطنانة، وإن اختلفت في مسمياتها وألفاظها التي تعبر بها إلا أن مقاصدها واحدة.

ومـــن هـــذه الـــنظريات نـــأخذ علـــى سبيل المثال (مذاهب الغاية ومذهبا اللذة والسعادة)[2] ولقد سماها الدكتور "عبد الرحمن بدوي" (بأخلاق الطبيعة).[3]

---

(١) فكرة التطور في الفلسفة المعاصرة – ص٩٦ وانظر قصة الفلسفة الحديثة – ص٤٩٥ وانظر الفلسفة الخلقية – الدكتور توفيق الطويل – ص٣٠٦.

(٢) انظر المشكلة الأخلاقية – الدكتور زكريا إبراهيم – ص٢٠ – ١٤٢ – ١٦٣ والأخلاق النظرية – الدكتور عبد الرحمن بدوي – ص ٢٤١ – ٢٤٧ ومحاضرات في فلسفة الأخلاق ونظرياتها – ص١٠٥ ومحاضرات في الأخلاق – الدكتور علي فرغلي – ص٩٩.

(٣) الأخلاق النظرية – ٢٤١.

إن هـذه الـنظريات فـي الأخلاق هي من إفرازات الحضارة المادية التي تزن الأخـلاق بمـيزان اللذة الحسية فهي السعادة وهي الغاية كما يصورون ذلك. ولكن إذا كانـت الأخلاق بهذه الصورة المادية – كما يزعم أصحابها الماديون – فما هو الفرق بيـن الإنسـان والحـيوان عـند هؤلاء؟ أين دور الإنسان كإنسان؟ أين ضميره؟ وأين فطـرته؟ وأيـن عقلـه؟ لقد أغفلت المذاهب المادية في الأخلاق كل ذلك ولم تعد ترى الإنسان إلا بعين واحدة، عين الحس والمشاهدة.

ولهذا نجدها عندما نظرت إلى الأخلاق نظرت إليها من جانب حسي مادي ولذلك فـإن (أخص ما يميزها إرجاعها "الأخلاقية" أو "الضمير" إلى التجربة... ورد الخيرية والشـرية إلى وجدان اللذة والألم، أو المنفعة والضرر، والقول بذاتية الأحكام الأخلاقية ونسبية القيم وتغيرها بتغير الزمان والمكان).[1]

هـذه هـي القواسم المشتركة التي تجمع بين هذه النظريات المادية في الأخلاق، ولذلـك فلا نعجب إذا جعلت الغاية من الأخلاق اللذة أو المنفعة أو السعادة فهذه مجرد مسـميات مختلفة ولكن جميعها تعني اللذة على اختلاف مستوياتها ولذلك يقول الدكتور "عـادل العـوا" بـأن أساس الأخلاق عند هؤلاء الماديين (هو المنفعة أو مبدأ السعادة العظمـى وهما يؤيدان أن اللذة هدف الحياة، وأنها معيار القيمة الأخلاقية، لأن "أعمال البشـر إنمـا تعتبر صالحة بقدر السعادة الناجمة عنها، وطالحة بقدر ما تسبب لهم من بـؤس وشقاء. وكلمة السعادة تدل على اللذة أو فقدان الألم، كما تدل كلمة الشقاء على الألم وفقدان السعادة).[2]

وهكـذا تظل اللذة – عند هؤلاء الماديين – هي غاية الحياة الأخلاقية، فأصحابها هم القائلون: (نحن نجعل من اللذة مبدأ السعادة وغايتها).[3]

ويقولـون أيضـاً: (إن اللـذة هي الخير الأسمى والألم هو الشر الأقصى، وليس للفضيلة قيمة في ذاتها ولكن قيمتها تستمد من ا للذات التي تقترن بها، وهذا هو أساس الأخلاقية).[4]

---

(١) المذاهب الأخلاقية في الإسلام – الدكور عبد الحي محمد قابيل – ص٨١ – ٨٢.

(٢) المذاهب الأخلاقية – ج٢ – ص٥٠.

(٣) نقلاً من الأخلاقية النظرية – الدكتور عبد الرحمن بدوي – ص٢٤٢.

(٤) نقلاً من الفلسفة الخلقية – توفيق الطويل – ص٩٢.

وبناءً على ذلك تكون اللذة – عند أصحاب هذا الفكر المادي – هي مقياس الفعل الخلقـــي فإنه لا يكون خيراً إلا إذا حقق أكبر قدر ممكن من اللذة، ولذلك فقد وضع كل واحـــد مـــن هـــؤلاء الماديين (تعاليم مذهبه على قاعدة اللذة والألم، فقال: إذا كنا نتعلم الأخـــلاق ونعلمهـــا للحصول على حياة سعيدة فإن من الخطأ أن نعتبر هذه السعادة في شيء غير اللذة والبعد عن الألم).[1]

وهكـــذا فإن (خلاصة هذه المذاهب أن اللذة – هي مقياس الأعمال الخلقية، فيحكم علـــى العمل بأنه خير، بمقدار ما فيه من لذة، ويحكم عليه بأنه شر، بمقدار ما فيه من ألم... فاللذة عند أصحاب هذه المذاهب هي قاعدة الحياة وناموس السلوك).[2]

هـــذه هي الأخلاق التي يتشدق بها الماديون، ولم تكن مذاهب الغاية أو المنفعة أو اللذة أو السعادة إلا مثالاً للمذاهب المادية التي تدعو إلى تلك الأخلاق والتي لم تأتي إلا بما هو دمار وفساد للأخلاق الإنسانية السامية التي دعا إليها الإسلام.

كتـــب الشيخ "أبو الحسن الندوي" في ذلك فقال: (فقد أصبح العقل الأوربي محامياً عـــن الماديـــة لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء، والأفراد من الاغتباط والرخاء، فأصبح الربح المادي هو ميزان الأخلاق والفارق بين الشر والخير، وأصبحت الأخلاق التـــي لا وزن لهـــا فـــي مـــيزان المادة، ليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية في المصطلح القديم ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول، وتعدم أنصاراً وتصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضي).[3]

ولكن وبالرغم من كل ما قام به أصحاب الفلسفات الأخلاقية من محاولات إلا أنها لـــم يكتب لها النجاح – وذلك لاعتمادها على التجربة والحس والمشاهدة فقط – ولذلك فقـــد (أخفقـــت في خلق توجيه أخلاقي، وفي خلق خلقية أو ضمير يدفع الإنسانية نحو العمـــل الإنساني، أي نحو الأخوة والتعامل في الإنسانية، أو نحو تقدير الإنسان. وهذا

---

(١) محاضرات في الأخلاق – الدكتور علي جعفر فرغلي – ص١٣٦.

(٢) دراسات في فلسفة الأخلاق – الدكتور محمد عبد الستار نصار – ص١٤٥.

(٣) ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين – ص٢٧٣ – ٢٧٤.

هــو الــنقص الذي يلازم هذه الفلسفة. وفي واقع الأمر أن هذا النقص كان نتيجة لغلو الفلسفة في تقييم النظرة الواقعية والتجارب الآلية والرياضية. لأن هذا الغلو ركز القيمة كــل القيمة فيما يدرك بالحس وينشأ عن التجارب المادية، ويلغي كل اعتبار لمعرفة أو توجيه لا يخضع لتجربة الإنسان المادية).[١]

ولتأكــيد فشــل هــذه الــنظريات المادية وما تحمله من أفكار هدامه إليك بعض التصــريحات الــنابعة من المجتمع الغربي، والتي تتحدث عن الآثار التي طبعتها تلك الــنظريات المادية على البشرية عموماً، وهي في نفس الوقت تصور الواقع المر لكل من اتخذ من تلك النظريات المادية مصدراً له سواءً في الأخلاق أو في غيرها.

يقــول "جــيور وجيو": (إن الجو بات لا يصلح للتنفس... إن الجو بات خانقاً... الجو الذي يعيش فيه المجتمع الحاضر. إن الكائن البشري لن يستطيع احتماله).[٢]

ويقول "برجسون": (إن جسم البشرية قد تضخم تضخماً خارقاً للعادة بينما ضعف روح البشرية وتضاءل).[٣]

ويقــول "الكسيس كارليل": (إن المادية البربرية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم الســمو العقلــي فحسب بل إنها تسحق أيضاً الشخص العاطفي، واللطيف، والضعيف، والوحيد).[٤]

ويقول "ستيفن وولف": (إن الحضارة الغربية تشجع ضلال الشخصية الذي حاولت الحضارة الشرقية بكل جهدها أن تنجو منه).[٥]

إن أقوال العلماء هنا تنذر بشر مستطير على البشرية بأسرها جراء هذه النظريات المادية الخطيرة وما جاءت به من أفكار سقيمة.

---

(١) الإسلام في الواقع الايدلوجي المعاصر – الدكتور محمد البهي – ص٣٥.

(٢) نقلاً من تهافت العلمانية – عماد الدين خليل – ص١٧٨.

(٣) نقلاً من موقف الإسلام من العلم والفلسفة الغربية – أنور الجندي – ص١٥.

(٤) الإنسان ذلك المجهول – ص٣٥٥.

(٥) نقلاً من تهافت العلمانية – الدكتور عماد الدين خليل – ص١٤٩.

وإذا كـــان الأمـــر كذلك فلم يعد أمام الإنسان العاقل إلا الرجوع إلى شرع الله – تعـــالى – ليقتـــبس مـــنه الأخلاق الصحيحة السليمة من كل الشوائب ففي ذلك منفعته وسعادته الحقيقية في الدارين: الأولى الآخرة.

لا ســـيما وقـــد أثبتت الأدلة بأن الله – سبحانه وتعالى – هو الكمال المطلق، وأن عبادته تقرب من الكمال، فهي تأتي بما لا تستطيع الفلسفات المادية المعاصرة أن تأتي به.

***

الباب الرابع

الرد على الماديين

- تمهيد.
- الفصل الأول : الرد عليهم في قضية الخلق والخالق.
- الفصل الثاني : إثبات علم الله وحكمته
- الفصل الثالث : الرد عليهم في قضية الأخلاق والقيم الإسلامية.

تمهيد

مما لا شك فيه أن من أخطر ما تواجهه البشرية اليوم هو ما يحمله الماديون من أفكـــار ماديـــة إلحاديـــة ضالة يحاربون بها الإسلام بهدف القضاء عليه واقتلاعه من جـــذوره وتجفـــيف مـــنابعه، ولهذا فقد انصبت جل اهتماماتهم في القضاء على مسألة الإيمـــان بالخالق – سبحانه وتعالى – وما تبع ذلك من قيم وأخلاق إسلامية، ولخطورة هذا الأمر خصصت هذا الباب للرد على هؤلاء الماديين، وليس ذلك صعباً ولا عسيراً، فالأدلة كلها بل الوجود كله شاهد حق، وناطق صدق على وجود الله –سبحانه وتعالى– ولأنهـــا شـــهادة الوجود كله، فإن الأدلة على وجوده –سبحانه– وحكمته وعنايته وبديع صـــنعته، لا تكاد تحصى، وهذه الأدلة تنسجم تماماً مع الفطرة الإنسانية من جانب ومع الكون كله من جانب أخر ... بينما أدلة هؤلاء على إلحادهم وكفرهم تتناقض مع الفطرة وبديهـــة الأمور، ولذلك فهم لا يملكون دليلاً علمياً صحيحاً يؤكد ما يقولونه، بل العكس هـــو الصـــحيح، وهذا ما سوف أحاول إثباته في هذا الباب من خلال الرد على هؤلاء الماديـــين في قضية الخلق والخالق، وإثبات علم الله وحكمته، ثم الرد عليهم في قضية الأخلاق والقيم الإسلامية وذلك في الفصول التالية:

***

الفصل الأول

الـــرد عليهـــم في قضيـــة الخلق والخالق

صـــحيح أن وجـــود الخالق – سبحانه وتعالى – أمر غيبي بالنسبة لنا، لكن الله – عز وجـــل – جعـــل كـــل مـــا في هذا الكون آثاراً تؤكد وجوده – سبحانه وتعالى – يقول الدكـــتور " عماد الدين خليل : (يرى الإسلام في المعمار الكوني طبقتين تبرز إحداهما بمواجهـــة الحـــواس، وتغيـــب الأخرى ... تغيب عن الرؤية المباشرة فقط، ولكنها في حقـــيقة الأمـــر ليســـت موجودة فحسب، أو مؤكدة فحسب، ولكنها أكثر ثقلاً وحضوراً وتأثـــيراً فـــي الصـــيغة النهائية للمعمار الكوني، وفي المعطيات التي يتضمنها بكل ما تحمله الكلمة من معنى).[1]

إن هـــذه الحقـــيقة ثابـــتة قد جاء بها الدين وصدقها العلم ولكن الماديين أنكروها، أنكـــروا كل الغيبيات وأولها وأعظمها وجود الخالق – سبحانه وتعالى – وقالوا بالمادة مع أن العلم قد أثبت بالتجربة أن المادة منفعلة وليست فاعلة، وقد أصبحت هذه الحقيقة واقعاً ملموساً لا ينكرها إلا مكابر معاند.

يقـــول الأستاذ "فتحي يكن" : (إن القول بالمادة مرفوض بداهة لاعتبار أن المادة الصماء لا يمكن أن تتحول ذاتياً، وأنه لابد لها من محول أو عامل خارجي عنها مؤثر فـــيها.. فكمـــا أن الجبال والصخور لم تتحول ذاتياً، وأنه لابد لها من محول أو عامل خارجـــي عـــنها مؤثر فيها.. فكما أن الجبال والصخور لم تتحول إلى أبنية، والمعادن المختلفة لم تصبح أجهزة آلية ومعدات ميكانيكية إلا بفعل الإنسان، كذلك فإن الحياة في كـــل جوانـــبها وأبعادهـــا لا يمكن أن تكون إنعكاساً للتفاعل المادي. ذلك أن المادة في الأصل منفعلة وليست فاعلةً).[2]

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يعكس الماديون الوضع ؟

إن هذا الكون المادي بكل قوانينه وأحداثه وتغيراته تتجلى فيه القدرة الإلهية، فهي الفـــاعل الحقيقـــي في المادة، وليست المادة هي الفاعل كما يزعم هؤلاء الملاحدة الذين جعلـــوا الكفر بوجود الخالق – سبحانه وتعالى – هو مبتغاهم. ولهذا قالوا بالمادة وإنها أزلية أبدية.

---

(١) حوار في المعمار الكوني – ص ٣١.

(٢) البيريسترويكا – ص ٤٠.

والحقـيقة التي لا جدال فيها أن قولهم هذا باطل لأنه يتناقض مع ما جاء به العلم وما ينطق به الواقع، ولهذا فقد أعترف بعض هؤلاء الملاحدة بفشل هذه النظرية وبعدها عـن الصواب ومن هؤلاء " دونيس سكايما " الذي يقول في اعترافاته : (لم أدافع عن نظـرية الكون المستقر لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة. ولكن بعد أن تراكمـت الأدلة فقد تبين لنا أن اللعبة قد انتهت، وأنه يجب ترك نظرية الكون المستقر جانباً.

ومع ظهور أن المادة حادثة وغير أزلية، وأن للكون بداية... مع أن ظهور هاتين الحقيقتين يدل على الخلق وأن الكون خلق من قبل الخالق، إلا أن طبيعة الانفجار الكبير أضـافت أدلة أخرى على أن الكون خلق بتقدير دقيق ونظام رائع. ذلك لأن أي انفجار لا يكـون إلا مخرباً وهادماً ومشتتاً ومبعثراً للمواد، ولكن عندما نرى أن انفجاراً بهذا العـنف وبهذا الهول يؤدي إلى تشكيل وتأسيس كون منظم غاية النظام، فإن هناك إذن وراءه قدرة وعلماً وإرادة وتقديراً لا نهائياً فوق الطبيعة).[1]

وإذا كانت هذه هي بداية الكون (الحدوث) وقد اعترف بذلك الملاحدة أنفسهم لأنهم لا سـبيل لهـم غير ذلك أمام ظهور الحقيقة بهذه الصورة الجلية، فهل بعد هذا البيان الساطع والبرهان القوي إنكار وتكذيب ؟

إن هـذا الإلحـاد والتكذيـب قد أصبح مسلك هؤلاء الماديين ليس لأنهم يجهلون الحقـيقة، فالحقيقة واضحة أمامهم، بل لأن الكفر والإلحاد غايتهم فهم وإن كانوا يرون الحقيقة فإنهم سرعان ما يعرضون عنها.

يقـول الدكتور " محمد سعيد رمضان البوطي" : (إن سرمدية المادة شيء منطقي عند هؤلاء الماديين، على الرغم من أنف القانون المنطقي القاضي ببطلان تسلسل العلل المتوالدة عن بعضها... لقد كان عذرهم في الإيمان بمنطقيتها، أنه المفر الذي لابد لهم مـنه، ليسلم لهم اليقين بعدم وجود الله... ونظراً إلى أن الغاية من كل بحث هو الابتعاد مـا أمكن عن فكرة الإيمان بوجود الخالق، فقد كان القول بسرمدية المادة قولاً منطقياً،

---

(١) نقلاً من مجلة المجتمع – العدد ١٤٣٣ – ١٤٢١ هـ – ص ٤٧.

علـــى الرغم من كل شيء... وإلا فسيجدون أنفسهم وجهاً لوجه (على حد تعبير إنجلز) أمام إصبع الله.

ألـــيس هذا أبرز، بل أضخم مثال، على تكييف الأشياء مع المفاهيم السابقة، على حـــد تعبـــير " لينين ورفاقه ؟... إن هؤلاء الماديين أشاحوا بوجوههم عن ظاهرة العلة الغائية ودلالتها على أسبقية الإرادة والحكمة القاضية بوجود خالق حكيم، لما رأوا أنها ستردهم – على حد تعبير " إنجلز " – مرة أخرى إلى الوقوف أمام إصبع الله.

وخاضوا في سبيل الفرار من هذا المأزق، غمار تناقضات عجيبة ومشينه، كقولهم بأن الدماغ مادة عالية التنظيم دون أن يقروا بالمنظم، وكيقينهم بوجود ظاهرة الإنسجام التـــي تبرز وحدة الكون وتآلفه، دون أن يقروا بوجود الحكمة التي لابد أن يكون إليها مرد ذلك... أنهم يقرون – وعلى رأسهم " إنجلز " – بأن العلم لم يستطع إلى هذا اليوم أن يقـــول شـــيئاً عن حقيقة الروح والحياة. ولقد كان هذا اليقين منهم كافياً، في ميزان المـــنطق والعلـــم، في الحمل على التوقف عن متابعة القول بأن الحياة كلها مادة، وأنها منها انبثقت وإليها تعود.

ولكـــنهم على الرغم من يقينهم هذا، عادوا يقولون : ولكنها يجب أن تكون نتيجة تفاعل كيميائي... وإنما ألجأهم إلى هذا الاضطراب الواضح، إرادتهم الحاكمة ورغبتهم السابقة في عدم الإذعان لوجود الخالق...) (١).

إن هؤلاء الماديين عندما أنكروا هذه الحقيقة الكبرى وقالوا بالمادة بنوا ذلك على نظـــريات فرضـــية وليست ثابتة، واللافت للنظر في هذه الفرضيات أن الماديين يأتون بنظرية مادية يستندون إليها في الكفر بالخالق، ويعلون من شأن نظريتهم تلك، ثم تأتي نظـــرية أخرى فتبين فساد النظرية السابقة عليها، وبعد أن يرتكزوا عليها في دعاواهم الماديـــة الملحدة، إذا العلم يبطلها وتأتي نظرية ثالثة تبطل سابقتها، وهكذا لا يستقر لهم حـــال، ولا تســـلم لهم نظرية، ولا يستقيم لهم دليل وهذا ما يؤكد بطلان هذه النظريات المادية جميعها.

---

(١) نقض أوهام المادية الجدلية – ص ٢٧٦ – ٢٧٨.

جـــاء في كتاب " الدوافع نحو المادية " (أن ما بينته العلوم في هذا المجال لم يعدُ أن يكـــون مجرد فرضيات تتغير دائماً وتبطل وتحل محلها فرضيات أخرى، وعليه فلا يمكن أن نعمل – بناء على هذه الفرضيات المتغيرة القلقة – على رد ما جاء في كتاب ســـماوي إذا كان قد بين بشكل صريح لا يقبل التوجيه ونجعل تلك الفرضيات المتبدلة دليلاً على عدم صحة أصل الدين – بالتالي – دليلاً على عدم وجود الله) [1].

إن النظريات المادية التي يعتمد عليها هؤلاء الملاحدة والتي لم تخرج في حقيقتها عـــن كونهـــا فرضـــيات تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الماديين لم يعد لهم مرتكز يستندون عليه ولا مصدر يأخذون منه ولهذا وجد كل هذا التناقض بين نظرياتهم والذي هو دليل على فساد تلك النظريات المادية وبطلانها.

يقـــول الدكـــتور " عماد الدين خليل " : (ويتغير العلم... ويتغير الأساس... فإذا بـــنظرياتهم تـــتهاوى الواحدة تلو الأخرى... هذا ما حدث بالنسبة لكثير منها في حقول الاجتماع والاقتصاد والنفس... وإن المادية التاريخية التي أقامت صرح نظرياتهم على معطيات العلم في القرن التاسع عشر، والتي سميت بالعلمية... ما لبثت أن تعرضت في القرن التالي وبخاصة في العقود الأخيرة، لكثير من الهزات العنيفة، لأن الأساس الذي بنيـــت علـــيه أخذ يتأرجح ويتمايل وتتهاوى بعض جوانبه... وإذا كان العلماء أنفسهم، أبناء المختبر والتعامل التجريبي مع المواد والظواهر والأجسام، يعترفون بأن أحكامهم ليست نهائية، وأن ما تمكنوا من قطعه لم يتجاوز بدء الطريق إلى الحقيقة... فما لهؤلاء القـــوم مـــن الأدبـــاء والفلاســـفة الذيـــن لـــم يدخلـــوا مختـــبراً ولـــم يجـــربوا ظاهرة... يدعون بنهاية أحكامهم وثباتها وديمومتها).[2]

ليس من حق هؤلاء الماديين إنكار الحقائق الغيبية لأنهم لا يملكون أسساً صحيحةً وثابـــتة تؤيد ما يقولون به لاسيما وانهم اعتمدوا في علومهم ما يقبل المشاهدة والتجربة فقط، وهناك معارف كثيرة مغيبة عنهم.

---

(١) مرتضى المهدي – ص ٧٠.

(٢) العلم في مواجهة المادية – ص ٤٤ – ٤٥.

إذاً كيف يعطى هؤلاء الماديون الملاحدة لأنفسهم الحكم على هذا الكون بهذه الصورة السطحية ؟

إن الله – سبحانه وتعالى – يقول فيهم : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ (١).

يقول " حماده أحمد العائدي " : إن الإنسان (بالرغم من التقدم العلمي الهائل والتقنية والتكنولوجيا الحديثة المعاصرة فلا يزال في العتبة في كافة العلوم قاطبة ولا يزال يجهل الكثير بالرغم من التطور الكبير في العلوم وعلى اتساع مناهجها).(٢)

ويقول "فتح الرحمن أحمد محمد الجعلي" : (والعلوم الطبيعية نفسها ليس من شأنها أن تخول أصحابها حق القول الفصل في المباحث الإلهية. والمسائل الأبدية لأنها من جهة مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل ومن جهة أخرى مقصورة على نوع واحد من الموجودات وهي بعد هذا وذاك، تتناول عوارض الموجودات ولا تتناول جوهر الموجود لأن جوهر الموجود لا يدخل في تجارب علم من تلك العلوم).(٣)

ويقول " ابو فنج وليام نوبلوتش " : (والعلوم بحكم طبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله بطرقها المادية أو أن تدرك كنه ذاته – تعالى – ولكن ملاحظة عجائب هذا الكون قد دعت كثيراً من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنه لابد أن يكون لهذا الكون باتساعه الفسيح ونظامه المعجز، مدبر لا نراه، ولا نستطيع أن ندرك كنهه) (٤).

نعم هذه حقيقة ثابتة قد جاء بها الدين وأثبتها العلم، وما زال يؤكدها الواقع، فكل حوادث الكون تجري في هذا المصب.

---

(١) سورة الروم – آية ٧.

(٢) من الذرة إلى المجرة – ص ١٦٧.

(٣) الإيمان بالله والجدل الشيوعي – ص ٤٢.

(٤) الله يتجلى في عصر العلم – ص ٥٣.

يقــول العلامه " هوشل " : (في القرن الثامن عشر كلما اتسع نطاق العلوم كثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة. وما العلماء الطبيعيون والكيماويون وعلماء الفلك إلا بناة لمعابد العلوم التي يسبح فيها للخالق العظيم).[1]

ويقول " الأستاذ بليفن " : (إن الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التي لا حصر لهــا والتــي تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة صورة لا يكاد المرء يتخــيلها حــتى يدركــه البهر وتنقطع أنفاسه. ولكن يبدو أن الأجدر بأن يبهر ويقطع الأنفــاس هو رؤية هذا الحيوان البشري الضئيل الذي يعيش على شظية من شظايا نجم صــغير في زاوية حقيرة من زوايا مجرة لا تختلف شيئاً عن الملايين من أمثالها. هذا الحــيوان يجــرؤ علــى أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء يجرؤ فيتحدى ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف سر الكون).[2]

حقاً إنه لكتاب الله المنشور الذي تتجلى فيه آياته الناطقة بوجوده – تعالى – وهنا لا يمكــن لأي إنسان عاقل أن يجحد أو ينكر ذلك إلا من كانت له غايات مادية فإنه لا يــأخذ إلا بمــا يتفق مع غاياته تلك، ولكن تظل الحقيقة ساطعة وجلية والله غالب على أمره ولو كره الكافرون.

ولــنا هــنا وقفة تأمل مع هذه الآيات الكونية والتي هي عبارة عن رسائل ربانية يــتأملها كــل مدرك عاقل فلا يسعه من خلال ذلك إلا الإقرار بوجود الخالق –سبحانه وتعالى–.

هذه الوقفة الإيمانية يعرضها لنا " عبد العزيز الشهابي " بصورة واضحة وجميلة فــيقول: (لــو كانت الأمور بالطبيعة لتساقطت أوراق الشجرة الواحدة أيام الخريف في وقت واحد، ولنضج ثمرها في وقت واحد، ولكانت ثمارها على حجم واحد لأنها تروى بمــاء واحــد، ومســمدة بسماد واحد. وكيف يكون ذلك بالطبيعة والثمار مختلفات لوناً وحجمــاً وطعمــاً ومظهــر ومخبراً... فلو أخذت (قطاعاً) من برتقالة ورأيت الجيوب

---

(١) نقلاً من الإيمان بالله والجدل الشيوعي – فتح الرحمن الجعلي – ص ٤٣.

(٢) نقلاً من المرجع السابق – ص ٤٤.

(الفصوص) المملوءة بعصير من معصرة رب العالمين لدفعك ذلك إلى أن تسجد لله في وقت هبت فيه تلك الخواطر على عقلك.

سبحانك ربي... ولو كانت الأمور بالطبيعة لما تخلف الإحراق في نار إبراهيم... ولا القطـــع في سكينته عندما أراد ذبح ولده تنفيذاً لأمر ربه... ولما وجد سيدنا عيسى مـــن غير أب... ولما وجد سيدنا آدم من غير أبوين ولما وجدت سيدتنا حواء من غير أم.

ولـــو كانـــت الأمـــور بالطبيعة لصدقت من يقول لك : إني كنت في غابة فرأيت شـــجرة قطعـــت من غير نجار، ونشرت بغير منشار، فصارت ألواحاً، وألصقت هذه الألـــواح من غير ملصق فصارت سفينة، ومشت هذه السفينة من غير ملاحين، وأدت عمـــلاً من شحن وتفريغ من غير حمالين، ثم عادت فتفككت ألواحاً واجتمعت فصارت شـــجرة... أقيمت وزرعت مكانها، وعادت إليها الخضرة والحياة... أتصدق من يقول هذا؟

إنك ستقول كيف أصدق هذه القصة وهي مشحونة بالأعاجيب... أقل ما فيها كيف تســـير ســـفينة من غير ملاح ؟... وهنا يحق لنا أن نقول : كيف يسير كون بشمسه، وقمـــره، وانسه وجنه، وحيوانه، ونباته مع اختلاف كل صنف طولاً وقصراً، وسلامة ومرضـــاً، وشـــجاعة وجبـــناً، وبياضـــاً وســـواداً، مـــن غـــير إلـــه يســـيره، ورب يرتبه ؟).[1]

وبعد كل هذا هل يمكن لعاقل أن يتصور بأن الطبيعة أو المادة الصماء والمجردة من العقل قد أوجدت نفسها أو أوجدت هذه القوانين لكي تسير عليها ؟

قطعاً الجواب : لا

لأن المـــادة المـــتحولة إلى طاقة، أو الطاقة المتحولة إلى مادة إنما يتم ذلك وفق قوانين محددة، تسير بنظام دقيق، وتوافق بديع.

---

(١) مقتطفات من للكون إله – ص ٣٠، ٣١، ٣٢.

وبملاحظـــة كل ذلك سوف نصل إلى النتيجة التي لا يمكن للعقل أن يرفضها، ألا وأن للكـــون إلهاً خالقاً وقادراً ومصرفاً ومدبراً لهذا الكون بقدرته – سبحانه وتعالى – خلق هذا الكون بمادته وطبيعته في هذا النظام الدقيق لغايات[1] عظيمة وحكم جليلة.

قـــال – تعـــالى – : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.[2]

وقـــال – تعالى – : ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠﴾ ﴾.[3]

يقول " عباس يحي " : (إن وجود إله يتحكم في ظواهر هذا الكون، أمر لا يمكن نقضه علمياً).[4]

ويقـــول "إينشـــتين"[5] : (إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التي تستشعر بالنفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني، إن الذي لا تجيش نفسه لهذا، ولا تتحرك عاطفته، وهو حي كميت، إنه خفاء لا تستطيع أن تشق حجبه، وظلام لا تســـتطيع أن تطلع فجره ومع هذا فتدرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة أحكم ما تكون، وتحس أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون وهي حكمة وهو جمال لا تستطيع أن تدركهـــا عقولـــنا القاصرة إلا في صور لها بدائية وأولية، وهذا الإدراك للحكمة، وهذا الإحساس بالجمال في روعته، وهو جوهر التعبد عند الخلائق).[6]

إن وجـــود الله – تعـــالى – خالقاً لهذا الكون حقيقة ثابتة تسيطر على كل ما هو موجـــود بأدلـــة[7] وبراهين دامغة لا يمكن إغفالها. ولكن هذا لا يعني أننا ننكر وجود

---

(١) انظر الفصل الثاني والثالث من الباب الأول في هذه الرسالة.

(٢) سورة العنكبوت – آية ٦١.

(٣) سورة إبراهيم عليه السلام – بعض الآية ١٠.

(٤) أصنام الفلسفة المادية تتحطم – ص ١٢٥.

(٥) اينشتين – ١٨٧٩ – ١٩٥٥ – أشهر عالم طبيعة ألماني، أهم مؤلفاته في فلسفة العلم " نظرية النسبية الخاصة والعامة "، " محاضرات أربعة في نظرية النسبية والكوانتا " كيف أتصور العالم ؟) (مقدمة في علم الاستغراب – الدكتور حسن حنفي – ص ٥٧٩ – ٥٨٠).

(٦) بين الدين والعلم – عبد الرزاق نوفل – ص ٥٦ – ٥٧.

(٧) انظر الفصل الأول في الباب الأول من هذه الرسالة.

المادة أو الطبيعة، ولكن إيماننا بوجودهما يعني أنهما مخلوقتان لله – تعالى – يسخرهما كيف يشاء – سبحانه –.

يقـــول " إبراهيم محمد الصبحي": (إن دعاة المادة الذين يوهموننا أنهم جاؤنا بدين جديد نتدين به واهمون في دينهم هذا، ليس معنى ذلك أننا ننكر فعل العناصر الطبيعية أو الـــتفاعلات الكيميائية أو ننقض الرأي القائل بسلطان المادة. فهذا في نظرنا يعد من بـــاب المكابـــرة بل هو مخالف لروح الدين فالطبيعة التي ندرس علومها في مدارسنا مصـــنوعة صنعاً محكماً يدل على القصد والغاية ولا شيء أدل على الصانع من وجود موجـــود بهـــذه الصـــنعة في الإحكام. ومن قال بنفي فعلها فقد أسقط جزءاً عظيماً من أجزاء الاستدلال على وجود الصانع بجحده جزءاً من موجوداته فإن من جحد شيئاً من المخلوقـــات فقد جحد فعلاً من أفعال الخالق ويقرب هذا ممن جحد صفة من صفاته لذا فنحـــن معاشر الروحانيين مع اعتقادنا اليقيني الذي لا يتزعزع بوجود قوة عاقلة مدبرة وراء المـــادة تديـــرها كما تدار الآلة نؤمن بفعل القوانين الطبيعية باعتبار أنها نواميس ظواهـــر قـــدرة الخالق. وليس في ذلك ما يضر بالطبيعة ولا باعتقاداتنا الدينية ولا ما ينقض العلم الطبيعي).[1]

ولهـــذا فإن الأجدر والأصلح لهؤلاء الماديين نبذ هذه المعتقدات المادية والإيمان بـــالله – تعـــالى – القادر على كل شيء، الخالق لهذا الكون – سبحانه وتعالى – يقول الدكـــتور " جورج دافيز " : (وإذا سلمنا بقدرة الكون على خلق نفسه، فإننا بذلك نصف الكون بالألوهية. ومعنى ذلك أن نعترف بوجود إله، ولكننا نعتبره إلهاً مادياً وروحياً في نفـــس الوقـــت – وأنا أفضل أن أومن بإله غير مادي خالق لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلى فيه أياديه، دون أن يكون هذا الكون كفواً له).[2]

وهـــذا الإله لا يمكن أن يكون إلا الله وحده لا شريك له وليس المادة، أو الطبيعة، أو العقل كما يزعم الماديون، فالمادة والطبيعة والعقل ما هي إلا مخلوقات من صنع الله – تعالى – الذي أتقن كل شيء.

---

(١) فلسفة التكوين – ص ٦٤.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم – ص ٤١.

إنها آيات تؤكد وجود خالقها – سبحانه – وأعظم هذه المخلوقات أو الآيات، العقل الـــذي خلقه الله – تعالى – للبحث واكتشاف الحقائق تحت ضوء ما جاءت به النبوات حـــتى نصـــل مـــن خلال ذلك إلى الحقيقة الكبرى وهي الله – جلَّ جلاله – وهذه من الغايات العظيمة التي خلق الله – تعالى – الإنسان من اجلها وغرس في فطرته معرفة ربه – سبحانه – ونصب الأدلة لعقله فهداه إلى الإقرار به – عز وجل – وليس الأمر كما يتصوره الماديون أو العلمانيون الذين يقدسون العقل.

يقول الدكتور " راجح عبد الحميد الكردي " : (الكون مسخر للعقل الإنساني يبحث فيه ويصل بالنظر إلى أسرار أودعها الله فيه. ولكن هذا المجال للعقل والذي تحدث عنه القرآن كثيراً، يضبطه بأن يجعل النظرة إليه وفيه نظرة هادفة، تحقق للكينونة الإنسانية المدركة الغاية من وجودها وهي معرفة الله وعبادته – سبحانه – وذلك لا يكون إلا برد هـــذا الكون وبما فيه من عظيم صنع ودقة إبداع وإحكام بناء، إلى الإيمان بأن له خالقاً خلقـــه وأبدعـــه وأحكمه. وهذا هو المجال الحقيقي الذي يفرق بين الإنسان وغيره من ســـائر الحيوانات في هذا الكون، فمجال العقل إذن التعرف من خلال النظر في الكون إلى خالق الكون والإنسان وخالق كل شيء).[1]

وهكذا فإن العقل لا يستطيع أن يتجاوز وظيفته التي خلق وهيأ لها لأنه (مهما بلغ مـــن القوة والذكاء ليس إلا حاسة من الحواس التي تربطنا بعالمنا المحدود، فكما يكون للعين مدى تنتهي عنده مقدرتها على الإبصار فلا تدرك ما وراء هذا المدى من مرئيات إلا أشـــباحاً باهتة وصوراً شائهة لا تغني من الحق شيئاً... وكذلك الشأن في كل حاسة مـــن حواســـنا لكـــل مجال تعمل فيه، وتؤدي وظيفتها كاملة في حدوده، فإذا أريد بها الخـــروج عـــن هذا المجال ضلت وأضلت. وكذلك شأن العقل وهو حاسة الإدراك له مجاله المحدود الذي يعمل فيه ويدرك حقائق الأشياء في محيطه، فإن أبى إلا أن يركب متـــن الشطط ويستوي على ظهر الغرور، أنزلق إلى ظلمات الضلال وتقطعت به إلى الحقيقة الأسباب).[2]

---

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – ص ٦٤٨ – ٦٤٩.

(٢) العلم يدعو للإيمان – كريس موريسون – ص ٢٥ – ٢٦.

ثـــم يتابع الأستاذ " كريس موريسون " حديثه فيقول : (ولسنا نريد بهذا أن نمسك العقل عن التفكير والبحث في التعرف إلى الله فهو الطريق الطبيعي إليه، وإنما نريد أن يـــنهج العقـــل نهجاً قاصداً في البحث عن الله فلا يندفع وراء الخيالات والفروض، ولا يشتط في التطلع إلى ما فوق طاقته، وليعترف بقصوره عن إدراك الحقيقة وعجزه عن تناولها، وليرجع إلى القلب يطلب عنده الاطمئنان والسكينة).[1]

هـــذا هو دور العقل. وكما أن للعقل دوراً أو غاية خلق من أجلها فكذلك المادة أو الطبـــيعة، فكلها مخلوقات لله – تعالى – خلقها لغاية[2] منه – عز وجل – وكل مخلوق ميسر لما خلق له، والشواهد على ذلك من الطبيعة نفسها وتشير إليها الآيات القرآنية.

يقـــول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿٤٦﴾ ﴾[3]

ويقول–عز وجل–:﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[4].

ويقـــول – ســـبحانه وتعالى – : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[5].

ويقول – عز وجل – : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[6].

***

(١) المرجع السابق – ص ٢٦.

(٢) انظر الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الرسالة.

(٣) سورة الحج – بعض الآية ٤٦.

(٤) سورة العنكبوت – آية ٣٥.

(٥) سورة الروم – بعض الآية ٢٨.

(٦) سورة النحل – بعض الآية – ٦٧.

الفصل الثاني

إثبات علم الله ـ تعالى ـ وحكمته

لقد وصف الله – تعالى – نفسه بصفات تليق بجلاله وعظمته، ووصفه بها رسوله الكريم –صلى الله عليه وسلم– ثم أخذ بذلك السلف الصالح –رضوان الله عليهم– فوصفوا الله –تعالى– بما وصف به نفسه وبما وصفه به الرسول – صلى الله عليه وسلم – دون تكييف أو تحريف أو تعطيل أو تمثيل أو تشبيه، ونفوا عنه – سبحانه وتعالى – ما نفاه عن نفسه في كتابه – العزيز – أو على لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم – مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده لله – تعالى–.

(أما ما لم يرد نفيه ولا إثباته مما تنازع الناس فيه كالجسم والحيز والجهة ونحو ذلك فطريقتهم فيه التوقف في لفظه فلا يثبتونه ولا ينفونه لعدم ورود ذلك) (١).

والجدير بالتذكير هنا أن صفات الله – تعالى – صفات حقيقية تليق بعظمته وجلاله وليست مجازاً كما يتصور ذلك البعض. ويجب الإيمان بها كما جاءت في الكتاب والسنة وعدم الخوض فيما زاد على ما ورد به الكتاب والسنة.

ومن تلك الصفات العظيمة التي وصف الله – تعالى – بها نفسه العلم، والحكمة.

قال – تعالى – : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.(٢)

وقال – تعالى – : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾.(٣)

وبيان ذلك في المباحث التالية :

---

(١) رسائل في العقيدة – محمد صالح العثيمين – ص ٥٣.

(٢) سورة النساء – بعض الآية ٢٦.

(٣) سورة البقرة – بعض الآية ٣٢ .

المبحث الأول

علم الله - تعالى -

(أ) المعنى في اللغة :

العلـــم : (نقيض الجهل والعَلَمُ : العلامة والجبل)[1] وقيل بأن العلم هو : (إدراك الشيء بحقيقته).[2]

(ب) المعنى في الشرع :

إن ممـــا هـــو مؤكـــد ولا مجال للشك فيه إن لله – عز وجل – علماً حقيقياً يليق بكماله، وجلاله، وعظمته، وقد نص القرآن على ذلك في آيات كثيرة منها :

قولـــه – تعـــالى – : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [3]

وقوله – تعالى – : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [4]

وقوله – تعالى – : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [5]

وقولـــه – تعالى – : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [6]

وقوله – تعالى – : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [7]

---

(١) مقاييس اللغة – ابن فارس – ج١ – ص ٦٨٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – ص ٥٨٠.

(٣) سورة الحج – آية ٧٠.

(٤) سورة يوسف – عليه السلام – بعض الآية ٧٦.

(٥) سورة الرعد – آية ٩.

(٦) سورة التوبة – آية ٧٨.

(٧) سورة يس – بعض الآية – ٧٩.

يقول " الحافظ أبوبكر البيهقي " – رحمه الله – (العليم : هو العالم على المبالغة – فالعالم له صفة قائمة بذاته) [1].

إن علـــم الله – تعالى – له صفة خاصة به – عز وجل – فهو العالم بما كان وما يكـــون قبل وبعد كونه وما هو كائن كيف يكون ولم يزل ولا يزال عالماً بما كان وما يكون.

نعـــم إنـــه علم الله – جلَّ جلاله – الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فهو – سبحانه وتعالى – (يعلم باطن الأمور وظاهرها ودقيقها وجليلها على أتم الإمكان وبغير استدلال ولا سبب – عز وجل وعلا علواً كبيراً –)[2].

إن علـــم الله – تعالى – واسعٌ وشاملٌ ومحيط بجميع خلقه فهو – سبحانه – يعلم تفاصـــيل الأمـــور وخفايـــا الضمائر والنفوس، ويستوي عنده العلم بالأشياء قبل وبعد وجودها لأنه لا فرق بين أن تكون في علم الله – تعالى – قبل وجودها، وأن تكون في الواقـــع بعـــد وجودها لأنها إنما توجد في واقع الحياة على مقتضى علم الله – تعالى – وتقديره.

قال – تعالى – ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾.[3]

أي أن الله – عز وجل – (قد أحاط علمه بالمعلومات كلها)[4]

يقول " الزجاج " : (إن عليم في اسم الله – تعالى – يفيد العلم بالغيوب)[5]

قال – تعالى – : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [6]

إن في هذه الآية وما سبقها من آيات تأكيداً على عظمة علم الله – تعالى –.

---

(١) الاعتقاد – ص ٢٢.

(٢) انظر كتاب التوحيد – ابن منده – ص ١٥٢.

(٣) سورة الطلاق – بعض الآية ١٢.

(٤) كتاب الأسماء والصفات – البيقي – ج ١ – ص ١٩٦.

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى – ص ٤٠.

(٦) سورة المائدة – بعض الآية ١٠٩.

جاء في " شرح العقيدة الواسطية " (إنه لا يعلم الغيب إلا الله وأن علمه محيط بكل شيء).[1]

الحقيقة أننا مهما وصفنا علم الله – تعالى – نظل عاجزين عن إعطاء الله – تعالى – حقه في هذه الصفة أو في غيرها من الصفات الأخرى، لأن علم الله – تعالى – فوق كل ذي علم ولا يستطيع البشر وصفه ولا إدراك حقيقته لأنه فوق مدارك العقول وليس له حدود.

قال – تعالى – : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [2]

وقال –سبحانه وتعالى–: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴿٧﴾ ﴾ [3]

إن من كمال صفاته – تعالى – أنه وسع كل شيء بعلمه فهو – تعالى – يعلم ذاته وأسماءه وصفاته وكل أمور خلقه (لا يحيط به أحد ولا يبلغه زمان ولا مكان، ولا يحده وصف وعلمه – سبحانه وتعالى – ممتنع الزوال) [4].

قال – تعالى – : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [5] وقال – تعالى– أيضاً: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾.[6]

يقول الشيخ "ابن قدامه المقدسي" – رحمه الله– : (لا يخلو عن علمه مكان، ولا يشغله شأن عن شأن، جلَّ عن الأشباه والأنداد).[7]

---

(١) ابن تيميه – ص ٣٤.

(٢) سورة طه – آية ٩٨.

(٣) سورة غافر – بعض الآية ٧.

(٤) أسرار المعاني في أسماء الله الحسنى – الدكتور محمود السيد حسن – ص ٩٣.

(٥) سورة البقرة – آية ٢٥٥.

(٦) سورة مريم – آية ٦٤.

(٧) لمعة الاعتقاد – ص ٢.

ويقـــول " الســـعدي " – رحمه الله – : (هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإســـرار والإعـــلان وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي وبالماضي والحاضر والمستقبل فلا يخفى عليه شيء من الأشياء) [1].

ولتأكـــيد هذه الصفة لله – تعالى – وحده دون سواه جاءت مقرونة بعدة صفات[2] منها صفة الحكمة.

قال – تعالى – : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [3]

وقال – تعالى – : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [4]

وقـــال – تعـــالى – : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [5]

وبيان ذلك في المبحث التالي :

***

(١) تيسير الكريم الرحمن – ج ٥ – ص ٢٩٩.

(٢) الصفات هي : العزيز، والسميع، والواسع، والقدير، والحفيظ، والخلاق، والخبير، والفتاح، وشاكر.

(٣) سورة يوسف – عليه السلام – بعض الآية ١٠٠.

(٤) سورة الأنعام بعض الآية ٨٣.

(٥) سورة البقرة – آية ٣٢.

المبحث الثاني

حكمة الله ـ تعالى ـ

(أ) المعنى في اللغة :

إن الحكمـــة تســـتعمل لعدة معانٍ فهي بمعنى (العدل، والحكم، والنبوة، والقرآن، وأحكمه أتقنه فاستحكم : منعه عن الفساد) [١].

وتأتي الحكمة بمعنى (معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ولهذا يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم)،[٢] وتأتي الحكمة أيضاً بمعنى : (إصابة الحق بالعلم والعقل) [٣].

(ب) المعنى في الشرع :

ذكـــر " القرطبي " معنى الحكيم فقال : هو (المانع من الفساد، ومنه سميت حكمة اللجـــام لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد... ويقال : احكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد. فهو محكم وحكيم) [٤].

وقـــال " ابـــن الأثير " إن الحكيم (هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، وقال أيضاً بأن الحكيم هو : ذو الحكمة) [٥].

أما " ابن عاشور " فإنه لا يخرج عن هذا المعنى حيث يقول : (الحكيم : من أحكم إذا أتقـــن الصنع بأن حاطه من الخلل. والحكمة ضبط العلم وكماله، فالحكيم إما بمعنى المتقن للأمور كلها أو بمعنى ذي الحكمة).[٦]

---

(١) القاموس المحيط – الفيروز آبادي – ج ٣ – ص ١٠٠.

(٢) لسان العرب – ابن منظور – ج ١ – ص ٦٨٨.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم – الراغب الأصفاني – ٢٤٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن – ج ١ – ص ٢٨٨.

(٥) النهاية – ج ١ – ص ٤١٨ – ٤١٩.

(٦) تفسير التحرير – ج ١ – ص ٤١٥ وأنظر تفسير أسماء الله الحسنى. الزجاج – ص ٥٢.

مـــن خـــلال ما تقدم يتضح أن الحكمة بمعنى المنع ولهذا فقد استعملت في معانٍ مـــتعددة تتضمن معنى المنع منها التعريف القائل : بأن المراد بالحكمة المعرفة، وذلك لأن المعرفة تمنع من الوقوع في الجهل.

وكذلك التعريف القائل : بأن الحكمة هي الإتقان وذلك لأنه مانع من وقوع الفساد والخلل في الشيء المتقن.

وكل ذلك يعني بأن الله – تعالى – خلق فأتقن خلقه مما يمنع وقوع الخلل والفساد فـــيه، وعلـــم – ســـبحانه وتعالى – ما يصلح شئون خلقه فقضى وأمر وشرع لمصالح وغايات محمودة.

يقـــول "البيهقي" – رحمه الله – : (الحكيم المحكم لخلق الأشياء، وقد يكون بمعنى المصيب في أفعاله)[1] (ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف).[2]

ويقـــول "الســـعدي" : (الحكـــيم وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه. وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه.

قال – تعالى – : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾.[3]

فـــلا يخلق شيئاً عبثاً ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة... فـــيحكم بيـــن عباده في شرعه وفي قدره، وجزائه. والحكمة وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها).[4]

ويقـــول "الزجاج" : (حكيم عليم لأنه الفاعل للأشياء المتقنة المحكمة لا يجوز أن يكون جاهلاً بها).[5]

جاء في تفسير " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " (الحكيم : المحكم لمبدعاته الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة).[6]

---

(١) الاعتقاد – ص ٢٤.

(٢) البيهقي – كتاب الأسماء والصفات – ج ١ – ص ١٩٦.

(٣) سورة المائدة – بعض الآية ٥٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن – ج ٥ – ص ٢٩٩.

(٥) اشتقاق أسماء الله – ص ٦٠.

(٦) البيضاوي – ج ١ – ص ٤٤.

وذكر "السيوطي" في تفسير قوله-تعالى-: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] أي (الـذي لا يخـرج شيء عن علمه وحكمته)[2] ولهذا يقول "الطبري" -رحمه الله-: (الحكيم : الذي قد كمل في حكمه).[3]

ويقسم " ابن القيم " – رحمه الله – الحكمة إلى : علمية وعملية.

(فالعلمية : الإطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة إرتباط الأسباب بمسبباتها.

والعملية : وضع الشيء في موضعه).[4]

حقـاً إن لله – عز وجل – الحكمة البالغة في كل شيء فهو – سبحانه وتعالى – يضـع الأمور في منازلها وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين، لم يخلق الخلق عبثاً – تعالى الله عن ذلك وتقدس – وإنما خلقهم، وأمرهم، وشرع لهم لحكمة منه -عز وجل- حكمـه في الخلق نافذ، ليس لأحد أن يرده أو يبطله، ويقضي في عباده بما شاء وكيف يشـاء – سبحانه وتعالى-.

يقول " ابن القيم " – رحمه الله – : (الله سبحانه حكيم، لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحةٍ وحكمةٍ هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله – سبحانه – صادرة عن حكمـة بالغـة لأجلهـا فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل. وقد دل كلامه وكلام رسوله – صلى الله عليه وسلم – على هذا في مواضع لا تكاد تحصى).[5]

ويقول أيضاً في موضع آخر : (إن كمال الرب – تعالى – وجلاله وحكمته وعدله ورحمـته وقدرتـه وإحسـانه وحمده ومجده وحقائق أسمائه الحسنى تمنع كون أفعاله صـادرة مـنه لا لحكمـة ولا لغاية مطلوبة. وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك وتشهد ببطلانه).[6]

---

(١) سورة البقرة – بعض الآية ٣٢.

(٢) تفسير الجلالين بهامش أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ج ١ – ص ٤٤.

(٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – ج ١ – ص ٢٢١.

(٤) مدارج السالكين – ج ٢ – ص ٤٧٨ – ٤٧٩.

(٥) شفاء العليل – ص ٣١٩.

(٦) المرجع السابق – ص ٣٤٣.

يرى السلف الصالح – رضوان الله عليهم – أن معنى صفة الحكمة لله – سبحانه – أن أفعاله – تعالى – لا تخلو من الحكمة والغايات المحمودة فهو – سبحانه وتعالى – يفعل لحكمة مقصودة يحبها – عز وجل – ويرضاها، ويؤكد لنا ذلك الشيخ " ابن تيميه" – رحمه الله – عندما يقول : (وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم : بل هو حكيم في خلقه وأمره، والحكمة ليست مطلق المشيئة، إذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيماً).(١)

ويقول أيضاً : (والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله، فإذا أمر بأمر كان حسناً، وإذا أخبر بخبر كان صادقاً، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله).(٢)

إن حكمة الله – تعالى – تتجلى في أفعاله وأوامره ومخلوقاته إذ لو تأملنا في هذا الكون الواسع البديع المحكم لوجدنا أن ظاهره الحكمة في مخلوقاته – عز وجل – لمن أهم الدلائل على عظيم قدرة الله – تعالى – وسعة علمه.

قال – تعالى– : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾.(٣)

يقول الدكتور "محمود حسن" : (الحكيم هو الذي أنصف في تقديره وأحسن في تدبيره لشئون خلقه، وعدل في مشيئته، وسبق في علمه ما هو كائن إلى يوم القيامة.. لا يبدل في أمره، ولا تتحول مشيئته.. يستقيم نظام الكون وفق حكمته وإرادته جل وعلا).(٤)

وكما أن علم الله وحكمته تتجلى في خلقه كذلك تتجلى في أحكامه وتشريعاته، إذ لو نظر كل عاقل في شريعة الله –تعالى– لوجد أن الحكمة منها لا تخرج عن تحصيل المصالح ودرء المفاسد، والمصالح التي يقصدها التشريع الإلهي ليست حسب ما تمليه

---

(١) منهاج السنة – ج ١ – ص ٩٤.

(٢) التفسير الكبير – ج ٣ – ص ١٥١.

(٣) سورة يونس – عليه السلام – آية ١٠١.

(٤) أسرار المعاني في أسماء الله الحسنى – ص ١٥٣.

العقــول ومــا تشــتهيه الأنفــس وإنما تكون في كل ما يحقق للناس الخير في دنياهم وآخرتهم.

قــال – تعــالى – : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴿٧١﴾ ﴾.(١)

يقــول الإمام " الشاطبي " : (إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً).(٢)

ويقــول " ابــن عاشور " : (لا يمتري أحد في أن كل شريعة شرعت للناس أن أحكامها ترمي إلى مقاصد مرادة لمشرعها الحكيم – تعالى – إذ قد ثبت بالأدلة القطعية أن الله لا يفعل الأشياء عبثاً. دل على ذلك صنعه في الخليقة).(٣)

ثم قال : (شريعة الإسلام جاءت لما فيه صلاح البشر في العاجل والآجل أي في حاضر الأمور وعواقبها).(٤)

ويقــول الشيخ "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله – : (فغايتها أن تؤسس نظام الحــياة الإنسانية على المعروفات وتطهره من المنكرات. والمراد بالمعروف ما تعرفه وظلت تعرفه الفطرة الإنسانية وترى فيه لنفسها الرشد والسعادة من المكارم والفضائل والحسنات.

والمــراد بالمــنكر مــا تمقته وظلت تمقته الفطرة الإنسانية وتزدريه من الرذائل والخبائــث والســيئات... وبعــبارة سهلة إن المعروف هو ما يناسب الفطرة الإنسانية وتــزدريه من الرذائل والخبائث والسيئات... وبعبارة سهلة إن المعروف هو ما يناسب الفطرة الإنسانية والمنكر هو ما يخالفها).(٥)

---

(١) سورة المؤمنون – بعض الآية ٧١.

(٢) الموافقات – ص ١٠٩.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية – ص ١٣.

(٤) المرجع السابق.

(٥) نظرية الإسلام وهديه – ص ١٥٤.

ولهذا نقول : إن الله – تعالى – حكيم في خلقه، خلق فأتقن خلقه، وأمرهم وشرع لهم ما علم أن فيه مصالحهم ومنافعهم، لا يتوجه إليه سؤال – سبحانه وتعالى – ولا يقدح في حكمه مقال.

قال – عز وجل – : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.(١)

إن الإيمان بما سبق يلزم كل مؤمن بالله الخالق، الحكيم، العليم بما خلق وأمر، تحكيم شرعه – عز وجل – فهو –سبحانه– أهل وأحق بذلك، ولا يضاهي شرعَهُ شرعُ أحد مهما بلغ في الإتقان والدقة فهو –سبحانه وتعالى– عالم وحكيم في كل ما شرع لعباده لا يدخل في حكمه خلل ولا زلل، وقضاؤه قضاء من لا تخفى عليه مواطن المصلحة في البدء والعاقبة.

قال – عز وجل – : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.(٢)

وقال –عز وجل–: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.(٣)

إن هذه الآيات فيها حث على الأخذ بشريعة الله –عز وجل– وتطبيقها كما أمر بذلك الله –تعالى– ورسوله –عليه الصلاة والسلام– ونبذ كل ما عداها من المناهج الوضعية بكافة صورها وأشكالها القائمة على الأهواء والنزعات النفسية.

قال –تعالى–: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٤)

إن الحكم بما أنزل الله – تعالى – يقتضي الأخذ بكل ما جاء به دين الله – عز وجل – عقيدة وشريعة – لكي تتحقق الغايات والمصالح – لأن من خصائص هذا الدين الشمول والتكامل.

---

(١) سورة القصص – آية ٧٠.

(٢) سورة المائدة – بعض الآية ٥٠.

(٣) سورة الممتحنة – بعض الآية ١٠.

(٤) سورة المائدة – بعض الآية ٤٩.

يقول الشيخ " أبو الأعلى المودودي : (إن الشارع إنما شرع لكم هذا الدين ورسم لكم صورته لتقيموها كاملة متعانقة ولم يرسمها لتأخذوا أي جزء أعجبكم من أجزائها وتقيموه حيث أردتم سواء أكانت معه بقية أجزائها أو لم تكن. إن كل جزء من هذه الصورة للحياة مرتبط بسائر أجزائها ولا يستطيع أن يعمل عملاً أو يأتي بشيء من النفع إلا معها ولا يصلح لكم أن تروا في محاسنه ومنافعه رأياً إلا إذا وجدتموه يعمل في تناسب النظام الإسلامي الشامل).[1]

وهكذا فإن هذا الدين مرتبط بعضه ببعض، فالعقيدة أساس وأصل للشريعة، والشريعة مبنية عليها منبثقة منها، مصدقة لها. دالة عليها، وجميعها كل لا يتجزأ، فأخذ العقيدة وترك الشريعة يفوت المصالح والمنافع والغايات المقصودة من وراء هذا التشريع، ثم إن ذلك دليل على ضلال الفعل وفساد المنهج، وكذب المقصد، فإن الصادق في إيمانه لا يفرق بين العقيدة والشريعة ولا يفرق بين حكم وحكم آخر شرعي.

وهكذا فإن المنهج الإسلامي لا يقبل التجزئة لأن كل جزء منه مرتبط بالآخر (فما هناك شعبة من شعب الحياة ولا ناحية من نواحيها إلا وقد تناولتها الشريعة وأوضحت فيها الخير من الشر والطاهر من الخبيث والصحيح من الفاسد. فكأنها بذلك تعطينا صورة كاملة لنظام صالح للحياة، وتبين لنا بكل تفصيل ما هي الحسنات التي يجب أن نقيمها ونرقيها وننميها، وما هي السيئات التي يجب أن نعمل على محوها واستئصال شأفتها، وما هي الحدود التي يجب أن لا تتجاوزها حريتنا، وما هي الطرق والوسائل التي يجب أن نسلكها ونتوسل بها لتنمية الحسنات المنشودة ومحق السيئات البغيضة).[2]

يقول الشيخ " أبو الأعلى المودودي " : (فهكذا الإسلام، إنما هو عبارة عن الصورة المتكاملة المتشابكة التي تقررها الشريعة للحياة الإنسانية، وما هو بعبارة عن أجزائها وفروعها المختلفة، فلا يصح أن تقطعوا أجزاءها وتجعلوا كل جزء منه مستقلاً عن غيره ثم تحكموا عليه بشيء وتروا فيه رأياً، كما أنه ليس لكم أن تقولوا إذا أقمتم

---

(١) نظرية الإسلام وهديه – ص ١٦٠.

(٢) نظرية الإسلام وهديه – أبو الأعلى المودودي – ص ١٥٨ – ١٥٩.

بعض أجزائه إنكم قد أقمتم نصف الإسلام أو ربعه أو سدسه، ولا أن تحسبوا إذا ربطتم جـزءاً أو بعض أجزاء منه في نظام آخر للحياة، أنكم قد أدخلتم فيه الإسلام بقدر هذا الجزء أو الأجزاء).[1]

ولهـذا نؤكد القول بأن الإسلام كل لا يتجزأ وأن المصالح والمنافع والغايات التي هي الحكمة من وراء هذا المنهج الإسلامي لا تتحقق إلا بالتطبيق المنهجي الكامل له.

أما تقسيم الإسلام ثم الإبقاء على جزئية منه وإبعاد الجزء الآخر عن نظام الحياة أو بمعـنى آخـر تحويل هذا الدين إلى مجرد شعائر وعبادات تؤدى في المساجد فقط، وتستبدل شريعة الله – تعالى – بقوانين وضعية.[2]

إن كل ذلك مما لا شك فيه يعد جريمة كبرى في حق هذا الدين، ولقد وصف الله – عز وجل – هذا الفعل بالكفر والظلم والفسوق.

قال –تعالى– : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.[3]

وقـال – تعالى – : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.[4]

وقـال – تعـالى – : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.[5]

يقـول " القرطبي " – رحمه الله – : (أي ومن لم يحكم بما أنزل الله ردّاً للقرآن، وجحداً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر).[6]

ويقـول " محمد الشنقيطي " – رحمه الله – في تفسيره " أضواء البيان " : (فمن كان امتناعه من الحكم بما أنزل الله، لقصد معارضته ورده، والامتناع من التزامه، فهو

---

(١) المرجع السابق – ١٥٩ – ١٦٠.

(٢) المراد بالقوانين الوضعية كل ما جاءت به المذاهب المادية وغيرها من مناهج أو قوانين مخالفة للمنهج الإسلامي.

(٣) سورة المائدة – بعض الآية ٤٤.

(٤) سورة المائدة – بعض الآية ٤٥.

(٥) سورة المائدة – بعض الآية ٤٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن – ج ٦ – ص ١٩٠.

كافـر ظالم فاسق كلها بمعناها المخرج من الملة، ومن كان امتناعه من الحكم لهوى، وهـو يعتقد قبح فعله، فكفره وظلمه وفسقه غير المخرج من الملة، إلا إذا كان ما امتنع من الحكم به شرطاً في صحة إيمانه، كالامتناع من اعتقاد ما لابد من اعتقاده).[1]

وهكذا فإن رفض حكم الله – تعالى – والامتناع عن تحكيم شريعته – عز وجل – وتطبيق القوانين الوضعية بدلاً منها يعد كفراً بالله – سبحانه وتعالى – وظلماً من حيث إعطـاء الإنسـان مـا هو حق لله – تعالى – في التشريع، وفسوقاً لأن الإنسان هنا قد عصـى خالقـه ومليكه وخرج عن طاعته برفضه حكمه – تعالى – يقول المستشار " علي جريشه " : (وإذا كان رد الأمر إلى الله من مقتضيات الإيمان وموجبات العقيدة، كان النكوص عن ذلك كفراً وشركاً، وظلماً وفسقاً كما عبر القرآن).[2]

ويقول الشيخ " أبو الأعلى المودودي " : (وتمرد العبد وعصيانه وبغيه على الله له مراتب ثلاث :

أولاها : أن يعترف العبد بحق الله في الحكم بينما يمارس في الواقع أحكاماً تخالفه وهذا فسق.

وثانيـتها : أنـه ألقى بحكم الله أصلاً ثم صار مطلق العنان في شئونه، أو راح يطيع ويعبد أحداً سواه وهذا كفر.

وثالثـتها : أنه بغى على الله وطفق ينفذ قانونه وحكمه الشخصي في ملك الله ورعيته وهذه المرتبة الأخيرة).[3]

وهكـذا فإن الأمر واضح والقضية محسومة إذ لا تحكيم إلا لشرع الله – تعالى – كـتاب الله – تعـالى – وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – أما من أبى ذلك وأخذ بالقوانين الوضعية ورضى بها وفضلها على حكم الله فقد كفر.

---

(١) ح ٢ – ص ١٠٩.

(٢) المشروعية الإسلامية العليا – ص ٣٧.

(٣) الحكومة الإسلامية – ص ٧٣.

يقول الشيخ " ابن تيميه " – رحمه الله – : (والإنسان متى حلل الحرام – المجمع عليه – أو حرم الحلال – المجمع عليه – أو بدل الشرع – المجمع عليه – كان كافراً مرتداً باتفاق الفقهاء).[1]

ويقول " ابن القيم – رحمه الله – : (والصحيح : أن الحكم بغير ما انزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن أعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً، مع إعترافه بأنه مستحق للعقوبة. فهذا كفر أصغر. وإن أعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه : فهذا مخطئ له حكم المخطئين).[2]

ولهذا نؤكد القول بأن لا حكم إلا بشرع الله – عز وجل – فهو – تعالى – الخالق لهذا الكون والمدبر له والمتصرف فيه وحده – سبحانه وتعالى– وهو العالم بما يصلح شؤون خلقه ولهذا فإن تطبيق شرعه – تعالى – هو الأصلح لعباده وهو المنجي لهم من النار، أما الأخذ بالقوانين الوضعية وتقديمها على حكم الله والاعتقاد بأنها هي الأنفع والأصلح فإن ذلك كفر موجب للنار.

يقول " ابن كثير " – رحمه الله – في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ [3] : (ينكر – تعالى – على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم " جنكيز خان " الذي وضع لهم "الياسق" وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه

---

(١) مجموع الفتاوى – ج ٣ – ص ٢٦٧.

(٢) مدارج السالكين – ج ١ – ص ٣٣٧.

(٣) سورة المائدة – الآية ٥٠.

علـــى الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمن فعل ذلك منهم فهـــو كافـــر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير).[1]

ويقول أيضاً في "البداية والنهاية" : (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على "محمد بـــن عـــبد الله" خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين).[2]

ويقول "أحمد شاكر" – رحمه الله – : (إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضـــوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة. ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإســـلام – كائـــناً من كان – في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها. فليحذر أمرؤ لنفسه. و"كل امرئ حسب نفسه").[3]

إن مما يجب التأكيد عليه هنا – وقد أشرت إلى هذا سابقاً لأهميته – ان التيارات الفكـــرية المعاصـــرة (المذاهب المادية) تجمعها قواسم مشتركة من أهمها إقصاء الحكم الشرعي – المستمد من الكتاب والسنة – وإحلال القوانين الوضعية محله.

ولقـــد كانـــت تلك التيارات المادية تدعو إلى ذلك بعبارات طنانة وإن اختلفت في شكلها الخارجي إلا أن معناها واحد وهو مقصدهم وغايتهم.

ولقد ذكر ذلك الشيخ "عبد العزيز بن باز" – رحمه الله – أثناء حديثه عن القومية فقـــال : (من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية أن يقال : إن الدعوة إلـــيها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولابد إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاماً وضـــعية تخالف حكم القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام. وقد صرح الكثير منهم بذلك).[4]

---

(١) تفسير القرآن العظيم – ج ٢ – ص ٦٧.

(٢) ج ١٣ – ص ١١٩.

(٣) عمدة التفسير – ج ٤ – ١٧٤.

(٤) نقلاً عن فكرة القومية في ضوء الإسلام – صالح عبد الله العبود – ص ٢٦٨.

إن الـذي يهمـنا هنا ما أصدره الشيخ " عبد العزيز بن باز " – رحمه الله – من حكم في هؤلاء وغيرهم ممن يستبدلون حكم الله – تعالى – بغيره من القوانين الوضعية فقال : (وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة).[1]

وخير ما أختتم به هذا المبحث قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.[2]

يقول " ابن كثير " في تفسير هذه الآية : (وهذا أمر من الله – عز وجل – بأن كل شـيء تـنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه يجب أن يرد التنازع في ذلك إلى الكـتاب والسنة كما قال – تعالى – ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾.[3]

فمـا حكـم بـه الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضـلال ولهـذا قـال – تعـالى – : [إن كنتم تؤمنون بالله واليوم والأخر] أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم [إن كنـتم تؤمـنون بـالله واليوم الأخر] فدل على أن من لم يتحاكموا في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الأخر).[4]

ممـا سـبق يتضـح أن الإيمان بالله واليوم الأخر لا يمكن أن يجتمعـا مع ترك التحاكم إلى ما أنزل الله – عز وجل – مهمـا كانت الصـورة والشكل في ذلك ولهذا

---

(١) المرجع السابق – ص ٢٦٨.

(٢) سورة النساء – الآية ٥٩.

(٣) سورة الشورى – بعض الآية ١٠.

(٤) تفسير ابن كثير – ج ١ – ص ٥١٨.

يقول الله –سبحانه وتعالى– ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.[1]

جاء في "التفسير العظيم" "لابن كثير" قوله (يقسم – تعالى – بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول – صلى الله عليه وسلم – في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال : [ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً] أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة).[2]

وهكذا فقد ربط الله – عز وجل – إيمان العبد بتحكيم شريعته – سبحانه وتعالى– لأن الإيمان بالله –تعالى– ليس اعتقاداً بالقلب فحسب أو تصديقاً باللسان وإنما هو اعتقادٌ بالقلب وتصديقٌ باللسان وعملٌ بالجوارح. ولهذا فإن تحكيم شريعة الله –تعالى– هي الترجمة الفعلية لإيمان العبد بالله –عز وجل– وهذا هو المأمور به العبد شرعاً، والمطالب به أمام الله –تعالى–.

***

(١) سورة النساء – الآية ٦٥.

(٢) ج ١، ص ٥٢٠.

الفصل الثالث

الرد عليهم في قضية الأخلاق والقيم الإسلامية

لقد علمنا سابقاً أن الماديين ينكرون وجود الخالق – سبحانه وتعالى – ويرجعون كل شيء إلى المادة، ولهذا فهم لا يعترفون بأن الإنسان مخلوق لله – تعالى – وأن الله – عـز وجـل – فطره على هذا الدين بل هم يقولون بأن هذا الدين هو اختراع البشر وأنـه يمنكهم تغييره، وكذلك الأخلاق في نظرهم تتطور وتتغير تبعاً لتغير المجتمعات والوسط الذي تكون فيه.

يقول "محمد الجبر" معبراً عن رأي هؤلاء: (في الحقيقة لا يمكن أن نقيم القوانين الأخلاقـية على مبادئ أو أصول ميتافيزيقية أو دينية لأن القوانين الأخلاقية، إنما هي ابنة الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية).[1]

إن القول بتطور الأخلاق دعوى ساقطة لا أساس لها من الصحة، والغرض منها إفساد الحياة الإنسانية، والعبث فيها بكل ما هو باطل، والقضاء على الأخلاق الإسلامية باسم التطور وعدم الثبات.

ولكشـف خطـورة هذه الدعوى على الأخلاق والقيم الإنسانية. يقول الشيخ "سيد قطب" – رحمه الله –: (والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليسـت كذلك قيماً "متطورة" متغيرة متبدلة، لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل، كمـا يـزعم التفسـير المادي... إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان خصائص الإنسـان التي يتفرد بها دون الحيوان، والتي تغلِّب فيه الجانب الذي يميزه ويعزله عن الحـيوان، وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه وتغلِّب الجوانب، التي يشترك فيها مـع الحيوان. وحين توضع المسألة هذا الموضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم "وثابت" لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها "التطوريون").[2]

ولتأكـيد ثبات القيم والأخلاق الإنسانية التي أقرها الإسلام ودعا إليها وحث على التمسـك بها يقول الشيخ "محمد قطب": (هناك أربعة أنواع مختلفة من التطور: التطور المـادي – التطور الاجتماعي – التطور النفسي – التطور (أو التغير) الأخلاقي. وأن

---

(١) الرؤية المنهجية لدراسة الأخلاق – ص٨٥.

(٢) معالم في الطريق – ص١٢١ – ١٢٢.

مـــردها جمـــيعاً فـــي نهاية المطاف إلى الفطرة. كما أن الفطرة شيء ثابت رغم تعدد الأشكال وتطورها على الدوام.

وهناك شبهة ينبغي أن نزيلها بقوة.

إن قولـــنا المكـــرر الملح بأن الفطرة ثابتة لا يعني قط أننا نلغي من حسابنا قيمة التطور.

إننا إن الغينا قيمة التطور فإننا نلغي حقيقة الإنسان فالإنسان مخلوق ليتطور على الـــدوام. والـــتطور أبـــرز ما في فطرته وأشد ما يميزها عن فطرة الحيوان. وعن كل فطرة ثابتة الكيان.

كل ما في الأمر أننا نرد التطور الدائم إلى الفطرة الثابتة الجوهر. ونرى في ذات اللحظة – الجوهر الثابت والصورة المتغيرة حقيقتين متجاورتين أو حقيقة واحدة شاملة تفســـر كل نشاط الإنسان ثم تحكم على الإنسان – في تطوره – بالمقياس الثابت الذي تقدمه الفطرة).[1]

الحقيقة إن القول بتطور الأخلاق وتغيرها ذريعة يتخفى من ورائها الماديون لنشر التفسخ والإنحلال الخلقي في المجتمعات التي تؤمن بنظرياتهم. وإلا فإن هذا القول وما يتـــبعه مـــن نـــتائج يتعارض مع المفهوم الديني ونخص بالذكر هنا الإسلام الذي اهتم بـــالأخلاق اهتماماً كبيراً وجعلها جزءاً لا يتجزأ منه ولذلك فقد شغلت الأخلاق مساحة كبـــيرة فـــي القرآن – الكريم – وفي سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وجميعها تؤكد بأن طبيعة الإنسان ثابتة لا تتغير، وأن الأخلاق التي يجب أن يتمثلها الإنسان في ســـلوكياته ثابـــتة في النفس البشرية لا تتغير، ولقد فطر الله – تعالى – الإنسان عليها، وجاء الإسلام موافقاً لها ويدعو إليها.

قال –تعالى–:﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٣٠﴾ ﴾[2]

---

(١) التطور والثبات في حياة البشرية – ص١٤٥.

(٢) سورة الروم – آية ٣٠.

(يقـــرر القرآن – الكريم – في أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم، والتقوى والفجور).[1]

قال –تعالى–: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾.[2]

وقـــال – تعالى– : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ ﴾.[3]

حرص الإسلام على خلق النفس السوية ومنحها كل ما فيه صلاحها وفلاحها، كما حرص على إبعادها عن كل ما فيه مفسدة لها ولهذا فقد بين لها طريق الخير، وطريق الشر وما يترتب على فعل ذلك.

يقول الدكتور "محمد عبد الله الشرقاوي": (إن الإسلام يحترم الفطرة الخالصة، .. ويحـــذر الأهواء الجامحة، ويقيم السدود في وجهها، والعبادات التي أمر بها هي تدعيم للفطرة، وترويض لها، ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدي رسالتها إلا إذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالي، والمسلك المستقيم).[4]

وإذا كان ما جاء به الإسلام تدعيماً للفطرة السوية التي أودعها الله –تعالى– في النفوس البشرية فهذا يعني أنه من المؤكد أن الأخلاق جزء من الإسلام.

(فالإســـلام عقـــيدة وشـــريعة وأخلاق وإن هناك فارقاً عميقاً بين الأخلاق الثابتة المتصـــلة بالدين نفسه وبين التقاليد التي تتصل بالمجتمع ولا تتغير بالأسباب الطارئة، فالإسلام يفرق بين الأخلاق والتقاليد).[5]

وهكـــذا فـــإن الإســـلام يقـــرر أن القيم الخلقية ثابتة وذلك لثبات طبيعة الإنسان ووجوده، وأنه لا يمكن أن تختلف أو تتغير بتغير الأمم والعصور.

---

(١) كلمات في مبادئ علم الأخلاق – محمد عبد الله دراز – ص٣٠.

(٢) سورة الشمس – الآيات ٧ – ٨ .

(٣) سورة القيامة – آية ١٤ – ١٥.

(٤) الفكر الأخلاقي – ص١٣٦.

(٥) نحو بناء منهج البدائل الإسلامية – أنور الجندي – ص١٨٦ – ١٨٧.

بمعـــنى أنـــه لا يمكـــن أن يكون الحق باطلاً أو الباطل حقاً أو أن تكون الفضيلة رذيلة، أو الرذيلة فضيلة، بل تظل القيم ثابتة ما دامت الفطرة الإنسانية ثابتة، وما دامت الأخـــلاق فطرية في النفس البشرية ولهذا نجد (أن ابرز قواعد الإسلام هي: ثبات القيم وبالتالـــي ثبات الأخلاق وأن الالتزام الخلقي هو قانون أساسي يمثل المحور الذي تدور حوله القيم الأخلاقية، فإذا زالت فكرة الالتزام قضى على جوهر الهدف الأخلاقي، ذلك أنه إذا انعدم الالتزام انعدمت المسئولية، وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل في وضع الحـــق فـــي نصابه، وفي الغرب أخلاق بلا التزام، وفي الإسلام أخلاق ملتزمة وثبات القـــيم في العقيدة والشريعة، يجعل ثبات الأخلاق قيمة أساسية قائمة على أساس القاعدة التي تتمثل في أن فطرة الإنسان ثابتة لا تختلف).[1]

إذاً الأخـــلاق قيم ثابتة لا تتغير، هكذا ينظر إليها الإسلام ونظرته هذه مستمدة من التشـــريع الإلهـــي السماوي والذي لا تنضبط حياة الأمم إلا به، فهو يربي فيهم فضائل الأخلاق ومحاسنها، ويحميهم من الرذيلة وسفساف الأمور.

والمـــنهج الأخلاقـــي الذي رسمه لنا التشريع الإلهي جامع وشامل لجميع جوانب الحياة سواءً كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية.

ولقـــد جـــاء الرسول – عليه الصلاة والسلام – قدوة لنا في كل ذلك ولهذا قال – صلى الله عليه وسلم –: [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق].[2]

وعـــندما ســـألت الســـيدة "عائشة" – رضي الله عنها – عن خلقه – عليه الصلاة والسلام – قالت: [كان خلقه القرآن].[3]

---

(١) نحو بناء منهج البدائل الإسلامية – ص١٨٧.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه كما روي عن جابر وروي أيضاً عن جابر بلفظ [إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال] وعزاه للطبراني في الأوسط وفيه عمر بن إبراهيم القرشي وهو ضعيف – ج٨ – ص١٨٨ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – ج٩ – ص١٥ – باب في حسن خلقه وحسن معاشرته وعزاه إلى البزار والإمام أحمد ورجال الإمام أحمد رجال الصحيح – ومسند الشهاب – ج٢ – ص٩٢ – رقم الحديث: ١١٦٥ – وعزاه إلى مالك في الموطأ.

(٣) عن سعيد ابن هشام بن عامر قال: اتيت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله قالت: كان خلقه القرآن أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: [وإنك لعلى خلق عظيم] فتح الباري – ج٦ – ص٥٧٥ – والأدب المفرد للبخاري ج١ – ص٣٠٨– وميزان الاعتدال للذهبي – ج٩ – ص٤٢٠ – ترجمة رقم: ٩٦٧٤ – وفيه يزيد بن بنيوس قال فيه الذهبي: ما حدث عنه إلا أبو العمران الجوني وقال: هو من الشيعة الذين قاتلوا علياً وقال عنه أبو داود كان شيعياً.

ويؤكد لنا ذلك ما جاء في قوله – تعالى –: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.[1]

وقولـــه – تعالى – : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.[2]

لقـــد كـــان رسولنا – الكريم – "محمد" – صلى الله عليه وسلم – مثلاً رائعاً في الأخـــلاق، ولهـــذا فقد أمرنا الله – تعالى – بأن نتأسى به ونأخذ منه المنهج الأخلاقي الصحيح الذي جاء به الإسلام.

يقـــول الشـــيخ "سيد سابق": (وقد رسم الله المنهج الخلقي للبشر وأوضح معالمه، ودعا إليه، وحبب فيه).[3]

ويصـــور الدكـــتور "محمـــد عبد الله دراز" هذا المنهج الأخلاقي الجامع والشامل لجمـــيع جوانب الحياة فيقول: (لما كانت الفكرة الدينية الناضجة هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعال فحسب، بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه، كان القانون الديني الكامل هو الذي لا يقف عند وصف الحقائق العليا النظرية وإغراء النفس بحبها وتقديسها، بل يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية، فيضع المنهاج السوي الـــذي يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة. وهكذا يصل القانون الديني – إذا استكمل عناصـــره إلـــى بســـط جناحيه على علم الأخلاق كله، بل على سائر القوانين المنظمة لعلاقـــات الأفـــراد والشعوب، بحيث يجعلها جزءاً متمماً لحقيقته ويصبغ كل قواعدها بصـــبغة القدسية، فيصبح اتِّبَاعُ الفضائل الفردية والاجتماعية نوعاً من الطاعة لأوامر الديـــن، وباباً من أبواب القربات والعبادات الإلهية، فضلاً عن كونه تحقيقاً لمبدا العدالة الإنسانية، وتلبية لداعي الفطرة السليمة).[4]

---

(١) سورة القلم – آية ٤.

(٢) سورة البقرة – آية ١٥١.

(٣) عناصر القوة في الإسلام – ص٤٧.

(٤) الدين – ص٥٥ – ٥٦.

لقـد كانت تلك الأخلاق جزءً من رسالته – صلى الله عليه وسلم – تلك (الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها وجمع الـناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسـعوا إلـيها على بصيرة... والعبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركاناً في الإيمان به ليست طقوساً مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بـأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها. كلا كلا فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه. هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكاً بهذه الأخلاق، مهما تغيرت أمامه الظروف).[1]

إن ذلك يؤكد أهمية الدين بالنسبة للأخلاق والتي لا يمكن تجاهلها أو إغفالها.

فإذا كانت الأخلاق تقوم على العقل والفطرة فإن الله – تعالى – هو الذي أودع في الإنسـان هـذه الفطرة القائمة على حب الخير وكراهية الشر، كما وأنه – تعالى – هو الـذي منح الإنسان هذا العقل فبه يستطيع أن يستحسن كل ما هو حسن ويستقبح كل ما هـو قبـيح، ثم جعل أساس كل ذلك القاعدة الإيمانية التي توجب الإيمان بالله والامتثال لأوامـره واجتـناب نواهيه، وجميع أوامره – عز وجل – تحث على الالتزام بمكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل.

يقـول "محمـد الغزالي": (الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومـن ثم فإن الله – تعالى – عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول – سبحانه وتعالى – في كتابه – العزيز –: [يا أيها الذين آمنوا] ثم يذكر بعد ذلك ما يكلفهم به: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[2] مثلاً وقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القوي يلد الإيمان القـوي حـتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته).[3]

---

(١) خلق المسلم – محمد الغزالي – ص٥ ومن آراء التوسع في ذلك انظر من حكم الشريعة واسرارها للشيخ حامد محمد العبادي.

(٢) سورة التوبة – آية ١١٩.

(٣) خلق المسلم – ص٨.

إن صـــلاح الأخـــلاق لا يكون إلا بالإيمان بالله – عز وجل – وفسادها ناتج عن فقدان هذا الوازع الإيماني ولذلك جعل الإسلام الإيمان بالله – عز وجل – هو الأساس للمـــنهج الأخلاقي لأن الحياة لا تستقيم ولا تأتي بثمارها الطيبة إلا بهذا المرتكز القوي الصحيح.

يقول الدكتور "محمد البهي": (ويدعو الإسلام إلى الإيمان بالله: ويدعو إلى تحقيق الوصـــايا والمبادئ التي جاءت بها رسالته. وهي مبادئ ووصايا تتعلق بأهمية القيم في حـــياة الناس. والمؤمن بالله هو من نهى النفس عن الهوى، والهوى هو ميل النفس إلى الـــذات وحدهـــا. وهـــو من خشى الله. وخشيته لله تتحقق بإتباع المبادئ والوصايا في كتابه).[1]

قال – تعالى –: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾.[2]

إن صـــلاح النفس البشرية، ورقيها، وسموها ذلك ما يسعى إليه الإسلام، ويهدف إلـــى تحقـــيقه بداخل مجتمع متماسك قوي قائم على كل ما هو فضيلة ولا تجد الرذيلة مكانـــاً فـــيه، ولذلك نجد أن الإسلام (وحده هو الذي يقدم لنا مجالاً واسعاً للاتفاق بين مجموعـــات كبيرة من البشر على ما هو خير مرغوب فيه أو شر ينبغي اجتنابه. وهل هناك إثارة من ريب أن مثل هذا الاتفاق أمر ضروري لا غني عنه للحصول على نوع من النظام في العلاقات البشرية؟

وعلـــى أساس ما سبق يمكن القول إن "الشعور الديني" ليس مجرد مرحلة عابرة في تاريخ التطور الروحي للإنسان، ولكنه المنبع الأول لكل أفكاره الأخلاقية والمصدر الـــذي استمد منه كل تصوراته الأدبية. إنه ليس ثمرة من ثمرات السذاجة العقلية التي اتصف بها الإنسان في عصور الهمجية الأولى بحيث يستطيع هذا العصر "المستنير" أن يستأصلها من ضميره، ولكنه الجواب الوحيد لحاجة أساسية حقيقية من حاجات الإنسان

---

(١) القرآن في مواجهة المادية – ص١١.

(٢) سورة النازعات – آية ٤٠ – ٤١.

لازمته في كل العصور والبيئات، وأن هذا الشعور، بكلمة موجزة، غريزة من الغرائز التي أرستها الفطرة في النفس البشرية).[1]

ولما كان للدين من أهمية كبرى في حياة البشر أرسل الله – تعالى – رسله – عليهم السلام – لدعوة الناس إلى الالتزام بقواعد الأخلاق.

إن الالتزام بالقواعد الأخلاقية التي جاء بها الإسلام يقي المرء من الانزلاق في الطرق التي يقصدها الماديون والذين لا يبحثون إلا عن حياة مادية صرفة لا مكان فيها للقيم ولا للأخلاق الإنسانية بل كل ما ينشدونه هو الاستمتاع بهذه الماديات الدنيوية فهي غايتهم في هذه الحياة، ويعتقدون أن تلك هي سعادتهم لتصورهم أن ليس أمامهم إلا هذه الحياة الدنيا ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾.[2]

ولهذا فقد (ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته: هما في اللذات الحسية. وأنها هي الخير المطلوب، والسعادة القصوى).[3]

إن عدم إيمان الماديين باليوم الآخر كان مدعاة لانغماسهم في المتع الدنيوية والدعوة إليها عن طريق النظريات المادية في الأخلاق، ولو أن هؤلاء آمنوا بالحياة الآخرة لاستقامت أخلاقهم، ولأستقرت معهم الحياة، ولكنهم أنكروا الحق فضاعت منهم الحياة الكريمة، وأخذوا يلهثون وراء ماديات لم تزدهم إلا ضياعاً، وضلالاً، وفساداً.

يقول "علي عزت بيجوفيتش" : (إن الأخلاق كظاهرة واقعية في الحياة الإنسانية، لا يمكن تفسيرها تفسيراً عقلياً، ولعل في هذا الحجة الأولى والعملية للدين. فالسلوك الأخلاقي، إما أنه لا معنى له، وإما أن له معنى في وجود الله، وليس هناك اختيار ثالث. فإما أن نسقط الأخلاق باعتبارها كومة من التعصبات، أو أن ندخل في المعادلة قيمة يمكن أن نسميها الخلود، فإذا توافر شرط الحياة الخالدة، وأن هناك عالماً آخر غير

---

(١) منهاج الإسلام في الحكم – محمد أسد – ص ٣٠ – ٣١.

(٢) سورة الجاثية – آية ٢٤.

(٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف – ابن مسكويه – ص٥٢.

هذا العالم، وأن الله – تعالى – موجود – بذلك يكون سلوك الإنسان الأخلاقي له معنى وله مبرر).[1]

ولهذا يقول الشيخ "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله –: (إن عقيدة الإيمان بالله – تعالى – وباليوم الآخر تقذف في روع المرء حارساً من الشرطة الخلقية يدفعه إلى العمل ويحثه على الائتمار بأوامر الله – جلا وعلا – .. وهذا الحارس الداخلي وهذا الوازع النفسي هو الذي يشد عضد قانون الإسلام الخلقي ويجعله نافذاً بين الناس في حقيقة الأمر).[2]

ولكن المجتمعات المادية رفضت الإقرار بالله – تعالى – وباليوم الآخر عناداً ومكابرةً واختارت النظريات المادية في الأخلاق وتعاملت بها، ودعت إليها، ثم ماذا كانت النتيجة؟ لم تكن سوى ضياع المعنى الحقيقي للإنسانية، وسقوط الإنسان وسط ركامات من الماديات القذرة التي لم تجلب معها إلا الشقاء، والعناء، والفساد، والدمار.

وهذا بالطبع يؤكد فشل هذه القوانين الأخلاقية المادية وعدم صحتها لأن واضعها هو الإنسان وليس خالقه الذي يعلم ما يصلحه وما يفسده (تلك الحقيقة كانت تجد دائماً من يقر بها، ويعترف بأن التشريع الأخلاقي ورسم منهاج للخير والحق كلها أمور جليلة لا يمكن أن يستقل بها الإنسان)[3] نعم إن هذه حقيقة لا يمكن للعاقل أن يجحدها أو ينكرها. ولهذا نجد "سانتهلير" يعترف بهذه الحقيقة فيقول: (لا يمكن أن تكون القوانين الإنسانية أساساً لقانون الأخلاق. لأنها تستمد منه، وهو الذي يقضي عليها ويدينها حينما تنحرف عن جادة أوامره الواجبة الاتباع).[4]

ذلك يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يستقل بمفرده أو بعقله في وضع تشريع أخلاقي متكامل يتفق مع طبيعته البشرية، وذلك لطبيعته المزدوجة، فهو مركب من جسم وروح وعقل، وله رغبات وحاجات مختلفة ومتعارضة فإنه لو وضع لنفسه منهجاً فإن ذلك إما أن يكون متمشياً مع جانبه المادي على حساب جانبه الروحي وأما أن

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب – ص١٧٨.

(٢) نظام الحياة في الإسلام – ص١٥.

(٣) الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين – الدكتور حمدي عبد العال – ص٩٠.

(٤) نقلاً من المرجع السابق – ص٩٠.

يكـــون فـــي صالح جانبه الروحي على حساب جانبه المادي، وهذا بالفعل ما حدث في أرض الواقع من وجود نظريات مادية وروحية أثبتت التجربة فشلها لأنها لم تستقم مع المطالب المقصودة للحياة الإنسانية.

عـــلاوة على ذلك فإن الإنسان (كائن ينفرد بالإرادة مما يجعل من الصعب إن لم يكـــن مـــن المستحيل التنبؤ اليقيني بسلوكه واختياراته. كما أنه ليس من صنع نفسه أو غـــيره من المخلوقات. فكيف يمكن لأحد من البشر مهما عظم قدره وضع تشريع يوفق ويحيط بطبيعة معقدة لم يخلقها ولم يكن له دخل في إبداعها).[1]

وهكـــذا فإنـــه يجـــب التسليم بأن التشريع الأخلاقي ليس له إلا مصدر واحد هو الإسلام، فهو المصدر الصحيح الذي يقدم للنفس البشرية منهجاً متكاملاً يجد فيه كل من العقل، والقلب، والروح، والجسد غذاءً وافياً، وشافياً لكل ما يحتاج إليه الإنسان في كل زمان ومكان.

يقول الشيخ "أبو الأعلى المودودي" – رحمه الله –: (الإسلام يمنحنا مرجعاً ثابت الأركـــان يزودنا بالتعاليم الخلقية في كل حال وزمان، ذلك المرجع هو كتاب الله وسنة رســـوله – الكـــريم صـــلى الله عليه وسلم – وهذه التعاليم ترشدنا إلى الطريق الأقوم وتضيء لنا الخطة المستقيمة في كل شأن من شؤون الحياة من أتفه المسائل البينية إلى مســـائل السياسة الدولية العظيمة ومشاكلها الخطيرة. ونجد فيها انطباقاً متسعاً لأصول الأخـــلاق علـــى شؤون الحياة المختلفة لا نحتاج بعده في مرحلة من مراحل الحياة إلى وسيلة للعلم أخرى)[2] لأن القرآن – الكريم الذي تميز بمنهجه الفريد يتوجه إلى النفس الإنســـانية بأكملها فيقدم لها جملة من المعارف تستقي منها ما تحتاج إليه دون أن تجد حاجة إلى غيره.

لقد اهتم الإسلام بالنفس البشرية وما تتزين به من أخلاق اهتماماً كبيراً وذلك لأنه يـــنظر إلـــى الأخـــلاق باعتبارها غايات تتحقق بها الحياة الإنسانية الكريمة المنشودة وبدونها فلا حياة ولا استقرار.

---

(١) المرجع السابق – ص٩٢.

(٢) نظام الحياة في الإسلام – أبو الأعلى المودودي – ص١٤.

يقــول الدكتور "يعقوب المليجي": (الأخلاق في الإسلام لها قيمة ذاتية فهي غايات تقصد لذاتها وليست وسيلة لتحقيق غايات أخرى، فالأخلاق في الإسلام لا ترتبط بقواعد المنفعة بحيث تدور معها وجوداً وعدماً وهي كذلك لا ترتبط بمذاهب اللذة التي عرفتها المذاهب الخلقية... وإنما الأخلاق الإسلامية هي أهداف ينبغي السعي إلى تحقيقها بغض النظر عما يؤدي إليه اختلاف وجهات النظر بشأنها).[1]

إن الأخــلاق الســامية التي يجب التحلي بها هي الأخلاق التي جاء بها الإسلام ونصــح بهــا، ولهذا يجب الالتزام بها لأنها هي مفتاح السعادة، والأمن، والرخاء لأن (الإســلام وإن كــان يقــدم لأوامره ونواهيه مسوغات قبولها، فإنه لا يقدم لنا نظريات أخلاقــية قابلة للجدل والمناقشة، كما هو الحال في النظريات الوضعية، وإنما يقدم لكل ســؤال أو مشــكلة حلاً وجواباً قاطعاً ومحكماً. وهذا الحل يفرض نفسه على الضمير الفــردي والجماعي، لصلاحيته للأدنى والأعلى بدرجة متساوية، كما أنه إجابة فوقية، تهــدي العقل ولا تستهدى به، ترشده ولا تسترشد به. ومن هنا كانت واجبة التنفيذ دون جدل أو مناقشة).[2]

حقــاً إنها واجبة التنفيذ ودون جدل أو مناقشة لأن المشرع لها هو الله – تعالى – الخــالق (المــبدع للإنســان والواقع الذي يعيش فيه، كما أنه العالم بماضيه وحاضره ومســتقبله، فمــن العدل والمنطق أن يكون هو المشرع الوحيد لما يجب أن يكون عليه الإنســان، والســبل التــي تحقق السعادة والفضيلة في آن واحد، وتجاهل الإنسان لتلك الحقــيقة أو إعراضــه عــنها، إنمــا هو تجاهل مقيت لواقعه ومجازفة يملؤها الغرور بمصيره وسعادته).[3]

قال – تعالى –: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ

(١) الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين – ص١٤٩.

(٢) المرجع السابق – ص١٠٢.

(٣) المرجع السابق – ص٩٤.

﴿ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾.(١)

وبما أن الله – تعالى – هو العالم بما يصلح عباده وبما يحقق لهم السعادة فلابد أن تكون شريعته (الكتاب والسنة) هي المصدر للأخلاق الإسلامية الصحيحة.

يقول "ابن مسكويه" (٢): (فالشريعة هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال النبيلة وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل وبلوغ السعادة الإنسانية بالفكر الصحيح والصراط المستقيم). (٣)

وهكذا فإن حق التشريع سواءً في الأخلاق أو في غيرها لا يملكه إلا الله – تعالى – ولذلك نرد على من يعطي حق التشريع في الأخلاق للعقل بحكم أنه يستطيع التمييز بين ما هو خير وما هو شر، أو أنه يستحسن الحسن ويستقبح القبيح فنقول له : إن هذا القول صحيح لكن العقل يصيب ويخطأ، إضافة إلى ذلك إن ما قد نراه بعقولنا خيراً وحسناً قد لا يراه الآخرون كذلك، وهنا يحصل الاختلاف وتتداخل المصالح وتحدث الفوضى.

ومنعاً لكل ذلك فقد حدد الشرع المصدر وجعله من لدن خالق عليم حكيم، وجعل دور العقل الفهم، والاتباع، والاستنباط. ولهذا جاء عن الشيخ "ابن تيمية" قوله: (أعلم أن الله – سبحانه وتعالى – إنما كلّف الخلق متعبداته، وألزمهم مفترضاته، وبعث إليهم رسله، وشرع لهم دينه، لغير حاجة دعته ولا ضرورة قادته إلى تعبدهم، وإنما قصد نفعهم، وجعل ما تعبدهم به مأخوذاً من عقل متبوع وشرع مسموع).(٤)

إن حصول النفع وتحقيق السعادة أصبح مرهوناً باتباع الشرع، لأن السعادة المراد تحقيقها ليست في المتع وإنما تكون بتزكية النفس، وتكميلها باكتساب الفضائل والخصال الحميدة، ويبين الشيخ "أبو حامد الغزالي" – رحمه الله – الطريق إلى ذلك فيقول: (فلابد

---

(١) سورة الانفطار – الآيات ٦ – ١٤.

(٢) هو : محمد بن يعقوب بن مسكويه – ٤٢١ هـ – ١٠٣٠ م اشتغل بالكيمياء والفلسفة والمنطق وألف كتباً كثيرة منها "تجارب الأمم" و"تعاقب الهمم في التاريخ" (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه – ص ٣).

(٣) نقلاً من الأسس النظرية للسلوك الأخلاقي – الدكتور أبو بكر إبراهيم التلوع – ص١٢٩.

(٤) نقلاً من الأخلاق في الإسلام – محمود علي قراعه – ص١٠.

من أن تعرف الفضائل جملة وتفصيلاً فأما الفضائل بجملتها فتحضر في معنيين أحدهما جـــودة الذهن والتمييز والآخر حسن الخلق، أما جودة الذهن فليميز بين طريق السعادة والشقاوة فيعمل به وليعتقد الحق في الأشياء على ما هي عليه من براهين قاطعة مفيدة لليقين لا عن تقليدات ضعيفة ولا عن تخيلات مقنعة واهية وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التي عرّف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيجتنبها كما يجتنب المستقذرات وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها).[1]

وبهـــذا نصل إلى القول بأن طريق السعادة هو التخلق بالخلق الحسن الذي أمر به الإسلام دين الله الحق.

ومن هنا نقول : أن من أراد أن يبحث عن الأخلاق والقيم الصحيحة فليبحث عنها في الدين فهو المقوم الأساسي للأخلاق، أما ما عدا ذلك من نظريات أو مناهج مادية أو غيرها فإن في ذلك ضياعاً للإنسان، بل في ذلك دمارٌ للبشرية عامة.

يقـــول الأستاذ "عباس محمود العقاد": (ومن التفرقة الواضحة بين بواعث القانون وبواعث الأخلاق وبواعث الدين نعلم أن طبيعة القانون وطبيعة الأخلاق لا تغنيان عن طبـــيعة الاعـــتقاد، ولعـــل "العلوم الطبيعية" كما يسميها أبناء العصر صدقت أسماءها بظاهـــرة هامة في القرن العشرين، وهي أن العقيدة "طبيعة" في الإنسان، وأن خلوه من الاعتقاد هو الغريب).[2]

وهكـــذا فـــإن أساس الأخلاق الحميدة الدين وهذه قد أصبحت حقيقة ثابتة لا يمكن إغفالها أو تجاهلها، بل لا يمكن لأحد أن ينكر ذلك إلا من كانت له أغراض مادية فهو يحاول إبعاد الدين عن هذه المجالات الإنسانية لكي تتحقق له تلك الغايات اللاإنسانية.

مـــع العلم بأن الإسلام لم يحرم أحداً من المنافع والمتع المادية إلا إذا كانت خارج حدود ما أمر به الله – عز وجل – واتهام الإسلام بعكس ذلك ظلم وإجحاف لهذا الدين.

ولهـــذا يقول الدكتور "محمد البهي": (الإسلام لا يدفع الاستمتاع بالمتع المادية ولا يـــنهى عـــنه. وإنما يدفع الطغيان فيه. ولا يدفع الاقتصاد، والاستزادة من المال، وإنما

---

(١) نقلاً من علم الأخلاق – محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني – ص٢٢٥ – ٢٢٦.

(٢) نقلاً من الأخلاق والعرف – هنيه مفتاح القحطي – ص١٤٥.

الخاتمـــــــــة

يدفــع أن يصــبح الاقتصاد معبوداً وإلهاً. ولا يدفع القوة المادية، ولا عصبية الأولاد. وإنما يدفع أن تكون وسيلة القوة المادية للاعتداء والعدوان).[1]

إن موقف الإسلام صريح وواضح قد وضع الأمور في نصابها وأعطى كل شيءٍ حقه، ووزن ذلك بميزان الحق والعدل.

ولهــذا فهــو لم يحتقر المادة – التي يتشدق بها الماديون – بل يرفض وبشدة أن تكون المادة وبأية صورة كانت هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته، وأخلاقه، وحريته، وكرامته، كما حدث في المجتمع الأوربي الذي أعلى من شأن المادة فقدسها وأهدر في سبيلها القيم والأخلاق، بل (جعلوها غاية لهم، وبرروا في نيلها كل وسيلة فاستباحوا كل محرم، وأرتكبوا كل مخل بالمروءة، وانتهكوا كل كرامة وحــرمة، ولــم يــرعوا فــي سبيلها عهداً ولا ذمه، معاهداتهم قصاصة من الأوراق، وسياســتهم خديعــة وكذب ونفاق، وأخبارهم لا تصدق، ووعودهم لا تحقق، يخونون الأمانــة، ويخفرون الجوار، يفترس القوي الضعيف بلا رحمة ويسلبه قوته بلا شفقة. حقاً لهم القدح المعلى في الاختراع والابتكار، ولكن جلَّ مخترعاتهم، ومعظم مبتكراتهم موجهة إلى الخراب والدمار).[2]

هذه المجتمعات الجاهلية قد نبذت الدين والأخلاق وجعلت كل ما هو مادي غايتها، فبئس الغاية تلك، وبئس الطالب والمطلوب، وشتان بين هذه النظرة المادية وبين نظرة الإســلام التي تراعي الجانب الإنساني والمصلحة الفردية مع الصالح العام، مع حرص الإسلام الشديد على أن لا يكون بينهما أدنى تعارض، بينما عرفت المذاهب المادية في الأخــلاق بالأنانــية ولم تحصد من جراء ذلك إلا الفوضى والصراع والفساد والدمار، وهــذا ما نهى عنه الإسلام وحذر من الوقوع فيه ولقد وضع من أجل السلامة من كل ذلــك ومــن أجل الحفاظ على مصلحة الفرد والجماعة ما يسمى بالحدود أو العقوبات، فهي بمثابة السياج الواقي للمجتمع الإسلامي لكل ما من شأنه العبث أو الإفساد فيه.

---

(١) القرآن في مواجهة المادية – ص١٠ – ١١.

(٢) الإسلام بين المادية والروحية – محمد عبد الرؤوف بهنسي – ص١٥٨.

وبهذا ننتهي إلى القول بأنه إذا كان الإسلام هو المصدر الصحيح للأخلاق الحسنة التـــي يجب أن نتزين بها فهو كذلك العناية والرعاية والحماية لهذه الأخلاق فيجب على كل مسلم الأخذ منه والتمسك بكل ما يأمر به من أخلاق وغيرها لاسيما وأن القرآن – الكريم – والسنة – النبوية المطهرة – قد جاء فيهما من الآيات والأحاديث التي توجهنا وتحثنا على الأخذ بهذه الأخلاق الحميدة.

ولهـــذا يقـــول "علي بن أبي طالب" – رضي الله عنه–: (إن الله – تعالى–، جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها، وصلاً بينه وبينكم، فحسب الرجل أن يتصل من الله – تعالى – بخلق منها).(١)

ولذلـــك نجـــد الآيـــات التي يحث الله – تعالى – فيها عباده على التمسك بمكارم الأخلاق كثيرة جداً منهـــا:

قوله – تعالى–: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.(٢)

وقوله – تعالى– : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.(٣)

وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.(٤)

وقوله – تعالى –: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.(٥)

---

(١) نقلاً من الأخلاق في الإسلام – محمود علي قراعة – ص١٨.

(٢) سورة التوبة – آية ١١٩.

(٣) سورة الشورى – آية ٤٣.

(٤) سورة الحجرات – بعض الآية ١١.

(٥) سورة الفرقان – آية ٦٣.

وقوله – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.(١)

وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.(٢)

أمـــا الأحاديـــث التي يحث فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الأخذ بحسن الخلق فكثيرة أيضاً ومنها:

قوله – عليه الصلاة والسلام –: [ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن].(٣)

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: [اللهم كما أحسنت خلقي فأحسن خلقي].(٤)

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: [البر حسن الخلق].(٥)

وبهذه الأحاديث العطرة ننهي هذا الفصل وبالانتهاء منه نكون قد انتهينا من الباب الـــرابع وهو نهاية بحثنا في هذه الرسالة، ولهذا لم يبق أمامنا سوى أن نختم هذا البحث (الرسالة) بأهم النتائج التي توصلنا إليها وهي كالتالي :

***

(١) سورة آل عمران – آية ١٣٤.

(٢) سورة فصلت – آية ٣٤.

(٣) عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي – صلى الله عليه وسلم – سنن ابي داود – ج٤ – ص٢٥٣ – رقم الحديث: ٤٧٩٩ — مسند عبد ابن حميد – ج١ – ص٩٩ – رقم الحديث: ٢٠٤ – السنة لأبي عاصم – ج٢ – ص٣٦٣ – رقم الحديث: ٧٨٣ – قال أبو بكر ابن أبي عاصم الأخيار في ذكر الميزان أخيار كثيرة صحاح لا تذهب عن أهل المعرفة بالأخبار لكثرتها وصحتها وشهرتها – فتح الباري – ج١٣ – ص٥٩٩ – وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء.

(٤) عن أم الدرداء عن أبي الدرداء – الزهد لابن أبي عاصم – ج١ – ص١٤٠.

(٥) عن النواس ابن سمعان الأنصاري – صحيح مسلم – ج٤ – ص١٩٨٠ – رقم الحديث – ٢٥٥٢ – باب البر والأثم.

الخاتمـــــــــة

الخاتمة

إن من أهم النتائج المستخلصة من هذا البحث ما يلي :

أولاً : من خلال البحث في الباب الأول توصلت إلى النتائج التالية :

أ – إن الأدلـــة التي جاء بها القرآن –الكريم– هي الأدلة العقلية، وهي البراهين القوية، والحجـــج الدامغة التي تؤكد وجود الخالق – سبحانه وتعالى – وأنه وحده – عز وجل – هو المستحق للعبادة دون سواه.

أمـــا أدلـــة الفلاسفة والمتكلمين فما هي إلا طرق مختلفة ومتعددة ومتشعبة تؤدي بسالكها إلى الحيرة والشك والضلال، وإذا كانت هذه النتيجة قد اعترف بها أصـــحاب الفلســـفة والكلام أنفسهم فيجب إتباع طريقة القرآن في الاستدلال على وجود الخالق لكي نصل إلى الغاية المبتغاة من وراء هذا الخلق.

ب – إن الأدلة المنبثة في الكون متعددة بتعدد المخلوقات، وجميعها تشهد بوجود خالقها – عـــز وجل – ولا يمكن للعاقل إنكارها أو إغفالها، لأن في ذلك إنكاراً للحقيقة المهيمـــنة على الوجود كله، كما وأن فيها إنكاراً للواقع الحي الذي تنطق به تلك المخلوقات.

ج – إن الآيـــات الكونية في كتاب الله المنشور تأكيد لآياته– عز وجل – الموجودة في كـــتابه المقـــروء (القـــرآن الكريم) وجميعها تتجلى فيها القدرة الإلهية الدالة على الخالق – سبحانه وتعالى – .

د – إن عظمـــة الخلـــق والإبداع الإلهي، وما يحمله من حكم جليلة وغايات عظيمة لا يمكـــن للعقل البشري وحده أن يتوصل إلى معرفة حقيقتها، ولذلك لا بد من الأخذ بأدلة القرآن والسنة فهي الطريقة الصحيحة لمعرفة المقاصد الإلهية.

هـــــ – فـــي الفصل الثاني والثالث من هذا الباب توصلت إلى أن الله – تعالى– عندما خلـــق الكـــون جعل له غاية يسير إليها بإنسه، وجنه، وبقية مخلوقاته وفق سننه، وقوانينه – عز وجل–.

و – إن جميع أوجه النشاط التي يقوم بها الإنسان تكون عبادة إذا توفر فيها شرط الإخلاص لله وأن تكون كما أمر الله -عز وجل-.

ز – إن الغاية التي خلق الخلق من أجلها واحدة مما يؤكد بأن الخالق واحد.

ح – إن الصراع والتصادم والضياع الذي تعيشه البشرية اليوم سببه ضياع الغاية العظمى التي أمر الله – تعالى بها، واستبدالها بغايات أخر، وعلاج البشرية من ذلك الضياع، والخروج بها إلى عالم أفضل هو تحقيق الغاية التي أمر الله – تعالى – بها الإنسان.

ط – إن الأمن والاستقرار والطمأنينة والسعادة مرهونة بتطبيق الغاية العظمى التي لم يخلق الله – تعالى – الخلق إلا من أجلها.

ثانياً . . . بالبحث في الباب الثاني خرجت بالنتائج التالية :

أ – إن ظهور المادية في المجتمع الغربي كان له عوامل متعددة من أهمها تحريف النصرانية والصراع بين الكنيسة ورجال العلم، ولقد وجدت المادية في المجتمع الغربي مرتعاً خصباً لها بدليل تجدد المذاهب والنظريات المادية هناك.

ب – بعد متابعة أقوال الماديين والبحث فيها وجدت أن العامل المشترك بينهم هو إقصاء الدين عن نظام الحياة واستبداله بقوانين وضعية مادية، ولهذا السبب أدرجت العلمانيين أو العلمانية، من ضمن هذا التيار المادي.

ج – نتيجة لهيمنة الدول الكبرى على بلاد الإسلام انتقل الفكر العلماني إلى العالم الإسلامي، وساعد في نقله أيضاً سقوط الخلافة الإسلامية، والاستشراق، والتنصير، ووجود الاستعمار الغربي في بعض البلاد الإسلامية، كذلك وقد كان أيضاً للنصارى العرب، وبعض من أبناء المسلمين كطه حسين، وعلي عبد الرزاق دور كبير في نقل هذا الفكر العلماني إلى العالم الإسلامي.

د – إن الإسلام يرفض الفكر العلماني رفضاً قاطعاً لأن الإسلام مبني على التكامل في منهجيته والتيار العلماني يريد تجزئة هذا الدين، وذلك بتنحيته شرع الله من

الأرض، وهـذا مـا لا يمكن أن يقبل به الإسلام أو يتسامح فيه،، ولهذا فلن يجد الفكر العلماني مكاناً له في الأرض الإسلامية.

هـ – أعتمد الفكر العلماني على إثارة الشبهات حول الإسلام سواءً كانت ضد القرآن الكريم – أو ضد النبوة والوحي أو غيرها، وذلك بغرض التشكيك في الإسلام، والحقـيقة لـم يكن ذلك من العلمانيين إلا تقليداً لما جرى في أوربا من انتقادات لاذعة كانت موجهة ضد الكنيسة والدين النصراني، وقد يكون هناك لها مبرراتها، أمـا بالنسـبة للإسلام فلا يوجد سبب واحد يدعو لمثل ذلك، بل إن الإسلام دين سـماوي، ثابت، وصحيح، ومحفوظ، ولهذا فقد كانت محاولات هؤلاء العلمانيين محاولات فاشلة.

و – فـي الفصـل الثاني والثالث من هذا الباب وجدت أن الماديين أرادوا إثبات أن لا خالق لهذا الكون، وجميعهم لم يستطيعوا أن يأتوا بدليل علمي واحد، يثبتون به ما يقولـون، وهـذا يؤكد بطلان ما يزعمون، ولقد أثبت فساد زعمهم هذا من خلال عرض أقوالهم والرد عليها.

ز – لوحـظ فـي أقوال الماديين التناقض وهذا دليل واضح على مدى تخبطهم وسوء فهمهم لحقيقة الأمور، وأن كل ما يقولون به ما هو إلا مجرد تضليل للحقائق.

ح – إن الـنظريات التي جاء بها الماديون أصلها ومرجعها نظرية دارون، وهذا يدلل علـى مـدى خطـورة هـذه النظرية والتي هي في حقيقتها مجرد أباطيل ضالة ومضلة، وقد أثبت بطلان هذه النظرية بما ورد من انتقادات العلماء لها. والنتيجة التي أريد الخروج بها من هنا، هي أن هذه النظرية الدارونية إذا كانت باطلة فكل ما قام عليها من نظريات أو مذاهب مادية فهي باطلة أيضاً لبطلان هذه النظرية.

ثالثاً . . . من خلال البحث في الباب الثالث توصلت إلى النتيجة التالية :

أ – أن الغاية التي يسعى إلى تحقيقها هؤلاء الماديون هي : القضاء على الإيمان بوجود الخـالق – سـبحانه وتعـالى– ثم القضاء على كل ما يتبع ذلك من قيم ومبادئ

وأخـــلاق إنســـانية، وتحويل هذا العالم إلى عالم مادي صرف، وبذلك يتسنى لهم السيطرة عليه وتحقيق كل أطماعهم.

رابعاً . . . أما في الباب الرابع فقد توصلت فيه إلى النتائج التالية :

أ – أن وجود الخالق – عز وجل – حقيقة ثابتة وكل الأدلة تشهد بذلك، ولا يوجد دليل واحد يقول بعكس ذلك.

ب – أن الله – تعالى – عليم بخلقه، حكيم فيما يأمرهم به، وما دام الأمر كذلك، فيجب إتباع شرعه وتحقيق منهجه لأن ما عداه باطل.

ج – تكفير الفقهاء والعلماء لكل من رد شرع الله – تعالى – ورفض الأخذ به، وفضل عليه القوانين الوضعية وأخذ بها.

***

الفهـــــارس

١ – فهـــــرس الآيـــــات القرآنـــــية.
٢ – فهـــــرس الأحاديـــــث النـــــبوية.
٣ – فهـــــــــــرس الأعـــــــــــلام.
٤ – فهـــــرس المصـــــادر والمـــــراجع.
٥ – فهـــــــــرس الموضـــــــــوعات.

أولاً ... فهرس الآيات القرآنية :

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
١.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ	٢١	البقرة	١٠٧
٢.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ	٢١ – ٢٢	البقرة	١١٦
٣.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ	٢١ – ٢٢	البقرة	١٠٣
٤.	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً	٢٦	البقرة	٥٥
٥.	وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ	٣٠	البقرة	١٤٢
٦.	وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ	٣٠	البقرة	١٦٢
٧.	قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ	٣٢	البقرة	٣٧٥
٨.	إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ	٣٢	البقرة	٣٧١
٩.	إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ	٣٢	البقرة	٣٧٨
١٠.	وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ	٤٠	البقرة	١٢٩
١١.	وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ	٤٥	البقرة	١٣٠
١٢.	وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ	٥٥	البقرة	١٩٠
١٣.	وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ	٧٤	البقرة	١٦٠
١٤.	أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ	٨٥	البقرة	٢٥٨
١٥.	فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ	١١٥	البقرة	١٢٥
١٦.	بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١١٧	البقرة	٣٠
١٧.	كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا	١٥١	البقرة	٣٩٤
١٨.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ	١٥٣	البقرة	١٣٠

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
	وَٱلصَّلَوٰةِ			
١٩.	وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ	١٦٤	البقرة	٥٨
٢٠.	بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ	١٧٠	البقرة	١٩١
٢١.	لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ	١٧٧	البقرة	١٣٣
٢٢.	كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ	١٨٣	البقرة	١٢٨
٢٣.	وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ	١٨٦	البقرة	٢٥٥
٢٤.	وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ	١٨٦	البقرة	١٢٤
٢٥.	وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ	٢٢١	البقرة	١٦٧
٢٦.	لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ	٢٥٥	البقرة	٣٧٤
٢٧.	شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ	١٨	آل عمران	١٠٧
٢٨.	إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ	٥١	آل عمران	١١٧
٢٩.	ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ	١٣٤	آل عمران	٤٠٥
٣٠.	لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟	١٨٨	آل عمران	١٣٤
٣١.	إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٩٠	آل عمران	١٦٨
٣٢.	رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا	١٩١	آل عمران	٣١
٣٣.	وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٩١	آل عمران	١٠٣

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٣٤.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ	١	النساء	١١٦
٣٥.	وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ	٢٦	النساء	٣٧١
٣٦.	وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا	٣٦	النساء	١١٩
٣٧.	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ	٤٨	النساء	١٢٠
٣٨.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ	٥٩	النساء	٣٨٧
٣٩.	فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ	٦٥	النساء	٣٨٨
٤٠.	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ	١١٦	النساء	١٢٠
٤١.	وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا	١٢٢	النساء	١٨
٤٢.	ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ	٣	المائدة	٨-٩
٤٣.	ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ	٣	المائدة	٦٢
٤٤.	ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ	٣	المائدة	٢٥١
٤٥.	فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ	١٤	المائدة	٦٥
٤٦.	وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ	٤٤	المائدة	٣٨٣
٤٧.	وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ	٤٥	المائدة	٣٨٣
٤٨.	وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ	٤٧	المائدة	٣٨٣
٤٩.	وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ	٤٩	المائدة	٣٨١
٥٠.	أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ	٥٠	المائدة	٣٨٥
٥١.	وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا	٥٠	المائدة	٣٧٧

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٥٢.	وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا	٥٠	المائدة	٣٨١
٥٣.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ	٦٧	المائدة	٩
٥٤.	إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ	١٠٩	المائدة	٣٧٣
٥٥.	وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ	١١٦-١١٧	المائدة	١٩٣
٥٦.	مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ	١١٧	المائدة	١٩٦
٥٧.	ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	١	الأنعام	٣٠
٥٨.	إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ	٨٣	الأنعام	٣٧٥
٥٩.	فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا	٩٦	الأنعام	٥٤
٦٠.	وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً	٩٩	الأنعام	٣٦
٦١.	وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً	٩٩	الأنعام	٣٦
٦٢.	يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ	١٣٠	الأنعام	١١١
٦٣.	وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ	١٣٣	الأنعام	١٤٤
٦٤.	قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ	١٦٢-١٦٣	الأنعام	٥
٦٥.	قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ	١٦٢-١٦٣	الأنعام	١٣٥
٦٦.	وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ	١٦٥	الأنعام	١٥٠
٦٧.	إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ	٨٣	الأنعام	٣٧١
٦٨.	وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ	١٠	الأعراف	١٧٥
٦٩.	وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ	١١	الأعراف	٣٠
٧٠.	وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ	٥٤	الأعراف	٥٨

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٧١.	أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ	٥٤	الأعراف	٢٥٧
٧٢.	وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ	٥٧	الأعراف	١٨٢
٧٣.	لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ	٥٩	الأعراف	١١٧
٧٤.	وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا	٦٥	الأعراف	١١٧
٧٥.	وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا	٧٣	الأعراف	١١٧
٧٦.	وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا	٨٥	الأعراف	١١٧
٧٧.	وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ	١٢٩	الأعراف	١٤٧
٧٨.	وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ	١٣٨	الأعراف	١٩٠
٧٩.	يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ	١٥٧	الأعراف	٢١٣
٨٠.	وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ	١٧٢	الأعراف	١٠٣
٨١.	وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ	١٧٢-١٧٣-١٧٤-	الأعراف	٢٤
٨٢.	وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ	١٧٩	الأعراف	١٣٩
٨٣.	أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٨٥	الأعراف	٣٩
٨٤.	أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٨٥	الأعراف	١٠١
٨٥.	أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٨٥	الأعراف	١٦٦
٨٦.	إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَـٰدَتِهِۦ	٢٠٦	الأعراف	١٦٤
٨٧.	قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ	٢٤	التوبة	١١٥

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
	وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ			
٨٨.	وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ	٣٠	التوبة	١٩٠
٨٩.	وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ	٥٩	التوبة	١٢١
٩٠.	أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ	٧٨	التوبة	٣٧٢
٩١.	خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً	١٠٣	التوبة	١٢٨
٩٢.	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ	١١٩	التوبة	٣٩٥
٩٣.	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ	١١٩	التوبة	٤٠٤
٩٤.	إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	٣	يونس	٦٠
٩٥.	ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ	٣	يونس	١١٧
٩٦.	هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً	٥	يونس	٥٤
٩٧.	قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ	٣١	يونس	٦٠
٩٨.	ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ	٦٣ – ٦٤	يونس	١٢٩
٩٩.	قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٠١	يونس	١٠١
١٠٠.	وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا	٥٠	هود	١١٧
١٠١.	وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا	٦١	هود	١١٧
١٠٢.	هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ	٦١	هود	١٤٣
١٠٣.	وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا	٨٤	هود	١١٧
١٠٤.	أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ	٤٠	يوسف	١١٩

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
١٠٥.	وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ	٧٦	يوسف	٣٧٢
١٠٦.	إِن فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ	٣	الرعد	٣٠١
١٠٧.	وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ	٤	الرعد	٣٦
١٠٨.	إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ	٤	الرعد	٣٠١
١٠٩.	وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ	٨	الرعد	٥٠
١١٠.	عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ	٩	الرعد	٣٧٢
١١١.	وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ	١٣	الرعد	١٦٣
١١٢.	وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٥	الرعد	١٥٦
١١٣.	ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ	٢٨	الرعد	١٢٧
١١٤.	وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ	٤	إبراهيم	١٣
١١٥.	قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ	١٠	إبراهيم	٣٦٦
١١٦.	أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	١٠	إبراهيم	٢٥
١١٧.	وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ	٣٣	إبراهيم	٥٩
١١٨.	إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ	٩	الحجر	٢٥٨
١١٩.	وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا	١٩	الحجر	٥١
١٢٠.	وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ	٨٥	الحجر	٤٠
١٢١.	وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ	٩٩	الحجر	١٣٦

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
١٢٢.	وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ	٩٧-٩٨-٩٩	الحجر	١٣٠
١٢٣.	خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ	٣ - ١٤	النحل	٥٩
١٢٤.	وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ	٥	النحل	٣٠
١٢٥.	وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ	٥	النحل	١٧٣
١٢٦.	وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ	١٣	النحل	١٧٨
١٢٧.	وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا	١٤	النحل	١٧٩
١٢٨.	وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ	١٥	النحل	٥٥
١٢٩.	أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ	١٧	النحل	٣١
١٣٠.	أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ	١٧	النحل	٣٠٨
١٣١.	وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا	٣٦	النحل	١١٦
١٣٢.	وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا	٣٦	النحل	١١٨
١٣٣.	وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ	٤٩ - ٥٠	النحل	١٦٤
١٣٤.	إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً	٦٧	النحل	٣٦٩
١٣٥.	وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ	٦٨ - ٦٩	النحل	٥٥
١٣٦.	وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ	٧٨	النحل	٣٨
١٣٧.	أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ	٧٩	النحل	٥٨
١٣٨.	إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي	٩	الإسراء	١٩
١٣٩.	مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا	١٨ - ٢٠	الإسراء	١١١

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
١٤٠.	وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ	٢٣	الإسراء	١١٩
١٤١.	تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ	٤٤	الإسراء	١٥٩
١٤٢.	وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ	٤٤	الإسراء	١٠٤
١٤٣.	وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ	٦٧	الإسراء	٢٨
١٤٤.	وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ	٧٠	الإسراء	٣٤٩
١٤٥.	وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا	٨٥	الإسراء	١٦٦
١٤٦.	وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ	٩٠ – ٩٣	الإسراء	١٩١
١٤٧.	قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى	٩٣	الإسراء	٢٥٥
١٤٨.	إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا	٧	الكهف	١٥١
١٤٩.	وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا	٤٥	الكهف	٢٨٩
١٥٠.	فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا	١١٠	الكهف	١١٩
١٥١.	إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا	٣٥	مريم	١
١٥٢.	وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ	٣٦	مريم	١١٧
١٥٣.	وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا	٦٤	مريم	٣٧٤
١٥٤.	أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ	٦٧	مريم	٣٢
١٥٥.	وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا	٨٨ – ٩٥	مريم	١٥٦
١٥٦.	وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا	٩٠ – ٩١	مريم	١٦٠
١٥٧.	وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ	١٤	طه	١٢٦

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
١٥٨.	قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ	٥٠	طه	٥٠
١٥٩.	ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا	٥٣	طه	١٦٨
١٦٠.	فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ	٨٧ – ٨٨	طه	١٩٠
١٦١.	إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ	٩٨	طه	٣٧٤
١٦٢.	وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ	١٣٢	طه	١٢٧
١٦٣.	وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا	١٢٤	طه	١١٢
١٦٤.	وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا	١٢٤	طه	٣٠٩
١٦٥.	وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ	١٦ – ١٧	الأنبياء	١٤٩
١٦٦.	وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ	١٩	الأنبياء	١٦١
١٦٧.	يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ	٢٠	الأنبياء	١٦٢
١٦٨.	لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ	٢٢	الأنبياء	٦٦
١٦٩.	لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ	٢٢	الأنبياء	١٧٢
١٧٠.	قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ	٢٤	الأنبياء	٨
١٧١.	وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ	٢٥	الأنبياء	١١٨
١٧٢.	وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ	٢٥	الأنبياء	١٩٣
١٧٣.	وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ	٢٨	الأنبياء	١٦١
١٧٤.	وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ	٣٣	الأنبياء	١٦٩
١٧٥.	إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً	٩٢	الأنبياء	١١٨
١٧٦.	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ	٥	الحج	١٨٩

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
١٧٧.	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ	١٨	الحج	١٥٧
١٧٨.	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ	١٨	الحج	١٦٤
١٧٩.	أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ	٤٦	الحج	٣٦٩
١٨٠.	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ	٦٥	الحج	٥٩
١٨١.	وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ	٦٥	الحج	٢٩٢
١٨٢.	أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ	٧٠	الحج	٣٧٢
١٨٣.	إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا	٧٣ – ٨٤	الحج	٤١
١٨٤.	إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا	٧٣	الحج	١٠٠
١٨٥.	وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ	١٢	المؤمنون	٣٠
١٨٦.	وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ	١٢ – ١٤	المؤمنون	٣٣
١٨٧.	وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ	١٨	المؤمنون	١٨٢
١٨٨.	وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ	٧١	المؤمنون	٣٨٠
١٨٩.	مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ	٩١	المؤمنون	١٧٣

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
١٩٠.	أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا	١١٥	المؤمنون	١١٥
١٩١.	أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا	١١٥	المؤمنون	٣٠٨
١٩٢.	أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا	١١٥–١١٦	المؤمنون	١١١
١٩٣.	وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ	٣٩ – ٤٠	النور	٢١
١٩٤.	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	٤١	النور	١٦٣
١٩٥.	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا	٤٣	النور	١٧١
١٩٦.	وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ	٥٢	النور	١٢٢
١٩٧.	وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ	٥٥	النور	١٤٣
١٩٨.	يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا	٥٥	النور	١١٩
١٩٩.	وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا	٢	الفرقان	٥٠
٢٠٠.	وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ	٣٣	الفرقان	١١
٢٠١.	إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ	٤٤	الفرقان	٣٥٠
٢٠٢.	أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ	٤٥	الفرقان	٢٧٩
٢٠٣.	تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا	٦١	الفرقان	١٠٢
٢٠٤.	تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا	٦١ – ٦٢	الفرقان	٤٨
٢٠٥.	وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ	٦٣	الفرقان	٤٠٤
٢٠٦.	وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ	٦٢	النمل	١٤٧
٢٠٧.	أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	٦٠–٦٤	النمل	٢٩

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٢٠٨.	صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ	٨٨	النمل	٤٤
٢٠٩.	وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ	٧٠	القصص	٣٨١
٢١٠.	مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ	٧٢	القصص	١٦٧
٢١١.	وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ	٨٨	القصص	٢٧٩
٢١٢.	وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ	١٦	العنكبوت	١١٧
٢١٣.	وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ	٣٥	العنكبوت	٣٦٩
٢١٤.	خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	٤٤	العنكبوت	٤٠
٢١٥.	إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ	٤٥	العنكبوت	١٢٨
٢١٦.	وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ	٤٥	العنكبوت	١٢٦
٢١٧.	وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	٦١	العنكبوت	٥٦
٢١٨.	وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	٦١	العنكبوت	٣٦٦
٢١٩.	يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا	٧	الروم	٣٦٣
٢٢٠.	أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ	٨	الروم	١٦٦
٢٢١.	وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	٢٢	الروم	٣٦
٢٢٢.	كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ	٢٨	الروم	٣٦٩
٢٢٣.	فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ	٣٠	الروم	٢٦
٢٢٤.	فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ	٣٠	الروم	٣٤٥
٢٢٥.	فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ	٣٠	الروم	٣٩١

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٢٢٦.	ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ	٤٨– ٤٩	الروم	١٨١
٢٢٧.	ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ	٥٤	الروم	٢٨٩
٢٢٨.	أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ	٢٠	لقمان	١١٢
٢٢٩.	أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ	٢٠	لقمان	١٧٥
٢٣٠.	يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ	٥	السجدة	٦٠
٢٣١.	ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ	٧	السجدة	٤٤
٢٣٢.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا	٤٥ – ٤٦	الأحزاب	٧٢
٢٣٣.	إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	٧٢	الأحزاب	١٢٩
٢٣٤.	وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ	٦	سبأ	١٣
٢٣٥.	وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ	١٢	فاطر	١٧٩
٢٣٦.	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً	٢٧ – ٢٨	فاطر	٣٦
٢٣٧.	إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ	٤١	فاطر	٢
٢٣٨.	وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا	٣٣	يس	١٠٣
٢٣٩.	وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ	٣٧ – ٤٠	يس	١٧١
٢٤٠.	وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ	٣٨ – ٣٩	يس	٥٤
٢٤١.	لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ	٤٠	يس	٢٩٢

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٢٤٢.	وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ	٧٩	يس	٣٧٢
٢٤٣.	أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ	٧١ – ٧٢	يس	١٧٨
٢٤٤.	إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ	٨٢	يس	١٧٣
٢٤٥.	وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ	١٦٥	الصافات	١٦٢
٢٤٦.	وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ	١٦٦	الصافات	١٦٢
٢٤٧.	وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ	١٧ – ١٨	ص	١٦٠
٢٤٨.	كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ	٢٩	ص	١٦٧
٢٤٩.	خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ	٥	الزمر	٥٧
٢٥٠.	يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ	٦	الزمر	٣٣
٢٥١.	وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ	٨	الزمر	٢٨
٢٥٢.	قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا	١٤	الزمر	١٢٤
٢٥٣.	وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ	٧٥	الزمر	١٦٢
٢٥٤.	ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ	٧	غافر	١٦٣
٢٥٥.	رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً	٧	غافر	٣٧٤
٢٥٦.	لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ	٥٧	غافر	٣٩
٢٥٧.	هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن	٦٧	غافر	٣٤
٢٥٨.	قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ	٦	فصلت	٢٥٥

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٢٥٩.	قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ	٩ - ١٠	فصلت	٥
٢٦٠.	وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا	١٠ - ١١	فصلت	١٧٦
٢٦١.	ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ	١١	فصلت	١٥٦
٢٦٢.	فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ	١٢	فصلت	٥٣
٢٦٣.	وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ	٣٤	فصلت	٤٠٥
٢٦٤.	فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ	٣٨	فصلت	١٦٢
٢٦٥.	لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ	٤٢	فصلت	١٤
٢٦٦.	مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ	٤٦	فصلت	٣١٤
٢٦٧.	سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ	٥٣	فصلت	١١
٢٦٨.	سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ	٥٣	فصلت	١٤٠
٢٦٩.	وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ	٥	الشورى	١٦٢
٢٧٠.	وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ	١٠	الشورى	٣٨٧
٢٧١.	وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	٢٩	الشورى	٣٩
٢٧٢.	وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ	٤٣	الشورى	٤٠٤
٢٧٣.	إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ	٢٣	الزخرف	١٩١
٢٧٤.	وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ	٨٧	الزخرف	٢٥
٢٧٥.	تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا	٦	الجاثية	٢٢
٢٧٦.	وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ	١٣	الجاثية	١٧٥

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
	جَمِيعًا مِّنْهُ			
٢٧٧.	وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا	٢٤	الجاثية	١٨٩
٢٧٨.	وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا	٢٤	الجاثية	٣٢٠
٢٧٩.	وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا	٢٤	الجاثية	٣٩٧
٢٨٠.	وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ	٢٩ – ٣١	الأحقاف	١١١
٢٨١.	وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ	١١	الحجرات	٤٠٤
٢٨٢.	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ	١٣	الحجرات	١٤٧
٢٨٣.	إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ	١٣	الحجرات	١٢٥
٢٨٤.	إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ	٣٧	ق	١٦٧
٢٨٥.	وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ	٢١	الذاريات	١٤١
٢٨٦.	وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ	٤٧–٤٨	الذاريات	٢٩٢
٢٨٧.	وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا	٤٩	الذاريات	٣٥
٢٨٨.	وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	٥٦	الذاريات	١١٢
٢٨٩.	أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ	٣٥	الطور	٣٨
٢٩٠.	أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ	٣٥	الطور	٢٧٨
٢٩١.	وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ	٣ – ٤	النجم	١٥
٢٩٢.	وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ	٤٥ – ٤٦	النجم	٣٤

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٢٩٣.	إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ	٤٩	القمر	٥٠
٢٩٤.	وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ	٦	الرحمن	١٦٤
٢٩٥.	وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ	١٥	الرحمن	٣١
٢٩٦.	وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ	٢١	الواقعة	١٧٩
٢٩٧.	سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ	١	الحديد	١٥٨
٢٩٨.	سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ	١	الحشر	١٥٨
٢٩٩.	ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ	١٠	الممتحنة	٣٨١
٣٠٠.	سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ	١	الصف	١٥٨
٣٠١.	يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ	٨	الصف	٣٣١
٣٠٢.	يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ	١	الجمعة	١٥٨
٣٠٣.	يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ	١	التغابن	١٥٨
٣٠٤.	خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ	٣	التغابن	٤٤
٣٠٥.	خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ	٣	التغابن	٣٠٨
٣٠٦.	وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا	١٢	الطلاق	٣٧٣
٣٠٧.	ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ	٢	الملك	١٢٣
٣٠٨.	ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ	٢	الملك	١٥١
٣٠٩.	مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ	٣	الملك	٤٩

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٣١٠.	هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا	١٥	الملك	٥٩
٣١١.	قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ	٢٣	الملك	٣٨
٣١٢.	قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا	٣٣	الملك	٢٧٩
٣١٣.	وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ	٤	القلم	٣٩٤
٣١٤.	وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ	٢٣	نوح	١٨٩
٣١٥.	قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ	١ – ٢	الجن	١١٢
٣١٦.	وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ	١١	الجن	١١٢
٣١٧.	وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ	١٤	الجن	١١٢
٣١٨.	بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ	١٤ – ١٥	القيامة	٣٩٢
٣١٩.	أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى	٣٦	القيامة	١١١
٣٢٠.	أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ	٣٧–٣٨–٣٩	القيامة	٣٤
٣٢١.	نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ	٢٨	الإنسان	٣٤
٣٢٢.	أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ	٢٠ – ٢٣	المرسلات	٥٤
٣٢٣.	أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا	٦ – ١٦	النبأ	٩٩
٣٢٤.	أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا	٦ – ١٦	النبأ	١٠٢
٣٢٥.	ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا	٢٧ – ٣٣	النازعات	٤٧
٣٢٦.	وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ	٤٠ – ٤١	النازعات	٣٩٦

م	الآيـــــــــة	رقمهـا	السورة	الصفحة
٣٢٧.	فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ	٢٤	عبس	١٠٢
٣٢٨.	يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ	٦-٧-٨	الانفطار	٤٣
٣٢٩.	يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ	٦ - ١٤	الانفطار	٤٠١
٣٣٠.	فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ	٥ - ٦	الطارق	١٠٢
٣٣١.	فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ	٥ - ٦	الطارق	١٤١
٣٣٢.	ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ	٢	الأعلى	٤٤
٣٣٣.	وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ	٣	الأعلى	٤٩
٣٣٤.	أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ	١٧	الغاشية	١٠٢
٣٣٥.	أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ	١٧ - ٢٠	الغاشية	٤٧
٣٣٦.	وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا	٧ - ٨	الشمس	٣٩٢
٣٣٧.	لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ	٤	التين	٤٤
٣٣٨.	ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ	١ - ٢	العلق	٣٢
٣٣٩.	وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ	٥	البينة	١٢٤
٣٤٠.	قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ	١-٦	الناس	٢٧

***

ثانياً . . . فهرس الأحاديث النبوية

م	طرف الحديث	الصفحة
١.	أتدري ما حق الله على العباد.	١٢٦
٢.	أفلا أكون عبداً شكوراً.	١٢٧
٣.	البر حسن الخلق.	٤٠٥
٤.	اللهم كما أحسنت خلقي.	٤٠٥
٥.	إن الله قال من عاد لي ولياً.	١٣١
٦.	إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.	٣٩٣
٧.	إني خلقت عبادي حنفاء كلهم.	٢٨
٨.	تركتكم على المحجة البيضاء.	٦٢
٩.	شر الأمور محدثاتها.	٦٣
١٠.	كاد قلبي أن يطير.	٣٨
١١.	كان خلقه القرآن.	٣٩٣
١٢.	ما من شيء أثقل.	٤٠٥
١٣.	ما من مولود إلا يولد على الفطرة.	٢٧
١٤.	وذلك أول ما وقر في قلبي.	٣٨
١٥.	يا بلال أقم الصلاة.	١٢٩

***

ثالثاً . . . فهرس الأعلام

م	العلـــــــم	الصفحة
١.	ابن رشد.	١٧
٢.	أبو الحسن الأشعري.	٩
٣.	أبو المعالي الجويني.	٢٠
٤.	أبي الحسن الطبري المعروف بالكيًا.	٦٦
٥.	أرسطو.	٢٢٠
٦.	أفلاطون.	٢٢٠
٧.	إنجلز.	٢٦٥
٨.	الباقلاني.	٨٠
٩.	البيركامي.	٣١٧
١٠.	الرازي.	٩٤
١١.	القاضي عبد الجبار.	١٦
١٢.	أميل بوترو	٣٤٠
١٣.	أنست هيكل.	٣٤٠
١٤.	أوجست كومت.	٣٢٦
١٥.	إينشتين.	٣٦٦
١٦.	بسكال.	٢٢٠
١٧.	جاليليو.	٢٠٢
١٨.	جان جاك روسو.	٢٢٠
١٩.	جون لوك.	٢٢٠
٢٠.	داروين.	٢٠٩
٢١.	دولباخ.	٣٢١
٢٢.	روبرت أوين.	٢٦٦
٢٣.	سارتر.	٣٠٠

م	العلـــــــم	الصفحة
٢٤.	سان سيمون.	٢٦٦
٢٥.	سبنيوزا.	٢١٩
٢٦.	ستالين.	٢٨٥
٢٧.	شارك فوربيه.	٢٦٦
٢٨.	فورباخ.	٢٢٣
٢٩.	فولتير.	٢٢٠
٣٠.	فيخته.	٢٠٧
٣١.	كابانيس.	٣٢٢
٣٢.	كالفن.	٢٠٣
٣٣.	كوبرنيكس.	٢٠٢
٣٤.	كير كجارد.	٣١٠
٣٥.	لوثر.	٢٠٣
٣٦.	لينين.	٢٦٣
٣٧.	مارسل.	٣٠٦
٣٨.	ماركس	٢٦١
٣٩.	مسكويه.	
٤٠.	مزدك.	٢٦٦
٤١.	ميكافيلي.	٢٢٢
٤٢.	هوبنز.	٢٢٠
٤٣.	هيجل.	٢٢٤
٤٤.	ياسبرز.	٣١١

***

رابعاً . . . قائمة المصادر والمراجع

١. اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، تأليف الدكتور عزمي إسلام، ط ١٩٨٠م، مطبوعات الكويت، دار القلم.

٢. اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، الدكتور عبد الباسط عبد المعطي، ط ١٩٨١، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٣. أحجار على رقعة الشطرنج، وليام غاي كار، ترجمة سعيد جزائرلي، الطبعة الثاني ١٩٧٦م، دار النفائس.

٤. احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، الدكتور سعد الدين السيد صالح، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع.

٥. إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

٦. أخطاء الفلسفة المادية، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٧. أخلاقهم وأخلاقنا، وجهتا النظر الماركسية والليبرالية في المثل الأخلاقية، ليون تروتسكي، جون ديوي، جورج نوفاك، ترجمة سمير عبده، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٨. ارتقاء القيم (دراسة نفسية)، الدكتور عبد اللطيف محمد خليفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٩. أزمة الإنسان الحديث، تأليف تشارلز فرنكل، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، ط ١٩٥٩م، بيروت، نيويورك.

١٠. أسرار الانقلاب العثماني، كتبه بالتركية مصطفى طوران، ترجمة كمال خوجة، المختار الإسلامي للطباعة والنشر.

١١. أسرار الماسونية، الجنرال رفعت آللخان، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة.

١٢. أسرار المخلوقات، أبو حامد الغزالي، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، تونس.

١٣. أسرار المعاني في أسماء الله الحسنى، دكتور محمود السيد حسن، ط ١٩٨٨م.
١٤. أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ومعضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام، أبي الأعلى المودودي، ترجمة محمد عاصم الحداد، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
١٥. أسطورة سيزيف، البير كامو، نقله إلى العربية أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.
١٦. اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق الدكتور / عبد المحسن المبارك، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
١٧. أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب والعلمانية والتنوير الغربي، قضايا الأدب والثقافة والفن، الكشف عن سموم كتب التغريب والغزو الفكري، أنور الجندي، دار الفضيلة.
١٨. أصنام الفلسفة المادية تتحطم ويبقى الفكر الإسلامي، طريق الخلاص، عباس يحيى، طبعة أولى، ١٩٨٥م.
١٩. أصول الدين، أبي منصور عبد القهار بن طاهر التميمي البغدادي، الطبعة الأولى، ١٣٤٦– ١٩٢٨، مطبعة الدولة، استانبول.
٢٠. أصول الدين، فخر الدين الرازي، مكتبة الكيان الأزهري.
٢١. أصول السنة، الإمام أحمد بن حنبل وبحاشيته تمام المنة في التعليق على أصول السنة، بقلم عمرو عبد المنعم سليم، الطبعة الأولى، ١٤١٤ – ١٩٩٣، دار السلام للطباعة والنشر.
٢٢. أصول الفلسفة الماركسية، ف – ج – أفانا سييف، ط ١٩٧٥م، دار الثقافة الجديدة، القاهرة.
٢٣. أضواء على الفلسفة المعاصرة، تأليف الدكتور يحيى هويدي، مكتبة القاهرة الحديثة.
٢٤. إطار إسلامي للفكر المعاصر، أنور الجندي، المكتب الإسلامي.

٢٥. أطيب الكلام في معرفة الملائكة والجان، بدر بن عبد الله بن عبد الكريم الناصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٢٦. أعراس، تأليف البير كامو، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٧. أفكار ورجال قصة الفكر الغربي، تأليف كرين برنتن، ترجمة وتقديم محمود محمود، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية.

٢٨. أفيقوا أيها المسلمون، عبد الودود شلبي، دار المجتمع للنشر والتوزيع.

٢٩. أمريكا من الداخل بمنظار الشيخ سيد قطب، دار الوفاء المنصور، دار المنارة، جدة.

٣٠. إنتصارات إنسان، سلامه موسى، بقلم الدكتور / محمد مندور، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م، دار ومطابع المستقبل، القاهرة.

٣١. إنسانية الإنسان في الإسلام، الدكتورة آمنة محمد نصير، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م، دار الشروق.

٣٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تفسير ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي، وبالهامش تفسير الجلالين، السيوطي والمحلي، الطبعة الأولى، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م.

٣٣. آيات الله في الآفاق، الشيخ عبد المجيد الزنداني، مكتبة القرآن.

٣٤. آيات الله في الآفاق أو طريق القرآن - الكريم - في العقائد، محمد العدوي،٢١٢ ع م أ، الطبعة الأولى، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣م، مطبعة المنار بمصر.

٣٥. إيثار الحق على الخلق، عبد الله بن المرتضى اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٦. أين الله، أحمد زين، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، المختار الإسلامي.

٣٧. الإخفاق الكبير، ميلاد الشيوعية وموتها، زبيفنيو، بريجتسكين، ترجمة فاضل حتكر، دار كنعان للطباعة والنشر، دمشق.

٣٨. الأخـــلاق النظرية، الدكتور عبد الرحمن بدوي، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت.

٣٩. الأخـــلاق عند الغزالي، الدكتور زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

٤٠. الأخـــلاق في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، خلاصة بحث للأستاذ محمود علي قراعة، الطبعة لثانية، الناشر مكتبة مصر.

٤١. الأخلاق في الإسلام مع المقارنة بالديانات السماوية والأخلاق الوضعية، الدكتور يعقوب المليجي، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٤٢. الأخـــلاق في الفكر العربي المعاصر، الدكتور أحمد عبد الحكيم عطية ط ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

٤٣. الأخـــلاق والعـــرف، هنـــية مفتاح القماطي، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، منشورات جامعة قار يونس.

٤٤. الأخـــلاق ومعـــيارها بيـــن الوضعية والدين، الدكتور حمدي عبد العال، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ – ١٨٨٥م، دار القلم لطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.

٤٥. الأربعيـــن في أصول الدين، فخر الدين الرازي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٤٦. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، الجويني، ط ١٣٦٩ – ١٩٥٠م.

٤٧. الأســـس النظرية للسلوك الأخلاقي، الدكتور أبو بكر إبراهيم التلوع، ط ١٩٩٥م، منشورات جامعة قاز يونس، بنغازي.

٤٨. الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، المترجم محمد يوسف عدس، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، الطباعة والتوزيع مؤسسة العلم الحديث، بيروت.

٤٩. الإســـلام بيـــن الماديـــة والروحـــية، محمد عبد الرءوف بهنسي، مؤسسة الخليج العربي، ط ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٥٠. الإسلام دين المستقبل، روجيه غارودي، ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإيمان للطباعة والنشر.

٥١. الإســـلام على مفترق الطرق، محمد أسد، نقله إلى العربية الدكتور عمر فروخ، الطبعة الثامنة، ١٩٧٤، دار العلم، بيروت.

٥٢. الإســـلام في الواقع الأيديولوجي المعاصر، الدكتور محمد البهي، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م، دار الفكر.

٥٣. الإســـلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة، الدكتور محمد البهي، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة.

٥٤. الإســـلام فـــي عصـــر العلم، محمد أحمد الغمراوي، مطبعة السعادة، الناشر دار الكتب الحديثة.

٥٥. الإســـلام في قفص الاتهام، شوقي خليل، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، دار الفكر، دمشق.

٥٦. الإســـلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار القلم، الكويت.

٥٧. الإســـلام في وجه الزحف الأحمر/ محمد الغزالي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

٥٨. الإسلام قوة الغد العالمية، كتبه باول شمتز، نقله إلى العربية الدكتور محمد شامة، الناشر مكتبة وهبة.

٥٩. الإســـلام وأصـــول الحكم، على عبد الرازق، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٦٠. الإسلام والإنسان المعاصر، فتحي رضوان، دار المعارف، بمصر.

٦١. الإسلام والحرية، محمود البغدادي، الدار الجامعية، ١٩٨٥م.

٦٢. الإســـلام والحقائق العلمية، محمود القاسم، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، دار الهرة، بيروت.

٦٣. الإســـلام والعصـــر الحديث، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـــ - ١٩٩٢م، دار النفائس.

٦٤. الإسلام والعلم التجريبي، الدكتور/ فاروق أحمد الدسوقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـــ - ١٩٨٧م، المكتب الإسلامي، بيروت.

٦٥. الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، الدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة، ١٤١٢ هـــ - ١٩٩٢م، مؤسسة الرسالة.

٦٦. الإســـلام وقوانين الوجود، الدكتور محمد جمال الدين الفندي، ط ١٩٨٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦٧. الإســـلام يـــتحدى، وحـــيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م، دار البحوث العلمية.

٦٨. الاعتقاد، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـــ - ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦٩. الإعلام، للإمام القرطبي، دار التراث العربي.

٧٠. الأعمـــال الكاملة، كيف ينهض العرب، عمر فاخوري، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٧١. الاغـــتراب في الفلسفة المعاصرة، مجاهد عبد المنعم مجاهد، سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، القاهرة، بيروت.

٧٢. الأفعـــى الـــيهودية فـــي معـــاقل الإســـلام، عبد الله التل، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق.

٧٣. الإلحـــاد أســـباب هذه الظاهرة وطرق علاجها، عبد الرحمن عبد الخالق، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـــ، الدار السلفية للطباعة والنشر.

٧٤. الإنســـان القرآنـــي، وحيد الدين خان، ترجمة الدكتور سمير عبد المجيد إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٥م.

٧٥. الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب، ١٣٨٨هـــ - ١٩٨٦م، دار الشروق.

٧٦. الإنسان ذلك المجهول، تأليف الكسيس كاريل، تعريب شفيق أسعد فرير، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠، مكتبة المعارف، بيروت.

٧٧. الإنسان في الإسلام، الدكتور أمير عبد العزيز، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة.

٧٨. الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، الدكتور عبد العليم خضر، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٧٩. الإنسان والدارونية، محمد صالح كريم خان، ط ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، مطبعة الجمهور، الموصل.

٨٠. الإنسان وحريته في الإسلام، الدكتور محمود محمد بابللي، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م، دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة.

٨١. الإيمان، عبد المجيد الزنداني، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار المجتمع.

٨٢. الإيمان بالله والجدل الشيوعي، فتح الرحمن أحمد محمد الجعلي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الدار السعودية.

٨٣. الإيمان والحياة، الدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، مؤسسة الرسالة.

٨٤. الاتجاهات الفكرية المعاصرة، المستشار الدكتور/ علي جريشة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة.

٨٥. الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة، بقلم عبد الفتاح الديدي، ط ١٩٦٦م، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

٨٦. الإتقان في علوم القرآن، الشيخ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٨٧. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الدكتور محمود حمدي زقزوق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٨٨. الاستقامة، للشيخ ابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٨٩. الأسس الفلسفية العلمانية، عادل ضاهر، الساقي، ط ١٩٩٣م، دار النشر، بيروت.

٩٠. البراهين العقلية، على وجود الله والرد على الماديين والطبيعيين والمنكرين، الدكتور عبد المنعم الحفني، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، الدار الشرقية.

٩١. البراهين العلمية على وجود الخالق، محمد فؤاد البرازي، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار القلم، دمشق، بيروت.

٩٢. البير يستروبكا من منظور إسلامي، فتحي يكن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، مؤسسة الرسالة.

٩٣. التبشير الغربي، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٩٤. التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الدكتور مصطفى خالدي، وعمر فروخ، ط ١٩٨٦م، الناشر المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

٩٥. التصور الإسلامي، الدكتور حسن الحياري، ط ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار البشير للنشر.

٩٦. التطور الخالق، هنري برجسون، تلخيص وتقديم بديع الكسم، ١٩٨٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،.

٩٧. التطور في الحياة وفي المجتمع، الدكتور محمد بدوي، ط، ١٩٨٨م، دار المعرفة الجامعية.

٩٨. التطور والثبات في حياة البشرية، محمد قطب، ط ١٩٧٧م، دار الشروق، بيروت.

٩٩. التفسير الكبير، للإمام تقي الدين ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٠. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠١. التفكير الفلسفي، الدكتور سليمان دنيا، ط ١٩٨٩، مكتبة الخانجي بمصر.

١٠٢. التمهيد أبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني، ط ١٩٥٧م، المكتبة الشرقية، بيروت.

١٠٣. الجفوة المفتعلة بين العلم والدين، محمد علي يوسف، ط ١٩٦٦م، دا رمكتبة الحياة، بيروت.

١٠٤. الحركات الجماهيرية في الوطن العربي، محمد شيا، حليم اليازجي، أحمد خواجه، ط ١٩٩١م، معهد الإنماء بيروت.

١٠٥. الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، الدكتور فؤاد زكريا، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.

١٠٦. الحكمة والتعليل في أفعال الله - تعالى - تأليف الدكتور محمد ربيع هادي المدخلي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، مكتبة لبنان للنشر والتوزيع.

١٠٧. الحكومة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، نقله إلى العربية أحمد إدريس، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

١٠٨. الدوافع نحو المادية، مرتضى المطهري، ترجمة محمد علي التسخيري، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠مم، دار التبليغ الإسلامي، دار المعارف، بيروت.

١٠٩. الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، الدكتور / محمد عماره، دار الشروق، القاهرة، بيروت.

١١٠. الديموقراطية والشيوعية، وليم إينشتين، ترجمة وديع سعيد، دار الكرنك، القاهرة.

١١١. الدين، الدكتور محمد عبد الله دراز، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

١١٢. الديـــن والعلوم العقلية، تأليف عبد الباري الندوي، تعريب واضح رشيد الندوي، المختار الإسلامي، القاهرة.

١١٣. الديـــن والحضارة الإنسانية، الدكتور محمد البهي، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـــ - ١٩٧٤م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، القاهرة.

١١٤. الذبـــاب (مســـرحية) سارتر، ترجمة حسين مكي، منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت.

١١٥. الرؤية المنهجية لدراسة الأخلاق، محمد الجبر، الطبعة الأولى، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق

١١٦. الرجل الصنم، تأبيف ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـــ - ١٩٨٢م.

١١٧. الرد على الدهريني، جمال الدين الأفغاني، الناشر دار الكرنك.

١١٨. الرد على الماديين، محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٦١م، دار الكرنك، القاهرة.

١١٩. الـــرد على المنطقيين، شيخ الإسلام ابن تيمية، ط ١٣٩٦هـــ - ١٩٧٦م، إدارة ترجمان الأمة.

١٢٠. الرســـائل الفســـلفية، فولتـــير، ترجمة عادل زعيتر، ط ١٩٥٩م، دار المعارف بمصر.

١٢١. الـــروح، الحـــافظ شـــمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية، ط ١٤١٣هـــ - ١٩٩٣م.

١٢٢. الســـبيل إلـــى عالم أفضل، وضعه الأستاذ كارل بيكر، نقله إلى العربية الأستاذ عبدالعزيز إسماعيل، ط ١٩٤٨م، الطبعة الأولى، الناشردار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر.

١٢٣. السرطان الأحمر، عبد الله عزام، مكتبة الأقصى، عمان.

١٢٤. الســـعادة والإســـعاد في السيرة الإنسانية، أبو الحسن محمد بن يوسف العامر، دراسة وتحقيق الدكتور / أحمد عبد الحليم عطية، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

١٢٦. السنن الكبرى، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٢٧. الشـــريعة الإسلامية وتحديات العصر، وحيد الدين خان، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م، المختار الإسلامي للطباعة والنشر.

١٢٨. الشـــيوعية الصنم الذي هوى، الشيخ محمد إسماعيل الشعراوي، الطبعة الأولى، مكتبة التراث الإسلامي.

١٢٩. الشيوعية اليوم وغداً، أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة مصر، القاهرة،.

١٣٠. الشـــيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات، احمد عبد الغفور عطار، دار الأندلس.

١٣١. الشـــيوعية علـــى حقيقتها، عمر الاسكندري، ١٩٥١م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

١٣٢. الشيوعية منشأ ومسلكاً، دندل جبر، ط ١٩٨٥م، مكتبة الزرقاء الأردن.

١٣٣. الشـــيوعية نظـــرياً وعملـــياً، تأليف كاريوهنت، ترجمة دار الكتاب المصري، القاهرة، التاريخ غير معروف.

١٣٤. الشيوعية والأديان، دكتور طارق حجي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٣٥. الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٣٦. الشـــيوعية والشـــيوعيون في ميزان الإسلام، الدكتور عبد الجليل شلبي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٣٧. الشيوعية وليدة الصهيونية، أحمد عبد الغفور عطار، صيدا، بيروت.

١٣٨. الصراع في الوجود، بولس سلامه،، دار المعارف في مصر.

١٣٩. الصـــهيونية والشـــيوعية، فرانك ل. بريتون، تعريب نهاد عيسى، ط ١٩٥٤م، مطابع الزمان، بيروت.

١٤٠. الصـــواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد أبي بكر بن أيوب بن سعد الشهير بابن القيم الجوزية، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

١٤١. العـــبادات أحكامهـــا، وبيان آثارها في بناء المجتمع الإسلامي، الدكتور رفعت فوزي، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م.

١٤٢. العـــبادة في الإسلام، الدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة السادسة، ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م، مؤسسة الرسالة.

١٤٣. العـــبودية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد عبد الحليم ابن تيمية الحراني، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـــ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٤٤. العقـــل العربـــي ومنهج التفكير الإسلامي، أحمد موسى سالم، ط ١٩٨٠م، دار الجيل، بيروت.

١٤٥. العقـــيدة الإســـلامية وأسســـها، عبد الرحمن حينكة الميداني، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـــ - ١٩٨٨م، دار القلم، دمشق.

١٤٦. العقيدة الوسطية، لشيخ الإسلام، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـــ، دار المطبعة السلفية.

١٤٧. العلـــم والديـــن في الفلسفة المعاصرة، أميل بوترو، ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، ط ١٩٧٣م، الهيئة المصرية في الفلسفة المعاصرة للكتاب، القاهرة.

١٤٨. العلـــم يتـــبرأ من نظرية دارون، زياد أبو غنيمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـــ - ١٩٨٩م، دار عماد.

١٤٩. العلـــم يدعـــو للإيمـــان، كريسي موريسون، تقديم الدكتور أحمد زكي، ترجمة الأســـتاذ محمـــود صـــالح الفلكـــي، تصدير الشيخ أحمد حسن الباقوري، الطبعة الخامسة، ١٩٦٥م، مكتبة الهيئة المصرية، القاهرة.

١٥٠. العلمانية، محمد شاكر الشريف، الطبعة الأولى ١٤١١هـــ.

١٥١. العلمانيون والإسلام، للشيخ محمد قطب، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، دار الوطن للنشر، الرياض.

١٥٢. الغارة على العالم الإسلامي، تأليف أرل شاتليه، لخصها ونقلها إلى العربية، محب الدين الخطيب، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ، المطبعة السلفية ومكتبها القاهرة.

١٥٣. الغريب وقصص أخرى، تأليف البير كامو، ترجمة عايده مطرجي إدريس، دار الأدب، بيروت.

١٥٤. الغزو الفكري في العالم العربي، عبد الله عبد الجبار، الطبعة الأولى، ١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤م.

١٥٥. الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، دار الأوقاف الجديدة، بيروت.

١٥٦. الفرقان بين الحق والباطل، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ - ١٩٦٥م.

١٥٧. الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.

١٥٨. الفكر الأخلاقي، محمد عبد الله الشرقاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م، دار الجيل، بيروت، مكتبة الزهراء، جامعة القاهرة.

١٥٩. الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، الأستاذ / محمد المبارك، دار الفكر، بيروت.

١٦٠. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر- مشكلات الحكم والتوجيه، الدكتور محمد البهي، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٦١. الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار، الدكتور محمد البهي، الطبعة الثانية عشر، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، الناشر مكتبة وهبة.

١٦٢. الفكر الأوربي الحديث، تأليف فرانكلين – ل – باومر، ترجمة الدكتور أحمد حمدي محمود، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧- ١٩٨٩م.

١٦٣. الفكر البشري القديم، أنور الجندي، دار الاعتصام للطباعة والنشر.

١٦٤. الفكـــر العربـــي في عصر النهضة، البرت حوراني، الطبعة الثالثة، ١٧٩٨ – ١٩٣٩.

١٦٥. الفكـــر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية، تأليف الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل، ١٤١٩هـــ – ١٩٩٨م.

١٦٦. الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، الدكتور توفيق الطويل، الطبعة الأولى، الناشر منشاة المعارف، الإسكندرية.

١٦٧. الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، تأليف هنتر ميد، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

١٦٨. الفلســـفة الفرنســـية مـــن ديكـــارت إلى سارتر، جان فال، ترجمة الأب مارون خوري، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م، بيروت، لبنان.

١٦٩. الفلسفة القرآنية، عباد محمود العقاد، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، بيروت.

١٧٠. الفلســـفة الوجوديـــة، تأليف جان فال، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر.

١٧١. الفلسفة ومباحثها، الدكتور محمد علي أبو ريان، الطبعة الرابعة، دار المعارف، بيروت.

١٧٢. الفهرست لابن النديم، الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٧٣. القـــاموس المحـــيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، الطبعة الثانية، ١٣٧١هـــــ – ١٩٥٢م، شـــركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر.

١٧٤. القرآن الكريم في مواجهة الماديين الملحدين، الدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر، الطبعة الثانية، ط ١٤٠٢هـــ – ١٩٨٢م، دار القلم، الكويت.

١٧٥. القرآن في مواجهة المادية، الدكتور محمد البهي، ١٣٩٨هـــ – ١٩٧٨م، مكتبة وهبة، القاهرة.

١٧٦. القــرآن والعلم الحديث، بقلم عبد الرزاق نوفل، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، الناشر بيروت.

١٧٧. القصور العوالي، الشيخ أبي حامد بن محمد الغزالي، مكتبة الجندي.

١٧٨. الكــون والإعجــاز العلمي للقرآن، الدكتور منصور محمد حسب النبي، الطبعة الثانية، ١٩٩١م، دار الفكر العربي.

١٧٩. الكــون والإنســان فــي التصور الإسلامي، الدكتور حامد صادق قنيبي، مكتبة الفلاح.

١٨٠. اللمــع فــي الــرد على أهل الزيغ والبدع، أبي الحسن الأشعري، ط ١٩٥٢م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

١٨١. الله والكــون، الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الطبعة لثانية، ١٩٨٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٨٢. الله يــتجلى في عصر العلم، مجموعة من العلماء، الناشر مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٨٣. الماركسية، تأليف فردريك إنجلز، ترجمة ماهر نسيم، مكتبة الثقافة الشعبية.

١٨٤. المؤامرة على الإسلام، أنور الجندي، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الاعتصام.

١٨٥. المــثقفون العرب والغرب - عصر النهضة، هشام شرابي، ١٨٧٥- ١٩١٤م، دار النهار، بيروت.

١٨٦. المجتمع الإنساني، في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١٨٧. المجموعــة الكاملــة في الأدب الجاهلي، طه حسين، ط ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

١٨٨. المحيط بالتكليف، القاضي عبد لجبار، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر.

١٨٩. المخاطـــر التـــي تواجه الشباب المسلم وكيف نتوقاها؟ الدكتور مصطفى حلمي، دار الأنصار.

١٩٠. المذاهـــب الأخلاقـــية عرض ونقد، تأليف لدكتور عادل العوا، ط ١٣٧٨هـــ - ١٩٥٨م، مطبعة الجامعة، السورية، دمشق.

١٩١. المذاهب الأخلاقية في الإسلام، تأليف الدكتور عبد الحي محمد قابيل، ط ١٩٨٤ م، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٩٢. المذاهـــب المعاصـــرة وموقف لإسلام منها، الدكتور عبد الرحمن عميره، دار الجبيل بيروت.

١٩٣. المستقبل لهذا الدين، الشيخ سيد قطب.

١٩٤. المسيحية، الدكتور أحمد شلبي، الطبعة السادسة، ١٩٧٨م.

١٩٥. المشـــروعية الإسلامية العليا – المستشار علي جريشة، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الثانية.

١٩٦. المشـــكلة الأخلاقـــية، الدكتور زكريا إبراهيم، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، الناشر مكتبة مصر، دار مصر للطباعة.

١٩٧. المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، اندريه كرسون، ط ١٩٤٦م، ١٩٤٨م، مطبعة دار إحياء الكتب المصرية، القاهرة.

١٩٨. المشـــكلة الأخلاقية والفكر المعاصر، الدكتور باوردي، الطبعة الثانية، نقله إلى العربية الدكتور محمد غلاب، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية.

١٩٩. المعجـــم الفلســـفي الدكـــتور / جمـــيل صليبا، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، القاهرة.

٢٠٠. المعجـــم الفلســـفي، الدكـــتور عبد المنعم الحفني، ١٩٩٢م، دار زيدون للطباعة والنشر، بيروت.

٢٠١. المعجـــم الفلســـفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م، القاهرة.

٢٠٢. المعجـــم المفهرس، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١٤٠١هـــ - ١٩٨١م - دار الفكر، بيروت.

٢٠٣. المعجـــم الوســـيط، قـــام بإخراجه إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبدالقادر،محمد علي النجار، وأشرف على طبعه عبد السلام هارون.

٢٠٤. الملـــل والنحل، أبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، لطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـــ - ١٩٧٥م، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، محمد علي النجار، أشرف على طبعه عبد السلام هارون.

٢٠٥. الملـــل والنحل، تأليف أبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـــ - ١٩٧٥م، دار المعرفة، بيروت.

٢٠٦. المنقذ من الضلال، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، مكتبة الجندي.

٢٠٧. المـــنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، الدكتور محمد رشاد خليل، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـــ - ١٩٨٣م.

٢٠٨. المـــنهج الأســـمى فـــي شرح أسماء الله الحسنى، تأليف محمد بن حمد الحمود، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦مم، مكتبة المعلا، الكويت.

٢٠٩. المـــنهج الإيمانـــي للدراسات الكونية في القرآن الكريم، الدكتور عبد العليم عبد الرحمـــن خضـــر، الطـــبعة الثالثة، ١٤٠٧هـــ - ١٩٨٧م، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

٢١٠. المواقـــف في علم الكلام، تأليف عضد الملة والدين القاضي عبد الرحمن أحمد الإيجي، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، مكتبة سعد الدين، دمشق.

٢١١. المـــوت الســـعيد، (رواية)، البير كامو، ترجمة عايده مطرجي، منشورات دار الآداب، بيروت.

٢١٢. الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، ط ١٩٦٣م، مكتبة لأنجلو المصرية.

٢١٣. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض.

٢١٤. النبوات، تقي الدين أحمد بن تيمية، المطبعة السلفية ومكتبتها.

٢١٥. النزعة المادية في العالم الإسلامي، عادل التل، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار البينة للنشر والتوزيع.

٢١٦. النصرانية، الإمام محمد أبو زهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، دار الفكر.

٢١٧. النظام الأخلاقي في الإسلام، الدكتور محمد عقلة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، مكتبة الرسالة الحديثة.

٢١٨. النظرية المادية في المعرفة، روجيه غارودي، تعريب إبراهيم قريط، دار دمشق للطباعة والنشر.

٢١٩. النظرية الماركسية في ميزان الإسلام، الدكتور أمير عبد العزيز، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، مكتبة الأقصى، عمان.

٢٢٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، دار إحياء الكتب العربية.

٢٢١. النور الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، تأليف سليمان سامي محمود، جمعيات الرعاية الإسلامية مصر والصابوني للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٢٢. الوجه الآخر لطه حسين، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٢٢٣. الوجود الحق، الدكتور حسن هويدي، الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي.

٢٢٤. الوجودية، تأليف جون ماكوري، ترجمة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٢م.

٢٢٥. الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة، تأليف الدكتور محمد غلاب، ١٩٦٦، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

٢٣٩. تـــاريخ القـــرن الثامن عشر في أوربا، تأليف الدكتور ماتيو أندرسون، تعريب الدكتور نور الدين حاطوم، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـــ - ١٩٧٧م، دار الفكر.

٢٤٠. تاريخ المذاهب الإسلامية، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر.

٢٤١. تبييـــن كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م.

٢٤٢. تجلـــيات في أسماء الله الحسنى، الدكتور عبد المنعم الحفني، ط ١٩٩٦م، مكتبة مدبولي.

٢٤٣. تدويـــن الدســـتور الإسلامي، أبو الأعلى المودودي، ط ١٣٩٤ هـــ - ١٩٧٥م، مؤسسة الرسالة.

٢٤٤. ترتيـــب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة للأستاذ / الطاهر أحمد الزاوي، الطبعة الثانية.

٢٤٥. ترجـــيح أســـاليب القرآن على أساليب اليونان، أبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير، الطبعة الأولى، ط ١٤٠٤هـــ - ١٩٨٤م، بيروت، لبنان.

٢٤٦. تعـــريف شـــرح بوخذ على مذهب داروين، شبلي الشميل، ط ١٨٨٥م، مطبعة المقتطف، القاهرة.

٢٤٧. تفســـير أســـماء الله الحســـنى/ أبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـــ- ١٩٧٩م، دار المأمون للتراث.

٢٤٨. تفســـير ابن عاشور (التحرير والتنوير) تأليف الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية.

٢٤٩. تفســـير الشنقيطي (أضواء البيان تفسير القرآن بالقرآن)، تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

٢٥٠. تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)، محمد بن جرير الطبري، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، دار المعارف مصر.

٢٥١. تفسير القرآن العظيم، للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، طبع دار إحياء الكتب العربية.

٢٥٢. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٥٣. تهافت العلمانية، الدكتور عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة.

٢٥٤. تهافت العلمانية في الصحافة العربية، المستشار سالم علي البهنساوي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٩٢م، دار الوفاء للطباعة والنشر.

٢٥٥. تهذيب الموافقات، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.

٢٥٦. تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، أندريه كريسون، ترجمة نهاد رضا، ١٩٦٢، منشورات عويدات، بيروت، لبنان.

٢٥٧. تيارات فلسفية حديثة، الدكتور على عبد المعطي، ط ١٩٩٦م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

٢٥٨. تيارات مسموعة ونظريات هدامة معاصرة، أنور الجندي، مكتبة التراث الإسلامي.

٢٥٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط ١٣٧٤هـ، المطبعة السلفية.

٢٦٠. جذور العلمانية، السيد أحمد فرج، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٦١. حافة العلم، تأليف ريتشارد موريس، ترجمة الدكتور مصطفى إبراهيم فهمي، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

٢٦٢. حـــركات ومذاهب في ميزان الإسلام، فتحي يكن، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩ هـــ - ١٩٧٩م، مؤسسة الرسالة.

٢٦٣. حـــرية الإنسان في الفكر الإسلامي، الدكتور فاروق دسوقي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.

٢٦٤. حقـــائق الإســـلام وأباطـــيل خصومه، عباس محمود العقاد، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

٢٦٥. حقائق الوجود، دكتور فؤاد كامل، ط ١٣٨٦هـــ- ١٩٦٧م، المطبعة الجديدة.

٢٦٦. حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم، الدكتور أبو اليزيد العجمي، ط ١٤٠٤ هـــ - ١٩٨٣م.

٢٦٧. حقيقة اليهود، فؤاد بن سيد عبد الرحمن الرفاعي، ط ١٤٠٦هـــ.

٢٦٨. حوار في المعمار الكوني وقضايا إسلامية معاصرة، الدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـــ - ١٩٨٧م، دار الثقافة، الدوحة، دولة قطر.

٢٦٩. حـــوار مـــع الشيوعيين في أقبية السجون، عبد الحليم خفاجي، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـــ- ١٩٧٤م، دار القلم، الكويت.

٢٧٠. حـــول إعـــادة تشكيل العقل المسلم، الدكتور عماد خليل، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـــ.

٢٧١. حـــياة الحقائق، غوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر، مكتبة الإيمان، القاهرة.

٢٧٢. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الشيخ سيد قطب، دار الشروق.

٢٧٣. خلـــق المســـلم، الشـــيخ محمد الغزالي، الطبعة الثامنة، ١٣٩٤هـــ - ١٩٧٤م، مطبعة دار الكتب الحديثة.

٢٧٤. خـــوف ورعـــدة، تأليف سرن كيركجور، ترجمة فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

٢٧٥. دارون ونظـرية الـتطور، شمس الدين آق بلوت، ترجمة أورخان محمد علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

٢٧٦. درء تعـارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة لأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٢٧٧. دراسـات فـي الفلسفة الحديثة، الدكتور محمود حمدي زقزوق، الطبعة الأولى، ١٤٠١٥هـ - ١٩٨٥م، دار الطباعة، المحمدية، الأزهر.

٢٧٨. دراسـات فـي الفلسفة الحديثة والمعاصرة، الدكتور يحيى هويدي، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

٢٧٩. دراسات في النفس الإنسانية، الشيخ محمد قطب، الطبعة السابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٨٠. دراسـات في فلسفة الأخلاق، الدكتور محمد عبد الستار نصار، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار القلم، الكويت.

٢٨١. دراسـات ومذاهب، لدكتور محمد عزيز نظمي سالم، ١٩٨٨م، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٢٨٢. دفاتـر عـن الديالكتيك، لينين، ترجمة إلياس مرقص، ط ١٩٨٨م، دار الحقيقة، بيروت.

٢٨٣. دفـاع عـن الشـريعة، علال الفاسي، ط ١٩٦٦م، منشورات العصر الحديث، الرباط.

٢٨٤. دلائل التوحيد، محمد جمال الدين القاسمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤ م، لبنان، بيروت.

٢٨٥. رأس المـال نقـد الاقتصـاد السياسـي، كارل ماركس، ترجمة محمد عيتاني، منشورات مكتبة المعارف في بيروت.

٢٨٦. ردود علـى أطـروحات علمانـية، منير شفيق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، دار النشر الدولي، الرياض.

٢٩٩. شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، الطبعة السادسة، ط ١٤٠٠ هـ، بيروت، والطبعة الثامنة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

٣٠٠. شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تأليف الدكتور صالح بن فوزان الفوزان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، مكتبة المعارف الرياض.

٣٠١. شرح المقاصد، للإمام مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، عالم الكتب، بيروت.

٣٠٢. شرح صحيح البخاري (عمدة القارئ) للشيخ الإمام بد رالدين أبي محمد بن أحمد العيني، ط ١٩٩٧م، الناشر مكتبة الرشد.

٣٠٣. شفاء العليل، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٠٤. صحيح الأدب المفرد، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تأليف فضل الله الجيلاني، ط ١٣٧٨هـ ، المطبعة السلفية، القاهرة.

٣٠٥. صحيح البخاري للإمام أي عبد الله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم البخاري، إدارة الطبع المنيرية بمصر.

٣٠٦. صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٣٠٧. صراع مع الملاحدة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، دار القلم، دمشق بيروت.

٣٠٨. صون المنطق، لجلال الدين السيوطي، ويليه مختصر السيوطي، لكتاب نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان، لتقي الدين بن تيمية، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة.

٣٠٩. طبقات الأطباء والحكماء، لأبي داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل، تحقيق فؤاد سيد، ط ١٩٥٥م، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.

٣١٠. طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب عبد الكافي السبكي، الطبعة الأولى، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣١١. طبقية المجتمع الأوروبي، الدكتور محمد البهي، دار الفكر.

٣١٢. طريق الإيمان،للشيخ عبد المجيد الزنداني، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.

٣١٣. عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي، أبو الحسن الأشعري، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٣١٤. عالم الجن والشياطين، الدكتور عمر الأشقر، دار الكتب السلفية، القاهرة.

٣١٥. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، للإمام زكريا بن محمد القزويني، الطبعة الثالثة، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

٣١٦. عقائد المفكرين في القرن العشرين، عباس محمود العقاد، الناشر، دار الكتاب العربي.

٣١٧. علم الأخلاق النظرية، محمد طاهر الخاقاني، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، منشورات مكتبة الهلال، بيروت.

٣١٨. علم الاجتماع والفلسفة، الدكتور قباري محمد إسماعيل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

٣١٩. على الفكر الإسلامي أن يتحرر من سارتر وفرويد ودور كايم، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٣٢٠. عمدة التفسير، الحافظ ابن كثير، اختيار وتحقيق أحمد شاكر، ط ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، دار المعارف بمصر.

٣٢١. عناصر القوة في الإسلام، سيد سابق.

٣٢٢. فصل الدين عن الدولة، إسماعيل الكيلاني، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م، بيروت.

٣٢٣. فكرة االقومية العربية على ضوء الإسلام، صالح عبد الله العبود، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، دار طيبة، الرياض، مكتبة ابن تيمية (موزع) المحرق، البحرين.

٣٢٤. فلسفة أوجست كونت، ليفي بريل، ترجمة الدكتور محمود قاسم، الدكتور السيد محمد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية.

٣٢٥. فلسفة الأخلاق في الإسلام، الدكتور محمد يوسف موسى، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣ م، الناشر مؤسسة الخانجي بالقاهرة،

٣٢٦. فلسفة التكوين، محمد إبراهيم محمد الصبحي، المطبعة المصرية، الإسكندرية.

٣٢٧. فلسفة ابن رشد الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٣٢٨. فلسفة جان بول سارتر، الدكتور حبيب الشاروني، منشأة المعارف بالإسكندرية.

٣٢٩. فلسفتنا، محمد باقر الصدر، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار المعارف للمطبوعات، بيروت.

٣٣٠. فلسفة القرن العشرين، نشرها داجوبرت - د. رونز، ترجمة عثمان نويه، ط ١٩٦٣م، الناشر مؤسسة سجل العرب.

٣٣١. في الفكر الحديث والمعاصر، الأستاذ الدكتور علي عبد المعطي محمد، ط ١٩٩٢م، دار المعرفة، الإسكندرية.

٣٣٢. في الفكر العربي المعاصر، الدكتور حسن حنفي، الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٣٣. في الفلسفة الحديثة، تأليف جيمس كولينز، ترجمة فؤاد كامل، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٣٤. في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، الدكتور محمد فتحي الشنقيطي، مكتبة القاهرة الحديثة.

٣٣٥. فيصل التفرقة، أبي حامد الغزالي، مكتبة الجندي.

٣٣٦. قـــادة الغـــرب يقولـــون : دمـــروا الإســـلام وأبيدوا أهله، جلال عالم، المختار الإسلامي، القاهرة.

٣٣٧. قـــراءات من كتاب أحمد، الدكتور عبد العظيم المطعني، ١٣٩٨هـــ - ١٩٧٨م، دار الأنصار.

٣٣٨. قصـــة الإيمـــان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩ هـــ- ١٩٦٩م.

٣٣٩. قصـــة الحضـــارة، ول ديورانت، ترجمة الدكتور زكي نجيب محفوظ، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة.

٣٤٠. قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود، ١٦٦٩م.

٣٤١. قصـــة النزاع بين الدين والفلسفة، الدكتور توفيق الطويل، الطبعة الثالثة، الناشر مكتبة مصر للطباعة.

٣٤٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، سوريا، بيروت.

٣٤٣. كبرى اليقينيات، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الثامنة، ١٩٨٢م، دار الفكر.

٣٤٤. كـــتاب الأســـماء والصـــفات، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـــ - ١٩٨٥م، الناشر الكتاب العربي.

٣٤٥. كتاب التوحيد، للإمام الحافظ بن أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة، الطبعة الأولى، الجامعة الإسلامية، مركز شؤون الدعوة، المدينة المنورة.

٣٤٦. كـــتاب السنة، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني، مقدمة بقلم ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـــ - ١٩٨٠م، دمشق، بيروت.

٣٤٧. كـــتاب توحيد الخالق، الشيخ عبد المجيد الزنداني، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـــ - ١٩٨٩م، دار الشروق.

٣٤٨. كلمات في مبادئ علم الأخلاق، محمد عبد الله دراز، المطبعة العالمية، ط ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

٣٤٩. كيف ندعو إلى الإسلام، فتحي يكن، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، مؤسسة الرسالة.

٣٥٠. لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، الشيخ محمد قطب، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣٥١. لسان العرب المحيط، للعلامة ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، لبنان.

٣٥٢. لعنة هذا الزمن، محمد علي مغربي، منشورات مؤسسة قنديل التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، بيروت.

٣٥٣. للكون إله، عبد العزيز كامل الشهابي، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الاعتصام.

٣٥٤. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟، الأمير شكيب أرسلان، البشير للطباعة والنشر، القاهرة.

٣٥٥. لماذا يلحدون؟، سيد الجميلي، دار الكتاب العربي،، بيروت، ط ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٣٥٦. لمعة الاعتقاد، للإمام الموفق ابن قدامة المقدسي، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٥٧. لوامع الأنوار البهية، محمد بن أحمد السفاريني، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر.

٣٥٨. ما أصل الإنسان، تأليف موريس بوكاي، ترجمه إلى العربية ونشره مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٣٥٩. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، دار القلم، بيروت.

٣٦٠. ماركسية القرن العشرين، روجيه، غارودي، تعريب، نزيه الحكيم، منشورات دار الآداب، بيروت.

٣٦١. ما هو الإسلام، محمد مظهر الدين صديقي، ترجمة حلمي عرفة، ط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، المختار الإسلامي، للطباعة والنشر، القاهرة.

٣٦٢. مباحث في علم الكلام، تأليف الدكتور علي الشابي، الطبعة الأولى، دار بو سلامه للطباعة والنشر، تونس.

٣٦٣. مبادئ الإسلام، أبي الأعلى المودودي، الطبعة الثالثة، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٣٦٤. مجالات انتشار العلمانية وأثرها في المجتمع الإسلامي، تأليف الدكتور محمد زين الهادي.

٣٦٥. مجلة المجتمع، العدد ١٤٣٣، ١٤٢١هـ.

٣٦٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٣٦٧. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وإعداد وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ، تأليف الدكتور علي معبد فرغلي، ط ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٦٨. محاضرات في الأخلاق الإسلامية والإنسانية، تأليف الدكتور علي معبد فرغلي، ط ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٦٩. محاضرات في النصرانية، الإمام محمد أبو زهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، دار الفكر العربي.

٣٧٠. محاضرات في فلسفة الأخلاق ونظرياتها، الدكتور محمد جلال شرف، ط ١٩٨٣م، مكتب كردية أخوان، بيروت.

٣٧١. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، مكتبة الأزهرية، الأزهر.

٣٧٢. مختار الصحاح، للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط ١١١٩، الناشر دار المعارف بمصر، القاهرة.

٣٧٣. مختصر دستور الأخلاق في القرآن، الدكتور محمد عبد الله دراز الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، دار الدعوة للطبع والنشر.

٣٧٤. مدارج السالكين، للإمام أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

٣٧٥. مدارج العبودية من هدي خير البرية، لأبي أسامة سليم بن عيد الهلالي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٧٦. مدخل إلى المادية الجدلية، موريس كورنفورث، تعريب محمد مستجير مصطفى، الطبعة الرابعة، ١٩٧٧م، الناشر صلاح الدين.

٣٧٧. مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، الدكتور محمد رشوان، الناشر دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة.

٣٧٨. مدخل إلى علم السياسة، تأليف هارولد. ج. - لاسكي، ترجمة عز الدين محمد حسين، ط ١٩٦٥، القاهرة.

٣٧٩. مدخل جديد إلى الفلسفة، تأليف عبد الرحمن بدوي، الطبعة الأولى ١٩٧٨م، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت.

٣٨٠. مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء أحمد ديدات، ترجمة علي الجوهري، دار الاعتصام بالقاهرة.

٣٨١. مسند الشهاب، تأليف القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامه القضاعي، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٣٨٢. مسند عبد بن حميد (المنتخب) للإمام الحافظ أبي محمد عيد بن حميد، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية.

٣٨٣. مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر.

٣٨٤. مشكلة الفلسفة، الدكتور زكريا إبراهيم، مكتبة مصر.

٣٨٥. معالم الثقافة الإسلامية، عبد الكريم عثمان، الطبعة الثالثة، ط ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة.

٣٨٦. معالم تاريخ الإنسانية، هـ - ج، ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢م.

٣٨٧. معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق.

٣٨٨. معجم البستان، تأليف الشيخ / عبد الله البستاني اللبناني، ط ١٩٣٠م، المطبعة الأمريكانية.

٣٨٩. معجم الكافي، محمد خليل الباشا، ط ١٩٩٤م.

٣٩٠. معجم المصطلحات الدينية، الدكتور خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م، دار الفكر اللبناني، بيروت.

٣٩١. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ، القاهرة.

٣٩٢. معركة التقاليد، الشيخ محمد قطب، ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، دار الشروق، بيروت، القاهرة.

٣٩٣. معلمة الإسلام، أنور الجندي، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، المكتب الإسلامي.

٣٩٤. مفتاح دار السعادة، للإمام ابن قيم الجوزية، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، دار الكتب، بيروت.

٣٩٥. مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني، دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت.

٣٩٦. مقاصد الشريعة الإسلامية، تأليف الإمام محمد الطاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع.

٣٩٧. مقدمة في علم الاستغراب، الدكتور حسن حنفي، ط ١٤١١هـ - ١٩٩١م، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة.

٣٩٨. مقومـــات التصـــور الإســـلامي، الشيخ سيد قطب، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـــ - ١٩٨٨م، دار الشروق، القاهرة، بيروت.

٣٩٩. مـــن الذرة إلى المجرة، نظرات في الكون والإنسان والحياة، دراسات فلكية من وحي القرآن الكريم، حمادة أحمد العائدي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـــ - ١٩٩٤م، دار الفكر.

٤٠٠. مناهج الجدل في القرآن الكريم، الدكتور زاهر عواض الألمعي، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـــ.

٤٠١. مـــن حكم الشريعة وأسرارها، تأليف الشيخ حامد محمد العبادي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـــ.

٤٠٢. مـــنهاج الإسلام في الحكم، محمد أسد، نقله إلى العربية منصور محمد ماضي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م، دار العلم للملايين، بيروت.

٤٠٣. مـــنهاج الســـنة النـــبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، للشيخ ابن تيمية، مكتبة خياط، بيروت.

٤٠٤. منهج التفكير الإسلامي، المستشار الدكتور علي جريشة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـــ - ١٩٨٦م، مكتبة وهبة، مصر.

٤٠٥. مـــنهج الحضـــارة الإنسانية في القرآن، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـــ ١٩٨٢م، دار الفكر، دمشق.

٤٠٦. مـــنهج ودراســـات لآيات الأسماء والصفات، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ط ١٣٨٥هـــ.

٤٠٧. موســـوعة العلوم الفلسفية، هيجل، ترجمة الدكتور إمام عبد الفتاح، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة.

٤٠٨. موســـوعة المورد العربية، تأليف منير البعلبكي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، دار الملايين، بيروت.

٤٠٩. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم الدكتور رفيق العجم، الترجمة جورج نيناتي، مكتبة لبنان ناشرون.

٤١٠. موسوعة لا لاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٤١١. موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الدكتور عبد الرحمن بن صالح محمد المحمود، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، مكتبة الرشد، الرياض.

٤١٢. موقف الإسلام من العلم والفلسفة الغربية، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٤١٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤١٤. نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، ط ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

٤١٥. نحو بناء منهج البدائل الإسلامية، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٤١٦. نحو مجتمع إسلامي، الشيخ سيد قطب، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠ - ١٩٨٠م، دار الشروق.

٤١٧. نشأة الفلسفة العلمية، هانز ريشنباخ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، ط ١٩٨٦م، دار الكتاب العربي.

٤١٨. نظام الإسلام العقيدة والعبادة، محمد المبارك، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، دار الفكر.

٤١٩. نظام الحياة في الإسلام، أبو الأعلى المودودي، الطبعة الرابعة، ١٣٨٥هـ - ١٩٩٥م، دار الفكر.

٤٢٠. نظرات استشراقية في الإسلام، تأليف الدكتور / محمد غلاب، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

٤٢١. نظرة الإسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة، محمد المبارك، ط ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م (دون ناشر).

٤٢٢. نظريات وافدة كشف الفكر الإسلامي زيفها، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٤٢٣. نظـــرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، أبو الأعلى المودودي، ١٣٨٩هـــ - ١٩٦٩م، دار الفكر.

٤٢٤. نظرية التطور عند مفكري الإسلام، الدكتور محفوظ علي عزام، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـــ - ١٩٨٥م، مطبعة النهضة، الرياض.

٤٢٥. نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، الدكتور راجح عبد الحميد الكردي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـــ - ١٩٩٢م، مكتبة المؤيد.

٤٢٦. نظـــرية جـــذور الأخلاق، سليم الحبابي، دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق، بيروت.

٤٢٧. نقـــد الاقتصـــاد السياسي، تأليف كارل ماركس، ترجمة الدكتور راشد البراوي، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م، الناشر دار النهضة العربية.

٤٢٨. نقـــد المذاهـــب المعاصـــرة، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

٤٢٩. نقض الاشتراكية الماركسية، غانم عبده، ط ١٣٨٣هـــ - ١٩٦٣م، دار الإيمان، بيروت.

٤٣٠. نقض أوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية)، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر.

٤٣١. نهايـــة الإقـــدام في علم الكلام، أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، مكتبة المثنى، بغداد.

٤٣٢. هـــذا الدين، الشيخ سيد قطب، ط ١٣٩٨هت - ١٩٧٨م، دار الشروق، بيروت، القاهرة.

٤٣٣. هـــذه هـــي الوجودية، تأليف بول فولكييه، ترجمة محمد عيتاني، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـــ - ١٩٨٣م، دار بيروت للطباعة والنشر.

٤٣٤. هكـــذا علمتني الحياة، الدكتور مصطفى السباعي، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـــ - ١٩٧٨م، المكتب الإسلامي، دمشق.

٤٣٥. هـل غـير الدكـتور طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٤٣٦. هل نحن مسلمون، الشيخ محمد قطب، ط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الشروق، بيروت، القاهرة.

٤٣٧. هندسـة الـنظام الكوني في القرآن الكريم، د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م، جدة، المملكة العربية السعودية.

٤٣٨. هـيدجر، بقلـم مارجوري جرين، ترجمة عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٤٣٩. وجود الله، الدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة،.

٤٤٠. وحدة الفكر الإسلامي، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٤٤١. وفيات الأعيان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

٤٤٢. وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي، ط ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م، مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٤٤٣. يهود الدونمة، ترجمة بالعربية كمال خوجة، ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة.

خامساً . . . فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١.	**الباب الأول : غاية الكون في الإسلام.**	٤
٢.	**تمهيد.**	٥
٣.	**الفصل الأول : إثبات أن الكون مخلوق لله –سبحانه وتعالى–.**	٦
٤.	**تمهيد.**	٧
٥.	**المبحث الأول : الأدلة النقلية.**	٢٤
٦.	**أولاً** : دلالة الفطرة.	٢٤
٧.	**ثانياً** : دلالة الخلق والإبداع.	٣٠
٨.	**ثالثاً** : دلالة التسوية والإتقان.	٤٣
٩.	**رابعاً** : دلالة التقدير والهداية.	٤٩
١٠.	**خامساً** : دلالة التسخير والتدبير.	٥٦
١١.	**المبحث الثاني : الأدلة العقلية في إثبات خلق الله للكون.**	٦٢
١٢.	**تمهيد.**	٦٢
١٣.	**المطلـــب الأول** : الأدلة العقلية في إثبات خلق الله – تعالى – للكون عند المعتزلة.	٦٤
١٤.	**المطلب الثاني** : الأدلة العقلية في إثبات خلق الله – تعالى – للكون عند الأشاعرة.	٧٩
١٥.	**المطلب الثالث** : الأدلة العقلية في إثبات خلق الله – تعالى – للكون عند ابن رشد.	٩٨
١٦.	**الفصل الثاني : الغاية من خلق الإنس والجن.**	١١٠
١٧.	**تمهيد.**	١١١
١٨.	**المبحث الأول : عبودية الإنس والجن لله –تعالى–.**	١١٤

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١٩.	**المطلب الأول** : تعريف العبودية	١١٤
٢٠.	**المطلـــب الثانـــي** : عـــبادة الله أول دعوة الرسل عليهم السلام.....	١١٦
٢١.	**المطلب الثالث** : خصائص العبادة.....	١١٩
٢٢.	**المطلب الرابع** : من مقاصد العبادة.....	١٢٦
٢٣.	**المطلب الخامس** : شمول العبادة.....	١٣٣
٢٤.	**المبحث الثاني : غايات أخر**.....	١٤٠
٢٥.	**الفصل الثالث : الغاية من خلق بقية المخلوقات**.....	١٥٣
٢٦.	**تمهيد**.....	١٥٤
٢٧.	**المبحـــث الأول : عـــبودية المخلوقات لله – تعالى – أو عبادة المخلوقات لله –تعالى–**.....	١٥٥
٢٨.	**المبحث الثاني : غايات أخر**.....	١٦٦
٢٩.	**الباب الثاني : الماديون وأنواعهم**.....	١٨٦
٣٠.	**تمهيد (١)**.....	٨٧
٣١.	**تمهيد (٢) أهم العوامل التي أدت إلى ظهور وانتشار الفكر المادي في العالم الغربي**.....	١٩٣
٣٢.	**الفصل الأول : العلمانيون**.....	٢١٥
٣٣.	**المبحـــث الأول : ظهور الفكر العلماني في العالم الغربي وتطوره**.....	٢١٨
٣٤.	**المبحـــث الثاني : الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انتقال الفكر العلماني إلى العالم الإسلامي**.....	٢٢٦
٣٥.	**المطلـــب الأول** : تخلـــف المجـــتمع الإســـلامي وإصابته بالضعف والهزيمة النفسية.....	٢٢٨

م	الموضـــــــوع	الصفحة
٣٦.	**المطلب الثاني** : الاستعمار العسكري.	٢٣١
٣٧.	**المطلب الثالث** : سقوط الخلافة.	٢٣٦
٣٨.	**المطلب الرابع** : الغزو الفكري.	٢٣٧
٣٩.	**المطلـــب الخامس** : حملة الفكر الغربي من أبناء المسلمين.	٢٤٤
٤٠.	**المبحـــث الثالـــث** : ظهـــور الفكـــر العلماني في العالم الإسلامي.	٢٤٥
٤١.	**الفصل الثاني : الشيوعيون.**	٢٦٠
٤٢.	**المبحث الأول : نشأة المذهب الشيوعي.**	٢٦٢
٤٣.	**المبحث الثاني : مصادر الفكر الشيوعي أو جذور الفكر الشيوعي.**	٢٦٥
٤٤.	**المبحث الثالث : المادية الجدلية (الديالكتيك) الماركسية.**	٢٧٠
٤٥.	**المطلب الأول** : المادة سابقة الوجود على الفكر..	٢٧٣
٤٦.	**المطلب الثاني** : أزلية المادة وأبديتها.	٢٧٦
٤٧.	**المطلب الثالث** : قوانين المادة.	٢٨٢
٤٨.	**الفصل الثالث : أصناف أخرى.**	٢٩٦
٤٩.	**تمهيد.**	٢٩٧
٥٠.	**المبحث الأول : الوجوديون.**	٢٩٨
٥١.	**المطلب الأول** : المعرفة.	٣٠٠
٥٢.	**المطلب الثاني** : القلق.	٣٠٢
٥٣.	**المطلب الثالث** : الوجود والماهية.	٣٠٤
٥٤.	**المطلب الرابع** : الحرية.	٣١٠
٥٥.	**المبحث الثاني : الطبيعيون.**	٣٢٠

م	الموضـــــــوع	الصفحة
٥٦.	المبحث الثالث : الوضعيون.	٣٢٦
٥٧.	**الباب الثالث : غاية الكون عند الماديين.**	٣٣٣
٥٨.	**تمهيد.**	٣٣٤
٥٩.	**الفصل الأول : قضية الخلق والخالق.**	٣٣٦
٦٠.	**الفصل الثاني : الأخلاق والقيم الإسلامية.**	٣٤٤
٦١.	**الباب الرابع : الرد على الماديين.**	٣٥٦
٦٢.	**تمهيد.**	٣٥٧
٦٣.	**الفصل الأول : الرد عليهم في قضية الخلق والخالق.**	٣٥٨
٦٤.	**الفصل الثاني : إثبات علم الله – تعالى – وحكمته.**	٣٧٠
٦٥.	المبحث الأول : علم الله – تعالى-.	٣٧٢
٦٦.	المبحث الثاني : حكمة الله – تعالى-.	٣٧٦
٦٧.	**الفصل الثالث : الرد عليهم في قضية الأخلاق والقيم الإسلامية.**	٣٨٩
٦٨.	**الخاتمة.**	٤٠٦
٦٩.	**الفهارس.**	٤١١
٧٠.	أولاً : فهرس الآيات القرآنية.	٤١٢
٧١.	ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية.	٤٣٢
٧٢.	ثالثاً : فهرس الأعلام.	٤٣٣
٧٣.	رابعاً : قائمة المصادر والمراجع.	٤٣٥
٧٤.	خامساً : فهرس الموضوعات.	٤٧١